الهيئة العامة السورية للكتاب

حياة باي

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

الهيئة العامة السورية للكتاب

حياة باي

تأليف: يان مارتل

ترجمة: جهاد حسن الباروكي

مراجعة: د. أماني العيد

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Life of Pi

الكاتب: **Yann Martel**

الناشر : **Canongate Books, 2008**

المترجم: جهاد حسن الباروكي

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

الهيئة العامة السورية للكتاب

الإهداء...

إلى والديّ وأخي

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

المقاطع

عبثية، مروّعة، حزينة وغيرُ موثوقة، الرحلة برمتها وصوت الراوي الفضولي بجنون يوحي بهلوسة جوزيف كونراد وسلمان رشدي معاً حول المعنى في الشيخ والبحر ورحلات جوليفر.

(فاينشال تايم)

حياة باي هي قصة مغامرة رائعة، من النّوع الذي نادراً ما يدخل في قائمة مختارة في وقت واحد. سيكون ذلك كافياً تماماً لتبرير وجودها، ولكنّها أيضاً غنيّةٌ بالميتافيزيقيا، إذ كُتبت بأسلوبٍ جميلٍ مُؤثّرٍ ومسلٍّ.

(سكوتلاند الأحد)

هذا النوع من السّرد مُقنع للغاية، ومارتل جاهزٌ دائماً للالتفاتِ على القارئ بأسلوبٍ واضحٍ وممتعٍ، وفيه ذوقٌ جميلٌ.

(صحيفة الإنديباندنت)

- لدينا هنا كاتبٌ ذو موهبةٍ رائعة كحكايته التي يجب أن يرويها للقارئ مع بطله باي.

(سبكيتار)

- إنّها روايةٌ كُتبت بأسلوبٍ جميلٍ للتّأمُّل بالله والإنسان والوحش؛ إنّها جوهرةٌ نادرةٌ، كتابٌ ترغبُ مباشرةً بإعادة قراءته.

(القائمة).

لدى مارتل قدرٌ كافٍ من المرح الفكري مع حكايته الخيالية هذه... فهي تعرض وتوضّحُ إمكانيّاتِ سرد القصص التي عدّت بالنّسبة لهذا الكاتب نوعاً من العمل المتطرّف، رفيع المستوى.

(صحيفة الأوبزيرفر).

- إنّها تَلاقٍ للصّور والمشاهدات في جاذبيّتها ونفاذ بصيرتها.

قصةٌ تجعلك تؤمنُ بقوّة الروح الملهمة للكتابة، ولمبدعيها من البشر، وكذلك في القوّة الكامنة لكتاب القصص مثل مارتل.

(مؤسسة لوس آنجلوس لمراجعة الكتب الحديثة).

- هذه الروايةُ المحبّبةُ جداً ملأى بالدهشة.

(صحيفة الغارديان).

- إنّ يان مارتل روائيٌّ مدهشٌ ومفعَمٌ بالحيويّة.

(صنداي تلغراف).

- مدهشٌ مَرِحٌ، خرافيّ عبر مخيّلةٍ تبعثُ النّشوةَ والجاذبيّةَ واليأسَ والمرونة.

(صحيفة إنديباندات – الأحد)

تُعتبر هذه الروايةُ إنجازٌ مؤثّر، فمارتن ينشرُ الصوتَ الذّكيَّ ومهاراتِ فنّ القصّة العظيمة بهذا الإسناد البارز.

- روايةٌ مؤثّرةٌ جداً لتجعلك - كما قال الرجلُ العجوز - تؤمنُ بالله، فقد طرقَ مارتن فكرةً عظيمةً وأظهرَها بإتقان.

(سكوتسمان).

- حياة (باي) مغامرةٌ حقيقيّةٌ مثيرة مسلّيةٌ وموجعةٌ على نحوٍ جذّاب، فمن الصعب أنْ تُوقفَ القراءةَ عندما تقلّب صفحاتها.

(سان فرانسيسكو كرونيكل).

إنّ روايةَ مارتل المسليّة والحكيمة، والتي تشبه إلى حدّ ما رواية (بنشر مارتن) للكاتب ويليام كولدينغ، تحمل في طياتها استساغة غريبة تثير رغباتنا الملحة للقصص الخارقة للطّبيعة، التي يمكن أن تكون قصصاً حقيقيّةً.

(صحيفة مترو).

يمكن لرواية (حياة باي) أن تكون كتاب السّنة.

(ماذا هناك في لندن).

- دفاعٌ عاطفيّ عن حدائق الحيوانات، ومغامرة لتحدي الموت في مركب عبر المحيط الهادئ، وكذلك قصة كلب تشاغي صاحب هذه الرواية الجريئة، تسعى لأن تكونَ كلَّ ذلك.

(نيوبوركر).

- إنّ القُرّاءَ المُطلعين على مارغريت أتوود، ومافيس غالانت راتجي وكارول شيلدر وأليس مونرو ومايكل أون راتجي، عليهم أن يتعلّموا إفساحَ مكانٍ على خريطة الأدب الكنديّ المعاصر للمبدع الرّهيب يان مارتل.

(شيكاغو تريبيون).

- إنّ مارتل يُظهر القوّةَ الخارقةَ للمخيّلة ليحوّلَ رؤيتَنا إلى اهتزازِ لذيل نمر.

(الهند اليوم)

الهيئة العامة
السورية للكتاب

(الهند اليوم)

- يان مارتل.

- حياة باي.

- رواية.

- أدينبيرغ لندن نيويورك ملبورن.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

مقدّمة الكاتب

وُلد هذا الكتابُ عندما كنتُ جائعاً، دعوني أوضّحُ هذا الأمرَ: ظهرتْ روايتي الثانية في ربيع ١٩٩٦ في كندا، لم تشتهرْ بشكلٍ جيّدٍ؛ إذ كان المراجعون في حيرةٍ من أمرِهم، بل حكموا عليها بالقليل من المديح، لذلك فقد تجاهلَها القرّاءُ. لم تشكّلْ في سيركِ الأعلامِ أيَّ فرقٍ، بالرّغم من أنّني بذلتُ أفضلَ ما لديّ من جهدٍ لألعبَ دورَ المهرّج أو البهلوان، ولم يتحرّكِ الكتاب...

اصطفّتِ الكتبُ على رفوفِ المكتباتِ مثلَ الأطفالِ الذين يقفون في أرتالٍ للعبِ البيسبول أو كرةِ القدم، أمّا طِفلي أنا، فقد كان طفلَ العصابة غيرَ الرياضي الذي لا يريدُه أحدٌ من فريقه، لقد اختفى بسرعةٍ وهدوء. ولكن هذا الإخفاق لم يؤثّرْ بي كثيراً، فقد انتقلتُ إلى قصّةٍ أخرى، روايةً حدثتْ في البرتغالِ عام ١٩٣٩، وكنت أشعرُ بالقلق فقط لأنّي لم أكنْ أملكُ إلّا القليلَ من المال. لذلك طرْتُ عائداً إلى بومباي. لم يكن هذا منطقيّاً كثيراً، إذ أدركتُ ثلاثةَ أشياء، أوّلُها أنّ العملَ في الهند سيَهزمُ القلقَ في أيّ كائن.

وثانيها أنّ القليلَ من المال يكفي عاماً هناك.

وثالثها أنّ روايةً تُكتب في البرتغال عام ١٩٣٩، قد تفيدُ قليلاً في البرتغال.

في ذلك العام، سبق لي أن زرتُ شمالَ الهند من قبلُ، ولمدّة خمسة شهور. في رحلتي الأولى تلك، وصلتُ إلى شبه القارّة الهنديّة دون أيّ جهوزيّة، في الواقع لقد قمتُ بالتّجهيز لكلمةٍ واحدةٍ، فعندما أخبرتُ صديقي - الذي

كان يعرف البلدَ جيّداً - عن خطط رحلتي، قال بلا مبالاة: إنّهم يتحدّثون إنكليزيّةً مضحكة في الهند، ويحبّون كلماتٍ مثل(يخدع). تذكّرتُ كلماته عندما بدأتِ الطائرة تهبطُ في دلهي، لذلك فإنّ كلمةَ يخدعُ كانتِ الشّيءَ الوحيدَ الحاضرَ في ذهني، الشيءَ الجاهزَ للجنون الفنّي الصاخب والعمليّ للهند.

كنتُ أستخدمُ تلك الكلمةَ بالمناسبات، وفي الحقيقةِ فقد خدمتني كثيراً.

قلتُ للموظّف في محطّة القطار: لا أعتقدُ أنّ الأجرةَ ستكونُ باهظةً جدّاً، إنّك لا تحاولُ أن (بامبوزل) أليس كذلك؟

ابتسمَ وقالَ بترنيمة: لا يا سيدي، لا يوجدُ هنا... لقد حدّدْتُ لك الأجرةَ الحقيقيّة المناسبة.

في زيارتي الثّانية للهند، علمْتُ جيّداً ما الذي أتوقّعُه، وعرفْتُ ماذا أريد، سأقيمُ في محطّةٍ على الهضبة، وأكتبُ روايتي.

رأيْتُ نفسي أجلسُ إلى طاولةٍ على فيراندا كبيرة، وانتشرتْ ملاحظاتي أمامي إلى جانب كوب شاي حارّ، كانتِ التّلالُ تقبعُ تحت قدميّ، التلالُ الخضراءُ المثقلةُ بالضباب، ويملأُ أذنيّ صراخُ القردة الصّاخب.

فالطّقسُ جميلٌ وملائمٌ جدّاً، وكلُّ ما أحتاج إليه في الصباحات والأمسيات سترةً خفيفةً، شيئاً ذي أكمامٍ قصيرةٍ لمنتصفِ النّهار. ولذلك بدأتُ والقلمُ بيدي من أجل حقيقةٍ أكبر، سأحوّلُ البرتغالَ إلى روايةٍ، هذا ما تكونُ عليه الرواياتُ.

أَوليستْ هي الاختيارُ المُنتقى في نقل الحقيقة؟ ووسيلةٌ لاستخراجِ جوهرِها؟ ما الحاجةُ التي امتلكتُها فدفعتني للذهاب إلى البرتغال؟

في هذا المكان - الذي كانت تديرُه سيدةٌ - سمعتُ كثيراً من قصصِ الصّراعِ لركلِ الإنكليز خارجاً، وكنّا دائماً نتّفقُ على ما سنتناولُه على الغداء، وعلى موعدِ اللّقاء في اليوم التّالي، وبعد الانتهاء من الكتابة أذهبُ بنزهةٍ على قدميّ إلى التّلال المغلّفة بمزارعِ الشّاي.

لسوء الحظّ فإنّ الروايةَ لفظتْ أنفاسَها... سعلَتْ... وماتَتْ.

صادفت في ماتيرنا - وهو مكانٌ ليس ببعيدٍ عن بومباي - تلةٌ صغيرةٌ فيها بضعةُ قرود، ولكن ليسَ فيها مزارع شاي.

مأساةٌ غريبةٌ تواجهُ من يريدُ أن يكونَ كاتباً، إنّ موضوعَك جيدٌ وكذلك جملَك، شخوصُك ملوّنةٌ بالحياة، وما يحتاجون إليه بالضّبط هو شهادةُ ميلاد.

إنّ الحبكةَ التي رسمتُها لهم حبكةٌ عظيمةٌ وبسيطةٌ وجذّابةٌ، لقد قمْتَ بأبحاثك وتجميعِ الحقائقِ التّاريخيّة والاجتماعيّة والمناخيّة والطّريقة المناسبة لهذه الطبخة (فن هذه الطبخة)، الحوارُ ينسابُ برشاقةٍ، ويضجّ بالتوتّر، والوصفُ يحكي التفاصيلَ وينفجرُ بالألوان والمتناقضات. بالحقيقة قصتُك لا يمكن أن تكون إلّا قصةً عظيمةً، ولكنّها جميعها لا تؤدّي إلى شيء.

وبالرغم من الوعدِ البرّاق والواضح، فإنّ هناك لحظةً تأتيك وتنبّهك بأنَّ الهمساتِ التي لا تزالُ تُقلقكَ من وراء عقلك لتحكيَ الحقيقةَ البغيضةَ والصّريحةَ ليست ذات فائدة.

هناك مادّةٌ مفقودةٌ، إنّها الومضةَ التي تعيدُ القصّةَ الحقيقيّةَ إلى الحياة بغضّ النّظر إذا كان التاريخُ صحيحاً.

إنّ قصتك ميتةٌ عاطفياً، المقصودُ ما في جوهرها.

أقولُ لك: إنّ الاكتشافَ شيءٌ مدمّرٌ للرّوح، وإنّه يتركُك مع جوعٍ مؤلم. أرسلتُ بالبريد من «ما ثيرينا» الملاحظاتِ عن روايتي الفاشلة، أرسلتُها إلى عنوانٍ زائفٍ في سيبيريا مع عنوانٍ زائفٍ في بوليفيا لإعادتها.

جلستُ كئيباً مثبطاً بعد أن أعادَ الموظّفُ الطابعَ على المغلّف، ورماهُ في سلّة الفرز. سألت نفسي: ماذا الآن يا تولستوي؟ ما الأفكارُ البرّاقةُ الأخرى التي تملكُها لحياتك؟

حسناً، لا يزالُ لديّ القليلَ من النّقود، ولازلتُ أشعرُ بالقلق، نهضتُ وخرجتُ من مكتب البريد لأستكشفَ جنوبَ الهند، كان بودّي أن أقولَ لأولئك الذين سألوني عن عملي أنّني طبيبٌ، إذ إنّ الأطباءَ كانوا المموّلين الشائعين للسحر والمعجزات.

لكنني على يقين من أنّ حادثاً ما سيقعُ عند المنعطفِ الثّاني، ومع كلّ الأنظارِ المثبّتة نحوي، توجّبَ عليّ أن أشرحَ وسطَ نحيبٍ وأنينِ الضحايا - المعتبرين ضحايا بنظر القانون - أنّني معهم لمقاضاة الحكومة، وأن هذا الحادثُ المؤسفُ هو عوني لهم ليقاضوا الحكومةَ بشأن ما حدث.

وهنا كان عليّ الاعترافُ في حقيقة الأمر أنّها قضيّةُ خرّيج فلسفةٍ.

بعد ذلك، ومع الصرخاتِ التي تعني مأساةً دمويّةً، وجبَ عليّ الاعتراف أنّني لم أتطرّق لدراسة كيركيجارد، وهكذا بقيْتُ مخلصاً للحقيقة المتواضعة والحادثة المكروهة.

تلقّيتُ ردودَ الفعل من هنا وهناك طوال الطّريق، هل أنت كاتبٌ؟ هل الأمرُ كذلك؟

لديّ قصّةٌ لك...

قصصٌ في غالب الأحيان عبارةً عن طرائفَ فاقدةٍ للحياة. وصلتُ إلى مدينة بوند تشيري، وهي مقاطعةٌ صغيرةٌ تتمتّعُ بحكمٍ ذاتيّ في جنوب مِدْراسَ على أطراف تاميل بادو، وقياساً لعدد السّكانِ والحجمِ، فهي جزءٌ لا يعدَّ تابعاً للهند، وبالمقارنة، فإنّ جزيرةَ الأمير إدوارد هي عبارةٌ عن جزيرةٍ عملاقةٍ داخلَ كندا، ولكنّ التاريخَ قد فصلَها عنها.

بالنسبة لبوند تشيري، فقد سبقَ أنْ كانت سابقاً عاصمة بين الإمبراطوريات الاستعمارية في الهند الفرنسيّة، لقد كانت فرنسا تنافسُ البريطانيّين، ولكنّ الإمبراطوريّةَ التي حصلوا عليها، كانت عبارةً عن حفنةٍ من الموانئ الصّغيرة، لقد أحكمُوا قبضتَهم عليها مدّة ثلاثمئةِ عامٍ تقريباً.

غادروا بوند تشيري عام ١٩٥٤م، تاركين خلفهم بيوتاً بيضاءَ جميلةً، وشوارعَ عريضةً، تصلُ بينها زوايا مناسبة وأسماءَ شوارعَ من مثل: «رودي لمارين»، «شارع مارين»، وشارع «سانت لويس» و«كيبيس» وكذلك قبّعات شرطة.

لقد كنتُ في المقهى الهنديّ في شارع نهرو، وهو عبارةٌ عن غرفة كبيرة بجدرانٍ خضراءَ وسقفٍ عالٍ، ومراوحَ تدورُ فوقك، لتحافظَ على الهواء الدّافئ والرّطب.

مكانٌ فسيحٌ مفروشٌ بكاملِ سعته بطاولاتٍ مربّعةٍ، وحول كلّ واحدة أربعةُ كراسٍ تمكّنكَ من الجلوس حيث تريدُ ومع أيٍّ كان.

مقهىً جيدٌ، ويقدّمُ التّوست الفرنسي. لذا من السّهل البدءُ بأيّة محادثة، ولهذا السبب كان يحدّثني رجل ذو عينين براقتين، وشعرٍ بخصلٍ بيضاءَ خالصة.

أكّدت له أنّ كندا بلدٌ باردٌ، وأنّ اللّغة الفرنسيّة تُحكى في أجزاءٍ منها فقط. وأنّني أحببْتُ الهندَ، وهكذا استمرّ حديثٌ ودّيّ بين الهنديَّيْن، رحالة وغرباء. لقد استقبلَ الحديث عن عملي بتوسيع عينيه، وبإيماءة من رأسه علمتُ أنه حان الوقتُ للذّهاب، رفعت يدي ليراني النادلُ لأحصل على الفاتورة عندها قال الشابّ: لدي قصةٌ تجعلك تؤمن بالله. توقّفت عن التّلويح بيدي رغم أنني أشك بالأمر.

هل كان واحداً من شهودِ يهوه يقرعُ بابي؟

فسألته: هل قصتك حدثت منذ ألفي سنة في زاوية بعيدة من الإمبراطوريّة الرومانيّة؟

- قال: لا

هل هو من جماعة (evangelit) السلميين؟ هل وقفت أحداثها في المنطقة العربية في القرن السابع؟

- لا لا، لقد حدثت هنا في بوند تشيري، منذ بضع سنوات خلت، ومن دواعي سروري أنّها انتهت في نفس البلد الذي أتيت أنت منها.

- وهل ستجعلني أؤمن بالله؟

- نعم.

- هذا طلب طويل.

- ليس طويلاً لدرجة أنّك لن تستطيع الوصول إليه.

ظهر النادل، تردّدتُ للحظة، ثمّ طلبت فنجانَي قهوة، وتعرّف أحدنا بالآخر كان اسمه فرانسيس أديرو باسامي.

قلت له: أرجوك، ارو لِيَ قصتك.

أجابني: يجب أن تركّز جيداً.

- سأفعل ذلك، وأحضرتُ قلماً ودفترَ ملاحظاتٍ.

- سألني: هل سبق لك أنْ كنت في حديقة نباتات؟

- ذهبت إليها بالأمس.

- هل لاحظت خطوطَ القطار الدُمية؟

- أجل، رأيتها.

- لا يزال القطارُ يمشي عليها أيام الآحاد، وذلك لمتعة الأطفال، كان يجري ساعتين يوميّاً.

هل شاهدت أسماء المحطّات؟

- إحداها تسمى روزفلت، إنّها محاذية لحديقة الزهور.

- صحيح، والأخرى؟

- لا أتذكر.

- لقد سقطت الشاخصة، كان يُطلق على المحطّة الثانية اسم مدينة الحيوانات. قطار الأطفال يتوقّف مرتين في روزفلت ومدينة الحيوانات. ففي بوند تشيري، ومنذ زمن بعيد، كان هناك حديقة حيوان وحديقة نباتات.

وتابع كلامه، وأخذتُ أدوّن ملاحظاتي، عناصر القصة، وتابع قائلاً: يجبُ أن تتحدث إليه. الشخصية الرئيسية، وأكملَ: كنتُ أعرفه جيداً، إنّه رجلٌ كبيرٌ في السن، الآن يجب أن تسأله كلَّ ما يخطرُ ببالك من أسئلة.

لاحقاً، في تورنتو، وبين تسعة أعمدة لاسم باتيل في دفتر الملاحظات، وجدته، الشخصية الرئيسية، قفز قلبي عندما أدرْتُ رقمَ هاتفه، فالصوت الذي أجابني يحملُ اللّهجة الهنديّة باللّفظ الكنديّ، سريعٌ لكنّه دون أخطاء، يشبه أثرَ البخور في الهواء، كان ذلك منذ زمن بعيد جداً.

أجابَ الرجل بالموافقة على اللّقاء، تقابلنا مرّات عديدة، وقد أراني المذكرةَ التي يحتفظُ بها أثناءَ وقوعِ الأحداث، المذكّرة التي جعلته باختصار - مشهوراً، أخبرني قصته، وكنتُ أدوّنُ ملاحظاتي طوال الوقت. وبعد مرور سنة تقريباً - تخلّلها كثير من الصعوبات - استلمت شريطاً مسجّلاً وتقريراً من وزارة النقل اليابانيّة، وكان ذلك عندما استمعت إلى التسجيل، اتفقت مع السيّد أديرو باسامي بأنّها قصةٌ تجعلنُي أؤمن بالله.

من الطّبيعي أن تكون قصة باتيل قد سُردت بلسان المتحدث، بصوته وعينيه، ولكنّ هناك كثير من الهفوات والأخطاء، وكانت هذه بسببي. كان لديّ القليل من النّاس لأشكرهم، وكنت أُدين، وبشكل واضح، للسيّد باتيل، شكري له غير محدود مثل المحيط الهادئ، وأتمنى ألّا تكون روايتي لحكايته مُحبطَة.

كان عليّ أن أشكر السيّد أديرو باسامي لجعليَ أبدأُ القصة، وأنا مُمتنّ وشاكرٌ لثلاثةٍ آخرين، هم السيّد كازوهيكو والسيّد هيروشي وأتانابي الذي عمل مؤخراً في السفارة اليابانية في أوتوا.

وشكر له ولأوكا للملاحة البحرية، ولا سيّما السيّد توموهيرو أوكا موتو في وزارة النّقل اليابانيّة الذي تقاعدَ الآن، ولأجلِ شرارةِ الحياة، فأنا أدينُ بها للسيّد مواكري سكيلير.

وأخيراً، أودّ أن أعبّرَ عن امتناني العميق لتلك المؤسّسة العظيمة - مجلس الفنون الكندي التي لولا دعمها، لما استطعت أن أنجزَ هذه القصّةَ التي لم يكن لها علاقة بالبرتغال عام ١٩٣٩.

إذا لم نُدعمْ نحن كمواطنين أصحابَ الفنّ، عندها سنضحّي بمخيّلتِنا على مذبح الحقيقة القاسية، وسينتهي بنا الأمر إلى عدم الإيمان بأيّ شيء، والحصول على أحلام لا تساوي شيئاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الجزء الأول

تورينتو وبوند تشيري

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الأول

تركتني معاناتي حزيناً، وكئيباً، أعادتني دراستي الأكاديميّة والممارسة الثابتة والواعية للدّين إلى الحياة ببطء، وبقيت على تواصل حسن مع بعض الذين احترموا ممارساتي الدينية.

دخلت جامعة تورنتو بعد سنة واحدة من حصولي على الشهادة الثانوية، وتخرّجت بمرتبتين رئيسيتين، كانت دراستي الدينيّة وعلم الحيوان أطروحتي للسنة الرابعة في الدّراسات الدينيّة. أخذت بعين الاعتبار مظهر نظريّة نشوء الكون، لأسحق لوريا الإسلامي المتلزم في القرن السادس عشر القادم من صفد.

كانت أطروحتي في علم الحيوان، تحليلاً وظيفيّاً للغدة الدرقية لحيوان الكسلان ذي الثلاثة أصابع، اخترت حيوان الكسلان؛ لأنّ سلوكه الهادئ والبطيء ساعدني في تهدئة نفسي المحطمة.

هناك كسلان بإصبعين، وآخر بثلاثة أصابع، الحالة تقرّرُها الحيوانات ذات المخالب الأمامية، وكلّ حيوانات الكسلان تمتلك ثلاثة مخالب في أرجلها الخلفيّة، كان لي حظّ كبير في أحد فصول الصيف لدراسة الكسلان ثلاثيّ الأصابع، في سيتو بالغابات الاستوائية للبرازيل.

إنّه مخلوقٌ مثير للاهتمام، فالعادة الوحيدة الحقيقيّة المتأصّلة به، هو الكسل، إنّه ينام ويرتاح بمعدل أربعٍ وعشرين ساعةً في اليوم.

واختبر فريقُنا عادات النوم لدى خمسةٍ من حيوانات الكسلان، ذات الأصابع الثلاثة، وذلك بوضع أطباقٍ بلاستيكيّة بيضاءَ ملأى بالماء على رؤوسها، في بداية المساء، بعد أن غطّت بنوم عميق، وفي صباح اليوم التالي، وجدنا أنّ تلك الأطباقَ لا تزال في مكانِها، والماء في تلك الأطباق يعجُّ بالحشرات، ومن الأمور المعروفة عن الكسلان، أنّه يكون عند غروب الشمس في قمّة الاسترخاء.

يتحرّكُ الكسلان على طول غصنِ الشجرة مقلوباً رأساً على عقب، وهذه من صفاته، وبسرعة تعادل أربعمئة مترٍ بالساعة، وعلى الأرض فإنّه يزحف نحو الشجرة التالية بسرعة تعادل مئتين وخمسين متراً بالساعة، عندما يكون هناك تحريضٌ، وهذه السرعة بمعدل أربعمئة وأربعين مرةً أبطأ من الغوريلا المتحفّزة، وإذا لم يكن هناك تحريض، فإنّ سرعتَه تعادلُ أربعة أو خمسة أمتارٍ في الساعة.

إنّ الكسلان ثلاثيّ الأصابع لا يعلمُ كثيراً عن العالم الخارجيّ على سلم من اثنتين إلى عشر درجات، إذ يمثّل الرقم (اثنان) الكسلَ غير العادي، و(عشرة) أعلى درجة من الحدّة. أعطى بيب عام (١٩٤٦) حواس الكسلان في التذوّق واللّمس والرّؤية والسمّع درجة اثنين فقط، وأعطى حاسةَ الشمّ، ثلاث درجات، وإذا اقتربت من الكسلان ذي الثلاثة أصابع في الغابة، فإنّ وكزتين أو ثلاث وكزاتٍ كافيةٌ لإيقاظه.

يظهر نائماً في كلّ اتجاه عدا الاتجاه الذي أنت فيه، والسبب في ذلك غير مُؤكد، إذ إنّه يرى كلَّ شيءٍ بشكل ضبابيّ. وبالنسبة لحاسة السمع، فإنّ الكسلان ليس أصمّ تماماً، بل يبدو غير مكترث للأصوات. وقد أكّد (بيب)

أنّ إطلاق البنادق بجانب الكسلان يثير ردةَ فعل قليلة. ويجب ألّا نغالي بحاسّة الشّمّ الأفضل قليلاً عند الكسلان، فهو قادرٌ على الشمّ وتجنّب الأغصان المتكسّرة، ولكن قال بولوك عام ١٩٦٨ إنَّ الكسلان غالباً ما يسقط على الأرض متشبثاً بالأغصان المكسورة.

قد نتساءل كيف ينجو؟!. لأنّه يكون بطيئاً جداً. فالنوم والكسل ينجيانه من الأذى، ينجيانه من انتباه النمر المرقّط له، وكذلك من النسر الخطّاف، وأفعى الأناكوندا، وكذلك الأصلوت[١]. ويعدُّ شعر الكسلان ملجأً للأشنيّات ذات اللّون البنّيّ في الفصل الجاف، واللّون الأخضر في الفصل الماطر، لذا فإنّه يتآلف مع الأشنيات المحيطة به، وأوراق النباتات، ويبدو وكأنّه عشّ من النمل الأبيض أو السناجب، أو كأنّه لا شيء على الإطلاق سوى جزءٍ من الشجرة.

يعيش الكسلان ثلاثيّ الأصابع حياةً نباتيّةً هادئةً، بانسجام تامّ مع محيطه، و«تظهر على شفتيه ابتسامة طبيعيّة دائمة. وقد أكّد تيرلر عام ١٩٦٦. إذ شاهدت هذه الابتسامة بأمّ عينيه».

لست ممّن يقومون بتطبيق مزايا الإنسان وعواطفه على الحيوان، ولكنّني - مرات عديدة خلال ذلك الشهر في البرازيل والبحث عن الكسلان النائم - شعرتُ أنّني أمام ممارس لليوغا، وهو في تأمّل عميق، أو أمام ناسك منهمك في صلاته.

---

(١) **الأصلوت:** قط بري يوجد في أمريكا الجنوبية بما في ذلك جزر **ترينيداد وجزيرة مارغريتا وأمريكا الوسطى والمكسيك**، وشمالي ولاية **تكساس** الأمريكية، ونادراً ما شوهد في ولاية **أريزونا**، يُشبه القط المحلي **وفروه** يشبه فرو **النمر الملطخ واليغور**. ولذلك، اصُطيد مئات الآلاف من الأصلوت لأجل فرائها. **[المترجم]**.

إنّ حيواتِ هذه المخلوقات الحكيمة الخياليّة ليست ضمن مجال مساري العلميّ، فقد اختلطت عليّ في بعض الأحيان دراستي لاختصاصات البعض من زملائي في الدّراسات اللّاهوتية، والّذين كانوا يعتقدون أنّ وجودَ الله وأصل الكون أمورٌ لا سبيل لمعرفتها، والذين كانوا عبيداً لسببٍ ما، وكانوا ممّن ينخدعون ببريق الذهب، كانوا يذكّروننني بالكسلان ثلاثيّ الأصابع، والكسلان ثلاثيّ الأصابع كان يذكّرني بالإله.

لم تقع أيّ مشكلة مع زملائي العلماء، رغم إنّهم كانوا أشخاصاً ملحدين ونشيطين وودودين ويكثرون من شرب البيرة، وكانت عقولهم منشغلةً بالجنس والشطرنج والبيسبول، ولكنّها لم تكن منشغلةً بالعلم.

كنت طالباً متفوقاً من عداد الطّلبة المتميزين خلال الأربع سنوات الدراسية في جامعة سانت مايكل.

وقد حصلتُ على كلّ مكافأة ممكنةٍ من قسم علم الحيوان، وإذا كنت لم أحصل على أيّ مكافأة من قسم الدراسات الدّينيّة، ببساطة لم يكن هناك أيّ مكافآت للطلّاب في ذلك القسم. ثمّ إنّنا جميعنا يعلم بأنّ المكافأة للدراسات اللاهوتية ليست بيد البشر.

كان من الممكن أن أنالَ ميداليّةَ الحاكم للعلوم العامّة الأكاديميّة، وهي أعلى جائزة للخرّيجين في جامعة تورنتو، وتلقّاها عدد ليس بالقليل من الكنديين المتفوقين، لم تكن هذه الجوائز للأشخاص النّخبة الذين يتناولون لحم العجل برقاب كجذع شجرة، وبهتاف لا يحتمل، ولا يزال الأمر مؤذياً، فعندما تعاني كثيراً في الحياة، فإنّ أيّ ألمٍ إضافيّ سيكونُ عبئاً لا يُحتمل.

إنّ حياتي تشبه لوحة تقول «تذكر أنك ستموت»، من لوحات الفنّ الأوروبيّ، عقل سوداويّ يلازمني ليذكرني بحماقة الطموح البشري، وأنا أسخر من هذا العقل، أنظر إليه وأقول: لقد اخترتَ الرفيقَ الخطأ، ربما تكون غير مؤمنٍ بالحياة، لكنّني لا أؤمن بالموت، اتركني وشأني. ضحك ضحكة باهتة، واقتربَ أكثر وذلك لم يفاجئني. إنّ سبب التصاق الموت بالحياة ليس بالضرورة سبباً بيولوجياً، إنّه حسدٌ.

الحياة جميلة لدرجة أنّ الموت قد وقع في حبّها، فالغيرة والحبّ التملّكي هو الذي ينتزع ما يستطيع، ولكنّ الحياة تقفز فوق النسيان بخفةٍ فاقدةً لشيء أو اثنين عديمي الأهميّة. وليستِ الكآبةُ إلّا عبوراً لظلّ الغيمة.

تسلّم الشاب الأنيق إشارةً من لجنة (رودروس) للمنحة، أنا أحبّه وأتمنّى أن يكون وقته في إكسفورد تجربةً غنيّةً. وإذا كافأتني آلهة الثراء (لاكشمي) يوماً ما، ستكون إكسفورد هي المدينة الخامسة ضمن قائمة المدن التي سأزورها قبل أن أتفرّغ، بعد مكة وفراناسي والقدس وباريس.

لا شيء لديّ أقوله عن حياتي العمليّة إلّا أنّ ربطة العنق هي أنشوطة يمكن أن نشنق بها الرجلَ ما لم يكن حذراً.

أحبّ كندا، وأتوق لحرارة الهند، والطعام، والسحالي المنزلية على الجدران، والموسيقا على الشاشة الفضية، والأبقار التي تجوب الشوارع، والغربان التي تنعب، وحتى الحديث عن مباريات الكريكت، ولكنّي أحب كندا. إنّها بلدٌ عظيمة وباردة لدرجة أنّها ليست موطناً للمشاعر، ويقيم فيها أناس رحيمون وأذكياء، وبتسريحات شعر سيّئة، على أيّة حال لا شيء أفعله كي أذهب إلى البيت في بوند تشيري.

أقام معي ريتشارد باركر، لم أنسهُ على الإطلاق، هل أجرؤ على القول إِنّني أفتقده؟ نعم سأقول، فأنا أشتاقه كثيراً، مازلتُ أراه في أحلامي، وهي أغلبها كانت كوابيس، ولكنّها كوابيسُ تتّسم بالحبّ، وهذه هي غرابة القلب الإنسانيّ.

إلى الآن لم أفهم كيف استطاع الحبّ أن يتملكني بشكلٍ غيرِ عفويّ، دون أيّ نوعٍ من أنواع الوداع، ودون النّظر إلى الخلف ولو لمرة واحدة، ذلك الألم يشبه المعْول الذي يقطع قلبي.

كان الأطبّاءُ والممرضات في مستشفى المكسيك بقمة الطّيب معي، وكذلك المرضى، وضحايا مرض السرطان أو حوادث السيارات، فحين سمعوا قصّتي، هُرعوا لمشاهدتي هم وعائلاتهم على الرغم من أنّ لا أحد منهم يتحدّث الإنكليزيّة، وأنا أيضاً لا أتحدّث الإسبانيّة.

كانوا يبتسمون لي ويصافحونني ويربّتون على رأسي بلطف، ويتركون الهدايا من الطعام والملابس على سريري، دفعوني لنوبات ضحك وبكاء لا يمكن التّحكم بها.

خلال يومين، وبرغم الغثيان والدّوار والوهن، استطعت الوقوف والمشي خطوتين أو ثلاث.

وقد أظهرت اختبارات الدّم أنّني كنت مصاباً بفقر دم، وأنّ مستوى الصوديوم كان مرتفعاً جداً، وكذلك البوتاسيوم منخفضاً جداً، كان جسمي يحتاج للسوائل، تورّمت قدماي بشكلٍ كبيرٍ، كما لو أنّ قدما فيل داستني، كان البول أصفرَ غامقاً يميل إلى اللون البنّي.

بعد مرور أسبوع أو نحوه، استطعت أن أمشي بشكلٍ طبيعيّ تقريباً، استطعت أن ألبس حذاءً دون شرائط، رغم النّدب التي ما زالت على كتفي ورقبتي.

في المرّة الأولى التي فتحت بها الصنبور، كان صاخباً جداً، وقد أهدر الكثير من الماء، تدفق الماء بغزارة، وكانت بمنزلة صدمة، لدرجة أنّني فقدت توازني وانهارت رجلاي تحتي، وأغمي عليّ بين يدي الممرّضة.

في المرة الأولى التي ذهبت بها الى مطعم هنديّ في كندا، استخدمت أصابعي. نظر إليّ النّادل نظرة تفحصيّه وسألني: أأنت مُهاجر؟

شَحُب وجهي وأصابعي التي كانت قبل ثانية وسيلةً لتذوّق نكهة الطّعام، وقد أصبحتْ متسخةً بسبب تحديقه، وتجمّدت كأصابع مجرم أُلقيَ القبض عليه في مسرح الجريمة.

لم أجرؤ على لحس أصابعي، لذا نَظَّفْتُها بالمنديل وأنا أشعر بالذّنب، فلم يكن لديّ فكرةٌ كم جرحتني كلماته عميقاً، وتركتْ أثرها كأظافرٍ انغرست في لحمي. التقطت السكين والشوكة، ونادراً ما كنت أستعمل هذه الأدوات، ارتجفتْ يداي، وفقدتْ وجبتي - سامبات - مذاقها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني

يعيش في سكاربورو...

إنّه رجل نحيلٌ، قصيرُ القامة، لا يتجاوزُ الخمسةَ أقدامٍ ونصفاً، شعرٌ أسودُ يتخلّلُه الشيبُ عند الصدغين، وعينان سوداوان. لا يمكنُ أن يكونَ عمرُه أكثرَ من أربعين عاماً، ذو بشرةٍ ناعمة بلونِ القهوة، وبالرّغمَ من أنّ الطّقسَ خريفيٌّ معتدلٌ، يرتدي سترةً شتويّةً كبيرةً وقلنسوةً من الفرو للذّهاب إلى العشاء، وجهٌ معبّرٌ، يتكلّم بسرعة، ويشير بيديه، لا أحاديثَ تافهة...

ها هو ينطلق.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث

سُمّيْتُ باسم بركةِ سباحةٍ، مع أنّ والديَّ لم يأخذاني إلى الماء قطّ.

أقدم شخص، كان على علاقةِ عملٍ مع أبي، اسمه (فرنسيس أدير بوسامي)، وقد أصبح صديقاً جيداً للعائلة.

كنت أدعوه (ماماجي)، *ماما* كلمة من التاميل بمعنى عمّي، و*جي* مقطع يُضاف إلى آخر الاسم في الهند إشارةً إلى الاحترام، عندما كان شاباً قبل أن أولدَ بفترة طويلة، كان ماماجي بطل سباحة لا ينافَسُ، بطلُ كلِّ الهند الجنوبيّة، اهتمّ بذلك طوال حياته.

أخبرني أخي رافي مرة إنّه عندما وُلد ماماجي، لم يُرد أن يمتنعَ عن التنفس بالماء، ولذا فقد حمله الطّبيب من قدميه، ولوحّ به فوق رأسه لإنقاذه، لقد نجحت تلك الخدعةُ.

قال رافي، وهو يدير يده فوق رأسه: لقد سعل، وقذف الماء، وأخذ يتنفس الهواء، ولكن تلك الحركة دفعت لحمه ودمه إلى الجزء العلويّ من جسمه، ولذلك ترى صدره عريضاً جداً، ورجليه نحيفتين جداً.

صدقته (كان رافي لا يكفّ عن المزاح. في المرة الأولى التي دعا فيها السيّد ماماجي سيّد سمكة أمامي، رميت قشرة موز في سريره) حتى في الستينيات من عمره، كان جسده محنيّاً فإنّه قد ولدت لديه مرحلة مقاومة الجاذبية لدفع جسده للأسفل.

كان ماماجي يسبح ثلاثين طولاً كلّ صباح، في بركة أوروبندو أشرم. حاول تعليم والديَّ السباحة، ولكنّه لم يستطع أبداً أن يجعلهما يتجاوزا غمس ساقيهما بالماء قرب الشاطئ، ويقومان بحركاتٍ دائريّة مضحكة بذراعيهما، وكأنّهما يقومان بسباحة الصدر، جعلهما ذلك يبدوان وكأنّهما يسيران عبر الغابة، ويدوسان على العشب الطويل أمامهما أو كأنّهما يركضان إلى أسفل التلّة، وكأنّ يديهما تدوسان الحنطةَ، وذلك كيلا يقعان. لم يكن رافي متحمساً، لقد كان على ماماجي أن ينتظر حتى أظهرَ أنا لإيجاد مُريد متحمس.

وعندما بلغت السابعة من العمر، وهو السنّ الذي سبّب الأسى لوالديّ، أخذني أبي إلى الشاطئ، وفرد ذراعيه للبحر، وقال هذه هديّتي لك، فقد اعتبر أنني أصبحت بعمر السباحة.

قالت والدتي: وكان على وشك أن يغرقك.

بقيت مخلصاً لمن علّمني السباحة، وتحت ناظريه استلقيت على الشاطئ، وأخذت أجمع الرمال بيديّ، وأدير رأسي بعد كلّ حركة لأتنفس، لقد كنت أبدو، حتماً، مثل طفل صغير تنتابه نوبة غضب بالحركة البطيئة.

وفي الماء عندما حملني إلى السّطح، حاولت كلّ جهدي لكي أسبح، إنّها أصعب بكثير من السباحة على الأرض، ولكن ماماجي كان صبوراً ومشجّعاً. وعندما شعر بأنّني تقدمت بشكل كافٍ، أدرنا ظهرنا للضحك والصراخ والجري ورشقات الموجات الزرقاء المخضرّة، وسطح الماء الملآن بالفقاعات، وتوجّهنا نحو بركة السباحة «أشرام» المستطيلة ذات المياه الضحلة.

في طفولتي كنت أذهب معه إلى هناك ثلاثَ مرّاتٍ في الأسبوع، أيامَ الاثنين والأربعاء وصباح الجمعة.

لقد حملتُ، لهذا العجوز الموقّر، ذكرياتٍ مشرقةٍ حيّة، فبينما كان يتعرّى بجانبي، ويتخلّص من كلّ قطعة من ملابسه بكلّ أناقة وأدب، كان يظهر باستدارته، يمتلك ساقي سبّاحٍ ماهر. وقف منتصباً جاهزاً وقد امتلكَ بساطةً أسطوريةً في تعليمات السباحة التي أصبحت فيما بعد تدريباتٍ للسباحة، مرهقة مثل قصاص، ولكن لا يخلو من سرورٍ عميقٍ للقيام بجولة بكلّ سهولة وسرعة متزايدتين، المرّة تلو الأخرى، وحتى التنويم المغناطيسيّ والماء تحول من رصاصٍ منصهرٍ إلى ضوءٍ سائل.

عدتُ إلى البحر من تلقاء نفسي إلا أنّ متعتي هذه لا تخلو من الذنب، كنتُ مدعوّاً من الأمواج الجبّارة التي تحطّمت على الشاطئ، ووصلَت إليّ في شكلِ موجات مدّ وجزر متواضعة ورقراقة، أنشوطة لطيفة سيطرت بدورها على طفل هنديّ متحمّس.

كانت هديّتي إلى ماماجي في أحد أعياد ميلاده، وكنت حينها تقريباً في الثالثة عشرة من عمري، عبارة عن طولين كاملين لفراشة حقيقية. أمضيْتُ وقتاً طويلاً في التقاطها لدرجة أنّني لم أستطع أن ألوّح له.

خلف نشاط السباحة، كان الحديثُ الأهمّ حديث عن حبّ والدي الكبير لها، فكلّما قاومَ السباحةَ الحقيقيّة بقوةٍ، تخيّلها أكثر، فالخبرةُ بالسباحة لديه هي إجازاته بعد عمل يوم طويل في حديقة الحيوانات. الماء بدون فرس النهر أحلى بكثير من الماء بوجود واحد.

درس ماماجي لمدة سنتين في باريس، وكان الفضل في ذلك يعود إلى الإدارة الاستعمارية. وقد كان لديه الوقت لذلك في حياته، وذلك في أوّل الثلاثينيات، عندما كان الفرنسيون ما زالوا يحاولون تحويل بوند تشيري إلى مقاطعة فرنسيّة، كما كان البريطانيون يحاولون جعل بقيّة الهند بريطانيّة.

لا أتذكر بدقة ماذا درس ماماجي، أعتقد أنّها دراسةٌ تجاريةٌ، كان راوي قصصٍ عظيم، ولكنّني أنسى ما يتعلّق بدراسته، أو برج إيفل، أو متحف اللوفر والمقاهي في الأليزيه، كلّ حكاياته تدور حول أحواض السباحة ومنافسات السباحة.

على سبيل المثال: هناك مسبح ديلاني وهو أقدم حوض سباحة يعود تاريخه إلى أولمبياد ١٧٩٦، مسبحٌ مفتوحٌ يرتبطُ كيودو أورسيه، وموقع أحداث السباحة لأولمبياد عام ١٩٠٠، ولكن لم يُدوّن أيّاً من هذه الأوقات من قبلِ اتحاد السباحة، لأنّ الحوض مكانٌ أطول بستّة أمتار، كان الماء يأتي إلى الحوض مباشرة من نهر السّين غير مصفى وغير مدفّأ، كان بارداً ووسخاً. وقد أكد ماماجي أنّ الماء الذي كان يقطع باريس، كان يأتي قذراً بالكامل، ثمّ إنّ الناس جعلوا من الماء في الحوض ماءً مقرفاً، وبهمسات تآمرية، وبتفاصيل صادمة تدعم ادعاءه، أكّد لنا أنّ الفرنسيين كانوا يمتلكون مستوىً متدنِّياً من النظافة الشخصية، كان ديلاني سيّئاً جداً.

وهناك مسبحٌ آخر وهو باين رويال، الواقع على نهر السين، أسوأ منه. فعلى الأقل كانوا في مسبح ديلاني يجرفون السمك النافق، ومع ذلك فإنّ الحوض الأولمبيّ يظلّ مسبحاً أولمبيّاً، وله شهرةٌ لا تموتُ، على الرّغم من أنّه لا يتعدى عن كونه بالوعة.

كان ماماجي يتحدث عن ديلاني بابتسامة محبّبة. وهناك حوض أفضل في بيسين قصر لاندون روف، أو دي بوليفارد دي لاغار.

كانت تلك الأحواض أحواضاً مغلقةً ومسقوفةً، وتُفتح على مدار السنة. تأتيها المياه من محطّات تكثيف البخار من المصانع المجاورة، ولهذا

كانت أنقى وأكثر دفئاً، ولكن هذه الأحواض لا تزال وسخة قليلاً ومزدحمة، فترى الكثير من النفايات الرخوة والبصاق، تسبح في الماء، حتى إنني اعتقدْتُ أنّني أسبح عبر قناديل البحر.

قال ماماجي بضحكة ساخرة: كانت مسابح هيربرت وليدرو - رولين وبوتيه أوكاليه نظيفةً وحديثةً وفسيحة، مزودة بمياه آبار ارتوازيّة، كانت أساساً لمستوى أحواض السباحة المحليّة الممتازة، إضافةً إلى مسبح دي توليه، مسبح المدينة الأولمبيّ الثاني، الذي افتتح أثناء ألعاب باريس الثانية في عام ١٩٢٤، وكان لا يزال هناك الكثير منها، ولكن لم يكن هناك، بنظر ماماجي، أيّ حوض سباحةٍ يضاهي عظمة مسبح بوليفور، إذ كان، في الحقيقة، قمّة مجد باريس المائيّ، بل قمّة الفجر لكلّ العالم المتحضّر.

إنّه مسبحٌ ستكون الآلهة سعيدة للسباحة فيه. وقد امتلك موليتور أفضل نادٍ تنافسيّ للسباحة في باريس، إذ كان هناك حوضي سباحة، داخلي مغلق وآخر خارجيّ. وكلاهما بحجم محيط صغير. تميّز المسبح الداخلي بممرين مخصّصين للسباحين للذين يرغبون بسباحة المسافات، مسبحٌ نظيفٌ جداً ونقيٌّ لدرجة أنّه يمكنك استخدامه لصناعة قهوتك الصباحية.

تحيط بالمسبح غرفٌ خشبيّةٌ صغيرة، زرقاء وبيضاء، وعلى طابقين تستطيعُ أن تنظر للأسفل لترى كلّ شخص وكلّ شيء، وقد رسمَ البوّابون علامةَ مشغولٍ على باب الأبنية الخاصّة بك بالحوار، كبارٌ بالسنّ، ويعرجون دائماً، ودودون وبمزاج سيِّئ، لم تزعجهم كمية الصراخ والحماقة أبداً.

يتوفّرُ الماء الحارّ الذي يتدفّقُ وبقوة في الحمامات، كما ويتوفّر غرفةُ بخار وغرفة تمريناتٍ. وقد تحوّلت بركة السباحة الخارجيّة إلى ساحة تزلج

بالشتاء، وتمتع ببار وكافييتريا وسطح كبير للتّلفّع (التشمس)، إضافة إلى شاطئين صغيرين زوّدا برمل حقيقي. وكانت كلّ قطع الآجر والخشب والنحاس تلمع.

هذا المسبح هو المسبح الوحيد الذي جعل ماماجي يصمت، حيث كانت ذاكرته تطول بقصص وتفاصيل لا تنتهي عنه. ماماجي يتذكر، ووالدي يحلم.

وهكذا حصلتُ على اسمي عندما دخلت هذا العالم، آخر إضافة مرحّبٌ بها لعائلتي، بعد ثلاث سنوات من رافي: بيسين - موليتور - باتيل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع

كانت أمّتنا القديمة الطيّبة بعمر السبع سنوات كجمهوريّة، وعندما أصبحتْ أكبر بإضافة إقليمٍ جديدٍ (بوند تشيري)، دخلت الاتّحاد الهنديّ في الأول من تشرين الثاني عام ١٩٥٤، فكلّ إنجاز مدنيّ يستدعي غيره من الإنجازات.

وقد كان جزء من الحديقة النباتيّة لبوند تشيري جاهزاً للتأجير لفرصة عملٍ مدهشةٍ، فقد امتلكتِ الهندُ حديقةَ حيواناتٍ صُمِّمت وأديرت استناداً إلى قوانين بيولوجيّة صارمة وحديثة.

حديقةُ حيواناتٍ ضخمة، انتشرت فوق هكتارات لا تُحصى، كبيرة كفايةً لدرجة أنّك تحتاجُ إلى قطارٍ لاستكشافها، بالرغم من أنّها كانت تبدو أصغر عندما كبرت، وهذا الإحساس يشمل القطار أيضاً.

إنّها الآن صغيرةٌ جداً، تتلاءم مع تفكيري، ولك أن تتخيلَ مكاناً حاراً ورطباً يستحمّ بأشعّة الشّمس والألوان الزاهية، وشغب الزهور المستمر، ترى أشجاراً وشجيراتٍ متسلّقة بغزارةٍ كنباتات الآتاب وحرارة الغابة وقطن الحرير الأحمر وأشجار الصندل والمانجو والكاكاو، وأنواعاً أخرى كثيرة كانت ستبقى مجهولة لك ما لم يكن هناك علامة على قواعدها، توزّعت فيها مقاعدُ احتضنت رجالاً نائمين أو مستلقين، أو اثنين يافعين يسترقان النّظر بعضهما إلى بعضٍ بخجل، تتمايل أيديهم في الهواء أحياناً، وتلتقي أحياناً أخرى.

فجأةً وبوسط الأشجار الطويلة والنحيفة، وفوق رأسك، تشاهد زرافتين تراقبانك بهدوء. وهذا المشهد ليس بالأخير لإثارة دهشتك، وفي اللّحظة التالية ستروّعُك الصرخات الغاضبة الآتية من مجموعة قردةٍ يفوق صوتها صرخاتِ طيور غريبة. ستصل إلى بابٍ دوّارٍ، تدفع مبلغاً بسيطاً من المال، وأنت شاردُ الذّهن، تتقدّمُ قليلاً، سترى جداراً منخفضاً، وماذا تتوقع أن ترى خلف جدار منخفض؟؟ بالتأكيد لن تشاهد سوى حفرةٍ ليست بعميقة، فيها وحيدا قرنٍ هنديّان.

وأينما أدرت وجهك، سترى الفيل الموجود طوال الوقت هناك، فيلٌ كبيرٌ لدرجة أنّك لم تشاهده، سترى في البركة أفراس النّهر، تطفو على الماء. كلما نظرت أكثر شاهدت أكثر... أنت في مدينةٍ لحديقة الحيوانات.

كان أبي يديرُ فندقاً كبيراً في مِدْراس، وذلك قبل أن ينتقل إلى بوند تشيري. وقد تظن أنّه انتقال طبيعيّ من إدارة فندقٍ إلى إدارة حديقة حيوانات، لا، الأمر ليس كذلك، إنّ إدارة حديقة حيواناتٍ، هي أسوأ كابوس لمديرِ فندقٍ، فالضيوف لا يغادرون بيوتهم، ولا يتوقعون الإقامة فقط بل إقامة كاملة تتضمّن الطعام والمنامة، يستقبلون سيلاً من الزوّار. البعض منهم مزعج وصعب المراس، يتهادون إلى شرفاتهم قبل أن يتمكّن أحدهم من تنظيف غرفهم، لذا يجب عليه الانتظار حتى يملّوا من المنظر، ويعودون إلى غرفهم قبل أن يتمكن أحدهم من تنظيف الشرفات. ثم أنّ هناك الكثير من العمل للقيام به، إذ إنَّ الضيوف لا يهتمون بنظافتهم، مثلهم كمثل الكحوليين. دقيقون جداً باختيارهم طعامهم، ويتذمرون دائماً من البطء بالخدمة، ولا يدفعون البقشيش على الإطلاق. لتتكلّم بصراحة: إنّ الكثير منهم منحرفٌ جنسياً، إما لأنّهم مكبوتون جداً، وعرضة

لانفجار الهياج والفسق، وإما منحرفون علناً، وفي حالةٍ أخرى، فإنّهم يهينون الإدارة بغضب فاضح للجنس الحرّ وسِفاح القربى.

فهل هم من نوع الضيوف الذين ترحّبُ بهم في فندقك؟

كانت حديقة حيوانات بوند تشيري مصدراً لبعض المتعة، وكثيراً من الصداع للسيّد سانتوش باتيل، مؤسّسٌ ومديرٌ لطاقمٍ مؤلّف من ثلاثة وخمسين موظفاً ومعهم أبي. وقد كانت هذه الحديقة، بالنسبة لي، بمنزلة جنّةٍ على الأرض، لا أملكُ إلّا الذكرياتِ الجميلة لنشأتي في حديقة حيوانات.

عشت حياة الأمراء، فما الذي يريده ابن المهراجا أكثر من هذه الأرض الشّاسعة والغنيّة للّعب؟ وأيّ مكان يمكن أن يمتلكَ معرضَ الحيوانات هذا؟

كان المنبّه لديّ في طفولتي هو مجموعة من الأسود، إذ لم تكن هناك ساعات سويسريّة، ولكن كان يُعتمد على تزآر الأسود بين الخامسة والنصف والسادسة كلّ صباح، وكان يؤكد موعد فطورنا زعيق وصرخات القرود الأمريكيّة، وطائر المينة الجبليّ وببغاوات المولوكان ذوات الأعراف.

غادرتُ لأذهب إلى المدرسة، تتابعني التأملات الخيّرة، ليس لوالدتي فحسب، بل كذلك لثعالب الماء ذات العيون اللامعة، والثّور الأمريكي الضخم، وتثاؤب إنسان الغاب، وهو قرد شبيه بالإنسان. نظرت للأعلى بينما كنت أركض تحت الأشجار، فلا بدّ من النظر وإلّا فمن الممكن للطاووس أن يبرّز عليّ، ولذلك من الأفضل أن تسير بجانب الأشجار التي هي ملجأ المستعمرات الكبيرة لوطاويط الفاكهة. فالهجوم الوحيد في هذا الوقت المبكّر كان الموسيقا الصاخبة، وصرير زقزقة الوطاويط.

في طريقي إلى الخارج، كنت أتوقف عند المربّى اليابس تلك البقعة المليئة بالضفادع اللمّاعة الخضراء الفاتحة أو الصفراء أو الزرقاء الغامقة أو البنيّة والخضراء الشاحبة، وكان يلفت انتباهي طيور الفلامنكو الورديّة أو البجعات السوداء أو الشبنم[1] أو شيئاً ما أصغر كاليمامات الفضيّة وطيور الزرزور اللامعة وببّغاء الحب وردية الوجه، وببغاوات ناندي مخروطية الذيل، وببغاوات باراكيت برتقالية الجبهة.

لم تكن الفيلة والفقمات والقطط الكبيرة أو الدببة مستيقظةً بعد، إنّما قردة البابون والمكاك والسعادين المنجبيّة وقردة الجبّون والغزلان والتابير[2] واللّاما والزرافات والنمس، هم من يصحون دائماً مبكّرين.

كلّ صباح قبل أن أخرج من البوابة الرئيسية كان لدي انطباع أخير عادي ولا يُنسى معاً: هرمٌ من السلاحف، خطم قزحي الألوان من الماندريل وصمت الزرافة الجليل، والفم الأصفر السمين والمفتوح لفرس النهر، وتسلق المقو[3] للسّياج، حاكّاً جلده برفقٍ، والتحيّة الحارّة لطائر أبو مركوب، وملامح الخرف الفاسق للجمل. كنت أحصل على كلّ هذا الثّراء وبسرعة، عندما كنت أسرع إلى المدرسة، ولكن بعد المدرسة كنت قد اكتشفت وبرويّة ماذا يعني أن يفتّش فيلٌ ملابسك وبطريقة ودّية، آملاً أن

---

(١) **الشبنم:** طائر يشبه النعامة. **[المترجم].**

(٢) **التابير:** حيوان أمريكي استوائي يشبه الخنزير. **[المترجم].**

(٣) **المقو:** اسم يطلق على مجموعة من ببغاوات الإقليم المداري الملونة، منها ما هو كبير الحجم ومنها ما هو صغير، وهي تتبع فصيلة الببغاوات الحقيقية، التي تضم العديد من الأجناس، ستة أجناس منها تسمى المكاو. **[المترجم].**

يجدَ حبّةَ جوزٍ مخبّأةٍ، أو أن يفتّش إنسان الغابة في شعرك بحثاً عن وجبة قرَاد، وصرخة اليأس لأن رأسك خزانة مؤن فارغة.

كم أتمنّى لو أنّني أستطيع أن أنقل الصورة كاملةً لفقمةٍ تنزلق في الماء، أو قرد العنكبوت وهو يتأرجح من جهة لأخرى، أو يدير رأسه فرحاً. ولكن من الأفضل أن تتصورها بعقلك، إذا أردت أن تشعر بها.

في حدائق الحيوانات أو في الطّبيعة، أفضل وقتٍ للزّيارة يكون عند الشروق أو الغروب، وذلك عندما تكون الحيوانات بكامل حيويّتها، وهي تتحرك وتغادر ملجأها، وتسير بحذرٍ إلى حافّة النّهر، تُظهِر ملابسها، تغني أغنياتها، يتوجَّه بعضها نحو بعضٍ، تمارس طقوسها، وتكون مكافأة العين المشاهدة، ومكافأة الأذن السامعة كبيرةً.

كنتُ أقضي ساعاتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى، وأنا أراقب بهدوء الأسلوب الرّاقي الذي يُجمّل كوكبنا، إنّه شيءٌ برّاق جداً، غريب الأطوار ورقيق لدرجة أنّه يذهل الحواس.

لقد سمعت الكثير من الهراء حول حدائق الحيوانات، كما سمعت عن الإله والدّين، فالناس العارفون ولكن المضلَّلون، يعتقدون أنّ الحيواناتِ البريّة سعيدة لأنّها حرّة، إذ عادة ما تفكر الناس بالحيوانات المفترسة مثل الأسد أو الفهد وحياة النّو وخنزير الأرض نادراً ما تكون مبهجة، فهم يتخيلون هذا الحيوان المفترس يتجوّل في السافانا، يهضم طعامه بعد تناول فريسته التي تقبّلت قدرها بورعٍ، أو ليمارس المهارات الحركيّة بالجري، ليبقى نحيفاً بعد الإفراط بالأكل، يتهيأ لهم أنّ هذا الحيوان يراقب ذرّيته باعتزاز ولطف، وكل العائلة تشاهد غروب الشمس من خلال الأغصان

الكبيرة وبنظرات البهجة. إنّ حياةَ الحيوان المتوحّش بسيطةٌ نبيلةٌ وذاتُ معنى، هكذا يتهيّأُ لهم.

ثمّ يقبضُ عليها الرجالُ السَّيئوون، ويرمون بها في سجون ضيقة، يُقذَفُ بسعادتها بعيداً، إنّها تتوالدُ ربّما إلى حدّ كبيرٍ من أجل الحريّة، وتعمل كلّ ما بوسعها للفرار، وبما أنّ حريتها تُحجز لمدّةٍ طويلة جداً، فبالضرورة سيصبح الحيوان انعكاساً لنفسه، وتتحطّم روحه...

هكذا يتخيل البعض... هذا ليس واقعها.

تعيش الحيوانات في البريّة حياة قسريّةً، وتقوم بحاجاتها ضمن تسلسل هرمي اجتماعي لا يرحم، حيث مؤونة الخوف كبيرةٌ، ومؤونة الطعام قليلةٌ، ويجب أن تدافع عن موطنها باستمرار، وأن تتحمّل الطفيليّات للأبد.

ما معنى الحريّة في هذه البيئة؟ عمليّاً فإنّ الحيوانات في البريّة، ليست حرّة، لا في المكان ولا في الزمان، ولا حتى في علاقاتها الشخصيّة. نظرياً أي من الناحية الفيزيولوجية، يستطيع الحيوان أن يلتقطَ ويمضي متباهياً بالتقاليد الاجتماعيّة، والحدود التي تناسب نوعَه وفصيلته، ولكن احتمال حدوث مثل هذا الحدث أقل من احتمال حدوثه لفرد من أفراد من جنسنا.

لا يمكننا أن نتخيل صاحب دكّانٍ، مع كلّ القيود التي تربطه بعائلته وأصدقائه والمجتمع، يترك كلّ شيء، ويبتعد عن حياته مع القليل من النقود في جيبه، وبعض الملابس على جسده.

فإذا كان الإنسان الأكثر جرأة والأذكى بين المخلوقات، لن يتجوّل من مكان إلى مكان، غريباً عن الجميع، لا يدين بالفضل لأحد، فلِمَ على الحيوان القيام بذلك وهو الأكثر محافظة؟!.

ولهذا فإنّ الحيواناتِ محافظةٌ على عاداتها، ويمكن القول إنّها رجعيّة، ويمكن لأصغر التغيرات أن تضايقهم، فهم يريدون أن تبقى الأشياء على حالها، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر، فالمفاجآت غير مقبولة لديهم أبداً، وترى هذا في علاقاتهم المكانيّة، إذ يقيم الحيوان في مكانه سواء في حديقة الحيوان أو في البريّة، بنفس الطريقة التي تتحرك بها حجار الشّطرنج على رقعة الشطرنج - بذات المعنى - ليس هناك ما يحدث بشكل عقلاني، وليس هناك أيّة حريّة تُمارسُ في مكان وجود سحليّة أو دبّ أو غزال أكثر من حرية الحصان على رقعة الشطرنج، وهذا الكلام ينطبق على النّموذج والهدف.

في البريّة تلتزم الحيوانات المسارات نفسَها، موسماً بعد موسم.

إذا لم يكن الحيوان في حديقة الحيوانات، في مكانه المعتاد وفي وضعه المعتاد وفي الساعة المعتادة، فهذا يعني شيئاً ما، قد يكون انعكاسًا لما هو أكثر من تغيير طفيف في البيئة.

الخرطوم الملفوف الذي تركه العامل، قد ترك انطباعاً خطيراً.

تشكّلت بركةٌ موحلةٌ سبّبتِ الإزعاج للحيوانات، سُلّمٌ يترك ظلّه، لكنّه يعني أكثر من ذلك، في أسوأ حالاته قد يشكّل شيئاً مروّعاً لمدير حديقة الحيوانات، علامةٌ، نذيرُ مشكلةٍ قادمةٍ، سبب ليعاين الرّوث، ويختبر الحارس، ويدعو إلى الاجتماع بالبيطريّ، كلّ ذلك بسبب أنّ طائرَ اللّقلق لا يقف بالمكان الذي اعتاد أن يقف فيه.

ولكن دعوني أتعقّب جانباً واحداً من السّؤال، إذا ذهبت إلى منزلٍ ما، وركلتُ البابَ الأماميّ، وطردتُ النّاس الذين يعيشون فيه إلى الشارع قائلاً: اذهبوا أنتم أحرار، أحرار كالطّيور، اذهبوا، اذهبوا.

هل تعتقد أَنّهم سيهلّلون ويرقصون ابتهاجاً؟ لا، لن يفعلوا ذلك.

الطيور ليست حرّة، والناس الذين طردتهم للتوّ سوف يهدّدونك قائلين: بأيّ حقّ ترمينا خارجاً؟ هذا منزلنا، نحن نمتلكه. لقد عشنا هنا لسنوات، سنتصل بالشرطة أيّها الوغد.

ألا نقول لا مكان يشبه البيت؟

هذا بالضبط ما تشعر به الحيوانات، فالحيواناتُ مخلوقاتٌ إقليميّة. وهذا هو المفتاح إلى عقولهم، الإقليمُ المألوفُ سيتيح لهم إنجاز الشيئين الأساسيين بصرامة، «تجنُّب الأعداء، والحصول على الطّعام والماء».

إنّ الحدائقَ البيولوجيّة المسيّجة جيداً، إذا كانت قفصاً أو حفرةً أو جزيرة محاطة بالماء أو زريبة أو قفصاً للطّيور أو حوضاً مائياً، فإنّها هي إقليمٌ آخر، غريبٌ فقط في حجمه وقربه من إقليم البشر، والسبب أنّه أصغر بكثير ممّا عليه بالطبيعة، فالأقاليم في الطّبيعة أكبر ليس من وجهة نظر الذّوق، ولكن من وجهة نظر الحاجة.

فنحن نفعل من أجل الحيوانات ما نفعله لأنفسنا بالمنازل، إذ نجمع في مكان صغير الأشياء المنتشرة في البرية، فبينما كان الكهفُ سابقاً هنا والنّهر هناك وأراضي الصّيد على بعد ميل وموقع المراقبة بجانبه، وشجيرات التوت التي كانت تغزوها الأسود والأفاعي والنّمل والطفيليات واللبلاب السامّ[1]، في مكان آخر. أصبحت الأمور مختلفةً، فالآن يجري النهر في أنابيبِ

---

(١) **اللبلاب:** جنس نبات من الفصيلة المحمودية، يضم عدة أنواع، منها: لاف الحقول أو اللَبْلاَب الحَقِيقِيّ أو اللَبْلاَب الصَغِير أو المَدَّاد أو طُرْبُوش الغُرَاب أو لبلاب الحقول. **[المترجم].**

بمتناول اليد، ونستطيع أن نغتسل بجانب مكان النوم، ونأكل حيث نطبخ، ونستطيع أن نحيطَ كلّ ذلك بجدارٍ من الحماية، ونحافظَ عليه نظيفاً ودافئاً.

المنزل هو إقليمٌ مُصغّر، حيث يمكن استيفاء حاجاتنا الأساسية بأمانٍ وعن كثب.

إنّ سياج حديقة الحيوانات المتين، هو البديل بالنسبة للحيوانات، مع الغياب الملحوظ للموقد وما شابه من الأمور التي تكون موجودةً في كلّ مسكن بشريّ، نجد فيها كلّ الأماكن التي نحتاج إليها، إطلالة مكان للرّاحة ومكان للأكل والشّرب والاستحمام ومكان للاعتناء بأنفسنا إلخ...

ونجد عدمَ الحاجة للذهاب للصّيد، ولِمِ الذهاب طالما أنّ الطعام يتوفّرُ ستّةَ أيامٍ في الأسبوع؟

سيأخذُ الحيوانُ مكانه في الحديقة، وبنفس الطريقة التي يطالب فيها بمكان جديدٍ في البريّة، حيث يستكشفها ويحدّدها بالطرق الطبيعيّة التي تتبعها فصيلته، ربما عن طريق نشر بوله. وعندما يحدث طقس الانتقال هذا، ويستقرّ الحيوان، فإنّه لا يشعر إنّه نزيلٌ، ولا حتى سجينٌ، بل يشعر وكأنّه مالكٌ للأرض، وسوف يتصرف بنفس الطريقة داخل حظيرته كما كان سيفعل في إقليمه في البريّة متضمناً الدّفاع عنه بأنيابه وأسنانه إذا هاجمه أحدٌ ما.

ولا بدّ من التنويه وبموضوعيّة إلى أنّ مثل هذا المكان ليس أفضل ولا أسوأ للحيوان من وضعه في البريّة، طالما أنّ البيئة «طبيعيّة كانت أو مصطنعة» تؤمّن حاجاته، فهي ببساطة غطاء مثل البقع على جلد الفهد.

ربما يجادلك أحدهم إنّه إذا كان الحيوان قادراً على الاختيار بذكاء، فإنّه سيختار العيش في حديقة الحيوانات، إذ إنَّ الفرق الرئيسيّ بين الحديقة

والبريّة هو عدم وجود الطفيلّيات والأعداء، ووفرة الطعام بالدرجة الأولى، ونقص المؤونة ووفرتها ثانياً، فكّر في ذلك بنفسك، هل تفضل الإقامة بفندق رتيز مع خدمة غرفٍ مجانيّة والدخول غير المحدود للطبيب، أو أن تكون مشرداً بدون رفقة أو عناية بك؟

طبعاً، الحيواناتُ غير قادرة على هذا التمييز، الحيوانات تستطيع العيش ضمن حدود الطبيعة فقط. ولذلك فإنّ حديقةَ الحيوانات هي اكتشاف الحلّ بعناية. إنّ المكان المحدد، بالنسبة للحيوان، حين يقول لنا الحيوان: ابقَ خارجاً، وإما باستخدام بوله وإما إفرازاتٍ أخرى.

أما نحن فنقول له: ابق بالدّاخل، وذلك باستخدام الحواجز.

وضمن هذه الظروف من السِّلم الديبلوماسي، فإنّ كلّ الحيوانات تكون راضيةً، ونستطيع نحن أن نستريح ونواجه بعضنا بعضاً.

نستطيع أن نجد في الأدب الكثير من الأمثلة عن الحيوانات التي كان بإمكانها الهرب، ولكنّها لم تفعلْ، أو هربت ولكنّها عادت مجدّداً. هناك مثال لذلك عن الشمبانزي الذي تُرك باب قفصه غير مقفل، فانفتح على مصراعيه، وبقلقٍ متزايد زعق الشمبانزي وصفق الباب بشكل متكرر، والصراخ يصمّ الآذان بكلّ مرّة إلى أن نبّه أحد الزوّار الحارسَ الذي أسرع لمعالجة الموضوع.

خرج قطيع من أيائل الرّو في إحدى حدائق الحيوانات في أوروبا، من زريبته، عندما تُرك الباب مفتوحاً، اندفع القطيع إلى الغابة المجاورة نتيجة إخافتهم من قبل الزوّار، حيث وجد قطيعه الخاص به، الذي استطاع مساعدته، ومع ذلك فقد عاد قطيع الحديقة وبسرعة إلى حظيرته.

وفي حديقة حيوانات أخرى، كان العامل يتّجه إلى مكان عمله في وقتٍ مبكّرٍ، وكان يحمل ألواحاً خشبيّة، حينها أرعبه دبّ خرج من ضباب الصباح، واتّجه نحوه مباشرةً، وبخطا ثابتةٍ رمى الرّجلُ الألواحَ الخشبيّة وهرب للنّجاة بحياته، بدأ طاقم الحديقة فوراً البحث عن الدبّ الهارب، لكنّهم تفاجؤوا عندما وجدوه عاد إلى حظيرته فوراً، وانحدر إلى الحفرة سالكاً نفس الطريق الذي تسلّق الحفرة منه، وبنفس طريقة سقوط شجرةٍ، اعتُقد أنّ صوت الألواح السّاقطة على الأرض قد أرعبه، ولكنّي لا أصرّ على ذلك، وهذا لا يعني أنّني أدافع عن حدائق الحيوانات.

أغلقوا كلّ الحدائق إن أردتم ذلك، ولنبتهلْ أن تساعد الحياةُ البريّة في إنقاذ ما تبقّى من عالم الطبيعة. أنا أدرك تماماً بأن حدائق الحيوان لم تعد امتيازاً برأي الناس، وأنَّ الدين يواجه نفس المشكلة، ثمّة أوهامٌ محدّدة عن الحريّة تشوّههما معاً.

لم تعد حديقة بوند تشيري موجودةً، طُمرت كلّ الحفر فيها، وحُطّمت كلّ الأقفاص، إنّني أستكشِفُها الآن في المكان الوحيد المتبقّي في ذاكرتي.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس

اسمي ليس نهايةَ القصّة عن اسمي، فعندما يكون اسمك «بوب» لا أحد يسألك كيف تلفظه.

ولكن ذلك لا يحدث مع بيسين موليتر باتيل. اعتقدَ البعضُ أنّ اسمي «ب سينغ» وأنّني من السّيخ، واستغربوا أنّني لا أرتدي العمامة.

زرت مونتريال مرةً مع أصدقائي أثناءَ دراستي في الجامعة، وقد رغبتُ أن أتناولَ البيتزا في إحدى الأمسيات، ولم أستطعْ تحمُّل متحدّث ثانٍ بالفرنسيّة يقهقه عند سماع اسمي، لذلك عندما سألني الرجل على الهاتف إذا كان باستطاعته الحصول على اسمي، أجبته: أنا،... هو أنا.

بعد نصف ساعة، وصل طلب بيتزا باسم إيان هوليهان.

صحيحٌ أنّ من نقابلُهم يستطيعون تغييرنا، وأحياناً بشكل عميق وكبير، حتّى إنّنا سنتغيرُ بطريقة ما، فلن نبقى كما نحنُ، حتى بالنسبة لأسمائنا. الشاهد سمعان الذي يدعى بطرس، وماثيو المعروف باسم لاوي، ناثانيئيل وهو أيضاً بارثولماوس، يهوّذا وليس الاسخريوطي الذي أخذ اسم ثاديوس، وسمعان الملقّب باسم نيفار، وشاول الذي يصبح بولس.

أذكر في إحدى الصباحات، عندما كان عمري اثني عشر عاماً، وكنت قد وصلت لتوّي، عندما رآني ذاك الجنديّ الرومانيّ، فأضاءت عقلَه البليد ومضةٌ عبقريّة شريرة، رفع ذراعه، وأشار إليّ صارخاً: هذا باتيل المتبولّ pissing patel .

وخلال ثانيةٍ واحدةٍ، كان الجميع يضحك، سرت جانباً عندما كنا نسير بأرتال إلى الصفوف، كنت الأخير في الرتل، مرتدياً تاجاً من الأشواك.

انتشرت قسوة الأطفال بين الجميع، وهبّت الكلماتُ كنسمةٍ عبر الباحة. وليس هذا فحسب، بل وصل إلى مسامعي استفزاز لا مبرّر له أين هو باتيل المتبوّل pissing Patel ؟

كان عليّ أن أذهب، أو أن أواجه الجدار. هل أنت متبوّل؟ أو شيء ما كهذا؟ كنت أتجمّد وأتابع نشاطي متظاهراً عدم السماع.

حقيقةً كان يختفي الصوتُ، ولكنّ الأذيّةَ تبقى مثلَ رائحةِ البول بعد أن يتبخّر.

وبدأ المدرسون يفعلون ذلك أيضاً، كان الجوُّ حاراً عندما انقضى النّهار، وكان درس الجغرافيا في الصباح نموذجاً مصغّراً للواحة، بدأ بالتوسّع مثل صحراء ثار. ودرس التاريخ في مطلع النهار، كان يضجّ بالحيوية، ثمّ أصبح جافاً ومغبراً. أمّا درس الحساب بالتحديد، فقد كان مشوشاً.

وفي عملهم المسائي وبعد أن مسحوا جباههم ومؤخرة رقابهم بمناديلهم، ودون أن يقصدوا المضايقة أو الضحك، وحتى المدرسون نسوا الموعد بنسيان اسمي المائي، وحرّفوه بطريقةٍ مخجلة، وسمعت التغيير بتعديل طفيف في أصواتهم، كانوا وكأن ألسنتهم كسائقي عربات تقودها خيولٌ جامحة. لقد بذلوا جهدهم لنطق المقطع الأول (باي)، وبسبب الحرّ الشديد فقدوا السيطرة على ألسنتهم الجامحة في أفواههم المزبدة التافهة، ولم يتمكّنوا من كبح جماحها للوصول إلى المقطع الثاني (seen). في المرّات التالية، أضاعوا المقطعين. كنت أرفع يدي للإجابة وكان يتمّ التعريف بي بقولهم: نعم المتبول.

وغالباً ما كان المدرّس لا يدرك بماذا قد ناداني، وبعد برهة كان ينظر إليّ بسأمٍ متعجباً لمَ لَمْ أعطِ الإجابة، وفي بعض الأحيان كان طلاب الصفّ الذين هزمهم الحرّ لا يظهرون أيّ رد فعل، لا ضحكة مكبوتة ولا ابتسامة، ولكنّني كنت دائماً أسمعهم يطعنون بي.

قضيتُ سنتي الأخيرة في مدرسة القدّيس يوسف، وكنت أشعر بالاضطهاد مثل الذي وقع على النّبي محمد « ﷺ » في مكة، ومثلما خطط لهجرته إلى المدينة - هذه الهجرة التي ميّزت بداية العهد للمسلمين - فقد خططت للهروب والبدء بحياة جديدة.

بعد مدرسة القديس يوسف، التحقت بـ Petit Séminaire، وهي أفضل مدرسة متوسطة وثانوية في بوند تشيري، كان رافي هناك مثل كل الأخوة الصغار.

عانيت من السير على خطوات الأخ الأكبر، كان رياضيّ عصره في Petit Séminaire إذ كان يرتدي البولر، وكان قاذفَ الكرة العنيف، قائد أفضل فريق كريكت في المدينة، كابيل ديف الخاص بنا فقط.

كنت السباح الذي لا يصنع الأمواج، يبدو أنّ هذا قانون الطبيعة بأنّ هؤلاء الذين يعيشون بجانب البحر متهمون بأنّهم سباحون، تماماً مثلما يُتّهم الناس الذين يعيشون في الجبال، بأنّهم متسلقو جبال، ولكنّ هروبي لن يكون باتّباع ظلّ أحدهم، بالرغم من أنّني اتخذت اسمي *بيسين* بسبب ذلك، وحتى لو كان رافي أخي.

كان لديّ خطةٌ أفضل من تلك، وضعت خطّتي بالتّنفيذ منذ اليوم الأول لي في المدرسة، وبنفس الصفّ كان حولي آخر من سانت جوزف، بدأ

الدرس بنفس الطّريقة التي تبدأ بها كلّ الصفوف الجديدة، وهي تدوين الأسماء كنّا نقدّم أسماءَنا بصوت عالٍ ونحن في مقاعدنا بالترتيب الذي كنّا نجلس فيه:

كاناباتي كوما قال: كاناباتي كومار

فيبين ثاث قال: فيبين ثاث

شمشول هودها قال: شمشول هودها

بيتر دارماراج قال: بيتر دارماراج

كانت توضع إشارةٌ أمام كلّ اسمٍ في القائمة مع رمزٍ يساعد الأستاذَ على التذكّر، كنت عصبيّاً جداً.

آجيش جيادسون قال: آجيش جيادسون، على بعد أربعة مقاعد.

سامباث ساروجا قال: سامباث ساروجا، على بعد ثلاثة مقاعد.

ستانلي كومار قال: ستانلي كومار، على بعد مقعدين.

سيلفستر نافين قال: سيلفستر نافين، أمامي تماماً.

حان دوري، حان الوقت لقمع إبليس، أنا قادم أيتها المدينة (المدينة المنوّرة). نهضتُ من مقعدي، وهرُعت نحو السبورة، وقبل أن ينطق الأستاذ بكلمةٍ التقطت الطّبشورة، وقلت وأنا أكتب: اسمي هو بيسين موليتور باتيل، معروف للجميع. ووضعت خطّين تحت أوّل حرفين للاسم الذي عُرفت به * باتيل*، وأضفتُ π = ٣,١٤ قياس صحيح، ورسمت دائرةً كبيرةً، ثمّ رسمت قطر الدّائرة لقطعها إلى اثنين واستحضار الدرس

الأول في الهندسة. ساد الصمت وكان الأستاذ يحدّق بالسّبورة، قبضت أنفاسي، ثمّ قال: جيّد جداً يا باي، اجلس ولكن يجب أن تطلب الإذن قبل مغادرة المقعد في المرة القادمة.

- نعم سيدي.

وضع إشارةً عند اسمي، ونظر للفتى التالي.

منصور أحمد قال: منصور أحمد

لقد نجوتُ.

غوثام سلفاراج قال: غوثام سلفاراج

استطعت أن أتنفس.

آرون آناجي قال: آرون آناجي

بداية جديدة.

كرّرْتُ هذه الحيلة مع كلّ مدرّس، فالتكرار مهم ليس فقط في تدريب الحيوانات بل كذلك في تدريب البشر.

بين فتىً ذي اسمٍ شائعٍ وآخر، كنت أندفع للأمام لأزخرف اسمي أحياناً بصرخة عالية، كإعادة تفاصيل مولدي، والمثير للدهشة أنّ الأولاد كانوا يصرخون معي بنغماتٍ متصاعدةٍ تبلغُ الذّروةَ بعد أخذِ نفسٍ سريع، عندما كنتُ أضعُ خطاً تحت الشهرة المناسبة مع كلّ نغمةٍ متصاعدةٍ لاسمي الجديد، والذي أوشك أن يكونَ مصدرَ بهجة لقائد الكورس في الكنيسة.

كان بعضُ الأولاد يتابعون هامسين وبسرعة: (ثلاثة نقطة واحد أربعة) بينما كنت أكتب بأسرع ما استطعت، وأنهيْتُ الحفلةَ الموسيقيّةَ بتقطيع الدّائرة بقوّةٍ، حتى جعلتُ أجزاءَ الطّبشورة تتطاير.

عندما رفعت يدي ذلك اليوم - وهذا ما كنت أفعله عندما تأتي الفرصة - أعطاني المدرّسون الفرصة لأتكلّم بكلمة مفردة كانت كالموسيقا لأذني.

تابعني الطلاب بشكل ملائم، حتى شياطين مدرسة سانت جوزيف.

في الحقيقة انتشر هذا الاسم، فنحن، في حقيقة الأمر، أمّةٌ من المهندسين الطّموحين. بعد ذلك بمدّةٍ قصيرةٍ، كان هناك من يُدعى أومبراكاش الذي يُسمي نفسه أوميفا، وفتىً آخر يتظاهرُ بأنّه أبسيلون، ولبرهة كان هناك غاما، لامبادا ودولتا، كنتُ الأوّلَ والأكثرَ قدرةً على التحمّل من اليونانيّين في petit semiraire.

حتى أخي كابتن فريق الكريكيت الإله المحلّي، وافق على ذلك، أخذني جانباً بالأسبوع التالي وقال:

- ما الذي أسمعه عن اسمك...؟

بقيت صامتاً، لأنّ أيّ سخرية متوقّعَةِ الحصول كانت ستأتي، ولا مجال لتجنّبها.

- لم أدرك إن كنت تحبّ اللّون الأصفر كثيراً.

- اللّون الأصفر؟؟ التفتّ حولي، يجب ألّا يسمع أحد ما الذي كان يوشك أن يقوله، ولا سيّما أيّ أحد من الخانعين له.

قلت هامساً: رافي ماذا تعني؟

- كلّ شيء جيد بالنسبة إلي يا أخي، وأي شيء أفضل من بيسينغ وحتى ليمون باي، ابتسم وهو يمشي الهوينا مبتعداً وقال: يبدو وجهك قد احمرّ قليلاً.

ولكنّه بقي هادئاً، وهكذا وفي ذلك الحرف اللاتيني الذي يبدو مثل كوخ ذي سقف تنكٍ مجعّدٍ، وبذلك الرقم غير المنطقيّ الذي يحاول العلماء بواسطته فهم الكون وجدت ملاذاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس

إنّه طباخ ماهر، يعبق بيته برائحة شيء لذيذ، تبدو رفوف البهارات مثل صيدليّة، عندما يفتح ثلاجته أو خزانته تشاهد أنواعاً عديدة لا تعرفها، بالحقيقة لا أستطيع معرفة بأيّ لغةٍ هي.

نحن في الهند ولكنّه يقدم أطباقاً غربيةً ممتازةً أيضاً، يضعُ لي المعكرونة بالجبن الحرّيف جداً، والأكثر إثارةً والذي لم أذق مثله في حياتي، وشطائر التاكو بالخضار التي تحسده عليها كلّ المكسيك. لاحظت شيئاً آخر، خزانته مزدحمة بالمربّيات، خلف كلّ باب وعلى كلّ رفّ تقفُ جبالاً من علبٍ وصناديقَ مرصوصةٍ بأناقة، إنّها مؤونة من الطعام تكفي حصار لينينغراد.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع

من حسن حظي أنّني حصلت في شبابي على بعض المدرّسين الجيدين رجالاً ونساء، وقد دخلوا إلى رأسي المُظلم، وأشعلوا فيه عودَ ثقاب. كان السيّد ساتيش كومار مُدرّس البيولوجيا في petit seminaire والشيوعي النّشط الذي كان يأمل دائماً أن تتوقف تاميل نادو عن انتخاب نجوم السينما وأتباع طريقة كيرالا. واحدٌ منهم كان صاحب المظهر الأكثر تميزاً، كانت قمةُ رأسه صلعاءَ مُدبّبة، ومع ذلك فقد كان لديه أكبر فكّين مؤثّرين رأيتهما في حياتي، وكتفان ضيقان فسحا المجالَ لمعدة ضخمة كانت تبدو كقاعدة جبل، غير أنّ الجبل يقفُ في الهواء، وكانت معدته تختفي بشكل مُفاجئ وأفقي في لهاثه.

كانَ بالنسبة لي لغزاً، فكيف تستطيع رجلاه اللتان تشبهان العصا أن تحملا كلّ هذا الثقل فوقهما؟! ولكنّهما فعلتا ذلك، بالرغم من أنّهما تتحركان بشكل مُثيرٍ للدهشة أحياناً، وكأنّ ركبتيه تستطيعان الانثناء بكلّ الاتّجاهات، فكانت بنيته هندسيّة، يشبه مثلثين، الصغير يحمل الأكبر، ويستقيمان على خطين متوازيين، ولكنّه عضوياً كان ذا تآليل في حقيقة الأمر وبنوعين للشعر الأسود، يتدفقان من أذنيه، كان ودوداً ذا ابتسامةٍ تأخذ كلّ قاعدة وجه المثلّث، عُرف عن السيّد كومار أنّه أوّلُ مُلحدٍ قابلته معترَف به، لم أكتشف ذلك في غرفة الصفّ، بل في حديقة الحيوان، إذ كان زائراً منتظماً، يقرأ اللّوحاتِ والملاحظات التفصيليّة بكاملها، ويعجب بكل حيوان يراه.

لكنّها انتصارٌ للمنطق والميكانيكيّة والطبيعة ككلّ، كانت توضيحاً جميلاً للعلم، أكثر ما كان يثيرُ اهتمامه عندما يُظهر الحيوان شعوره برغبة التزاوج.

ويقول جورج ماندل متذكراً أبا الجينات وعندما يحين الوقت لإظهار همّته: تشارلز دارون أبو الاصطفاء الطّبيعي، وما كنا نعدُّه ثُغاء أو نخيراً (خنزير) أو هسيساً أو شخيراً أو زمجرةً أو دمدمةً أو عواءً أو سقسقةً أو صراخاً، ما هي إلّا نبرةُ صوتٍ حادّة للغرباء.

عنما كان السيّد كومار يزورُ حديقة الحيوان كان يأخذ نبضَ الكون، وعقله المتفحّص دائماً يؤكد له أنّ كلّ شيءٍ في وضعه الصحيح، كل شيء نظاميّاً، كان يغادر الحديقة وهو مُنتشٍ علميّاً.

المرة الأولى التي رأيت فيها شكله المثلثَ يتمايلُ ويترنّحُ في الحديقة، شعرتُ بالخجل للاقتراب منه، وعلى قدر محبتي له كمدرّسٍ، إلّا أنّه شخصٌ ذا سلطة، وأنا كنت مرؤوساً، وأخافه قليلاً، وكنت أراقبه عن بعد، لقد جاء لتوّه إلى حفرة وحيد القرن، كان وحيدا القرن الهنديان مثار جذبٍ في الحديقة، وذلك بسبب الماعز.

وحيد القرن حيوانٌ اجتماعيٌّ، عندما حصَلْنا على بيك، وهو الذّكرُ المتوحشُ اليافعُ، كان يبدي علاماتِ المعاناة من العزلة، ويأكل القليل القليل، وبإجراءٍ كبديلٍ بينما يبحث عن أنثى فإنّ أبيه تصوّرَ أنّ بيك لا يستطيع تعوّدَ العيش مع الماعز.

إذا نجح الأمر فإنّه سيحافظ على حيوان ثمين، وإذا لم ينجح فإنّ الأمر سيكلّف بضع عنزات.

نجح الأمر بشكل رائع، أصبح بيك وقطيع الماعز لا ينفصل بعضهم عن بعضٍ حتى بعد وصول سوميت، والآن عندما كان وحيدا القرن يستحمّان،

كانت العنزات تحيط بالبركة الموحلة، وعندما كانت العنزات تأكل في زواياها، كان بيك وسوميت يقفان بجانبهنّ مثل الحراس، كانت تلك الإجراءات الحيوية معروفة جداً للعموم.

نظر السيّد إليّ ويده تمسكُ السياج، ابتسمَ لي، وبالأخرى أشارَ إليّ بالاقتراب، وقال: مرحباً بك.

- مرحباً سيدي، من الجيّد أن تأتي إلى حديقة الحيوان.
- أنا آتي إلى هنا طوال الوقت، قد يقول أحدهم إنّ هذا معبدي، وكان يشير إلى الحفرة، لو كان لدينا سياسيون مثل الماعز هذه ووحيد القرن فستكون المشاكل بمجتمعنا أقلّ بكثير مما هي عليه، لسوء الحظّ فإنّه لدينا رئيس وزراء يلوّح بدرعٍ معدنيّة لوحيد القرن دون أيّ إحساس جيّد.

لم أكن أعرف الكثير عن السياسة، لقد تذمّر أبي وأمي كثيراً من السيّدة غاندي، ولكن ذلك لم يَعْنِ لي الكثير، كانت تعيش بعيداً في الشمال وليس في حديقة حيوانات بوند تشيري، ولكنّني شعرت أنّه يجب أن أقول شيئاً. فقلت: الدين سوف ينقذنا، فالدين - حسب ما أتذكّر - قريب جداً من قلبي.

- الدين؟ ابتسم السيّد كومار ابتسامةً عريضةً، لا أؤمن بالدين، الدين هو الظّلام.
- الظّلام؟ أثار كلامه دهشتي وحيرتي فالظّلام هو آخر شيء ممكن للدين أن يكونه، الدين هو النور، هل كان يختبرني؟ هل كان يقول الدين هو الظلام بالطريقة نفسها التي كان يستخدمها بالصّفّ؟

يقول أشياء مثل «الثدييات تضع بيوضاً»، ليرى إذا كان أحد سيصحّح له (البلاتيبوس* فقط يا سيدي).

لا توجد أسباب لتجاوز التفسير العلمي للواقع ولا يوجد سبب وجيه للاعتقاد بأي شيء سوى تجربتنا الحسيّة، فالتفكير الصّافي والاهتمام الوثيق بالتفاصيل والمعرفة العلميّة القليلة ستظهرُ أنّ الدّين هُراء خياليّ... الله غير موجود. هل قال ذلك؟ أم إنّني أتذكّرُ سطورَ المُلحد الأخير؟

على أيِّ حال هي شيء من هذا القبيل، لم يسبق أن سمعتُ مثلَ هذه الكلمات، لماذا نجيز الظّلام؟ كلّ شيء موجودٌ هنا وواضحٌ إذا نظرنا فقط بدقّة.

كان يشير نحو بيك (وحيد القرن)، ورغم أن بيك يثيرُ إعجابي كثيراً فإنني لم أفكر قطّ بوحيد القرن كمصباح كهربائي.

تكلم ثانيةً قائلاً: يقولُ البعض إنَّ الإله قد مات أثناء التّقسيم في عام ١٩٤٧، ربّما يكون قد مات في عام ١٩٧١ أثناء الحرب أو ربّما يكونُ قد ماتْ أمس في مَلجأ هُنا في بوند تشيري، هذا ما يقوله البعض يا باي. عندما كنتُ في مثل سنّك، كنتُ أعيش في فراش بألمٍ مُبرّح من شلل الأطفال، وكنتُ أسأل نفسي كلّ يوم: أينَ الله؟ أينَ الله؟ أينَ الله؟ لم يأتِ الله أبداً، لم يكن الله هو الذي أنقذني يا باي، بل كان الدّواء.

العقلُ هو النّبي الذي أؤمن به وهو يخبرني أنه عندما تتوقف السّاعة، نموت. إنّها النهاية، إذا لم تعمل السّاعة جيداً فيجب أن نُصلحها بأنفسنا. في يوم من الأيام سنستحوذ على وسائل الإنتاج، وسيكونُ هناك عدالة على الأرض.

كان هذا الشيء القليل يعني لي الكثير، كانَ الأسلوب صحيحاً كلّه حُب وشجاعة، ولكن التّفاصيل بدتْ كئيبةً. لم أقل شيئاً، ولم يكن ذلك لخوفي من

إغضاب السيّد كومار، كنت أكثر خوفاً أنه ببضع كلمات قد يقولها، سيتحطّمُ شيئاً أحبُّه. فكيف إذا كانت كلماته لها نفس تأثير شلل الأطفال عليّ؟

كم هو مرضٌ مرعبٌ الذي سيحدث إذا استطاعتْ كلماته قتلَ الله في الإنسان.

خرج ومكانه يغوص ويتمايل في بحرٍ كان قبلاً أرضاً ثابتة.

- لا تنسَ اختبار يوم الثلاثاء، ادرسْ جيداً، ١٤ ,٣!

- بالتأكيد سيد كومار.

أصبح أستاذي المفضّل في Petit Séminaire، وهو السّبب الذي جعلني أدرس علم الحيوان في جامعة تورنتو.

شعرتُ بمقامي العالي معه، وكأنّني مَلك، كان ذلك مفتاحُ كلّ اللّغز، وهو أنّ الملحدين هم أخوتي وأخواتي من مذهبٍ مُختلف، وأنّ كل كلمة يقولونها تنطقُ بالإيمان faith، وهم مثلي تماماً يذهبونَ إلى أبعدَ ما يمكن لأرجل العقل أن تحملهم ثمّ يقفزون.

سأكونُ صادقاً بهذا الخصوص، ليسَ الملحدين هُم من يعلقون بحوصلتي، ولكن اللّاأدريين.

فالشكُّ مفيدٌ لفترةٍ مُعينةٍ، إذ يجبُ علينا جميعاً أن نمرّ عبر بستان جثسيماني. إذا كان المسيح نفسه قد تعارك مع الشكّ، فلا بدّ لنا أيضاً أن نحذو حذوه. لو أنّ المسيح قضى ليلة مكروبةً في الصلاة، ولو أنه خرج عن الصليب صارخاً: «إلهي، إلهي لماذا تركتني»؟

بالتأكيد إذاً يُسمح لنا أن نشكّ. ولكنّنا يجبُ أن نمضي قدماً.

إن اختيارنا للشك كفلسفة للحياة يشبه اختيار الجمود كوسيلة للنقل.

الفصل الثامن

عادةً ما نقول بالتجارة إِنَّ أخطر الحيوانات في حديقة الحيوان هو الإنسان، وبشكل عام نعني كيف إنّ نوعنا الضّاري، وبشكل مفرط، قد جعل الكوكب كلّه فريسةً لنا، ونضع باعتبارنا، وبالتحديد الأشخاص الذين يطعمون الشَّصُّ[1] لثعلب الماء، وموس الحلاقة للدّببة، والتّفل الذي يحتوي مساميرَ صغيرةً للفيل، وأشياء صلبة متنوعة كأقلام الحبر الجاف، كلبسات الورق والدبابيس وشرائط البلاستيك والأمشاط وملاعق القهوة وحذوات الخيول وقطع من الزجاج المكسور وخواتم ومجوهرات أخرى **(**عدد من أساور البلاستيك الرخيصة وأساور الزجاج الذهبية**)** كذلك مصاصات شرب العصير، وسكاكين المطبخ البلاستيكية، وكرات البوينغ بونغ وكرات التنس وهكذا**.**

إنّ الإبلاغ عن حيوانات الحديقة التي ماتت بسبب إطعامها أجساماً غريبةً، تشمل الغوريلا البسون واللقالق والريّة، والنعامات والفقمات وأسود البحر والقطط الكبيرة والدببة والجمال والفيلة والقردة وأنواع كثيرة من الغزلان وحيوان المجر والطير المغرد**.**

وقد انتشر موت العمالقة بين مراقبي حدائق الحيوانات، كموت فقمة فيل الثّور، وهو حيوان مهيب يزن طنين، وكان نجم حديقة الحيوانات الأوروبيّة

(١**) الشَّصُّ:** حديدة معقوفة يصطاد بها السمك**. [**المترجم**].**

والمحبوب من كلّ الزوّار، مات بسبب نزيف داخليّ بعد أن أطعمه أحدهم زجاجةً مكسورةً. إنّ القسوةَ غالباً ما تكون أكثر فعاليّة ومباشرة، وقد تضمّن الأدب تقارير عن الكثير من أساليب التعذيب الذي يمارس على حيوانات الحديقة، فمثلاً: طائر أبو مركوب يموت إثر صدمة بعد تحطيم منقاره بمطرقة.

ذكرُ الموز، فقَدَ لحيته ومعها قطعةً من اللحم بحجم السّباب بسكين أحد الزوار، ثمّ تمّ تسميمه بعد ستّة أشهر. أحد القردة تمّ كسر ذراعه بعد وصوله للمكسّرات المقدّمة له، وهُوجِم قرنا غزال بمنشار، وطعنتْ زرافة بسيف. واعتداءات كثيرة على حيوانات أخرى بعكّازات ومظلّات ودبابيس شعر وسنّارة حياكة ومقصّات وكلّ الأشياء الأخرى. وغالباً ما يكون الهدف منها اقتلاع العين أو أذية الأعضاء التناسلية، إضافةً إلى عمليات التسميم.

هناك بذاءاتٌ أكثرُ غرابةً، إذ تفاجأ من الشواذّ جنسياً الذين يضايقون القردة والأفراس القزمة والطيور.

ستدهش عندما تعرف أنّ رجل دين غريب الأطوار قام بقطع رأس أفعى، وآخر مخبول تبوّل في فم أيل الألكة.

كنّا محظوظين نسبياً في بوند تشيري، بمنأى عن الساديين الذين لجؤوا بكثافة إلى حدائق الحيوان الأوروبية والأمريكيّة.

ومع ذلك فقد اختفى الأوغتي الذهبي، سرقهُ شخص ما وأكله، اتُّهم الأب بذلك.

طيورٌ متنوعة منها طيور التدرج والطواويس وطيور المكاو فقدت ريشها بسبب أشخاص طامعين بجمالها.

ألقينا القبض على رجلٍ يحملُ سكيناً، ويتسلّق إلى حظيرة غزال الفأر، قال إنّه سيعاقب رافانا الشرير الذي أخذ هيئة غزال عندما خطف سيتا زوجة راما.

قُبِضَ على رجلٍ آخر يحاولُ سرقةَ أفعى الكوبرا، حيثُ كان مُعجباً بالأفاعي، وقد ماتت الأفعى التي كان يمتلكها، وتمَّ إنقاذ الاثنين: الأفعى من العبودية والموسيقا السيّئة، والرجل من عضةٍ قاتلة.

لا بدّ من طريقة للتعامل مع قاذفي الحجارة الذين يجدون الحيوانات غاية في الهدوء، ويريدون رؤية ردّة فعلها.

سأخبركم عن سيدة أمسك الأسد ثوبها، فبدأت تدور مثل اليويو مفضلةً الإحراج الأخلاقيّ على النهاية الماديّة، لم يكن ذلك حادثاً، انحنت فوق القفص دافعةً يدها في القفص وملوحة بنهاية ثوبها (الساري) في وجه الأسد، ولم نعرف ما هي الغاية من ذلك، لم تصب بأذىً حيث كان هناك العديد من الرجال الرائعين الذين هبّوا لنجدتها، كان تفسيرها المضطرب للوالد: هل سمع أحدكم عن أسد يأكل الساري المصنوع من القطن؟

كنت أظن أنّ الأسود حيواناتٌ لاحمة، فقد كان أسوأ مثيري الشغب هم الزوار الذين يقدمون الطعام للحيوانات. فبالرغم من حذرنا، أخبرنا الطبيب البيطريّ الدكتور آتال عن عدد الحيوانات التي تعاني إضرابات هضميّة، فكانت تلك أكثرَ الأيّام عملاً في الحديقة.

وقد سبّب الطعام الشهيّ حالات التهاب الأمعاء أو التهاب المعدة الذي عزاه إلى الكثير من الكاربوهيدرات ولا سيّما السكر.

كنا نتمنى أحياناً أن تلتزم الناس بالحلويات، فلدى الناس فكرة أنّ الحيوانات يمكن أن تأكل أي شيء دون أدنى تأثير على صحتها لكن الأمر ليس كذلك.

أحد دببة الكسلان أصيب بالتهاب أمعاء حادّ ونازف بعد أن تناول سمكةً فاسدةً قدمها له رجل كان مقتنعاً أنّه يعمل عملاً طيباً مع الدّب. تحت كوة التذاكر مباشرة كتب والدي على جدار وبحروف حمراءَ برّاقةٍ السؤال التالي:

هل تعلم ما هو أخطر حيوان في حديقة الحيوان؟

سهم يشير إلى ستارة صغيرة، وكانت الكثيرُ من الأيادي المتشوّقة والفضوليّة ترفعُ السّتارة، وكان علينا إعادتها لمكانها بانتظام. كان خلفها مرآة، وأدركْتُ من نفسي أنّ الوالد كان يعتقد أنّ هناك حيواناً آخر أخطر منا نحن، ومشهوراً جداً، وهو في كل قارة وفي كلّ موطن «وهو رؤية الناس للحيوانات على أنّها تشبه البشر».

كلّنا صادفنا أو امتلكنا إحداها، إنّه حيوان جميل وودود ومحبٌّ ومخلص ومرح ومتفهّم. هذه الحيوانات تتربّصُ بنا من محلات بيع الألعاب وحدائق الحيوانات الخاصة بالأطفال. يتم سرد قصص لا تعد ولا تحصى عنها. تعمل هذه القصص عمل التعويذات مستخدمة الحيوانات الشريرة والدمويّة والمنحرفة لتشعل غضب المَهُوْسِيْنَ الذين ذكرتهم للتوّ، فينفّسون عن حقدهم عليها بالقفازات والمظلّات، في كلتا الحالتين فإنّنا ننظرُ للحيوان ونرى مرآة.

إنّ هاجس وضع أنفسنا في مركز كلّ شيء هو الهلاك، ليس للاهوتيين فحسب ولكن لعلماء الحيوان كذلك.

تعلّمت درساً هو أنّ الحيوان يبقى حيوان، بعيداً عنا بشكل أساسيّ وعمليّ.

تعلّمتُ ذلك مرتين: مرةً مع أبي ومرةً مع ريتشارد باركر.

كان صباح يوم الأحد، وكنت ألعب وحدي بهدوء، نادانا أبي: تعالوا يا أولاد.

كان هناك خطأٌ ما، تسببت نبرة صوته في إطلاق جرس إنذار صغير في رأسي، راجعت ضميري بسرعة، كان الأمر واضحاً. لا بدَّ أن رافي في مشكلة مرة أخرى، استغربت ما فعله ثانية هذه المرة، مشيتُ إلى غرفة المعيشة، كانت أمي هناك، وكان هذا شيئاً غيرَ عادي، إنّ تنظيمَ الأطفال يشبه رعاية الحيوانات الذي دائماً ما يُترك لوالدي. دخل رافي أخيراً، وكان الذنب مدوّناً على كامل وجهه.

توجه أبي لكلينا قائلاً: رافي، بيسين، لديّ درسٌ لكما اليوم.

قاطعته أمي بقولها: آه حقاً؟ وهل هذا ضروري؟ تورّد وجهها.

ابتلعتُ ريقي، فإذا أمّي الهادئة جداً وذات الأعصاب الباردة جداً قلقةً حتى منزعجة، فهذا يعني أنّنا واقعون في مشكلة خطيرة جداً.

تبادلت النظرات مع رافي.

أكمل أبي كلامه وعلامات القلق تعلو وجهه قائلاً: نعم إنّها كذلك، يمكن لها أن تنقذ حياتها.

تنقذ حياتنا!! لم تكن أكثر من جرس إنذار صغير يرنّ في رأسي، إنّها أجراسٌ كبيرةٌ الآن كالأجراس التي سمعناها آتيةً من كنيسة قلب المسيح المقدسة، ليست ببعيدة عن حديقة الحيوان.

قالت أمي: ولكن بيسين لا يزالُ في الثامنة من عمره فقط، إنّه أكثرُ واحد يقلقني.

صرخت: أنا بريء، إنّها غلطةُ رافي ومهما تكن، فهو من فعلها.

نظر رافي إليّ نظرةً شيطانيّة وقال، أنا؟ لا لم أرتكب أيّ خطأ.

اسكت، قالها أبي، نظر لأمي رافعاً يده ومشيراً نحوي: غيتا لقد رأيتِ بيسين؛ إنّه في العمر الذي يسمح للأولاد بالمراوغة ودسّ أنوفهم بكلّ مكان.

أنا؟ أنا مراوغ؟ وأدسّ أنفي بكل مكان؟ لا، لست كذلك، لست كذلك، دافعي عني يا أمي، دافعي عني، أتوسّلُ إليك من أعماقي، ولكنّها تنهّدت وهزّت برأسها، فكانت إشارة على أنّ العملَ سيُنَفّذ.

تعالا معي: قال أبي.

انطلقنا مثل السجناء نحو الإعدام.

غادرنا المنزلَ وعبرنا البوابةَ ودخلنا حديقةَ الحيوان، كان الوقتُ مبكراً وحديقة الحيوان لم تُفتح للعامّة بعد، كان مربّو الحيوانات والبستانيون متّجهين إلى عملهم، شاهدت سيتارام الذي يعتني بإنسان الغاب، حارس الحديقة المفضّل عندي، توقّف ونظر إلينا ونحن نمرّ بجانبه، مررنا بالطّيور والدّببة والقرود ومنزل الحيوانات البريّة ووحيد القرن والفيلة والزرافات.

وصلنا إلى القطط الكبيرة والنّمور والأسود والفهود، كان بابو مربي هذه الحيوانات بانتظارنا، استدرنا ومشينا في الطّريق المؤدّي إليها وفتحنا قفل الباب، ثمّ اتجهنا إلى مسكن القطّة التي سكنتْ في مركز جزيرة محاطةً بخندقٍ، دخلنا في مكان وهو عبارةٌ عن كهف من الإسمنت، واسعٍ وباهتٍ

ومستدير الشكل، مكانٌ دافئٌ ورطبٌ تفوح منه رائحة بول القطة كان هناك أقفاص كبيرة في كلّ مكان، وكانت مقسّمة بقضبان حديدية ثخينة وخضراء، كان يسقط من أضواء السقف ضوء مصغر، حيث القفص موجودٌ، شاهدنا الغطاء النباتيّ الذي يحيط بالجزيرة مغموراً بضوء الشمس، وقد لفت انتباهي أنّ جميع الأقفاص شاغرةٌ عدا واحداً منها، قفصُ ماهيشا البطريرك، النّمر البنغالي وهو حيوان نحيل وضخم يبلغُ وزنه خمسمئة وخمسين باونداً، قد تمّ احتجازه.

وحالما دخلنا، قفز إلى قضبان الحديد في قفصه وأطلق صرخةً بملء حنجرته، وبسط أذنيه على جمجمته مركّزًا نظره على بابو، كان الصوت عالياً جداً ومخيفاً، وبدا وكأنّ القفص يهتزّ بكامله، اصطكت ركبتاي فالتصقت بأمي التي كانت هي أيضاً ترتجف، حتى أبي تسمّر في مكانه. فقط بابو بدا غيرَ مهتمّ للصراخ وللنظرة القاسية التي اخترقته كمثقب، كان لديه ثقةٌ بالقضبان الحديدية ناتجة عن اختبار، أمّا ماهيشا فقد أخذ يذرع قفصه جيئة وذهاباً.

- التفت أبي نحونا، وقال بصوت عالٍ فاق زمجرة ماهيشا: ما هذا الحيوان؟

- أجبناه بنغمة واحدة وبإذعان ووضوح تام: إنّه نمر.

- هل النمور خطرة؟

- نعم يا أبي النمور خطرة.

- صرخ عالياً: النمور خطرة جداً، أريد منكما أن تفهما أنّكما، وتحت أي ظرف، ألّا تلمسا نمراً مطلقاً أو تلاطفاه أو تضعا أيديكما خلال قضبان القفص أو حتى تقتربا من القفص، هل هذا واضحٌ يا رافي؟

أومأ رافي برأسه بقوة. وأنت يا بيسين؟ أومأتُ برأسي بقوة أكثر.

أبقى عينيه عليّ، أومأتُ برأسي بقوة مرةً أخرى، وفوجئت أنّها لم تفرقع ولم يسقط رأسي إلى الأرض.

كنتُ أقولُ مدافعاً عن نفسي إنّه بالرغم من نسب الصفات البشرية إلى الحيوانات، حتى إنّهم أصبحوا يتكلمون الإنجليزية بطلاقة، وطيور الدراج تتذمّرُ بغرورٍ بلهجة إنكليزية كلما يبرد شأنهم، وقرود البابون في الشقة تخطط للفرار بعد سرقة بنك، ولهجة التهديد لأفراد عصابة أمريكيين، كان التخيل لديّ قوي جداً.

وعن قصد ألبست الحيواناتِ ملابسَ أليفةً من مخيلتي، ولكنّني لم أخدع نفسي أبداً بشأن الطبيعة الحقيقية لرفقائي في اللعب. كان لفضولي حسٌ أقوى من هذا بكثير.

لا أدري من أين حصل أبي على فكرة أنّ ابنه الأصغر كان متلهفاً ليدخل قفصاً مع حيوان لاحم شرس، ولكن ومهما كان مصدر هذا القلق الغريب - وكان الأب قلقًا - كان من الواضح أنه مصمم على التخلص منه في ذلك الصباح بالذات.

إذ تابع قائلاً: سأريك كيف هي النمور الشرسة، أريدكما أن تتذكرا هذا الدرس لبقية حياتكما.

التفتُّ نحو بايو وأومأ برأسه، غادر بايو، تابعتْه عينا ماهيشا، ولم يزحهما عن الباب الذي اختفى منه.

عاد بعد ثوان حاملاً معه عنزة بأرجل مربوطة، أمسكتني أمي من الخلف.

وقد تحوّلتْ همهمةُ ماهيشا إلى زمجرة عميقة من حَنجرته، أزال القفل... فتح ودخل وأقفل القفص الملاصق لقفص النمر.

كان يفصل بين القفصين قضبانٌ وبابٌ مسجور. نهض ماهيشا في الحال نحو القضبان الفاصلة، وأخذ يمشّطهم بمخالبه، أضاف إلى همهمته الآن نباحاً صادماً مكتوماً، وضع بابو العنزة على الأرض وكانت خاصرتاها تتنفسان بعنف، تدلى لسانها من فمها، وكانت عيناها تدوران بمحجريهما.

فكّ رباط أرجلها، نهضت العنزة على أقدامها، ثمّ غادر بابو القفص بنفس الطريقة الحذرة التي دخل بها إليه، كان للقفص أرضيتان، واحدة على نفس المستوى معنا، والثانية للخلف أعلى بمقدار ثلاثة أقدام، وهي التي تقود خارجاً نحو الجزيرة.

أظهر ماهيشا عدم اهتمامه ببابو، وجارى الخطوات في قفصه بحركاتٍ سريعةٍ ودون جهد يُذكر، ربض واستلقى دون حراك، وكان ذيله الذي يتحرك ببطء هو الإشارة الوحيدة لتوتره.

قفز بابو إلى الباب السحري بين القفصين، وشارَعَ بفتحه، وبشيء من القناعة بقي ماهيشا صامتاً، سمعتُ شيئين في تلك اللّحظة، سمعتُ أبي يقول: لا تنسوا هذا الدرس أبداً وكان يبدو متجهّماً، ولا تنسوا ثغاء العنزة لا بدّ أنّها كانت تثغو طوال الوقت ونحن لم نكن نسمعها.

شعرت بيد أمي تضغط على قلبي الذي كان يخفق بسرعة، صمد الباب السحري للصرخات الحادة، وأخذ ماهيشا يستجمع نفسه، فبدا وكأنّه يوشك أن يقفز عبر القضبان، أظهر تردّده بين البقاء حيث فريسته أقرب رغم أنّها ليست بمتناول يده، أو الانتقال إلى المستوى الأوّل المنخفض، وبذلك ستكون

فريسته أبعد، ولكن هناك كان الباب السحري، إذ رفع جسده وزمجر ثانية، بدأت العنزة تقفزُ عالياً بارتفاعاتٍ مدهشة، لم يكن لديّ فكرةٌ أنّ العنزة تستطيع القفز عالياً جداً، ولكن خلفية الأقفاص كانت جداراً إسمنتياً عالياً وصقيلاً، انفتح الباب السحري بشكل مخيف، ساد الصمت ثانيةً ما عدا الثغاء وطقطقة حوافر العنزة على الأرض، سال شريطٌ من اللونين الأسود والبرتقالي من قفص إلى قفص آخر.

عادةً لا تُعطى القطط الكبيرة الطعام يومياً في الأسبوع، وذلك لتماثل الأوضاع في البريّة. اكتشفنا لاحقاً أنّ أبي أمرَ ألّا يُعطى ماهيشا الطعام لثلاثة أيام.

لا أعلم إذا كنتُ قد شاهدتُ الدّم على ذراعي أمي من قبل، أو إذا لطخته كما أذكر لاحقاً بفرشاة كبيرة، ولكنّني سمعتُ ما يكفي لإخافة ذلك الكائن النباتي في داخلي.

دفعتنا أمّي خارجاً، كنّا بحالة هيستيرية، وكانت هي غاضبة.

- كيف تجرؤ يا سانتوش؟ إنّهما طفلان، وسيظلّان مرعوبين بقيّة حياتهما.

كان صوتها حادّاً ومُرتجفاً، ورأيتُ الدّموعَ في عينيها. شعرْتُ بالتحسّن.

- غيتا يا عصفورتي إنّها من أجلهم.

- ماذا سيحدث لو أدخل بيسين يده خلال القضبان يوماً ما، ليلمس الفروَ البرتقاليّ الجميل؟ من الأفضل أن تكون عنزةً بدلاً منه.

كان صوتُه ناعماً وكأنّه همْس، بدا أنّه نادم، لم يدعوها عصفورتي أمامنا سابقاً. تحلّقنا حولها وانضمّ أبي إلينا، ولكنّ الدرس لم ينته بعد، رغم أنّه أصبح ألطف.

قادنا والدي إلى الأسود والفهود. وسردَّ علينا القصص التي قد تردعنا عن القدوم إلى ما لا تُحمَد عُقباه، إحداها: «كان هناك رجلٌ مجنونٌ في أستراليا يحملُ الحزام الأسود في الكاراتيه، وقد أراد أن يثبتَ نفسه أمام الأسود، فُقِد بشكل مخيف، فقد وجدَ أحد الحرّاس في الحديقة نصف جسده في الصباح».

- نعم يا أبي.

دببة الهملايا ودببة الكسلان.

«ضربة واحدة من مخالب هذه المخلوقات المحبوبة وسوف تنتزع أحشاءك وتنثرها على الأرض».

«نعم يا أبي».

أفراس النهر.

«مع أفواهها المترهلة الناعمة سوف تسحقُ جسدكَ إلى عجينةٍ دموية. وعلى الأرض يمكنها أن تتفوق عليك».

«نعم يا أبي».

الضباع.

«الفكّان الأقوى في الطبيعة، لا تظنّ أنّهم جبناء أو أنّهم يأكلون الجيف، بالعكس فهم مستعدون أن يأكلوك وأنت حيّ».

«نعم يا أبي».

إنسان الغاب.

«قوّته بقوة عشرة رجال، يستطيعُ كسرَ عظامك وكأنّها أغصانٌ غضّة. أعرف بعضها، كانت حيواناتٍ مدلّلة، وكنتم تلعبون معهم عندما كانوا صغاراً، ولكنّهم كبروا الآن، وأصبحوا متوحشين ولا يمكن التنبّؤ بأفعالهم».

«نعم يا أبي».

- النعامة: «تبدو مرتبكةً وحمقاءَ أليس كذلك؟ استمعوا جيداً: إنّها واحدةٌ من أخطر الحيوانات في الحديقة، ركلةٌ واحدةٌ منها ستكسر ظهرك أو ستسحق جذعك».

- نعم يا أبي.

- الغزال المرقّط: «إنّها جميلةٌ أليس كذلك؟ إذا اضطرّ الذّكر فسوف يُهاجمك، وهذان القرنان الصغيران سيخترقانك مثل الخناجر».

- نعم يا أبي.

- الجمل الصربيّ: «عضّة واحدة مبلّلة باللّعاب وستُفقِدُك قطعة من لحمك».

- نعم يا أبي.

- البجعات السوداء: «ستنقر جمجمتك بمنقارها وتكسرُ ذراعك بجناحيها».

- نعم يا أبي.

- الطيور الصفراء: «سيقطعون ما بين أصابعك بمناقيرهم وكأنّهم يقطعون الزبدة».

- نعم يا أبي.

- الفيلة: «أخطرُ الحيوانات جميعها، فالكثيرُ مِن مُشرفي الحديقة والزوار قتلتهم الفيلةُ، أكثر من أيّ حيوان آخر في الحديقة، إذ يستطيعُ الفيل الصغير تقطيعك وهرسَ أجزاء جسدك، هذا ما حصل لأحدهم، مسكينٌ مات في حديقة حيوانات أوروبية عندما دخل إلى منزل الفيل من النافذة. فالحيوان الأكبر والأكثر صبراً سيضغطك إلى الحائط أو يجلس عليك، قد يبدو الأمرُ مضحكاً ولكن فكّروا بفظاعته».

- نعم يا أبي.

- «هناك حيوانات لم نتوقفْ عندها، لا تظنّوا أنّها غير مُؤذية، بل ستدافِع عن نفسها مَهما كانتْ صغيرة، فكلُّ حيوان شرس وخطير. ربما لن يقتلك ولكنّه بالتأكيد سيؤذيك، سيخدشك أو يعضّك، ولكم أن تتخيّلوا إصابة ملآنة بالقيح وحمّى شديدة وإقامة لمدة عشرة أيّام في المستشفى».

- نعم يا أبي.

وصلنا إلى خنزير غوينيا، الحيوانات الوحيدة بجانب ماهيشا التي تمّ توجيهها بأوامرَ من أبي، والتي حُرمتْ من وجبتها الليلة السابقة، فتح أبي القفص وأخرج من جيبه كيساً من الطعام ثمّ أفرغه على الأرض.

- أترون خنازير الغوينيا هذه؟

- نعم يا أبي.

- كانت هذه المخلوقاتُ ترتجف من ضعفها، بينما كانت تقضم بذور الذرة بشكل مسعور. «حسنٌ...» انحنى وأخذ واحداً بيديه، إنّها ليست خطرةً تفرقت الخنازير الأخرى بالحال.

ضحك أبي، وأردف: ناولني الخنزير. أراد أن ينهي الأمر بمزحته.

ارتاح الخنزير على ذراعي بقلق، كان الخنزير صغيراً، ذهبت إلى القفص ووضعته على الأرض بحذرٍ فركض إلى جانب أمه.

السبب الذي يجعل هذه الخنازير غير مؤذية هو أنّها لا تسبب خروج الدم بأسنانها أو بحوافرها، عملياً إنّها حيوانات أليفة، ومن ناحية أخرى إنّ إمساك خنزير غوينيا البريّ وأنت أعزلُ يشبه الإمساك بسكين من شفرتها.

انتهى الدرس، وقد كنتُ أنا ورافي متجهّمين ولم نكلّم والدنا لأسبوع وتجاهلته أمي كذلك.

عندما مررت بحفرة وحيدي القرن تهيّأَ لي أنّ رؤوسها مطأطئة من شدّة الحزن لفقدان أحد رفاقها الأعزاء.

ولكن ماذا يمكن أن تفعل إذا كنتَ تحبُّ أباك؟ تستمر الحياة وأنت لن تلمس النمور. عدا الآن، إذ اتُّهم رافي بجريمة غير محددة لم يرتكبها، وأنا كنت كالميت. مع مرور السنين عما كان بمزاجٍ يسمحُ له بإخافتي، همسَ لي: انتظر حتى نكون وحدنا، ستكون أنت العنزة التالية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع

أن تجعلَ الحيوانات تتعوّد وجود البشر هو جوهرُ فنّ وعلم حراسة حدائق الحيوان، فالهدف الرئيسيّ هو تقليصُ مسافة هروب الحيوانات، وهي المسافة الدّنيا التي يريد الحيوان فيها إبعاد العدوّ الذي يلاحظُه، لا يمانع طائرُ الفلامينغو في البريّة إن بقيتَ بعيداً أكثر من ثلاثمئة ياردة، وإذا عبرتَ ذلك الحدّ سيصبحُ متوتراً، اقترب أكثر وستحرّض عنده دوافع الهروبِ التي لن يتوقّف فيها الطائر حتى يصل إلى الثلاثمئة ياردة، أو يتوقّف قلبه ورئتاه.

الحيوانات المختلفة لديها مسافاتُ هروبٍ مختلفة تحدد مداها بطرق مختلفة، فالقطط تنظر، والغزلان تسمع، والدببة تشمّ، تسمح لك الزرافات بالاقتراب حتى الثلاثين ياردة هذا إذا كنْتَ بسيارة، لكنها ستهرب إذا كنت على بعد مئة وخمسين ياردة وكنت مترجّلاً. والسرطان الكلماني سيهربُ إذا اقتربْتَ عشرة ياردات، والقرود المُوَلولة ستبدأ بالزعيق على أغصانها عندما تكون على بعد عشرين ياردة.

إنّ أدواتنا لتقليص مسافة الهروب هي المعرفة التي نملكها عن الحيوان، والطعام والملجأ الذي نوفّرُهما له والحماية التي نقدمها كلّها أدواتٌ إذا ما نجحْتَ فسوف تكون النتيجة ثابتة عاطفياً، ويكون الحيوان بعيداً عن التوتر، ولن يقيم فقط بل سيكون بصحة جيدة ويعيشَ حياةً طويلة ويأكل بدون مضايقة ويتصرف ويعاشر الآخرين بالطرق الطبيعيّة، والموضوعُ الأهمّ هو التّكاثر.

لن أقولَ إنّ حديقةَ الحيوان التي لدينا تقارَن بتلك التي في سان دييغو أو تورنتو أو برلين أو سنغافورة، ولكن لا يمكنك أن تحطّ من مكانة حارس حديقة الحيوانات الجيّد. إنّ والدي كحارس حديقةٍ استطاع أنْ يعوّضَ نقصَ التدريب الرسمي بعينٍ ذكيّة وهبة حدسيّة، كان يمتلك موهبةَ التّخمين بما في عقل الحيوان من خلال النّظر إليه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل العاشر

مع ذلك دائماً ما يوجد حيواناتٌ تبحث عن الهروب من حديقة الحيوان، فالحيواناتُ التي تُوضَع في مكان غير ملائم، هي أكثر مثالاً واضحاً على ذلك، فلكلّ حيوانٍ موطنٌ محدّدٌ يحتاج إلى تلك الملاءمة، إنْ كان منزله مشمساً جداً أو رطباً جداً أو فارغاً جداً أو ذا موقع عالٍ جداً أو مكشوفاً جداً أو ذا أرضيّة رمليّة أو مزوّدة بقليل من الأغصان لعمل عشّه أو إذا كان المعلف منخفضاً جداً أو إذا لم يتوفر ترابٌ ليتمرغ به، والكثير الكثير منه، إذن فالحيوان لن يكون بمأمنٍ.

إنّ المسألة ليست مسألة إنشاءٍ أو تقليد للظروف الموجودة في البرية، ولكنّها مسألة الحصول على جوهر تلك الظروف، إذ يجب أن يكونَ كلّ شيء في الحيّز المغلق والملائم تماماً.

بمعنىً آخر يجب أن يكونَ ضمنَ حدود قدرة الحيوان على التكيّف.

حدائق الحيوان السيّئة والحظائر السيئة ستشكل كارثةً لأنها تسيء إلى سمعة كلّ حدائق الحيوان، الحيوانات التي يتمّ أسرها وهي ناضجةٌ تماماً هي مثال آخر للحيوانات المعرّضة للهروب، مع أنّها متلاءمةٌ جداً مع أساليب إعادة بناء عالمها الحقيقيّ ومتأقلمةٌ مع بيئتها الجديدة، ولكن حتى الحيوانات التي تولد في حديقة الحيوان ولم تعرف البريّةَ إطلاقاً، وتكون متلائمةً مع

حظائرها ولا تشعر بالتوتّر لوجود البشر، ستكون لديها لحظات من الفضول الذي سيدفعها للهروب.

فكلّ المخلوقات الحيّة لديها ذرةً من الجنون تدفعها بطرق غريبة وغير قابلة للتفسير أحياناً، هذا الجنون قد يكون أحياناً منقذاً، لأنّه جزءٌ من قدرتها على التكيّف، بدونها لن ينجوَ أيّ نوع مهما كان سبب الرغبة بالهروب معقولاً أو جنونيّاً.

وعلى من يحطّ من سمعة حدائق الحيوان، أن يدركَ أنّ الحيواناتِ لا تهرب إلى مكان ما، إنّما تهرب من شيءٍ ما، شيء ما دخل عالمها وأخافها، قد يكون عدواً ما اقتحم مملكتها أو اعتداءً من قبل حيوان مسيطر، والضّجة الشديدة تُنتج لديها رغبةً بالهروب.

دُهشت لقراءة أنّ في حديقة حيوانات تورنتو حديقةً رائعةً حيث يمكن للفهود أن تقفز عامودياً لمسافة ثماني عشر قدماً.

وفي الحظائر الواقعة في بوند تشيري محاطة بجدار من الخلف ارتفاعه ستّة عشر قدماً، أظن أنّ روزي وكوبيكات لم يقفزا أبداً للخارج، وذلك لم يكن بسبب ضعف البناء ولكن ببساطة لأنّه لم يكن لديهما السبب لذلك. غالباً ما يكون سبب هروب الحيواناتُ التي تهربُ من مكان معروفٍ إلى مكان غير معروف شيءٌ ما يُكره الحيوان أكثرَ من كلّ الأشياء الأخرى.

عادةً ما تختبئُ الحيواناتُ الهاربة في أوّل مكان تصادفه، وذلك يعطيها الشعورَ بالأمان، وتكون خطرةً فقط لأولئك الذين يقفون بينها وبين المكان الآمن المفترض.

الفصل الحادي عشر

دعونا نفكّر بقضية أنثى الفهد السوداء التي هربت من حديقة حيوان زيوريخ في شتاء ١٩٣٣، كانت جديدةً في الحديقة، وبدا أنّها انسجمت مع فهدٍ ذكر، شوهدت خدوش مخلبٍ نتيجةَ نزاعٍ زوجيّ. قبل اتخاذ أيّ قرارٍ بما يتوجب القيام به، فقد انسلّت من فتحةٍ بين قضبان سقف قفصها واختفت في الظلام.

أثارَ خبرُ وجود حيوان لاحمٍ في أوساطهم الذعرَ، مما خلق اضطراباً بين سكان زيورخ، فوُضعت الفخاخ وأُطلقت كلابُ الصيد فتخلص الكانتون من الكلاب نصف المتوحشة، ولم يتمّ العثورُ على أثر الفهد مدَّةَ عشرة أسابيع، إلى أن عثرَ عليها عاملٌ عاديّ تحت حظيرةٍ على بعد خمس وعشرين ميلاً وأطلق عليها النار.

وُجدَتْ بقايا غزال الريّو في الجوار، إنّ محاولة قطة استوائيّةٍ كبيرة وسوداءَ البقاءَ حيّةً لأكثر من شهرين في شتاء سويسرا دون أن يشاهدها أحدٌ وتُتْرَكُ وحيدةً لتهاجم أيَّ أحد، يقودنا للحديث وبوضوح إلى حقيقة أنّ حيواناتِ حديقةِ الحيوان الهاربة ليسوا مجرمين فارّين سرّاً، ولكنّهم وببساطةٍ مخلوقاتٌ متوحشةٌ تبحث عن الإقامة المناسبة، هذه واحدة من ضمن الكثير من القضايا الأخرى.

إذا أخذنا مدينة طوكيو وقلبناها رأساً على عقب وهززناها، فستُدهَشُ من الحيوانات التي ستسقط منها. أقول لكم إنها ستتدفق أكثر من القطط والكلاب. عوائق بوا، تنين الكومودو، التماسيح، حيوان البيران[١]، النعامات، الذئاب، الوشق[٢]، الوَلَّب[٣]، خراف البحر[٤]، النيص[٥]، إنسان الغاب[٦]، الخنازير البريّة، هذا هو المطر الذي تتوقعه على مظلتك، ومن المُتوقّع إيجادها في قلب غابات المكسيك الاستوائية، تخيل ذلك ها ها ها ها...، ببساطة شيءٌ يبعث على الضحك، فيما كانوا يفكرون؟

---

(١) **البيرانا:** أحد أنواع الأسماك التي تعيش في المياه العذبة والتي تعيش في أنهار أمريكا الجنوبية. ومن المعروف عنها أسنانها الحادة وشهيتها للحوم. الاسم مؤلف من كلمتين بيرا بمعنى سمكة ونا بمعنى أسنان. **[المترجم].**

(٢) **الوشق:** حيوان لاحم مفترس من فصيلة السنوريات وهو مختلف عن حيوان عناق الأرض. غذاؤه الرئيسي الفرائس الصغيرة كالأرانب والثعالب. **[المترجم].**

(٣) **الوَلَّب:** هي كلمة تصف أنواع كثيرة من رتبة التي تكون أصغر حجماً من الكناغر أو الولاور. وعدد هذه الأصناف غير محدد تماماً لان تعريف الولب ليس بدقيق كفاية. **[المترجم].**

(٤) **خراف البحر:** هو حيوان ثديي مائي كبير ويسمى أحياناً بقرة البحر وينتمي إلى مجموعة الثدييات برتبة الخيلاني مثل حيوان الأطوم البحري. **[المترجم].**

(٥) **النيص:** لها اسمان أيضاً الشيهم أو الدعلج ، تنتمي إلى فصيلة القوارض يميزها غطاء من الأشواك الحادة، التي تستخدمها للدفاع عن نفسها من الحيوانات المفترسة، هي ثالث أكبر نوع قوارض بعد خنزير الماء و القندس. **[المترجم].**

(٦) **إنسان الغاب:** إنسان الغابة، أو سِعلاة أو سِعلاء، أو الأورانغوتان والجمع سَعَالي، لأن وجهه تبدو عليه بعض التعبيرات البشرية كالتفكير مثلاً ويحرك شفتيه بأشكال مختلفة يعتقد إنها طريقة للاتصال. يعيش الأورانغوتان حياة اجتماعية متماسكة قيادياً، ويزيد الذكر على الأنثى في الحجم بمعدل مرتين من حيث الثقل. **[المترجم].**

الفصل الثاني عشر

في بعض الأحيان ينفعل. لا أقول شيئاً (أقول القليل جداً). إنها قصته الخاصة التي تفعل فعلها.

إنّ الذاكرةَ محيطٌ، وهو يتمايل على سطحه، أخشى أنّه سيرغب في التوقف ولكنه يريد أن يحكي لي قصته، يتابع: بعد كل تلك السنين لا يزال ريتشارد باركر فريسة عقله.

إنّه رجلٌ طيّب، كلّما كنت أزوره كان يحضرُ لي وليمةً نباتية من جنوب الهند، أخبرته أنّني أحبّ الطعام الحار، لا أدري لماذا قلت مثل هذه الحماقة، إنّها بأكملها مجردُ كذبةٍ، كنت أضيف القيل من اللبن، ولكن لا شيء ينفع، بكلّ مرةٍ تبقى هي نفسها، ذوقي غير النّاضج يضعفُ ويموتُ، أصبح جلدي أحمرَ مثل الشمندر، وامتلأت عيناي بالدموع، وأحسسْتُ أنّ رأسي يحترق، وأنّ جهازي الهضميّ بدأ يتراقص ويئنّ ألماً مثل أفعى البوا العاصرة التي ابتلعت جزازةَ عشبٍ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث عشر

وهكذا ترى إذا وقعتَ في قفص أسدٍ، فإنّ السبب الذي يجعل الأسد يقوم بتمزيقك إلى أشلاء، ليس لأنّه جائعٌ، كن على ثقة بأنّ الحيوانات تُطعَم بوفرةٍ في حديقة الحيوان، أو لأنّه متعطّش للدماء، ولكن لأنّك غزوت منطقته.

من جهة أخرى، فإنّ مدرب السيرك دائماً يدخل حلبةَ الأسد أولاً وبرؤية كاملة للأسودِ للقيام بذلك، فإنّه يُثْبِتُ أنّ الحلبةَ هي منطقتُه وليست منطقتهم، فكرةٌ يفرضها بالصراخ والتحرك وهو يرقص ويقرقع بالسوط، تتأثر الأسود، ويقع الأذى ثقيلاً عليهم، لاحظ كيف يدخلون، وعلى الرّغم من أنّ هذه الحيوانات الضّارية ملوكُ الوحوش، فإنّها تدخل زاحفةً، وذيولها منخفضةٌ، وتبقى ملتصقةً بحافة الحلبةِ التي تكون دائماً مستديرةً حتى لا تجد مكاناً للاختباء، إنّهم بحضرة ذكرٍ مسيطرٍ جداً، وبقوة رجل متفوّق، ويجب أن يخضعوا لطقوس سيطرته، لذا فهي تفتح فكّيها على وسعها، تجلس وتقفز عبر الطّوق المغطّى بالورق، وتزحفُ عبر أنابيب وتسيرُ للخلف، وتتدحرجُ ويفكرون بضبابيّةٍ. إنّه رجلٌ غريبُ الأطوار، لم يروا أسداً متفوقاً مثله، ولكنّه يمتلك كبرياء عظيمةً.

مكانُ حفظ اللحوم ممتلئٌ دائماً، ولكن بصدقٍ يا زملائي - إنّ سلوكه الغريبَ يبقينا مشغولين.

إنّ النومَ طوالَ النّهار مملٌّ، على الأقل فإنّنا لا نقود الدرّاجاتِ مثل الدّببةِ البنيّة أو نمسكُ الأطباقَ الطائرة مثلَ الشمبانزي.

يبقى المدرّبُ هو الذكر المهيمن لأنه بقوّة سوبر ألفا ويجب أن يخضعوا لطقوس هيمنته. لذلك يفتحون فكّهم على نطاق واسع ويقفزون من خلال الأطواق المغطاة بالورق ويزحفون عبر أنابيب ويمشون للخلف ويتدحرجون. «إنه شخص غريب الأطوار» يفكرون في صمت. «لم أرَ أسداً مثله من قبل. لكنه يدير أسوداً رهيبة. إن غرفة التخزين ممتلئة دائماً - ولنكن صادقين أيها الرفاق - إن تصرفاته الغريبة تشغلنا.

المدرب الأفضل يبقى دوماً على أهبة الاستعداد. إذ سيدفعُ الكثيرَ إذا انزلق بغير قصدٍ إلى بيتا. الكثير من السلوك العدوانيّ بين الحيوانات هو التعبيرُ عن انعدام الأمن الاجتماعي، إذ يجب أن يعرف الحيوانُ الذي أمامك أين يقف، فوقك أو تحتك، فالمكانة الاجتماعية أساسيّةٌ في كيفيّة قضاءِ حياتها، المكانة الاجتماعيّة تحدّدُ مع من نتعاون، وكيف وأين ومتى نستطيع أنْ يأكلَ، أين يمكننا أن نرتاح، ومن أين يمكنُنا أن يشربَ وهكذا...

إنّ الحيوانَ يعيشُ حياةً فوضويّةً لا تُحتَملُ، يظلّ دائماً عصبيّاً ومتقلّباً وخطراً.

لحسن الحظّ فإنّ قراراتِ مدرّبِ السيرك حولَ المكانةِ الاجتماعيّةِ بين الحيواناتِ العليا لا تقومُ دائماً على القوّة العمياء. يقول هيديفر ١٩٥٠ عندما يلتقي مخلوقان، يتفوّقُ اجتماعياً من يستطيعُ منهما إخافةَ خصمه. لذا فإنّ القرارَ الاجتماعيّ لا يعتمد دائماً على القتال، فالمناوشةُ في غالب الأحيان تكون كافيةً. كلماتُ رجلٍ حكيم. كان السيّد هيديغير مديراً لحديقة حيوانٍ لسنواتٍ عدّة، فقد تسلّم إدارةَ حديقةِ حيوانات باسيل ومن ثمّ حديقة حيوانات زيوريخ.

إنّه رجلٌ ضليعٌ بطبيعة الحيوانات، فالمسألةُ مسألةُ عقلٍ وليست مسألة عضلاتٍ قويّة، إنّ طبيعةَ عمل مدرّب السيرك هي نفسيّة.

المحيط الخارجي الغريب، وضعية المدرّبُ المتصبة ونظرته الثابتة والخطوة الجريئة للأمام والزمجرة الغريبة كفرقعة السوط، أو إطلاق صافرة، هذه حقائقُ كثيرةٌ تملأ دماغَ الحيوان بالشكّ والخوف، وتشير له بوضوح أن يقفَ أي تحدد له مكانته وهو الشيء الذي يريد معرفته.

وبقناعة سيتراجع رقم «اثنان» للخلف، ويمكن للرقم واحد أن يتوجّهَ للحضور، ويصرخ قائلاً: «ليستمرَّ العرضُ والآن سيداتي وسادتي عبر إطارات من نيران حقيقية».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع عشر

من الممتع أن نلاحظ أنّ الأسدَ الأكثر قبولاً لحيل مدرب السيرك هو الأدنى من حيث المكانة الاجتماعية بين الأسود.

فحيوانُ الأوميفا هذا أكثرهم مكسباً من العلاقة المغلقةِ مع المدرّبِ ألفا المتفوّقِ. إنّها ليست مسألةَ معادلةٍ ممتازةٍ فقط، فالعلاقةُ القويّةُ تعني الحمايةَ من مجموعة الأسود الأخرى. إنّه الحيوان المطواعُ، وبالنسبة للجمهور لا يختلف عن الآخرين، فمن جهةِ الحجمِ والقوّةِ الظاهريّةِ سيكونُ نجمَ العرض، بينما يترك المدرّبُ الأسودَ، البيتا والغاما، التابعين الأكثر شراسة جالسين على براميلَ ملوّنةٍ على حافة الحلبة.

وهذا ينطبقُ على حيواناتِ السّيرك الأخرى، الحيواناتُ الأدنى مرتبةً من النّاحيةِ الاجتماعيّة، هي التي تبذل جهوداً شاقة ومفيدة للتعرف على مربّيهم. لقد أثبتوا أنهم الأكثرُ إخلاصاً واحتياجاً لمدرّبيهم والأقل رغبةً في تحدّيهم أو تشكيل صعوبةٍ ما في طريقهم.

لوحظت هذه الظاهرةُ بالقطط الكبيرة والبيسون[1] والغزلان والماعز البرّيّ والقردة والكثير من الحيوانات الأخرى، إنّها حقيقةٌ معروفةٌ جداً في التجارة.

---

(١) البيسون: جنس يَنتمي إلى تحت فصيلة الأبقار ضمن مجموعة البقريات ويَضم نوعين حيين يَعيشان في قارتي أمريكا الشمالية وأوروبا. **[المترجم].**

الفصل الخامس عشر

إنّ منزلَه مُعبدٌ، هناك صورةٌ مؤطّرةٌ لغانيشا برأس فيلٍ في المدخل، يجلسُ مواجهاً لوعاءٍ منتفخٍ زهريّ اللّون متوّجٍ ومبتسم، ثلاثة أيدٍ تحملُ أشياءَ مختلفةً، والرابعةُ تحملُ نخلة بمباركة إلهيّة وبالسلام، إنّه الإله الذي يتغلّب على المصاعب، إله الحظّ الجيّد، إله الحكمة، راعي المعرفة، الأرفع جمالاً ولطفاً، رسم البسمةَ على شفتيّ.

هناك فأرٌ يقظٌ عند قدميه، يبدو أنّه وسيلة تنقّله، لأنّ الإله غانيشا يمتطي ظهر فأرٍ عندما يسافر.

على الجدار مقابلَ الصورةِ ترى صليباً خشبياً كبيراً، وعلى طاولةٍ جانبَ الأريكة في غرفة المعيشة صورةٌ مؤطّرةٌ صغيرةٌ لمريمَ العذراء، تندفعُ الزهورُ من عباءتِها المفتوحة، تليها صورةٌ مؤطرةٌ للكعبة بالرّداء الأسود أقدسُ الأقداس للإسلام، محاطةٌ بعشرة آلافٍ من المؤمنين يطوفون حوله، وعلى التلفاز تمثالٌ نحاسيّ للإله شيفا الذي يمثّلُ ناتاراجا إله الرقص الكونيّ الذي يتحكّمُ بحركات الكون وتوالي الزمن، إنّه يرقص على شيطان الجهل، وأذرعُه الأربعةُ مرفوعةٌ بحركاتٍ راقصة وبقدمٍ على ظهرِ الشيطان وأخرى مرفوعة بالهواء، يقولونَ إنّ الزمن سيتوقفُ عندما ينزلُ قدمه.

هناك معبدٌ في المطبخِ داخلَ الخزانةِ التي استُبدل بابُها بقوس fretworit، القوس يخفي بشكل جزئيّ مصباحَ الضّوء الأصفرِ الذي يضيءُ المعبد ليلاً، إضافةً إلى صورتين موضوعتين خلف مذبح صغير، جانبها غانيشا ثانيةً، وفي الوسط في إطار أكبرَ الإله كريشنا ذو الجلد الأزرق يعزفُ على النّاي، ترى مسحوقاً أصفرَ وأحمرَ منثوراً على زجاج فوق جبهتيهما، وعلى طبقِ نحاس فوقَ المذبح مُباشرةً توجد ثلاثة تماثيل من الفضة، قدّمها لي وهو يشيرُ بإصبعه: لاكشمي، شاكتي الإلهة الأم على هيئة بارفاتي، وكريشنا الآن كطفل صغير يلعب ويزحف على أربع. بين هاتين الإلهتين حجرُ شيفا يوني لينغا الذي يشبه نصف تمرةِ أفوكادو، مع جذعِ قضيبٍ يخرج من وسطها، إنّه رسمٌ هندوسيٌّ يمثل طاقةَ الذكرِ والأنثى في الكون.

وتجدُ صدفةَ محّارٍ تموضعت على أحد جانبي الطّبق عند قاعدة التمثال، وبالجانب المقابل جرسٌ يدويّ صغيرٌ فضيُّ اللّون، إضافةً لحبوب الأرزّ المنثورة وورود توشك أن تتفتّح، والكثير من هذه القطع ملوّنة بمسحات من اللون الأصفرِ والأحمر.

وتجدُ أدواتِ عبادةٍ مختلفة اتخذت مكاناً لها على رفّ بالأسفل مملوءٍ بالماء، وملعقةَ نحاسٍ ومصباحاً بفتيلٍ مغطّس بالزّيت، وعيدانَ بخور وأوعية صغيرة ملأى بالبودرة الحمراء والصفراء، وحبوباً من الأرزّ ومكعباتٍ من السكر.

هناك صورة أخرى لمريمَ العذراء في غرفة الطعام، وفي مكتبة بالطابق العلويّ مجسّمٌ نحاسيٌّ لغانيشا، يجلسُ شابكاً رجليه، وإلى جانب الحاسوب

مسيحٌ مصنوعٌ من الخشب على صليب من البرازيل مُعلّقٌ على الجدار وسجادةُ صلاةٍ خضراءَ في الزاوية، وصورةٌ أخرى للمسيح مؤثّرةٌ وهو يعاني ويتألم.

وضعْتُ سجادةَ الصّلاة في المكان المُخصص لها، وإلى جانبها على رقّ منخفضٍ كتابٌ من القماش، وقد توسّطَ القماشَ كلمةٌ عربيّةٌ واحدةٌ، إنّها باللغة العربية *الله*.

أمّا الكتاب المركون على الطاولة بجانب السرّ فهو الإنجيل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس عشر

وُلدنا كلّنا مثل الكاثوليك، ألسنا كذلك؟ وُلدنا في ردهة نسيان دون ديانة، حتى جاء بعضُ الأشخاصِ وقدمونا إلى الله، وبعد ذلك اللقاء انتهى الأمرُ للكثيرين منا.

إذا كان هناك من تغيير، فهو عادةً يكون نحو الأقلّ وليس نحو الزيادة، يبدو أنّ الناسَ قد فقدُوا الإله طوالَ حياتهم، تلك لم تكنْ قضيّتي الشخصيّة، الأهمُّ بالنسبة لي كانت الأخت الكبرى لأمي، إذ تمتلكُ تفكيراً تقليديّاً، وقد جلبتني معها إلى المعبد عندما كنت صغيراً، وكم كانت خالتي روهينا مسرورةً لمقابلة ابن أختها المولود حديثاً، واعتقدتْ بأنّ فرحَها سيشملُ الإله أو سيكون أول خروجٍ رمزيّ له قالت: «إنّها سامسكارا». فعلٌ رمزي بالتأكيد.

كنا في مادوراي: وكنتُ المخضرمَ الجديدَ في رحلة قطار تمتدُّ لسبع ساعاتٍ. لا يهم. انطلقنا في طقوس العبور الهندوسية هذه، كانت أمّي تحملُني بينما خالتي تدفعُها.

لا أتذكّرُ أوّل جولة لي في المعبد، ولكن بعض رائحة العطور وبعض الألعاب الضوئيّة والظلال، شعلة، وانفجار الألوان، بعضٌ من قسوة واختناقِ المكان، لا بدّ أنّها بقيت معي بذرة من الانتشاء الديني ليست أكبر من بذرة خردل زُرعت بي وتُرِكَتْ لتتكاثرَ، ولم تتوقفْ عن النموّ منذُ ذلك اليوم.

أنا هندوسيّ بسبب مخاريطَ نُحتت من أكواز البودرة الحمراءِ وسلالٍ من شذراتِ الكركم الأصفر، وبسبب باقاتٍ من الزهور وأجزاء من جوز الهند المكسور نتيجةَ قرعِ الأجراسِ للإعلانِ عن وصول الآلهة، وبسبب أنينِ مزاميرِ القصبِ وقرع الطّبول، وضربِ الأقدامِ الحافيةِ على الأرضِ الحجريّةِ للرّواق المظلمِ الّذي يدخلُه ضوءُ الشمس من خلال ثقوبٍ، وبسبب عطر البخور، وشعلةِ مصابيح الآراتي التي تدورُ في الظّلمة، والأغاني الدينية (bhajans) العذبة، وبسبب القُبلة التي تقفُ متحلّقة للمباركة واللّوحاتِ الجداريّةِ الملوّنة التي تحكي قصصاً ملونةً، وبسبب الجباه التي تحملُ نفسَ الكلمةِ المميّزةِ (الإيمان)، فبسبب كلّ هذا أصبحْتُ مخلصاً لهذه الانطباعاتِ الحسيّة قبلَ أنْ أعرفَ ماذا تعني ولأجل ماذا.

إنّه قلبي الّذي أمرني بهذا، في المعبدِ الهندوسيّ شعرتُ أنّني في بيتي، كنتُ مُهتماً بالحضور، ليس بالطّريقةِ الذّاتيّة التي نشعرُ بها عادةً، ولكنّه شيءٌ أكبرُ من ذلك، ما زال قلبي ينبضُ كلّما شاهدْتُ تمثال الإله المقيمِ في الحرمِ الدّاخليّ للمعبد، إنّني حقاً في رحِمِ كوني المقدّسِ.

المكان حيث يُولدُ كلُّ شيء، إنّه حظّيَ السعيد أن أرى هذه النواة الحيّة، تجتمع يداي بشكلٍ طبيعيّ في عبادةٍ مبجّلة، أتشوّق للبراساد، التقدمة السكرية لله التي تعود علينا بالمنفعة والعلاج المقدس. تحتاجُ راحتاي أن تشعرَ بحرارة الشّعلةِ المقدّسة التي أنقلُ بركتَها لعينيّ وجبهتي.

ولكن الدينَ أكثرُ من شعائرَ وطقوسٍ، هناك ما ترمز إليه الشعائرُ والطقوسُ، وهنا حيث أكون أنا، هندوسيٌّ أحسُّ بالكون بعيون هندوسيّة، هناك براهمان، روح العالم، الإطارُ الحافظُ له مصنوعٌ من القماش المفتول، قماش الوجودِ بكلّ ديكوراته، المكان والزمان، ويوجد براهمان البسيط،

يقفُ وراءَ الوصف، وراء الوصول إليه، وبكلماتنا البسيطة نسجْنا له رداءَ الحقيقة - الوحدة، الحقيقة المطلقة، أساس الوجود - ونحاولُ أن نجعلَها ملائمةً، ولكنّ براهمان ساغونا دائماً يمزّقُ حياكتنا. لقد تركنا عاجزين عن الكلام. ولكن يوجد براهمان نيرغونا بميزاتٍ مختلفة إذ يناسبه الثوبُ، ندعوه الآن شيفا، كريشنا، شاكتي، وغانيشا.

نستطيع الاقترابَ مع بعض الفهم، ونستطيع أن نتبيّنَ خصائصَ محدّدةً **(مُحبّ ورحيم ومخيف)** ونحن نشعر بالجذب اللّطيف لهذه العلاقة، براهمان ساغونا، هو براهمان الذي تجلّى لمشاعرِنا المحدودة، براهمان لا يُعبَّر عنه قطّ بالآلهة، بل بالإنسان والحيوان والشجر في حفنة ترابٍ. إنّ كل شيء في هذا الوجود ثمة أثر للألوهة.

إنّ حقيقةَ الحياة هي أنّ براهمان لا يختلف عن النّفسِ **(atman)**، القوّة الروحيّة بداخلنا التي يمكن أن نسمّيها الروح. تلامس روح الفرد روح العالم، مثل بئرٍ تصلُ إلى جدولِ الماء. ما يحفظُ الكونَ بعيداً عن الفكرِ واللّغة، والذي هو في جوهرنا ويجاهدُ للتعبير، هو الشيء عينه. المحدود داخل اللانهائي واللانهائي داخل المحدود.

فإذا سألتني: كيف يتّصلُ براهمان وآتمان بدقّة؟

سأقول: بالطريقة نفسِها التي يتّصلُ بها الأبُ والابنُ والروحُ القدسُ بغموض، لكن هناك شيءٌ واحدٌ واضحٌ، يسعى آتمان إلى إدراك براهمان ليتّحد مع المطلق ويسافرَ في هذه الحياة برحلة حج إلى حيث يولدُ ويموت، ويُولَدُ ويموت ثانيةً، وثانيةً وثانيةً، ليتمكن من إلقاء الأغماد التي تسجنه هنا في هذا الجسد. إنّ الطرقَ إلى التّحررِ عديدة، ولكن البنك على طول الطريقِ

هو نفسه دائماً بنك الكارما، إذ يكونُ حساب التّحرر لكلّ واحدٍ منّا دَيناً لا بدّ لنا أن نوفّيه وهذا الدين يعتمدُ على أفعالنا.

هنا وفي هذا المكان المقدّسِ ألا وهو الهندوسيّةُ، كنتُ هندوسيّاً طوالَ حياتي، ومن خلال هذه المفاهيمِ أرى نفسِيَ في الكون، ولكن يجبُ علينا ألّا نتشبّثَ بها! يا لها من كارثةٌ للأصوليين والمحرّفين! الذين ذكّروني بقصّةِ الإله كريشنا، عندما كان راعي أبقار، إذ كان يدعو الحلّاباتِ كلّ ليلةٍ للرّقصِ معه في الغابة، يأتين ويرقصْن تحتَ جناحِ ليلٍ حالكِ الظّلمة، والنارُ تتوسّطُ الفرقعةَ والدويّ، يصلُ صوتُ الموسيقا إلى البعيد، والبناتُ ترقصُ وترقصُ وترقصُ مع سيّدِهم اللّطيفِ الذي جعلَ نفسَه سخيّاً بأن وهبَ نفسه ليكون بين ذراعي كلّ فتاةٍ فيهم.

وفي اللّحظة التي يستولي التملُّك على الفتياتُ، وتتصرفُ كل واحدة كما لو كان كريشنا شريكُها وحدَها، يختفي كريشنا، ولهذا السبب يجبُ ألّا نشعرَ بالغيرة مع الإله.

أعرفُ امرأةً هنا في تورنتو عزيزة على قلبي جداً، كانت حاضنتي، وكنْتُ أدعوها عمّتي *جي* وهي تحبُّ الاسمَ كثيراً، إنّها كيبيكيّة، ورغم أنّها تعيشُ في تورنتو منذ أكثرَ من ثلاثين سنةٍ يخطئُ عقلَها الناطق بالفرنسيّة أحياناً في فهمِ الأصوات الإنجليزية، فعندما سمعَتْ أوّلَ مرّةٍ عن *هيركريشنا* لم تسمعْه بشكلٍ صحيح. سمعَتْه: «مسيحيّون دون شَعِر»، وهذا ما كانوا يسمعونه لسنوات عدّة، وعندما صحّحْتُ لها، أخبرتُها أنّها لم تكن مخطئةً، فالهندوسُ بمقدرتِهم على الحُبّ، هُم بالحقيقة مَسيحيّون دون شَعْر، كالمسلمين تماماً في طريقةِ رؤيتهم للإله في كلّ شيءٍ، إنّهم هندوسُ **بذقون**، مسيحيون في إخلاصِهم للإله، ومسلمون يرتدون القبّعاتِ.

الفصل السابع عشر

التساؤلُ الأوّلُ هو الأعمقُ، والتساؤلُ يتلاءمُ مع الانطباعِ الذي قدّمه الأوّلُ. إنّني أدين للهندوسيّة بالقاعدة الأساسيّة لمخيّلتي الدّينيّة، تلك المدنُ والأنهارُ، ساحاتُ الحربِ والغاباتِ، الجبالُ المقدّسةُ والبحارُ العميقةُ، حيث تتقارب الآلهةُ والقدّيسون والأوغادُ والأناس العاديّون، وبهذا يتحدّد من نحن ولماذا نحن هكذا.

سمعتُ لأوّل مرّة عن القوة الكونية الهائلة للحنان المُحبّ في هذه الأرضِ الهندوسيّة؛ كان الإلهُ كريشنا يتحدث، سمعْتُه وتبعْتُه، وفي حكمته وحبّه المثاليّ قادَني لمقابلة رجلٍ واحد.

كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، هندوسيّاً مقتنعاً جداً، وكنتُ في عطلةٍ عندما قابلتُ بيسوع المسيح.

لم يكنْ الأب يأخذ إجازة من حديقة الحيوان في كثير من الأحيان، ولكنّه عندما فعلَ ذلك مرّةً، ذهبنا إلى مونار الّتي تقعُ عالياً في *كيرالا مونار*.

مَحطّةٌ جبليّةٌ صَغيرةٌ محاطةٌ ببعض مستعمراتِ الشّايِ الأعلى ارتفاعاً بالعالم.

كان الوقتُ في أوائل أيار، والرّياحُ الموسميّةُ لم تصلْ بعد، كانتْ سهولُ التاميل في ناندو حارّةً بشكلٍ متوحّشٍ، وصلْنا إلى مونارَ بعدَ قيادةٍ دائريّةٍ استمرّتْ لخمسِ ساعاتٍ من مادوراي، صار الشّعورُ بالبرودة نعمةً مثلَ شعورك عندما تضعُ النعنعَ في فمِك.

قمْنا بالجولةِ السّياحيّة، وزرْنا مصنعَ تاتا للشّاي، ثمّ قدّمْنا الملحَ لماعزِ التارا في الحديقة الوطنيّة. (دعا أبي بعضَ السّياحِ السويسريين قائلاً: «لدينا بعضاً منها في حديقة الحيوان. يجب أن تأتوا إلى بوند تشيري»). ذهبتُ برفقة رافي للتّنزه في مستعمراتِ الشّاي بالقرب من المدينة، كان بمنزلة عذرٍ لإبعادِ الخمول، وفي اللّيل كان والدايَ يجلسان في غرفة الشّايِ بفندقنا المريحِ، يتنعّمانِ بأشعّةِ الشّمس أمامَ النّافذة، ملأتْ أمّي وقتَها بالقراءة، بينما كانَ أبي يثرثرُ مع زوّارٍ أصدقاءَ له.

كان هناك ثلاثةُ تلالٍ داخل *مونار* لا تُقارَنُ بالتّلالِ العاليةِ الّتي يمكنُ أن تطلقَ عليها جبالاً كالّتي تحيط بالمدينة، ولكنّني لاحظْتُ عندما كنّا نتناولُ فطورَنا في أوّل صباحٍ، إنّها تقفُ على صفّ واحدٍ وعلى كلّ واحدةٍ منها معبدٌ للإله، على يمين الفندقِ تلٌّ، وعلى جانب النّهر تجدُ معبداً هندوسيّاً، وعلى بعدٍ منه وقفَ مسجدٌ، بينما كان التلُّ على الجهة المقابلة متوَّجاً بكنيسةٍ مسيحيّة.

في يومنا الرابع في *مونار* وفي ساعات المساء الأخيرة، وقفْتُ على تلّةٍ يسارَ الفندق، وعلى الرّغمِ من التحاقي بمدرسةٍ مسيحيّةٍ، لم أدخلْ كنيسةً بعد، ولم أجرؤْ على فعلِ ذلك اليوم.

لا أعرفُ إلّا القليلَ، القليلَ عن الدّين، سمعتُه من خلال بعضِ الآلهة والكثيرِ من العنفِ، ولكن لديهم مدارسُ جيّدةٌ، مشيتُ حولَ الكنيسةِ التي كانت عبارةً عن بناءٍ متّصلٍ بعضه ببعضٍ، لا يكشفُ عمّا في داخله، وجدرانٌ عديمةُ الشّكل، ذاتُ لونٍ أزرقَ شاحبٍ ونوافذَ عاليةٍ ضيّقةٍ، من المستحيل النظرُ خلالَها. كانت أشبه بالقلعة.

صادفتُ قسّيساً، إذْ كان البابُ مفتوحاً، اختبأْتُ في زاويةٍ لأتمعّنَ المشهدِ، إلى يسار البابِ تجدُ لوحاً صغيراً دوِّنَ عليه: (الكاهن باريش ومساعده)، يلي كلَّ واحدةٍ حاجزٌ انزلاقيّ، كان كلٌّ من الكاهن ومساعدِه موجودين بالداخل، أعلمني اللّوحُ، وبحروف ذهبيّةٍ استطعت رؤيتَها بوضوح. كان أحدُ الكهنةِ يعملُ بمكتبِه وظهرُه إلى النّوافذِ المُطلّة على الخليج، بينما كان الآخرُ جالِساً على مِقعدٍ مُحاذٍ لطاولةٍ مُستديرةٍ في الرّدهةِ الكبيرةِ التي مِن الواضح أنّها تُستخدَمُ كغرفةِ استقبالٍ للزّوّار، جلسَ مُواجهاً للبابِ والنّوافذِ، وبيده كتابُ الإنجيلِ على ما أعتقد، قرأَ قليلاً وبحثَ عن شيءٍ ما، قرأَ مُجدّداً، وبحثَ مرّةً أخرى، كنْتُ مُنشغلاً بطريقته التي قامَ بها دونَ جُهدٍ، بطريقته الرّشيقةِ والهادئةِ.

أغلقَ الكتابَ بعدَ بضع دقائقَ، ووضعه جانباً ثمّ ثنى يديه على الطّاولة وجلسَ هناك، كانتْ مَلامحُه هادِئةً، لا تُظهِرُ ترقّباً أو استسلاماً.

جُلت بناظريّ في المَكان، كانتْ جدرانُ غرفةِ الاستقبالِ بيضاءَ نظيفةً، صنعتْ مقاعدها وطاولتها من الخشب الغامق، وكانَ القسيس يرتدي رداءَ كاهنٍ أبيضَ اللّون، قسيسٌ أنيقٌ نظيفٌ وبسيطٌ، ملأني بشعور الاطمئنان. ولكن ما استدعى انتباهي أكثر مِن المكان إدراكي الفطري لوجوده؛ منفتحاً صبوراً في حال أراد أحدٌ التحدثَ إليه في مشكلةٍ تخصُّ الروح وتثقلُ القلب وتُظلِمُ الضمير، فإنّه يستمع بمحبة، كان رجلاً جُلُّ هدفه أن يُحبَّ ويبذلَ ما بوسعه لتقديم الراحة والتوجيه.

تأثّرتُ كثيراً، فما كان أمام ناظري انتقلَ إلى قلبي وأثارني.

نهضَ، فاعتقدت إنّه ربّما يتملّصُ من المجموعة، لكنّه لم يفعلْ، عاد إلى بيتِ القساوسةِ، وترك البابَ بين غرفة الزوّارِ والغرفةِ المجاورةِ مفتوحاً على مصراعيه تماماً مثلَ البابِ الخارجيّ. لاحظْتُ أنّ البابين مفتوحان على مصراعيهما، من الواضحِ أنّه وزميلَه لا يزالان موجودين.

مشيْتُ وتجرّأتُ على دخولِ الكنيسة، كانتْ مَعدتي متشنّجةً، شيءٌ طبيعيّ فقد كنتُ خائفاً من مُقابلةِ مسيحيّ، وحينها سيصرخُ بوجهي: «ماذا تفعلُ هنا؟ أتخافُ دخولَ هذا المكان المقدّسِ أيّها القذر؟ اخرج في الحال».

لم يكن هناك أحدٌ، وفهمْتُ القليلَ، تقدّمْتُ وشاهدْتُ الحرمَ الدّاخليّ، ثمّةَ لوحةٌ هناك، هل كان ذلك الـ MURTI؟ شيءٌ ما عن تضحيةٍ إنسانيّةٍ، إلهٌ غاضبٌ مُخضّبٌ بالدّماء، نساءٌ منبهراتٌ يحدّقْنَ بالهواء وأطفالٌ سِمانٌ بأجنحةٍ يطيرون في المكان، طائرٌ جذّابٌ. أيٌّ واحدٍ من هؤلاءِ هو الإله؟

إلى جانبِ الحَرمِ، منحوتةٌ خشبيّةٌ ملوّنةٌ، وقد ظهرتْ الضّحيّةُ ثانيةً مَسحوقةً وتنزفُ بألوانٍ غامقةٍ، نظرْتُ إلى ركبتيه، كانتا مكشوطتين بشكلٍ سيِّئ، الجلدُ الورديُّ مقشرٌ، بدا وكأنّه بتلاتُ وردةٍ، انكشفَتْ ركبتاه اللتان كانتا مُحمرّتين كمُحرّك سيارةِ إطفاءٍ، كان من الصعب ربطُ مشهد العذابِ هذا بالكاهنِ في غرفة القساوسة.

في اليوم التالي، وتقريباً بالوقت نفسِه، سمحْتُ لنفسي بالدّخول.

يتّسمُ الكاثوليكُ بتطبيقهم الأحكامَ التي تُنَفّذُ بقسوة، إنّ خبرتي بالأب مارتن لم تكن كذلك أبداً، كان طيباً جداً، يقدّمُ لي الشايَ مع البسكويت بطقم شاي يرنّ ويخشخشُ كلّما لمستَه، كان يعاملُني كشخصٍ ناضجٍ، ويحكي لي الحكايات، كما أنّ المسيحيين مولعون بالأحرف الكبيرة.

قصّتُه وما هي القصة؟

أوّلُ شيءٍ كان يلفتني، هو عدم التّصديق.

ماذا؟ ذنوبُ البشر.

ولكن ابنُ الإله هو من يدفعُ الثمّنَ.

حاولت أن أتخيّل ما يقوله لي أبي.

«تسلّلَ أسدٌ إلى حظيرةِ اللّاما اليوم، وقتل اثنين منها، وأمس قتلَ أسدٌ آخرَ ظبياً، وفي الأسبوع الماضي أكلَ أسدين جملاً، وقبلَه بأسبوعٍ كان مالك الحزين وطائرُ اللّقلق ضحيةً لهما. أصبحَ الوضعُ لا يُحتمَلُ، يجبُ أن تعملَ شيئاً، لقد قرّرْتُ أنّ الطريقةَ الوحيدةَ التي يُكَفّرُ فيها الأسودُ عن ذنوبهم هي أن أطعمَك لهم».

- نعم يا أبي، هذا هو الشيء الصحيح والمنطقي الذي يجبُ عمله. أعطني لحظة لأغتسل.

- هللويا يا بنيّ.

- هللويا يا أبي.

بصراحة هذه قصة عجيبة، علمُ نفسٍ غيرُ مألوفٍ. لذلك طلبت قصةً أخرى، قصةٌ أكون فيها راضياً، فمنَ المؤكّدِ أنّ هذا الدّينُ يملك في جعبته أكثرَ من قصة، قصصٌ متعلقةٌ بالدّين، هذا ما أخبرني به والدي. لكنّ الأبَ مارتن أفهمني أنّ القصصَ التي وقعت قبلها، وهي كثيرةٌ، كانت ببساطة تمهيداً للمسيحيين، إنّ ديانتَهم لديها قصةٌ واحدةٌ، ويعودون إليها مراراً وتكراراً، كانت قصةً كافيةً لهم.

كنتُ هادئاً تلك الليلة بالفندق، أدركتُ أنّ الإله يجبُ أن يحتملَ هذه المحنةَ.

إنّ آلهة الهندوسيين يواجهون المشاركةَ العادلةَ للّصوص والمتنمّرين والمغتصبين، وما هي الرامايانا إلّا يومٌ طويلٌ سيِّئ لراما؟ المِحَن، نعم. حظٌّ عاثر، نعم. الغدر، نعم. لكن الذل؟ الموت؟ لم أستطع أن أتخيلَ أنّ الإلهَ كريشنا يقبلُ أن يُجرّدَ من ملابسه، ويُجلَدَ ويُسْخرَ منه، وفوق كلّ ذلك يُصلَبُ وعلى أيدي أناسٍ عزّلٍ ويُركَلُ. لم يسبق لي أن سمعْتُ عن إله هندوسيّ يموتُ. براهمان المُنّزلُ، لم يمتْ، ولكنّ الشياطينَ والوحوشَ تموتُ كمخلوقاتٍ أرضيّةٍ، يموتون بالآلاف والملايين، وذلك ما هم موجودون لأجله. المادة سقطَت أيضاً، لكن لا ينبغي أن يفسد الموت الألوهيّةَ. هذا خطأ. لا يمكن لروح العالم أن تموت حتى في جزء واحدٍ منها. كان خطأً من الإله المسيحيّ أنْ يدعَ تجسّدَه في شخصٍ ما يموت، ذلك يعادلُ أن يتركَ جزءاً منه يموتُ. لأنّه إذا كان على الابن أن يموتَ، فإنّه لا يمكنُ أن يكونَ زائفاً، إذا كانَ الله على الصّليب هو الذي يخزي المأساةَ البشريّةَ، فإنّه يحوّلُ آلامَ المسيح إلى سخريةٍ من المسيح.

يجب أن يكون موتُ الابنِ حقيقيّاً، أكّد لِيَ الأبُ مارتن أنّه كذلك، ولكن عندما يموتُ الإلهُ مرّةً، فإنّه يموتُ دائماً، وحتى لو انبعثَ من الموتِ يجبُ على الابنِ أنْ يملكَ طعمَ الموت في فمِهِ للأبد. إنّ ذلك يفسدُ الثّالوثَ المقدّسَ، يجبُ أن يكونَ هناك رائحة كريهة تفوحُ من اليد اليمنى للإله الأب، وأنْ يكونَ الرّعبَ حقيقيّاً. لماذا يتمنّى اللهُ ذلك لنفسه؟ لماذا لا يتركُ الموتَ للبشر؟ لماذا يلوّثُ ما هو جميلٌ ويفسدُ ما هو كاملٌ؟

«الحُبّ» كان جواب الأب مارتن.

وماذا عن تصرّفِ ابنِه؟ هناك قصةٌ عن كريشتا عندما كان طفلاً واتَّهمَه أصدقاؤه أنَّهُ أقلّ بكثيرٍ من القاذورات، جاءت مرضعته *ياشودا* إليه مهدّدةً بإصبعِها وموبّخةً: «يجب ألا تأكلَ من الأوساخِ أيّها الشقيُّ».

- ولكنّني لم أفعل، هكذا قال إلهُ الجميعِ، إله الكلّ الذي لا يُضاهى المتنكر بهيئة طفلٍ بشريّ خائفٍ.
- تف، تف، أمرتْه ياشودا، افتحْ فمك. فعلَ كريشنا ما طُلب منه، فتح فمَه، شهقَتْ ياشودا، شاهدتْ في فمِ كريشنا الكونَ الذي لا يحدّهُ زمن بكامله، كلّ النجومِ وكلُّ كواكبِ الفضاء والمسافات بينها، كلُّ البحار واليابسةِ على الأرض والحياة بها، شاهدَتْ كلَّ الأيامِ الماضية وأيّامِ المستقبل، شاهدت كلَّ الأفكارِ والمشاعرِ، كلَّ الحزن والأمل، الأشكال الثلاثيّة للمادة. لم يكنْ هناك حصاةً مفقودة أو حتى قنديل أو مخلوق أو قرية أو مجرّة بما في ذلك هي نفسها وكل جزء من الأوساخ في مكانه الحقيقي.
- قالتْ مبجّلةً: يا إلهي، تستطيعُ أن تغلقَ فمَك.

وهناك قصة فيشنو الذي تجسّدَ على هيئة فامانا القزم.

طُلبَ من الملك بالي العفريت أكبرَ مساحةٍ من الأرضِ يستطيعُ أن يُغَطّيَها بثلاثِ قفزاتٍ.

ضحكَ بالي من هذا القزم المدّعي، ومن طلبِه التّافِهِ، ووافقَ على ذلك مباشرةً، أخذ فيشنو شكلَه الكونيّ الكاملِ، وبقفزةٍ واحدةٍ غطّى الأرضَ وبالثّانيةِ غطّى السماءَ، وبالثالثة ركل بالي إلى العالم السفلي.

حتى راما أكثرَ من تجسّدِه على شكلِ بشرٍ، و يجبُ أن نذكرَه بألوهيّتِه عندما كبرَ، وأصبح وجهُهُ متطاولاً في معركته لاسترجاع *سيتا* زوجته من *رافانا* ملك *لانكا* الشّرير. لم يكن مترهلاً، ولم تقمعْه أيُّ مشادّة، وعندما وصلَ الهجومُ إلى مرحلة التّدافع، تخطّى حدودَ شكله البشريّ بقوةٍ لا يستطيعُ أيُّ رجلٍ امتلاكها، وسلاحٍ لا يستطيعُ أيّ رجل حملَه.

ذلك هو الإلهُ كما يجب أن يكونَ، يجبُ أن يمتلكَ الضياء والجبروتَ والقوّةَ، فمثلُ هذا الإله يستطيعُ أن ينقذَ ويحميَ ويهزمَ الشيطان، وهذا الولد من ناحيةٍ أخرى الذي يشعرُ بالجوع، ويعاني العطشَ ويشعرُ بالتّعبِ، والذي يحزنُ ويقلقُ ويتضايقُ ويشعرُ بالإرهاق، والذي يجبُ عليه أن يستضيفَ زملاءَه الذين لا يفهمونه، وخصومَه الذين لا يحترمونه، ما هو هذا الإله؟ إنّه إله وفق مقياس بشري للغاية، هذا ما هو عليه.

هناك معجزاتٌ، نعم، وغالباً ما تكون ذاتِ طبيعةٍ علميّة، القليلُ منها لإرضاء الجوع، وأفضلُها لتلطيف العاصفة والمشي على الماء. إذا كان ذلك سحراً فإنّه سحرٌ بسيطٌ، وبترتيبِ قائمة الخدعِ، يستطيعُ أيّ إلهٍ هندوسيّ أن يفعلَ ذلك، وأفضل بألف مرّةٍ.

هذا الابنُ الإلهُ يقضي معظمَ وقتِه وهو يحكي القصصَ ويتحدثُ، هذا الابنُ الذي يسيرُ على قدميه، هو إلهٌ يمشي وفي مكانٍ حارّ وبخطوات تشبهُ خطواتِ البشرِ، يلامسُ الخفَّ على طول الطريق، عندما يتباهى بوسيلةِ النّقلِ فإنّها تكون حماراً عادياً.

هذا الابنُ هو إلهٌ توفى خلالَ ثلاثِ ساعاتٍ وهو يئنُّ ويشهقُ وينوحُ.

ما نوعُ هذا الإله؟ ماذا لديه ليُلهِمْنا به؟

- «الحُبّ» قال الأب مارتن.

وظهرَ هذا الابنُ مرةً واحدةً، ومنذ وقتٍ بعيدٍ وبمكانٍ بعيدٍ؟

ضمنَ قبيلةٍ غامضةٍ، وما وراء بحارِ غرب آسيا على حدود إمبراطوريّةٍ اندثَرَتْ منذُ زمنٍ بعيد؟

هل استغنى عن ذلك قبل أنْ يتحولَ شعرُ رأسه إلى اللّون الرّماديّ؟

ألم يترك فرعاً واحداً، بل شهادة مبعثرة وغير مكتملة؟ ماذا عن أعماله الكاملة هل طواها النسيان؟ انتظر قليلاً، هذا أكبرُ من معالجة براهمان لقضيّةٍ خطيرةٍ في مرحلةِ الخوف، وبراهمان هذا أنانيٌّ بخيلٌ وغيرُ عادل، عملياً هذا جوهرُ براهمان، ولو كان لبراهمانَ ولدٌ واحدٌ، فيجبُ أن يكونَ غزيراً مثل كريشنا ومرضعته، أليس كذلك؟

ما الذي يبرّرُ مثلَ هذا الشحّ السماوي إذن؟

- «الحُبّ» كرّرَ الأبُ مارتن.

سأتشبّثُ بكريشنا، وشكراً جزيلاً.

إنّني أجدُ هذه الألوهيّةَ قهريّةً جداً، وتستطيعُ أن تحتفظَ بهذا الابنِ عذب الحديث والجميلِ لنفسك.

وهكذا قابلْتُ الحاخامَ المثيرَ للمتاعبِ منذُ القدم بعدمِ الإيمانِ والقلق. تبادلْتُ الشّايَ مع الأب مارتن منذُ ثلاثة أيّامٍ في صفٍّ واحد، بكلّ مرّةٍ يهتزُّ على الطبق، وكلّما طقطقتِ الملعقةُ على حافة الفنجان، أسألُ، ويأتيني الجواب دائماً نفسه.

لقد أزعجني هذا الابنُ، وكنتُ كلَّ يومٍ أشتعلُ غضباً منه، وأجدُ عيوباً أكثرَ به، إنّه سيّئ الطّبع، إنّه الصباحُ في بيثاني، والإلهُ جائعٌ، ويريدُ طعامَ فطوره، جاءَ إلى شجرةِ تينٍ، ولم يحِن موسمُ التين بعد، ولذا لم يجدْ حبّةَ تينٍ واحدةٍ فيها. كان الإلهُ منزعجا، تمتمَ الابنُ: أتمنّى ألّا تحملي التين ثانيةً، وبالحال تذبل شجرة التين وتموت. هكذا قالَ متّى مدعوماً بمرقس.

دعني أسألك: هل هي خطيئةُ الشجرة إنّه ليس موسمَ التّين؟

ماذا يمكنُك أن تفعلَ بشأن شجرة تينٍ بريئةٍ؟ أن تجعلَها تتبدّلُ بالحال؟

لم أستطعْ أن أخرجَه من تفكيري ولا أزالُ.

أمضيْتُ ثلاثَ ليالٍ كاملةٍ أفكّرُ به، كلّما أزعجني تذكّرتُه أكثرَ وأكثر، وكلّما عرفتُه أكثرَ قلّتْ رغبتي بتركه.

في آخر يومٍ لنا وقبلَ بضعِ ساعاتٍ من مغادرتنا *مونار* أسرعتُ إلى التلّةِ المنتصبة على اليسار، إنّه يُدهشني الآن كمشهدٍ مسيحيّ نموذجيّ.

المسيحيّةُ هي دينُ اندفاع، لننظرْ إلى العالم الذي خُلقَ بسبعةِ أيّام، حتى رمزياً، هذا خلِقَ في حالة من الجنونٍ. بالنسبة لشخص ولد في دين إذ يمكن أن تكونَ المعركةُ من أجل الرّوحِ الواحدةِ هي سباقُ تتابعٍ يمتد على مدى قرون، مع مرور أجيالٌ لا تُحصى، فإنّ ثباتَ المسيحيّة ستكونُ نتائجُه مذهلةً.

إذا انسابتِ الهندوسيّةُ بهدوءٍ مثلَ نهرِ الغانج، فإنّ المسيحيةَ ستكون صاخبةً مثل *تورينتو* في ساعة الذّروة. إنّه دينٌ سريعٌ كالسنونو وعاجلٌ كسيارةِ إسعافٍ، يتحوّلُ إلى قيمةٍ ضئيلةٍ تعبّرُ عن نفسها في حينها.

يمكنُ أن تتوّهَك أو تنقذَك. بلحظةٍ انتشرت المسيحيةُ عبر الأجيال، ولكنّها في جوهرها موجودةٌ بزمنٍ واحدٍ.

الآن تسلّقتُ التّلّةَ بالرغم من أنّ الأبَ مارتنَ ليس موجوداً، للأسف كان القفلُ مفتوحاً، شكراً لله، لقد كان بالداخل.

- قلت لاهثاً: أيّها الأبُ، أريدُ أن أكونَ مسيحياً، أرجوك.

- ابتسمَ وقال: أنت، في قلبك، مسيحيٌّ يا بيسين، من يقابلُ المسيحَ بإيمانٍ قويّ فهو مسيحيٌّ.

- لقد قابلتُ المسيحَ هنا في *مونار*. ربّتَ على رأسي، بالواقع كانت أكثرَ من ذلك، ضربَتْ يده رأسي، بوم... بوم... بوم. اعتقدْتُ أنّني سأنفجرُ فرحاً.

- عندما تعودُ، سنشربُ الشّايَ يا بنيّ.

- نعم يا أبي.

ابتسمَ لي ابتسامة جميلة، ابتسامة المسيح.

دخلتُ الكنيسةَ دونَ خوفٍ هذه المرة، لأنّها أصبحَتْ بيتي، صلّيتُ للمسيح الحيّ، ثمّ أسرعتُ بالنزول إلى التّلّة على اليسار، وصعدْتُ بسرعةٍ إلى التلة على اليمين لأقدّم الشكرَ للإله *كريشنا*، لأنّه وضعَ يسوع الناصري الذي عمّتْ إنسانيّتُه طريقي.

الفصل الثامن عشر

جاء الإسلامُ بعدها، بعدها بسنةٍ تقريباً، كنْتُ بعمر الخامسة عشرة، وكنْت استكشفُ مدينتي، لم يكنِ الجزءُ المسلمُ فيها بعيداً عن حديقة الحيوان، ترى أمامك جواراً صغيراً وهادئاً، جمع كتاباتٍ عربيةً وهلالاً مرسوماً على واجهاتِ المنازل.

جئتُ إلى شارع المُلّا، واسترقْتُ النّظرَ إلى المسجد الكبير مسجدِ *جاميا*، وقفتُ خارجاً، بحذرٍ طبعاً، ومن المؤسف أنّه كانَ للإسلام سمعةٌ أسوأُ ممّا كانت للمسيحيّة، آلهةٌ قليلةٌ وعنفٌ أكبرُ، ولم أسمع مرّةً أيّ كلامٍ جيّدٍ عن المدارسِ الإسلاميّة، لذا لم أكنْ أنوي دخولَها رغم أنّ المكانَ خالٍ.

البناءُ نظيفٌ وأبيضُ عدا بعض الحوافّ المدهونةِ باللّونِ الأخضرِ، بناءٌ مفتوحٌ يكشفُ غرفةً مركزيّةً فارغةً، وسجادٌ من القشّ يغطّي الأرضَ بأكملها، ترى مئذنتين شاهقتين في السّماء ورفيعتين كنايٍ، مقابل خلفيّة ترتفعُ فيها أشجارُ جوز الهند.

لا شيء يثيرُ الاهتمامَ بشأن هذا المكان، وما من شيءٍ دينيّ واضح، لكن لا أنكر أنّه كان مكاناً هادئاً وجميلاً.

تابعتُ طريقي، فوجدتُ خلفَ المسجد تماماً مجموعةً من المساكن ذاتِ الطابقِ الواحدِ والمداخلِ الصغيرةِ المضلّلة، أبنيةٌ فقيرةٌ ومنخفضةٌ، جدرانها من الجصّ، خضراءُ باهتةٌ، وقد استُغِلَّ أحدُ هذه المساكن ليكونَ دكاناً

صغيراً، تربّعَ على أحدِ رفوفه صفٌ من الزجاجاتِ المغبرةِ الملأى بالثّوم المقطّع، وأربعُ جرارٍ من البلاستيك الشفّاف مملوءة حتى المنتصف بالسّكاكر، إلّا أنّ البضاعةَ الرئيسيّةَ كانتْ شيئاً آخرَ، شيءٌ مسطّحٌ مستديرٌ وأبيضُ، اقتربتُ فاكتشفْت أنّه نوعٌ من الخبز غير المُخمَّر، وخزْتُ إحداها فانقلبَتْ بحدّة، إنّها تشبهُ أقزاماً عمرُها ثلاثةُ أيام. تساءلْتُ من الذي سيأكلُها؟ التقطت قطعة وهززْتُها لأرى إذا كانَتْ ستُكسَرُ.

فإذا بصوتٍ يقتحمُ المكانَ ويقول: هل تُحبّ أنْ تتذوقَ واحدةً؟

قفزتُ فرحاً.

حدثَ هذا لجميعنا، هناكَ ضوء شمسٍ وظلٌّ وبقعٌ ونماذجُ من الألوان، ولكن عقلَك يكون بمكان آخر، لذا لا يمكنُكَ تحديد ما هو الصواب أمامك مباشرةً.

هناك رجلٌ يجلسُ شابكاً رجليه أمامَ الخبز، على بعدِ أقلّ من أربعة أقدام ذُهلت، ورفعْتُ يديَّ، فبدأ الخبزُ ينزلُ نصفَ المسافة عبر الشارع، وحطّ على صفيحةٍ من روثِ البقر الجديد.

- صرختُ: آسف سيدي، لم أشاهدْك.

وكنت أوشك أن أهربَ.

- لا عليك قال بهدوء، سأطعمه للبقرة، خذْ واحداً آخر.

قسمَ رغيفاً إلى قسمين وأكلناه معاً، كان قاسياً ومطاطياً يلائمُ حشو الأسنان، هدأتُ، أردتُ فتحَ أيّ حديث معه فقلت: إذن أنت من صنعها؟

- نعم، الآن دعني أريك كيف.

ابتعدَ عن الرصيف ولوّحَ لي ودعاني إلى منزله. دخلتُ كوخاً حقيراً من غرفتين، الغرفةُ الكبيرة يحتلّها فرنٌ، لا بدّ أنّها المَخبزُ، أمّا الغرفة الأخرى فقد فصلها عن الأولى بستارةٍ رقيقة، لتكونَ غرفةَ نومه، كانت أرضيّةُ الفرن مغطاةً بحصى أملس، أخذَ يشرح لي كيف يشوي الخبز على هذه الحَصى الحارّة، علا صوتُ المؤذّنِ الحادّ من المَسجد عبر الهواء، عرفتُ أنّه النداء إلى الصّلاة، ولكنّني لم أعرف ماذا يترتب عليها، تخيّلْتُ أنّها تدعو المسلمين إلى المسجد تماماً كما تنادي الأجراسُ المسيحيين إلى الكنيسة، لم يكن الأمر كذلك.

إذ قطع الخباز كلامه وقال: اعذرني، اندفعَ إلى الغرفة الثانية لدقيقة وعادَ بسجادة ملفوفة، ثمّ بسطَها على الأرض، فأثارتْ عاصفةً صغيرةً من الدقيق، وبدأ يُصلّي أمامي تماماً وفي منتصف مكانِ عمله، كانَ شيئاً غيرَ مألوف، ولكنّني كنْتُ أشعرُ أنّني أنا الغريبُ. لحسن الحظّ كان يصلّي وعيناه مغمضتان، وقف منتصباً وتمْتم بالعربيّة، ثمّ رفعَ يديه إلى أذنيه وإبهاماه يلامسان شحمةَ أذنيه، بدا وكأنّه عَهِدَ نفسه لسماعِ الله، وكرّرَ الكلامَ، انحنى للأمام، وقفَ معتدلاً ثانية، ركعَ على ركبتيه ووضعَ يديه وجبهتَه على الأرض، جلسَ ثمّ انحنى للأمام ثانية، وقفَ وأعاد كلّ شيء إلى مكانه.

لا أدري، لكنّني وجدْتُ أنّ الإسلامَ ليسَ سوى نوعٍ سهلٍ من التمرينات، أشبه بحركات أو وضعيات اليوغا في الطّقس الحارّ دون تعرّق، جنّةٌ بلا إجهاد.

أعاد الدورةَ أربعَ مرّات، وكان يتمتمُ خلالها، عندما انتهى من دوران الرّأس إلى اليمين وإلى اليسار، مع القليل من التّأمّل، فتحَ عينيه، ابتسمَ ثمّ ابتعدَ عن سجّادته، ولفّها بحركةٍ خفيفةٍ من يديه تعبّر عن اعتياده ذلك، أعادها إلى مَكانها في الغرفةِ الثّانية، ثمّ رجعَ إليّ وسألني: ما الذي كنْتُ أقولُه؟

وهكذا كانتِ المرّة الأولى التي أرى فيها مُسلماً يصلّي، كانَتْ صلاةً مدهشةً، ملأى بالحركة والنّشاط والسّرعة.

بالمرّة التّاليةِ كنتُ أصلّي في الكنيسة على ركبتيّ دونَ حراك، صامتاً أمام المسيحِ على الصّليب، وصورة تلك الشركة الكلسية مع الله وسطَ أكياس الدّقيق لا تفارق ذهني.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع عشر

ذهبْتُ لرؤيته ثانيةً، وسألتُه: ما هو دينك؟

أجابني وقد لمعتْ عيناه: إنّه عن محبوبي الله. وأردف: أتحدّى أيَّ إنسانٍ يفهمُ الإسلامَ وجوهره ولا يحبّه، إنّه دينُ الأخوّةِ والتقوى الجميل.

المسجدُ حقيقةٌ، بناءٌ مفتوحٌ لله وللتّمجيد، كنّا نستمعُ للإمام متربّعين حتى جاء وقتُ الصّلاة، ثمّ اختفى هيكلُ الجالسين العشوائيّ حين وقفْنا ونظّمْنا أنفسَنا في صفوفٍ متراصّة، وامتلأتِ الفراغاتُ أمامنا بالذين جاؤوا في الخلف، حتى استوى كلُّ صفّ، تتالتِ الصفوف، صفّاً بعد صفّ من العباد، انتابني شعورٌ رائعٌ عندما التصقَتْ رأسي بالأرض، وفجأةً شعرْتُ بتواصلٍ دينيّ عميق.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل العشرون

لقد كان مسلماً متصوّفاً، ينشدُ حُبَّ الله والاتّحاد به، فقد كانَتْ علاقتُه بالإله علاقةَ محبّةٍ شخصيّةٍ، كان يقول لي: لو خطوتَ خطوتين نحو الله فسوف يركضُ هو إليك.

اتّسمَ بملامح واضحة، لا شيء في نظرته أو في ثوبه يجعلُك تعودُ إلى الوراء، ولم أكنْ متفاجئاً من كوني لم أعرفْه عندما تقابلْنا للمرّة الأولى، حتى عندما عرفته جيّداً بعدما التقينا مصادفةً مراراً، إذ ميّزته بصعوبة، كانَ اسمه *ساتيش كومار* فهناك الكثيرُ من الأسماء الشّائعةِ في تاميل نادرةٌ، لذا فالمُصادفةُ لم تكنْ جديرةً بالملاحظة.

لا يزال يعِدُني أنّ هذا الخبّازَ التّقيَّ واضحٌ كوضوح الظلّ والصحة القويّة، وأستاذُ التشريح الشيوعيّ ومحبّ العلوم، ذاك الجبلُ الذي يتحركُ على ركائزَ متينة، والمصاب للأسف بشلل الأطفال، يحمل نفسَ الاسم، السيّد والسيّد كومار، درّسني علم الأحياء والإسلام، وقادني إلى دراسة علم الحيوان والدّراساتِ الدّينيّة في جامعة تورنيتو، السيّد والسيّد كومار أنبياء شبابي الهنديّ.

صلّينا معاً، ضحكْنا معاً، وردّدْنا أسماءَ الله الحسنى التسعة والتسعين، كان حافظاً للقرآن الكريمِ عن ظهر قلب، يرتّلُه بصوتٍ هادئٍ ونغمةٍ بسيطة. لم تكن عربيّتي جيدةً أبداً، ولكنّني كنْتُ أحبّ نغمتَها، تدفُّقُ الصوتِ وانسيابُ

الحروف الصوتية، كانت تحت مستوى فمي مثل جدول، حدّقتُ في هذا الجدول مدّةً طويلةً من الزمن، لم يكن متسعاً. إنّه صوتُ رجلٍ واحدٍ، ولكنّه بعمق الكون، كنْتُ قد وصفت مكان السيّد كومار بأنّه كوخٌ حقير، لا مسجداً ولا كنيسةً ولا معبداً، لكن في الحقيقة لم يكن يقلُّ قدسيّةً عن تلك الأماكن، فكثيراً ما كنْت أخرجُ من ذلك المخبز بشعورٍ مُثقلٍ بالتألّق. ركبْتُ دراجتي لأنقلَ هذا التألّق إلى الهواء. غادرْتُ المدينةَ في ذلك الوقت، وفي طريق عودتي وعندَ النّقطة التي كانت فيها الأرض مرتفعةً، استطعْتُ رؤيةَ البحر على يساري، وفي الأسفل شاهدتُ دروباً كثيرةً، فجأةً شعرتُ أنّني في الجنة، لم تختلف النقطةُ التي عبرتُ منها منذ زمن ليس ببعيد، ولكن تغيرت طريقةُ رؤيتي لها، المشاعر، الخليط المتناقض للطّاقة النّابضة، الهواء، الشّمس، كلّها تتحدث إليّ بشكلٍ مختلفٍ، أمّا الآن، فكلّها تتحدّثُ لغةَ التوحّد. أخذتِ الأشجارُ الطّريقَ بعينِ الاعتبار الذي كان مُدركاً للرّيح، والذي لازمَ البحرَ الذي تَشَارك كلَّ شيء مع الشمس، كلُّ عنصرٍ عاش بعلاقةٍ متناغمةٍ مع جاره، والجميعُ كانوا أقرباءَ وأهل ركعتُ كبشريّ فانٍ ونهضْتُ خالداً، شعرْتُ وكأنّني مركزُ دائرةٍ صغيرةٍ يتقاطعُ مع مركزِ دائرةٍ أكبر، آتمان قابل الله.

شعرتُ في وقتٍ آخر أنّ اللهَ اقتربَ منّي كثيراً، كان ذلك في كندا، في وقتٍ مبكّرٍ جداً من أيام الشتاء، كنْتُ بزيارةٍ لأصدقائي، وقد خرجْتُ بجولةٍ في مُمتلكاتهم الكبيرة، عدْتُ إلى البيت، وقد أصبح الجوُّ مشمساً والسماءُ صافيةً بعد ليلةٍ مثلجةٍ كسَتِ الطبيعةَ بلحافٍ أبيضَ. وأثناء عودتي إلى المنزل، التفتُّ، فرأيتُ غابةً، ولمحْتُ بقعةً صغيرةً واضحةً ربما هي الهواءُ أو ربما حيوانٌ ما هزّ غصنَ شجرة، كانَ الثلجُ النّاعمُ يتساقطُ في الهواءِ ويلمعُ في ضوء الشمس،

وأثناء تساقطِ ذلك الغبارِ الذهبيّ على البقعة التي تنيرُها الشمسُ، شاهدتُ مريمَ العذراء، ولماذا هي؟ لا أعرف.

كان حبّي لمريمَ ثانويّاً، ولكنّها كانت هي، رأيتُ جلدها شاحباً، ترتدي ثوباً أبيضَ وعباءةً زرقاءَ، تذكرتُ كم أدهشتْني طياتُها.

عندما قلْتُ إنّني رأيتها، لم أقصد ذلك حرفيّاً، على الرّغم من أنّها تمتلكُ جسداً ولوناً، شعرتُ أنّي رأيتُها خيالاً وراءَ خيال، توقّفتُ ونظرْتُ بطرف عيني، تبدو جميلةً وملكيّةً بامتياز، ابتسمتْ لي بلطفٍ مُحبّب، غادرتْني بعدَ بضعِ ثوانٍ، أخذَ قلبي يَخفقُ بخوفٍ وفرحٍ.

إنّ حضورَ الإله هو أعظمُ هديّة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الحادي والعشرون

كنْتُ أجلسُ في مقهى وسطَ المدينة أفكّر. لقد قضيْتُ مُعظمَ فترة ما بعدَ الظهر معه، تركتْني مقابلاتُنا دائماً مُنهكاً من الرضا الكئيب الذي يميّزُ حياتي. ماذا كانت تلك الكلمات التي استخدمْها وأذهلتني؟ آه، نعم. «الحقائق الجافة وغيرُ المتخمّرة»، «القصة الأفضل». أخذتُ قلماً وورقةً وكتبْتُ:

كلماتٍ عن الوعي الإلهي، انسجامٌ أخلاقيّ، مشاعرُ دائمة من السمو والغبطة والفرح. وتسريع الحس الأخلاقي الذي يعتبر أكثر أهميّة من الفهم العقلانيّ للأشياء، انتظامُ الكونِ على خطوطٍ أخلاقيّة ليست عقلانيّة، إدراكُ أنّ المبادئَ الأساسيّة للوجود هي ما ندعوه الحُبَّ، والذي يبرزُ نفسَه بغير وضوحٍ، وبغير نقاءٍ، وبشكلٍ غير مباشر، وبالرّغم من ذلك يكونُ حتميّاً.

توقفتُ، ماذا عن صمت الإله؟ فكّرتُ بذلك، إنّه شيءٌ مُحيّرٌ للعقل، ومع ذلك فهو شعورٌ بالثّقة، شعورٌ بأنّه موجودٌ ولغايةٍ مطلقة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني والعشرون

أستطيعُ أن أتخيلَ جيّداً كلماتِ المُلحدِ الأخيرة: أبيض، أبيض! الحُبّ! يا إلهي!

وكلماتُ الإيمان الأخيرة الّتي تلفّظها على فراش الموت.

في حين أن اللا أدَري إذا ظلَّ مُخلصاً لذاته المعقولة، وإذا بقيَ مديناً بالفضل للحقائق الجافة غيرِ المختمرة، فربّما يحاولُ شرحَ وتفسيرَ النورِ الدّافئ الذي يغسلُه بقوله: «احتمالُ فشلٍ في أكسجةِ الدّماغ». وحتى النهاية يفتقد إلى الخيال وتفوته القصّة الحقيقيّة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث والعشرون

للأسف إنَّ الشعورَ السّائدَ بأنَّ الإيمانَ أدَّى إلى مُشكلة لي، في الوقت الذي انتقلتْ به مُمارساتي الدينيّة مِن مُلاحظة أولئك الذين لا يَهمّهم الأمر، وإنّهم يتسلَّون فقط، إلى أولئك الذينَ يهتمّون.

- سألَ الراهب أبي: ماذا يفعلُ ابنكَ بذهابه إلى المَعبد؟

- قال الإمام: لقد شوهد ابنُك في الكنيسة يرسمُ الصّليبَ على نفسه.

- قال الباندیت: أصبحَ ابنُك مسلماً.

نعم، كل ذلك جذبَ انتباهَ والديّ المُرتبكين بقوّة، فلم يكونا على علمٍ بأنّني أمارسُ الهندوسيّةَ والمسيحيّةَ والإسلامَ.

عادةً ما يخفي المراهقون أشياءَهم عن أهلهم، أليس الأمرُ كذلك؟

كلٌّ منْ هم في عمر السادسة عشرة لديهم أسرارُهم، أليس كذلك؟

ولكن شاءَ القدرُ أن نلتقي والدايَ وأنا ومن سأدعوهم الحكماءَ الثّلاثة في ساحة غوبري سالاي على الشاطئ، وينكشفَ سِرّي. كانَ مساءُ يومِ الأحد جميلاً وحارّاً، ومياه خليج البنغالِ تتلألأُ تحتَ السماء الزرقاء، وقد خرجَ سكانُ البلدة للتنزه، الأطفالُ هنا وهناك، يلعبون ويصرخون، وقد زرعوا الهواءَ بالوناتٍ ملوّنة، ونشطَ في ذلك المكان بائعو الأيس كريم. سألتُ نفسي لماذا يفكّر

هؤلاء بالعمل في مثل هذا اليوم؟ لمَ لا يكتفون بالمشي والتحيّة والابتسام؟ لم يحدث ذلك؟ لم نلتقِ رجلاً حكيماً واحداً، بل التقينا بثلاثة، ولم نلتق واحداً تلوَ الآخر، ولكنّنا التقيناهم معاً وبوقتٍ واحد، كلٌّ واحداً منهم قد قرّرَ ذلك الحقّ، ثمّ جاءت المناسبةُ الذّهبيّة لمقابلة مدير حديقة حيوان بوندي تشيري، عند رؤيتي للأوّل في الوقت الذي وقعتْ عيناي فيه على الثالث، تجمدت ابتسامتي، وتحوّلَتْ إلى قناعٍ من الرّعب عندما اتّضحَ لي أنّ ثلاثتَهم كانوا يركزون علينا، قفز قلبي وهبطَ ببطءٍ شديد.

بدا أنّ ثلاثتهم منزعجون، عندما أدركوا أنّهم يقتربون من الأشخاص أنفسهم، وكان واحدٌ منهم يفترض أنّ الآخرين كانوا هناك لبعض الأعمال غير الرعوية، وقد اختاروا تلك اللحظةَ للتّعامل مع الأمر، وتبادلوا نظراتِ الاستياء. بدا والديَ مرتبكين عندما قطع طريقَهما بلطفٍ، ثلاثةُ رجال دين غرباءَ، يبتسمون ابتسامةً عريضةً، وبالمناسبة، إنّ والديَ كانا أيَّ شيءٍ إلّا أرثوذكس، فوالدي يرى نفسَه جزءاً من الهند الحديثة، ثريٌّ وعصريٌّ ومدنيٌّ كالأيس كريم، لا يملكُ عظمةً متدنيّة في جسده، كان رجلُ أعمال، يطلَقُ على من في حالته: رجلاً مشغولاً ونشطاً، متخصصاً بالدنيويّة، يهتمّ كثيراً بتكاثر الأسود أكثر من أيّ مشروع أخلاقيّ أو وجوديّ، صحيحٌ أنّ كاهناً قد بارك كلَّ الحيواناتِ الجديدة، وأنّ هناك معبدين صغيرين في حديقة الحيوان، أحدهما للإله غانيشا والثاني لهانومان، ويبدو أنّهما يبعثان السّرورَ لمدير حديقة الحيوان. فبالنسبة للأوّل كان عبارةً عن رأس فيل، والثاني حماراً، ولكن بتقدير أبي أنّ ذلك ملائمٌ للعمل، ولكنّه ليسَ ملائماً لروحه. إنّها مسألةُ علاقاتٍ عامةٍ أكثرَ من كونها مسألة خلاصٍ شخصيّة.

ولقد لمستُ بأبي أنّ الهمّ الرّوحي كان عدواً له، والهمُّ الماديُّ أساسُ وجوده، كان يقولُ إنّ وباءً واحداً في المجموعة سيؤدّي بنا إلى مجموعة عملٍ تكسرُ الحجارةَ في الطّريق، كانت أمّي تشعرُ بالملل، وتلتزمُ الصمتَ، وكانت حياديّةً في هذا الموضوع.

إنّ التنشئةَ الهندوسيّةَ والثقافةَ المعمدانيةَ قد ألغتْ إحداهما الأخرى، قطعاً، بما يتعلق بالدّين، وتركتها غيرَ ورعةٍ بصمت، أظّن أنّها تشكّ أنّ لي اتجاهاً آخر بهذا الأمر، ولكنّها لم تقلْ شيئاً أبداً. عندما كنتُ صغيراً وأعشقُ الكتب الكوميديّةَ لرامايانا والماهاباراتا وإنجيل الأطفال المزيّن بالصّور وقصص الآلهة الأخرى، وكانت هي نفسُها قارئةً جيدةً، كانت تفرح لرؤيتي غارقاً في الكتاب، أيّ كتاب، لا يهمّ لطالما لم يكنْ بذيئاً.

كان هناك صَمتٌ مُحرجٌ. فبعدَ مرحباً، ويوم طيّب، دخلَ الكاهن وقالَ بكبرياء: إنّ بيسين ولدٌ مسيحيّ طيّبٌ، أتمنى أن أراه، وقد انضم إلى كورال الكنيسة قريباً.

ظهرت الدّهشة على والديّ، وعلى الباندیت، وعلى الإمام.

فقال الإمام: لا بدّ أن تكونَ مخطئاً، إنّه ولدٌ مُسلمٌ، يواظبُ على صلاة الجمعة.

أصابت الدهشةُ كُلًّا من والديّ والكاهن والباندیت، الذي قال مُستنكراً: كلاكُما مخطئٌ، إنّه ولدٌ هندوسيّ جيّدٌ، كنت أراهُ دائماً يأتي إلى المعبدِ من أجل الدراشان وممارسة اليوغا.

دُهِشَ كلّ من والديّ والإمامُ والكاهنُ الذي قال بدوره: ليسَ هناك خطأٌ، أنا أعرفُ هذا الصبيّ، إنّه بيسين موليتمور باتيل وهو مسيحيٌّ.

قال الإمام مؤكّداً: أنا أعرفه أيضاً، وأقول لك إنّه مسلمٌ.

صرخ الباندیت: كلامٌ فارغٌ، وُلِدَ بيسين هندوسيّاً، وسيبقى هندوسيّاً وسيموت هندوسياً.

همستُ بسرّي: يا إلهي، أبعدْ عيونَهم عني.

وقعتْ كلّ الأنظار عليّ.

سألني الإمام بجدّية: هل هذا صحيح يا بيسين؟ الهندوسُ والمسيحيةُ أديانٌ وثنيّةٌ، ولديهم العديدُ من الآلهة.

فقاطعه الباندیت: والمسلمون يجيزون تعدّد الزوجات.

نظرَ الكاهنُ لكليهما باشمئزاز، وهمسَ لبيسين: الخلاصُ مع السيد المسيح فقط.

- إنّه ليسَ سيركاً، وفيه أناسٌ موتى يقفزون خارج القبور طوالَ الوقت.

نحن المسلمين ملتزمون بمعجزة أساسيّة، معجزة الوجود، طيران الطيور، سقوط المطر، نموّ المَحاصيل، هذه معجزاتٌ كافيةٌ بالنّسبة لنا.

- الريش والمطر أمورٌ جميلة جداً. لكننا نحبُّ أن نعلم أنّ الله حقاً معنا.

- هل الأمر كذلك؟ حسنٌ فعل أنّ الله معكم لكنكم حاولتم قتله! قمتم بربطه إلى صليب بمسامیرَ ضخمةٍ، هل هذه طريقة حضارية

في معاملة نبيّ؟ النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم جلب لنا كلمةَ الله دون أيّ هراء، ومات وهو شيخٌ متقدّمٌ بالعمر.

- كلمة الله؟! إلى ذلك التاجر الأمّي في قلب الصحراء؟! تلك كانت نوبات صرع، جاءت من تأرْجُحِ بعيره، وليست إلهاماً سماوياً، وربما أنّ الشمس قد شوتْ دماغه؟

قاطعه الكاهن: إنّهم يحبّون العجولَ الذهبيّة، ويركعون أمام الأبقار.

صرخَ الكاهن بصوتٍ باردٍ: هو فيما إذا كان بيسين يريدُ ديناً حقيقيّاً أو أساطيرَ كرتونيّةً مزينة بأشرطةٍ ملوّنة، وارتجلَ الإمام سائلاً: اللهُ أم الأوثانُ؟

فهمسَ الباندیت: آلهتُنا أم آلهة المُستعمرين؟

كان من الصّعب معرفةُ أيّ من الوجوه كان متوهّجاً، بدا الأمرُ وكأنّهم سيبدؤون بالضرب، رفع والدي يديه قائلاً: أيها السّادة، أيّها السّادة، أرجوكم، أودّ أن أذكّرَكم أنّ هناك شيئاً اسمُه حريّة الاعتقاد في هذا البلد.

التفتَتْ إليه الوجوهُ الواجمةُ الصامتةُ.

نعم! حرية الاعتقاد. صرخ الحكماء الثلاثةُ بوقت واحد، ارتفعت ثلاثةُ أصابعَ في الهواء، وكأنّها علاماتُ ترقيم لتؤكد وجهة نظرهم. لم يكونوا مسرورين بالتأثير الجماعيّ غيرُ المقصود أو التوافق العفويّ لحركاتهم.

أنزلوا أصابعهم بسرعة، وتنهّدَ كلٌّ واحدٍ منهم على حِدَةٍ.

حدّق والدي، ولم يعرف ماذا يقول.

تحدّث الباندیت أولاً: سید باتیل تعجبُني تقوى بیسین، من الجید رؤیة صبيّ مُحبٍّ لله في هذه الأوقات الصّعبة، ونحنُ جمیعاً نتّفقُ على ذلك.

هزّ الكاهن والإمام رأسیهما بالمُوافقة، ولكنّه لا یمكن أن یكون هندوسیّاً ومُسلماً ومسیحیّاً بآنٍ واحد، یجبُ علیه أن یختار.

أجاب والدي: لا أعتقد أنّها جریمة، ولكنّني أفترضُ أنّك على حق.

تمتم الثلاثةُ، ونظروا إلى السماء، إذ یعتقدون أنّ الموافقةَ ستأتي من هناك. ساد صمتٌ ثقیلٌ على كتفيّ، نظرتْ أمي إليّ، وبشيءٍ منَ اللّطف دفعتْني أمّي بكوعها وقالت: ما رأیك إزاءَ هذا السؤال؟

«قال بابوغاندي: كلُّ الأدیان صحیحةٌ». صرختُ وأنا مطأطئٌ رأسي، وقد علتِ الحُمرةُ وجنتيّ: ما أریده هو أن أُحبّ الله.

انتقلتْ عدوى الإحراج إلى الجمیع، لم یقلْ أحدُنا شیئاً. صادف أنّنا كنا قریبین من تمثالِ غاندي في الساحة، وكان یحملُ بیده عصاً وترتسمُ ابتسامةٌ شیطانیّةٌ على شفتیه، ولمعانٌ في عینیه. تهیّأ لي أنّ المهاتما مشى بعد أنْ سمعَ حدیثَنا، ولكنّه انتبهَ كثیراً لقلبي.

تنحنحَ والدي وقال بصوتٍ منخفضٍ: أعتقدُ أنّ حُبَّ الله هو ما نحاولُ جمیعاً القیام به.

وجدْتُ ما قاله والدي مُضحكاً جداً، وهو الذي لم یدخلْ معبداً بنیّةٍ صادقةٍ حسبَ ما أذكرُ، ولكنّه نجحَ باختراع خدعةٍ كهذه، وأردفَ: لا یمكنكَ أنْ توبّخَ صبیّاً لرغبته في حُبّ الله.

انسحبَ الحكماءُ الثّلاثةُ وقد علَتْ وجوهَم ابتساماتٌ جامدةٌ وحاقدةٌ.

نظرَ والدي إليّ للحظة، وكانَ يودّ أن يقولَ شيئاً، ثمّ أمعنَ التفكير وسأل: هل يريدُ أحدُكم أيس كريم؟ واتّجه لأقربِ كشكٍ يبيعُ الأيس كريم دونَ أنْ ينتظرَ إجابةً منّا. حدّقتْ أمّي بي أكثرَ وتعابيرُها ملأى بالحنان والحيرة، كان ذلك الحديثُ حواراً حول الأديان.

اشترى والدي أربع قطعٍ من الأيس كريم، تناولَها بصمتٍ غير عادي، بينما كنّا نتابع نزهةَ يوم الأحد.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والعشرون

في ذلك اليوم، لم يكن رافي موجوداً، إذ كان لديه تدريبٌ، قال وهو يقرب كفّيه من وجهه بتحيّة مبجّلة: إذنْ سيدي المسيح، هل ستذهبُ إلى الحجّ هذا العام؟ هل تناديك مكة؟ ورسم الصّليبُ على نفسه، أو هل ستكون رحلتُك إلى روما حيث ستُتَوّجُ البابا الجديد؟ رسم حرفاً لاتينيّاً في الهواء موضّحاً سُخريته، هل وجدتَ الوقت لتتطهّرَ وتصبحَ يهوديّاً؟ وبالنسبة لذهابك فإنّك إذا ذهبت إلى المعبد يوم الخميس، وإلى الكنيس يوم السبت، وإلى المسجد يوم الجمعة، وإلى الكنيسة يوم الأحد، فإنّك تحتاج إلى أنْ تتحولَ إلى ثلاث دياناتٍ أخرى، لتكون في عطلةٍ دائمةٍ بقيةَ حياتِك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس والعشرون

لم تكن تلك نهايةُ الأمر، إذ تجدُ دائماً أناساً يأخذون على عاتقهم الدّفاعَ عن الله، كما لو أنّ الحقيقةُ المُطلقة، أي الإطارُ الداعم للوجود شيئاً ضعيفاً ويحتاجُ للمُساعدة. كأولئك الذين إذا مرّوا بجانب أرملةٍ شوّهها الجُذامُ وتتسولُ القليلَ من النّقود، أو رأوا أولاداً بأسمالٍ بالية ويسكنونَ الشوارعَ مُعتقدين أنّه «عملٌ كالعادة»، دون أنْ تتحركَ داخلهم أيّةُ مشاعر، أمّا إذا عملوا شيئاً ضدّ الله فإنّ تلك قصةٌ أخرى، تحمرُّ وجوهُهم وتجيشُ صدورُهم بقوة، ويتفوّهون بكلماتٍ غاضبة، وترتفعُ درجاتُ سُخطهم بشكلٍ جنونيّ، ويكونُ الحلُّ عندهم بالترهيب.

لا يدرك هؤلاء أنّ الدفاعَ عن الله يجبُ أن يكونَ بداخلهم، وليسَ بخارجهم، يجبُ أن يغضبوا على أنفسهم أولاً، فالشّيطانُ في الخارج ما هو إلا الشيطان الذي أطلقوه من داخلهم، إنّ ساحةَ المَعركة من أجل الخير ليستْ ساحاتٍ مفتوحةً للعامّة، ولكنّها في نقاء القلب، وفي الوقت نفسِه فإنّ كثرةَ الأرامل والأطفال المُشردين قضيّةٌ صعبةٌ جداً، وهذا ما يجبُ أن يدافعوا عنه، أمّا اللهُ فليس بحاجة لمن يدافع عنه، والورع الذّاتي يجبُ أن يكونَ اندفاعاً شخصيّاً.

طردني شخصٌ أحمقُ من المسجد الكبير مرة.

كاهنٌ براهماتي أبعدني عن تلقّي البركات، وتمّ إبلاغُ والدي بسرعة وهدوء يكشفُ عن خيانةٍ لسلوكي الدّيني.

وكان هؤلاء المجانين يقدّمون خدمةً لله. الدين بالنسبة إلي هو كرامتُنا وليس فسادنا.

توقّفْتُ عن حضور التّجمّعات عند سيدة الجنين الطاهر، وبدأتُ بالذهاب بدلاً من ذلك إلى سيدة الملائكة، لم أعدْ أقفُ في الصفّ لصلاة الجمعة بين إخواني، حتى المعبدُ صرتُ أذهبُ إليه بأوقات الازدحام عندما يكون أتباعُ براهمان بعيدين عن الوقوف بيني وبين الله.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس والعشرون

بعد أيامٍ من الاجتماع في السّاحة، استجمعْتُ قوايَ، وذهبْتُ لرؤية الأب في المكتبة.

- أبونا.

- نعم يا بيسين.

- أرغبُ بالاشتراك بسرّ المعمودية، وكذلك بسجّادة صلاة. انسلّت كلماتي ببطء، رفعَ رأسه بعد بضع ثوان.

- ماذا؟ ماذا؟

- أودّ أن أصلّي في الخارج دون أن يتّسخَ سروالي، أنا دخلتُ مدرسةً مسيحيّةً دون أن أتلقى عِمادة المسيح المناسبة.

- لماذا ترغبُ بالصلاة في الخارج؟ لماذا تريدُ أن تصلي أصلاً؟

- لأنّني أحبُّ الله.

- هه... بدا وكأنّه صُدِم بجوابي، أو إنّه مُحرجٌ به، سادتْ لحظةُ صمتٍ، اعتقدْتُ أنّه سيقدّمُ لي أيس كريم ثانية، Petit Séminaire مسيحيّة بالاسم فقط.

- يوجد بتلك المدرسة أطفالٌ هندوس كثيرون، وهم ليسوا مسيحيين، ستحصلُ على علوم جيّدة دون عمادة، والصلاة لله لن تشكّلَ أيَّ فرقٍ في ذلك.

- لكنّني أودّ أن أصلّي لله، أريد أن أكونَ مسيحيّاً.

- لا يمكنك أن تكونَ كلا الأمرين، عليك أن تختارَ إمّا مسيحيّاً وإما هندوسيّاً.

- لِمَ لا يمكنُني أن أكونَ كليهما؟

- لأنّهما دينان منفصلان، لا يشتركان بشيء.

- ليس هذا ما يقولانه، كلاهما يقولُ إن أبراهام ملك لهما، يقول المسلمون إن إلهَ اليهود وإلهَ المسيحيين واحد، وهو نفسُه إلهُ المسلمين، إنّهم يرون أنّ داوود وموسى والمسيح هم أنبياء.

- ما علاقة ذلك بنا يا بيسين؟ نحن هنودٌ.

- هناك مسلمون ومسيحيون في الهند منذ قرون، ويقولُ البعضُ المسيح مدفونٌ في كشمير.

لم يقلْ شيئاً، نظر إليّ فقط، وقطّب حاجبيه، فجأةً جاء وقتُ العمل.

- تحدّثْ مع الأمّ في ذلك.

كانت تقرأ.

- أمي؟

- نعم يا حبيبي.

- أودّ أن أتعمَّد، وأريدُ سجادة صلاة.

- تحدّث في ذلك مع الأب.

تحدثت إليه، لكنّه طلبَ منّي أنْ أتحدثَ إليك في هذا الأمر.

- هل قال ذلك؟ وضعت الكتاب من يدها، ونظرت للخارج باتجاه حديقة الحيوان. كنتُ متأكداً أنّ الأبَ شعر بهبّة هواء باردة خلف رقبته، توجّهَت نحو رفّ الكتب، لديّ كتاب هنا سينال إعجابك، مدّتْ يدها نحو مُجلّدٍ، كان روبرت لويس ستيفنسون، ذلك هو أسلوبُها المُعتاد.

- لقد قرأتُ هذا الكتاب ثلاثَ مرّات.

- آه... توجّهت بيدها نحو اليسار، فقلت لها الشيء نفسَه مع كونان رويل.

تأرجحَتْ يدها نحو اليمين، آر.كي ناريان؟

- لا يمكن أن تكونَ قد قرأتَ كلّ أعمال نارايان؟

- أمي هذه القضايا مهمّةٌ بالنسبة إلي.

- روبنسون كروزو.

- أمي!

- لكن يا بيسين، قالت ذلك وأسندت ظهرها إلى كرسيّها، بدّت على وجهها نظرةُ مقاومةٍ بسيطةٍ تعني إنّه يجب عليّ أنْ أنّهي هذه المعركة في النّقطة الحاسمة تماماً. عدّلتِ المسندَ وقالت: أنا والأب اكتشفنا أنّ حماسك الدّيني فيه شيءُ من الغموض.

- غموض؟!!!!

- مممم، لا أقصد ذلك، حبيبي. اسمع: إذا أردتَ أن تصبحَ مؤمناً، يجب أن تكون إمّا هندوسياً أو مسيحيّاً أو مسلماً، لقد سمعتَ ما قالوه في الساحة.

- لا أفهم لماذا لا يمكنني أن أكون الثلاثة معاً، ماماجي لديه جوازَا سفر، إنّه هنديّ وفرنسي لماذا لا يمكنني أن أكون هندوسيّاً ومسلماً ومسيحيّاً؟

- هذا الشيءُ مُختلفٌ، فرنسا والهند أمّتان على الأرض.

- كم أمّة هناك في السماء؟

- فكّرْتُ لحظةً ثمّ قالتْ: واحدةٌ، وتلك هي النقطة المهمّةُ، أمّةٌ واحدة، جواز سفرٍ واحد.

- أمّةٌ واحدة في السماء؟

- نعم واحدةٌ أو لا شيء، هناك ذلك الخيار، كما تعلم، أنّها أشياءُ قديمةٌ جداً التي فكرت بها.

- إذا كنّا أمةً واحدةً في السّماء، ألا يجبُ أن تكونَ كلُّ جوازات السّفر صالحةً لها؟

طغى على وجهها غيمةٌ من عدمِ الثّقة...

- قال بابو غاندي...

- نعم، أعرفُ ما قاله غاندي، وضعتْ يدَها على جبهتِها وكانتْ نظراتُها حزينةً، وقالتْ: «يا إلهي».

الفصل السابع والعشرون

في وقتٍ متأخّرٍ من ذلك المساء، استرقتُ السّمعَ لوالديّ وهما يتحدثان.

- قال والدي: أنتِ قلتِ نعم.

- أعتقد أنّه سألك أنتَ أيضاً، وأنتَ أرسلتَهُ إليّ.

- أنا فعلتُ ذلك؟

- نعم، أنت فعلتَ ذلك.

كان يومي صاخباً...

- أنت لستَ مشغولاً الآن، ومرتاحٌ تماماً بعدم انشغالك بأيّ عملٍ، إذا أردْتَ أن تذهبَ إلى غرفته الآن، وتسحبَ سجّادةَ الصّلاة من تحت قدميه، وتناقشَ معه مسألةَ تعميده مسيحيّاً، هيّا تفضّل، أنا لن أعترضَ.

- لا، لا. أستطيعُ أن أعرفَ من صوته أنّ الكاهنَ يجلس بكرسيه.

سادتْ لحظةُ صمتٍ، فعقّب والدي قائلاً: إنّه ينجذبُ للدّين بنفس طريقة انجذاب الكلب فيها للبراغيث، لا أفهمُ ذلك، فنحنُ أسرةٌ هنديّةٌ عصريّةٌ ونعيشُ بأسلوبٍ عصريّ وعلى طرق التحوّل إلى أمةٍ متحضّرةٍ حقيقيّةٍ وعصريّةٍ، وقد أنجبنا ابناً يعتقدُ نفسه إنّه تجسُّدٌ جديدٌ لسيراي راماكريشنا. - قالت أمّي: إذا كان غاندي عصرياً وحضارياً كما هو الآن، فإنّني لستُ متأكدة أنّني سأحبّه.

- السيّدة غاندي سينجحُ بذلك، لا يمكن إيقاف التّقدم، إنّه قرعُ الطّبول الذي يجب أن نشير إلى وقعه.

تساعدُ التكنولوجيا في نشر الأفكار الجيّدة، هذان هما قانونا الطبيعة، إذا لم تدع التكنولوجيا تساعدُك، وإذا قاومْتَ الأفكار الجيّدةَ، فسوف تعتبر نفسَك من عصر الدّيناصورات، أنا متأكّدٌ من ذلك تماماً، ستنجح السيّدة غاندي وغباؤها، الهندُ الجديدةُ قادمةٌ. بالتأكيد ستنجح، والهند أو إحدى عائلاتها ستقرّرُ الانتقالَ إلى كندا.

تابع أبي: وهل سمعتَ ما قاله بابو غاندي، إنّ كلَّ الأديان صحيحةٌ...؟

- نعم، بابوغاندي؟ الصبيُّ أصبحَ شديدَ التّعلّق بغاندي؟

وماذا بعد يا بابو غاندي؟ العمّ يسوع؟ ما هذا الهراءُ، هل أصبح فعلاً مسلماً؟

- يبدو كذلك.

- مسلم! هندوسيٌّ ورعٌ، حسناً أستطيع فهم ذلك، ومسيحيٌّ إضافة إلى ذلك.

أصبح الأمرُ غريباً، ولكنني أستطيعُ أن أوسّع عقلي.

فالمسيحيّون موجودون هنا منذُ زمنٍ بعيد، القدّيسُ توماس، القدّيسُ فرانسيس خافير، المبشّرون وهكذا.

- نعم.

- ربما يرغبُ بيسين بالمشي على وقع طبلٍ مختلفٍ من التّقدّم.

- أنت تدافعُ عن الصّبيّ؟ لا تمانع أنّه يتخيّل نفسَه مسلماً؟

- ماذا يمكننا أن نفعلَ يا سانتوش؟ لقد أحبّ ذلك من كلّ قلبه، وهو لا يؤذي أحداً، ربّما تكون مجرّدَ مرحلةٍ، وهي أيضاً ستنجحُ مثل السيّدة غاندي.

- لمَ ليس لديه اهتماماتُ الأولادِ بعمره؟ انظرْ إلى رافي، كلّ ما يستطيع التفكير به هو الكريكيت والأفلام والموسيقا، أتعتقدُ أنّ ذلك أفضلُ؟

- لا، لا، آه... لا أعرف بمَ أفكّرُ، كان يوماً طويلاً.

تنهّد أبي، أتساءل إلى أيّ مدىً سيصلُ باهتماماته تلك.

ضحكت والدتي ضحكةً خافتةً، أنهى الأسبوعَ الماضي كتاباً اسمه *محاكاة المسيح*.

- *محاكاةُ المسيح*؟ إلى أين سيصلُ باهتماماته هذه؟!!! وضحكا...

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والعشرون

أحببْتُ سجادةَ الصّلاة، على الرّغم أنّها من نوعيّةٍ عاديّةٍ، ولكنّها تتلألأُ في عيني. آسف لأنّني فقدتُها، حيثما أضعها كنْت أُحسُّ بعاطفةٍ خاصّةٍ لبقعة الأرض تحتها والمحيط المباشر الذي كان يعطيني الإيحاءَ الواضحَ، إنّها سجادةُ صلاةٍ جيّدةٍ، لأنّها ساعدتني أن أتذكرَ أنّ الأرضَ وما يحيط بها من قداسةٍ، هي من صنع الله.

النموذجُ في الخطوط الذّهبيّة فوق خلفيّةٍ حمراءَ، كان واضحاً، مربعٌ صغيرٌ مع قمّةٍ مثلثيّة بطرفٍ واحدٍ تشيرُ إلى القبلة، اتّجاه الصّلاة، وأشكالٌ لولبيّةٌ ملوّنةٌ تطوف حولها، تشبه خيوطَ دخان، علاماتٌ نطقيّةٌ من لغاتٍ غريبة.

أثناءَ صلاتي كانتِ الشراباتُ غيرُ المحبوكةِ على بعد إنشاتٍ من طرفِ جبهتي، وفي الطّرف الثّاني كانت على بعد إنشاتٍ قليلةٍ من أطراف أصابع قدميّ، ذاتُ حجمٍ مريحٍ، يجعلك تشعرُ أنّك في بيتك بأي مكان من هذه الأرض الفسيحة.

كثيراً ما كنتُ أختارُ أنْ أصلّي بالخارج، لأنّني أحببْتُ ذلك. في معظم الأحيان كنْت أفردُ سجادةَ صلاتي في زاويةِ السّاحةِ خلف المنزل، في بقعةٍ منعزلةٍ تحت ظلّ شجرةِ المُرجان إلى جانب جدارٍ مغطى بنبات الجهنمية،

إضافةً إلى صفّ من نباتات البونسيتيا المزروعة في أوعيةٍ على طول الجدار، وعبر الأشجارِ تسللت الجهنمية أيضاً، وأكثرُ ما زادها جمالاً، التباين بين أوراقها البنفسجيّةِ والأزهارِ الحمراءِ، وقد جذبَت أزهارُها طيورَ الغربان والمينة والثرثار وطيور الشّمس والببّغاوات، فجعلتْها برجاً لها. كان الجدارُ على يميني بزاويةٍ عريضةٍ أمامي مباشرة، وعلى اليسار خلف ظلّ الشجرةِ الحليبيّ المزركش يقع الجزء المفتوح للسّاحة الغارقِ بالشّمس.

بالطّبع كانت أشكالُ الأشياء تتغيّرُ تبعاً للطّقس وساعات النهار وأوقات السّنة، ولكنّها لا تزالُ في مخيّلتي كما هي، لم تتغيّرْ أبداً. كنْتُ أتوجه نحو الكعبة بمساعدة خطٍّ رسمتُه على الأرض الصفراء الشاحبة، وقد حاولتُ أن أحافظَ عليه بكلّ حذرٍ. وكثيراً ما كانت تقعُ عيناي، عند انتهائي من الصلاة، على والديّ أو والدتي أو رافي، وهم يراقبونني، كان ذلك في البداية، لكنّهم ما لبثوا أنِ اعتادوا الأمرَ.

أمّا عمادتي فقد كانت مسألةً محرجةً قليلا، سايرتني أمّي بهذا الأمر، أمّا أبي فقد كانت نظراتُه متحجّرةً، بينما رافي دائماً غائبٌ، وهذه وحدها رحمة، لأنّه سيلعبُ مباراة الكريكت، وهذا لم يمنعْه من التّعليق طويلاً على الحدث. انسابَتِ المياهُ على وجهي وعلى رقبتي، إبريقٌ واحدٌ فقط له التّأثيرُ المنعشُ للأمطار الموسميّة.

الفصل التاسع والعشرون

لماذا ترحلُ النّاسُ؟ لماذا يقتلعون جذورَهم، ويتركون كلَّ شيءٍ يعرفونه إلى المجهول وراء الأفق؟ لماذا تُخلّفُ شكليّاتُ تسلّقِ قمّةِ إيفرست فيك شعوراً وكأنّك متسولٌ؟

لماذا تدخلُ هذه الغابةُ الملأى بالأشياء الغريبة حيثُ كلُّ شيءٍ فيها جديدٌ وغريبٌ وصعبٌ؟

الجوابُ واحدٌ في كلّ أنحاء العالم. فالنّاسُ تنتقل على أملِ أنْ تكونَ حياتَهم أفضل، وقد شكَّل منتصف السبعينات زمنَ المشاكل في الهند، أدركْتُ ذلك من التقلّصاتِ التي ظهرت في جبين والدي، وهو يقرأُ الصّحفَ، أو من نُتَفِ المحادثات التي التقطتُها من الحديث الذي دارَ بين والدي وماماجي والآخرين. لم أكن مهتمّاً بالأمر، ولذلك لم أفهمْ المغزى ممّا كانوا يقولونَه. كان إنسان الغاب أكثرَ تشوّقاً للشباتي من قبل، فالقرودُ لم تكنْ تسألُ عن الأخبار من دلهي، واستمرّ وحيدُ القرن والماعز في العيش بسلام، والطيور تزقزق، والغيوم محمّلةٌ بالأمطار، والشمس حارّةٌ والأرضُ تتنفسُ، فالإله موجود بعالمي دائماً.

أخيراً جذبَتِ السيّدةُ غاندي اهتمامَ أبي، ففي شباط عام ١٩٧٦ أسقطت الحكومةُ تاميل نادو بواسطة دلهي، نتيجةَ الانتقاداتِ الشّديدة من السيّدة غاندي، وتمّ دعمُ الانقلاب بهدوءٍ، اختفى رئيس الوزراء كارونانيد ووزارتُه بصمتٍ، إمّا بالاستقالة وإمّا بالإقامة الجبريّة.

ما بهم؟ سقوط واحد من الحكوماتِ المحليّة في الوقتِ الذي يكونُ فيه الدّستورُ كلُّه معطلاً؟ خلال الأشهر الثّمانية الأخيرة؟ ولكن أبي كانَ مهتماً بتتويج السيّدة غاندي بعد الانقلاب الدكتاتوريّ على الأمّة.

الجملُ في الحديقةِ لم ينزعجْ، ولكن تلك القشّةُ قصمتْ ظهرَ أبي؛ إذ صرخ قائلاً: قريباً ستأتي إلى حديقتنا، وتخبرُنا بأنَّ السجونَ ممتلئةٌ، وتحتاجُ إلى أماكنَ إضافيّة.

هل نستطيعُ أن نضعَ الديساي مع الأسود؟

كان مورارجي ديساي معارضاً سياسيّاً، لم يكنْ صديقاً للسيدة غاندي. أحزنني استمرارُ قلقِ أبي، فالسيّدةُ غاندي تملكُ القدرةَ على تفجيرِ حديقة الحيوان بنفسِها، وسيكونُ ذلك جيداً لي إذا كان أبي مبتهجاً لذلك.

أتمنّى ألّا يتضايقَ كثيراً، فمن الصّعبِ على الابنِ أن يرى والدَه مريضاً وقلقاً، لكنّه حقيقةً كان قلقاً.

كل عملٍ هو عملٌ خطيرٌ وأكثرُ الأعمالِ خطورة هي الأعمالُ الصّغيرةُ، أي تلك التي تخاطر بكل ما تملك. حديقة الحيوان هي مؤسسة ثقافية مثلها مثلُ المكتبة العامّة والمتحف، وهي بخدمةِ الثّقافة العامّة والعلم. ومن هذا المنطلق ليس المشروع مشروع كسب أموال، من أجل الصالح العام والربح الأكبر أي أنها ليست أهدافاً متوافقة مما يثير استياء أبي كثيراً.

في الحقيقة لم نكنْ عائلةً ثريّةً، بالتّأكيد لسنا أثرياءَ بالمعايير الكنديّة.

كنّا عائلةً فقيرةً، صدف أنّنا امتلكْنا الكثيرَ من الحيوانات، رغمَ أنّنا لم نمتلكْ سقفاً فوقَ رؤوسنا أو رؤوس الحيوانات.

الحياةُ في الحديقة مثلُ حياةِ ساكني البريّة المحفوفةِ بالمخاطر، ثمّ إنّه ليس عملاً كافياً للقفز فوقَ القانون، ولا صغيراً جداً للعيش ضمنَ حدوده. ولكي يزدهرَ العملُ؛ فإنّ حديقةَ الحيوانات تحتاجُ إلى حكومةٍ برلمانيّةٍ وانتخاباتٍ ديمقراطيّةٍ وحريّة الرّأي وحرّيّة الصّحافةِ وحرّية المنظّمات وقاعدةٍ للقانون، وكلّ شيء مقدس في الدّستور الهنديّ، وإذا لم يتوفرْ ذلك فإنّه من المستحيلِ أن نتمتّعَ بالحيوانات.

السّياسةُ السّيئةُ التي تدوم طويلاً، سياسةٌ سيّئةُ العمل، فالنّاسُ تهاجر بسبب القلق الشّديدِ الذي يتلبّسُهم، والشّعورُ الذي ينخرُ عقولَهم بأنّهم مهما عملوا بجدّ فإنّ جهودهم ستؤدي إلى اللّاشيء، وإنّ ما يبنونه في سنةٍ سيُهدمُهُ الآخرون في يومٍ واحد. إنّ قلقَهم الدّائم حيالَ المستقبل الذي لا يثقون به، يجعلُهم ربّما يتلاءمون معه، أمّا أطفالُهم فلا، ثمّة إحساس بأنَّ لا شيء يمكن أن يتغيرَ، وأنّ السّعادة والرّفاهيّةَ ممكنتان، ولكن في مكان آخر. بالنّسبة لأبي، فإنّ الهندَ تمزّقَتْ إلى أجزاءٍ وانهارتْ.

وافقَتْ والدتي على قرارِ الهروب، ففي إحدى الأُمسياتِ أثناءَ العشاء صُعِقْنا أنا ورافي بهذا القرار.

إذا كانَتْ أندرا براديش في الشّمال عدوّةً لنا، وسيريلانكا التي تثِبُ كالقرد عبرَ الممرّ الضّيّق، وهي الجانبُ المظلمُ من القمر، فتخيّلْ كيف ستكون كندا.

لم تكنْ كندا تعني لنا شيئاً، سوى أنّها مكانٌ بعيدٌ عنّا فقط.

الفصل الثلاثون

لقد تزوّجَ... انحنيْتُ لأنزعَ حذائي عندما سمعْتُه يقول: أريدُ منكَ أنْ تقابلَ زوجتي. نظرْتُ وكانتْ هناك بجانبه، السيّدة باتيل.

- مرحباً... مدّتْ يدَها وهي تبتسمُ. لقد حدّثني بيسين عنك.

لا أستطيعُ القولَ إنّه حدّثني عنها، لم تكنْ لديّ أيّةُ فكرةٍ عنها، كانتْ في طريقها للخروج، لذلك فقد تحدّثنا لدقائقَ كثيرةٍ، إنّها هنديّةٌ أيضاً، ولكنّها تتقنُ اللّغةَ الكنديّةَ بشكل نموذجيّ، لا بدّ أنّها من الجيل الثّاني، وهي أصغرُ منه بقليل، أكثرُ سمرةً، ذاتُ شعرٍ أسودَ طويلٍ مجدولٍ بضفائرَ، عينٌ سوداءُ لامعةٌ، وأسنانٌ بيضاءُ جميلةٌ.

تحملُ على ذراعها معطفاً نظيفاً في غلافٍ بلاستيكيّ، إنّها صيدلانيّةٌ، وعندما قلْتُ لها سُررْتُ لمقابلتك سيدة باتيل.

أجابتني: أرجوك، ادعوني مينا، بعدَ أن تبادلَتْ قبلةً سريعةً مع زوجها خرجَتْ إلى عملِ يومِ السّبْت.

يبدو هذا المنزلُ أكثرَ من صندوقٍ مملوءٍ بالأيقونات، بدأتُ ألاحظُ علاماتٍ صغيرة تشيرُ إلى وجود الزّواج، كانت هناك طوالَ الوقت، ولكنّني لم أرَها، لأنّني لم أكنْ أبحثُ عنها.

إنّه رجلٌ خجولٌ، علّمتْه الحياةُ ألّا يتباهى بالأشياء الثمينة التي تخصّه.

هل هي عدوّةٌ لجهازي الهضميّ؟

ثمّ سمعته يقول لي وهو يبتسم: لقد أعددْتُ صلصةً خاصّةً لك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الحادي والثلاثون

لقد تقابلُوا مرّةً، كلٌّ من السيّد والسيّدة كومار والخبّازُ والمدرّسُ.

عبّر الأوّلُ (السيّد كوما) عن رغبته بمشاهدة حديقةِ الحيوان: كلّ هذه السنوات لم يسبقْ لي أن شاهدتُها، وهي قريبةٌ جداً أيضاً.

هل ستريني إيّاها؟

- نعم، طبعاً سيكونُ شرفاً لي.

اتّفقْنا على اللّقاء عند البابِ الرّئيسي في اليوم التّالي بعد المدرسة.

طوالَ ذلك اليوم كنْتُ قلقاً، وبّختُ نفسي: أيّها الأحمق، لماذا قلتَ البابَ الرّئيسيّ؟ ستكونُ مزدحمة هناك، وبكلّ الأوقات، هل نسيْتَ كم يبدو عاديّاً. إنّك لن تتعرّفَ عليه أبداً؟ إذا مررْت بجانبه دون أن أراهُ، فإنّ ذلك سيجرحُه، سيعتقدُ أنّني غيّرتُ رأيي، وأنّني لا أرغبُ أن أشاهَدَه بصحبةِ خبّازٍ مُسلمٍ فقير، سيغادرُ دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، لن يكونَ غاضباً، سيتقبّلُ ادّعائي بأنّ الشمسَ كانت بعينيّ، ولكنّه لن يرغبَ بالذّهاب إلى الحديقة ثانيةً.

رأيتُ الأمرَ يحدثُ هكذا، كان علي أن أميّزَه أو أن أختبئ وأنتظرَ حتى أتأكّدَ أنّه هو.

هذا ما سأفعله، ولكنّني لاحظتُ أنّه عندما بذلْت جهدي لرؤيتِه كنْتُ على الأقلّ قادراً على تمييزه، هذا الجهدُ بالذّاتِ سبّب لي العمى.

وقفت أمام الباب الرّئيسيّ للحديقة مباشرةً، وفركتُ عينيّ بكلتا يديّ.

- ماذا تفعلُ؟

- كان صديقي راج منشغلاً.

- أنت منشغلٌ بفركِ عينيك؟

- ابتعد.

- دعنا نذهب إلى طريقِ الشّاطئ.

- إنّني أنتظرُ أحدَهم.

- حسناً ستفقدُه إذا استمرّيت بفرك عينيك بهذا الشكل.

- شكراً على المعلومة، استمتعْ على طريق الشاطئ.

- ماذا عن الحديقة الحكوميّة؟

- قلتُ لك لا أستطيع.

- هيّا بنا.

- أرجوك يا راج ابتعدْ. غادرْ. وعدتُ إلى فرك عينيّ.

- هلّا تساعدُني بواجبِ الحسابِ يا باي؟

- فيما بعد، اذهبِ الآن.

- مرحبا بيسين: إنّها السيّدةُ رادها كريشنا، صديقةُ أمّي، تابعَتْ طريقها بعد بضع كلماتٍ.

- شخصٌ غريبٌ سألَني: عفواً أين يقعُ شارعُ لابورت؟

- في ذلك الاتّجاه.

- كم قيمةُ الدّخول إلى حديقة الحيوان؟

- خمسُ روبياتٍ، شبّاك التّذاكر هناك.

شخصٌ آخر: هل دخلَ الكلورُ في عينيك؟ أووووه إنّه ماماجي.

- مرحبا ماماجي، لا لم يدخلِ الكلورُ بعيني.

- هل والدُك موجودٌ؟

- أظنُّ ذلك.

- أراك غداً صباحاً.

- حسناً يا ماماجي.

- أنا هنا يا بيسين. تجمّدَتْ يداي فوق عينيّ، ذلك الصّوتُ غريبٌ بطريقة مألوفة، ومألوفٌ بطريقةٍ غريبةٍ، شعرْتُ بابتسامةٍ تنزلُ على وجهي.

- السّلامُ عليكم سيد كومار، كم تسعدني رؤيتك.

- وعليكم السلام، هل حدثَ شيءٌ لعينيك؟

- لا، لا شيءَ، القليلُ من الغبار ليس إلّا.

- تبدوان حمراوين جداً.

- لا شيء.

توجّه نحو كوّة التّذاكر، ولكنّني طلبتُ منه أن يرجعَ.

- لا، لا ليس من أجلك يا سيد.

لوّحتُ بالتّذكرتين لجامعِ التّذاكر، وكلّي اعتزازٌ، ثمّ دخلْنا الحديقةَ.

أبدى دهشتَه حول كلّ شيء.

كيف تأتي الزرافاتُ نحو الأشجار العالية، كيف تتغذّى اللّواحمُ على الحيوانات العاشبة، كيف تُزوَّدُ الحيواناتُ العاشبةُ بالأعشاب، كيف تتجمّعُ بعضُ المخلوقات نهاراً وأخرى ليلاً، كيف يتوفّرُ لبعضها مناقيرُ حادّةٌ تخدمُها، وأخرى يتوفّرُ لها فوراً.

أسعدَني تأثّرُه جداً.

واستشهدَ بالقرآن الكريم: في كلّ ذلك هناكَ رسائلُ حقيقيّةٌ للبشر الذين يستخدمون العقلَ.

جئْنا نحوَ الحُمر الوحشيّة، لم يكنْ يسمعُ عن هذه الحيوانات من قبل أو يحلمُ حتى برؤيتها. لقد كان مذهولاً.

- يُطلَقُ عليها الحمرُ الوحشيّةُ.

- هل تمّ تلوينها بفرشاة؟

- لا لا، هي كذلك.

- ماذا يحدثُ إذا أمطرتْ؟

- لا شيءَ.

- ألا تذوبُ الخطوط؟

- لا.

كنتُ قد جلبتُ بعضَ الجزر، بقيَتْ لديّ واحدةٌ كبيرةٌ وقويّة، أخرجتُها من الحقيبة، سمعْتُ في تلكَ الأثناء صوتَ حكّ خفيف على يميني، كان السيّد كومار قادماً نحو السّياج بمشيته العرجاءَ الملتفّة كعادته.

- مرحبا سيّدي.

- أهلاً باي.

- أومأ الخبّازُ برأسه خجلاً، ولكنْ كرجلٍ مبجّلٍ.

وفجأةً، انتبهتِ الزّرافةُ لوجودِ جزرة، فجاءَت إلى السّياج المنخفض وضربَتِ الأرضَ بنعومة، قطعتُ الجزرةَ إلى جزأين، وأعطيْتُ جزءاً للسيد كومار، قال أحدُهما: شكراً بيسين، وقال الآخرُ شكراً باي.

ذهبَ السيّد كومار أوّلاً واضعاً يديه فوق السّياج، فخطفَ الحمارُ الوحشيُّ بشفتيه السّميكتين السوداوين القويتين الجزرةَ بلهفةٍ، لم يُفلتْها السيّد كومار، فغرزَ الحمارُ الوحشيّ أسنانه بالجزرة، وقطعها نصفين، سحقها بصوتٍ عالٍ وبشكلٍ مفاجئ لبضع ثوان، ثمّ وصلَ إلى الجزء المتبقّي، وطافت شفتيه فوق أصابع السيّد كومار، ترك الجزرةَ، ولمس أنفَ الحمار الطّري. جاء دورُ السيّد كومار، لم يكنِ الحمارُ الوحشيّ يستدعي اهتمامَه كثيراً، فلحظة أن أصبحتِ الجزرةُ بين شفتيه تركَها، أفلتَها من يده، وبسرعة قُذفتِ الجزرةُ إلى الفم.

بدا السيّد كومار المبجل مسروراً.

- سألني: أتقول حماراً وحشياً؟

- أجبته: هذا صحيح، إنّها تنتمي لنفس فصيلةِ الحمير والخيول.

- إنّها رولز رويس.

- السيّد كومار: ما هذا المخلوقُ العجيب.

- هذا واحدٌ من الحمر الوحشية الشائعة.

- السيّد كومار: إنّه أبكيبوس بورتشيلي بوهمي.

- الله أكبرُ، لقد قالها السيّد كومار، جميل جداً.

ورحنا نتفرّج.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني والثلاثون

هناك نماذجُ كثيرةٌ من الحيوانات تفاجئُ ترتيباتِ الحياةِ كلّها.

كلّها أمثلة على ذلك الحيوان المكافئ للآدمية، أي التّشخيص الحيوانيّ إذ يأخذ الحيوان شكل إنسان أو هيئة أيَّ حيوانٍ آخرَ.

القضيّةُ الأشهَرُ هي الأكثرُ شيوعاً: الكلبُ المدلّلُ الذي يستحوذُ على اهتمام الكثير من البشر المتفهّمين لعالم الكلاب، إذ يرغبون بصُحبتهم. يؤكد ذلك، أنّ كلَّ مالكِ كلبٍ يجبُ عليه سحبُ الكلبِ المُحبِّ عن ساق الزّائر المذعور.

الأغوطي الذهبي والباكا المنقّط يتعايشان معاً جيداً، ويجتمعان معاً باقتناع، وينامان جنباً إلى جنب، إلى أنْ تمّتْ سرقةُ الأول.

سبق أن ذكرْتُ وحيدَ القرن، وقطيع الماعز وقضيّة أسود السّيرك.

هناك قصصٌ مثْبَتةٌ عن بحّارة غارقين، تمّ دفعهم إلى سطح الماء، وبقَوا هناك بوساطة الدّلافين، فهي صفةٌ مميزةٌ موجودةٌ في تلك الثّدييات المائيّة في مساعدة أحدهما الآخر.

ذُكرَ في الأدبِ حالةُ القاقم، وهو حيوانٌ أوروبيٌّ، والجرذُ اللّذان أقاما علاقةَ صداقةٍ فيما بينهما، بينما الجرذان الأخرى التي عُرضت على القاقم، تمّ التهامها من قبله بالطّريقة النموذجيّة للقاقم.

لدينا القضيّةُ الخاصةُ للعلاقة الزّائفة بين المفترس والفريسة، فقد عاش فأرٌ لأسابيعَ عديدةٍ مع أفعى، بينما اختفَتْ كلّ الفئران الأخرى التي سقطت في مَرْبى الأفعى، خلال يومين، بنى هذا الفأرُ البنيُّ العجوزُ لنفسه عشّاً، كان يخبّئ الحبوبَ التي كنّا نقدّمُها له بطرقِ إخفاء متعددة، ويلوذُ بالفرار من رؤية الأفعى له.

دُهشنا لهذا الأمر، وضعْنا إشارةً لجلب الفأر، لكي يشاهده العامّة، وانتهى أخيراً بطريقة غريبة، إذ عضّتْه أفعى صغيرةٌ.

هل كانتِ الأفعى غيرَ منتبهةٍ لحالة الفأر الخاصّة؟ ربّما يكون غير اجتماعيّ معها؟ ومهما كانتِ الحالةُ، فإنّ الفأرَ قد عضّتْهُ أفعى صغيرة، لكنّها مفترسةٌ، وبالحال عضّته أفعى بالغة.

إذا كان هناك تعويذةٌ، فقد حطّمتْها الأفعى الصغيرة.

عادتِ الأمورُ إلى طبيعتها، واختفت بعد ذلك كلُّ الفئران في جحر الأفعى بالمعدّل المعتاد.

تجاريّاً تُستخدمُ الكلابُ أحياناً كمرضعاتٍ لأشبال الأسود، بالرغم من أنّ الأشبالَ تصبحُ أكبرَ من رُعاتِها وأخطرَ بكثيرٍ منها، لكنّها لا تسبّبُ المتاعبَ لأمّهاتها، والأمّ لا تفقدُ سلوكَها الهادئَ أو حسَّ السلطةِ على صغارها. يجب وضع لوائحَ تشرح للعامّةِ بأنّ الكلبَ ليس طعاماً حيّاً يُترك للأسود تماماً، كما يجبُ أن نضعَ لوائحَ تشيرُ إلى أنّ وحيد القرن حيوانٌ عاشبٌ، ولا يأكلُ الماعز.

ماذا يمكن أن يكونَ تفسيرُ التّكوين الحيوانيّ؟ ألا يمكنُ لوحيد القرن أن يميزَ بين الصّغير والكبير والجلد الخشن والفرو الناعم؟ أليس واضحاً

للدّلفين كيف يكون الدّلفين؟ أعتقد أن الجوابَ يكمنُ بالأشياء التي ذكرتها سابقاً، وهو مقياس الجنون أو معيار الكون الذي يقودُ الحياةَ بطرقٍ غريبة، ولكن منقذة.

الأغوتي الذّهبي مثلُ وحيد القرن تماماً، كانوا بحاجة للرفقة.

لا تهتمُّ أسودُ السيرك إذا ما كان قائدُها إنساناً ضعيفَ البنية، لأنّ خيالَها يضمنُ بقاءَها اجتماعياً، ويجنّبها الفوضى العنيفة.

بالنّسبة لأشبال الأسود، فإنّها ستنقلبُ حتماً إذا عرفتْ أنّ أمهاتِها كانت كلاباً، إذ يعني ذلك أنّ لا أمّهاتٍ لها، وهي أسوأُ حالةٍ يمكن تصوّرها لأيّ صغير من ذوات الدّم الحارّ. أنا على ثقة أنّه حتى الأفعى الناضجة عندما ابتلعتِ الفأرَ، فإنّها لا بدّ شعرتْ في مكان ما من عقلها غيرِ المتطوّرِ بوخزةِ ندمٍ، وشعرتْ أنّ شيئاً ما أكبرَ من هذا فُقِدَ للتوّ.

قفزة خيالية بعيداً عن الوحدة والحقيقة الفجّة للزواحف.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث والثلاثون

أراني تذكارات للعائلة، صورَ الزّفاف، أوّلاً: زواجٌ هندوسيٌّ مع مظاهر كندية واضحة، صغيرٌ وصغيرةٌ ذهبا إلى شلّالات نيارغارا في شهر العسل، قضيا وقتاً جميلاً، ابتسمَ ليُثبتَ لي ذلك.

عدْنا بالزّمن إلى الوراء، صورةٌ من أيّام الدراسة الجامعيّة في جامعة تورنتو مع أصدقائه أمام كنيسة القديس مايك، وصورٌ في غرفته وأثناء عيد الديوالي الهندوسي في شارع جيرارد، صورةٌ وهو يقرأُ في كنيسة القدّيس باسيل، وهو يرتدي الرّداءَ الأبيضَ، هو يرتدي رداءً أبيضَ من نوعٍ آخرَ في المُختبر، قسمُ علم الحيوان، وكذلك في يوم التخرّج، كان مُبتسماً دائماً، ولكن عيناه تحكيان قصةً أخرى.

صورةٌ من البرازيل مع العديدِ من حيوان الكسلان ثلاثيّ الأصابعِ في موقعها الطبيعي.

انتقلْنا إلى الباسيفيك بقلب صفحةٍ جديدةٍ، وبعدها لا يوجدُ شيءٌ.

قال لي إنّ الكاميرا كانتْ تلتقطُ الصّورَ بشكلٍ نظاميّ وبكلّ المناسباتِ المُهمّة والمُعتادة، ولكن ضاع كلُّ شيء، ما تبقّى هو ما رتّبتْه ماماجي، وأرسلتْه بعد تلك الأحداث.

لي عالمٌ آخر، هناك ازدحامٌ من الناس، كانتْ تركّزُ على وزير من الوزارة الاتّحاديّة، زرافةٌ في الخلفيّة، وعلى طرف المجموعةِ السيّد أدرو باسامي الشابّ.

- أهذا ماماجي؟ سألْتُ مشيراً إليه بإصبعي.

- نعم، هو.

تجدُ رجلاً بجانب الوزير، يرتدي نظاراتٍ ذاتِ إطارٍ بلاستيكيّ، شعره ممشّطٌ بنظافة ملحوظة، يبدو كأنّه السير باتيل، بوجه أكثرَ استدارةٍ من وجه ابنه.

- سألته: هل هذا والدك.

- هزّ رأسَه، لا لا أعرفُ من يكون.

ساد صمتٌ لبضع ثوان، قال بعدها: أبي هو من التقطَ الصورة.

على نفس الصّفحةِ صورةٌ لمجموعةٍ أخرى، على الأغلب صورةُ مدرسة، نقرَ على الصورة: هذا هو ريتشارد باركر.

دُهشْتُ، أمعنْتُ النّظرَ محاولاً استخلاصَ الشّخصيّة من الشّكل، لسوء الحظّ كانت صورةٌ أخرى بالأبيض والأسود ومشوّشةٌ قليلاً، صورةٌ أُخِذَتْ عرضاً بأيّام أفضلَ، كان ريتشارد باركر ينظرُ بعيداً، حتى إنّه لم يدركْ أنّهم يلتقطون صورةً له.

أمّا الصّفحةُ المقابلةُ فقد احتوتْ صوراً ملونةً لحوض سباحةٍ في أوروبندو أشرم، إنّه حوضُ سباحة خارجيّ كبيرٍ وجميلٍ بمياهه الصّافية والمتلألئة وأرضيّته الزرقاءِ النّقية، ويلحق بها حوضٌ.

الصّفحةُ التّاليةُ، هي للبابِ الأماميّ لمدرسةِ *Petit Séminaire*، سينما يعلوها قوسٌ، كُتبَ عليه شعارُ المدرسة بالدهان «لا عظمةً دون فضيلةٍ».

وهكذا... طفولةٌ كاملةٌ محفوظةٌ بأربع صورٍ لا علاقةَ لها بالموضوع.

ازدادَ كدراً، ثمّ أعقبَ استياءَه بقوله: أسوأُ ما في الأمرِ هو أنّني أتذكّرُ بصعوبةٍ كيف كان شكلُ أمّي، أراها في فكري، ولكن صورتها تلاشتْ لحظة حاولتُ أن أتمعّن بها، تلاشتْ، وكذلك تلاشى صوتُها.

إذا رأيْتُها في الشارع ثانيةً فسأرتجع كلّ شيء، لكن يبدو أنّ ذلك لن يحدثَ. شيءٌ محزنٌ ألّا تتذكرَ شكلَ والدتِك.

أغلق الكتاب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والثلاثون

قال أبي: سنبحرُ مثلَ كولومبس.

«كان يأملُ أن يجدَ الهندَش. أشرتُ له بعبوس».

قمْنا ببيعِ حديقة الحيوان، القُفل، المخزون فيها، والحيوانات، توجّهْنا إلى بلدٍ جديدٍ وحياةٍ جديدةٍ، إضافةً إلى التّأكدِ ممّا جمعْناه لمستقبلٍ سعيد. ستتكفّلُ هذه الصّفقةُ بتكاليفَ أحلامنا، وتترك لنا مبلغاً جيّداً لنبدأَ من جديد في كندا، على الرّغم من أنّه إذا فكّرَ فيها الآن، فإنّ المبلغَ سيكون مضحكاً.

كم أعمتِ النّقودُ عيونَنا، كان باستطاعتنا بيعُ الحيوانات إلى حديقةٍ في الهند، ولكنْ حدائقُ الحيوانات الأمريكيّةُ تدفعُ أسعاراً أعلى.

تمّ تفعيلُ الاتّفاقيّة الدّوليّة لتجارة الأنواع المهدّدة بالخطر، وأُقفلَ البابُ على تجارة الحيوانات البرّيّة الأسيرة.

وسيُلقى مستقبلُ حديقة الحيوان على عاتق حدائقَ أخرى، أُقفلَتْ حديقةُ حيوان بوند تشيري في الوقت المناسب تماماً، كان هناك تزاحمٌ لشراء حيواناتِنا، فآخر المشترين هم عددٌ من حدائق الحيوان، وبشكلٍ رئيسيّ حديقةُ حيوان لنكولن في شيكاغو، وحديقة حيوان مينيسوتا التيكانت التي كانت توشِكُ أن تفتح أبوابها، ولكنّ الحيواناتِ الغريبة ستذهب إلى لوس أنجلوس، لوزيفيل ومدينة أوكلاهما ومدينة سيسيناتي.

تمّ نقلُ اثنين من الحيوانات إلى حديقة حيوان كندا، أمّا بالنّسبة إلي ولرافي فلم نكنْ نودُّ الذهابَ والعيشَ في بلد الرّياح الهوجاء، وشتاء درجة حرارته مئتان تحت الصفر، لم تكنْ كندا على خارطة الكريكت، ولسببٍ ما صرْنا نعتادُ الفكرةَ، فقد أصبحتِ المغادرةُ أسهلَ في الوقت الذي استهلكْناه في تحضيراتِ ما قبلَ السّفر، وقد استهلكَ الأمرُ أكثرَ من سنة، لم أقصد بالنّسبة لنا، بل بالنّسبة للحيوانات، آخذين بعين الاعتبار أنّ الحيواناتِ تستغني عن الملابس والأحذية والأثاث القماشيّ وأدوات المطبخ والصابون المعطّر، وأنّ الجنسيّة لا تعني لهم شيئاً، ولا يعنيْهم مطلقاً جوازُ السّفر أو النّقودُ أو منزلةُ العملِ أو المدارسُ أو تسهيلاتُ العناية الصحيّة، إذا أخذنا بعين الاعتبار بساطةَ حياتهم، فإنّ صعوبةَ نقلهم مذهلةٌ، نقلُ حديقة الحيوان تشبهُ نقلَ مدينةٍ بأكملها.

كانتِ الأعمالُ الورقيّة ضخمةً، ليتراتُ ماء كثيرة اسْتخدمت في تبليل الطّوابع، عزيزي السيّد فلان وفلان كُتِبتْ مئاتُ المرّات، قُدّمت عروضٌ كثيرةٌ، وسُمعَتْ تنهداتٌ كثيرة، وتمّ إظهارُ الكثير من المساومات، وتمّ إرسالُ القراراتِ للجهات العليا، من أجل الموافقة والاتفاق على الأسعار، حُسمتِ الصّفقاتُ ووُقّعتِ الأوراقُ المخطّطة، وقُدّمَتِ التبريكاتُ، تمّ السعيُ لشهادات المنشأ، من أجل الحصول على إذن التّصدير، وكذلك أذوناتِ الاستيراد، وتمّ إيضاحُ أنظمة الحجر الصحي، وتنظيمُ عمليّة النّقل. صُرفتْ ثروةٌ على المكالماتِ الهاتفيّة.

إنّ عملَ حدائق الحيوان طرفةٌ، طرفةٌ متعبةٌ بحق، فالأعمالُ الورقيّةُ التي ترتبطُ بتجارة الذّبابة تزنُ أكثرَ من فيل، والأعمالُ الورقيّةُ المرتبطة بتجارة فيل

تزنُ أكثرَ من حوت، وإيّاك ثمّ إيّاك أنْ تفكرَ مجرد التّفكير بالمتاجرة بحوت. يبدو أن هناك ملفٌّ واحدٌ للبيروقراطيين من بونديشيري إلى مينيابوليس عبر دلهي وواشنطن، كل منهم بهيئته ومشكلته وتردده.

إنّ شحنَ الحيواناتِ إلى القمر لا يمكنُ أن يكونَ معقّداً هكذا، فقد نتفَ والدي شعرَ رأسه، واقتربَ أحياناً كثيرةً من الاستسلام.

حصل كثيرٌ من المفاجآت، فمعظمُ طيورِنا وزواحفِنا واللّيمور ووحيد القرن وإنسان الغابة وقرد الميمون، الكان ذيل الأسد والزّرافات وآكلات القمل والنّمور والفهود والغوريلّا والضّباع والحمر الوحشيّة وقطط الهمالايا والدبّ الكسلان والفيَلَة الهنديّة والماعز الجبليّ، كانوا مطلوبين، لكن الحيوانات الأخرى مثل الإلفي، قُوبلتْ بالصّمت. «إنّها عمليّة إظلامِ العين»!

صرخ والدي ملوّحاً بالرسالة. سيأخذونها إذا أُجريت لها عمليّةُ إزالة الساد ٩٨ في عينها اليمنى، عمليّةٌ على فرس النهر! ماذا بعد؟ عملياتٌ لوحيد القرن؟ البعضُ من الحيوانات اعْتبرتْ شائعة جداً، كالأسود والبوبون. بادلَ أبي تلك الحيوانات بتعقُّلٍ مقابلَ واحد آخر من إنسان الغاب من حديقة فيروزي، والشمبانزي من حديقة حيوانات مانيلا.

أمّا بالنسبة للألفي، فقد عاشَتْ بقيةَ حياتِها في حديقة حيوانات تريفاندروم. وقد طلبَتْ إحدى حدائق الحيوانات بقرةَ بلاهمين أصيلة، من أجل حديقة حيوانات أطفالهم، خرجَ أبي نحو غابةٍ داخل مدينة بوند تشيري، واشترى بقرةً ذات عيونٍ سوداءَ وسنامٍ سمينٍ جميل، وقرنين مستقيمين تماماً، وبدا على زوايا رأسها أنّها ربما تكون قد لعَقَتْ مخرجاً كهربائيّاً، لوّن والدي قرنيها بالبرتقالي الفاتح، ووضع على ظهرها بعضَ الأجراس البلاستيكيّة، ليضيفَ إلى أصالتها.

وصل وفدٌ من ثلاثة أمريكيين، وقد أُصبْتُ بفضولٍ كبيرٍ لرؤيتهم، إذ لم يسبق لي أن رأيْتُ أمريكيين حقيقيين.

كان لهم بشرةٌ بيضاءُ مائلةٌ إلى اللّون الورديّ، وكانوا ودودين ومؤهلين جداً، يتصبّبون عرقاً أثناءَ فحصهم الحيوانات، وقد تركوا معظمهم نياماً، واستخدموا السماعاتِ لفحص قلوبها وبولها وبرازها، وكأنّهم يكشفون طالعها، سحبوا من دمها لمحاقنَ وحلّلوه، ربّتوا على سنامها وأثدائها، نقروا على أسنانها، وفحصوا أعينَها بالضّوء المُبهر، قرصوا جلودَها ودعكوا شعورَها وانتزعوها، مسكينةٌ تلك الحيوانات، فقد اعتقدوا أنّهم سينضمّون إلى الجيش الأمريكي، وبعد أن انتهَوا من عمليّات الفحص، ابتسموا لنا وشدُّوا على أيدينا بقوة.

كانت النتيجة أن الحيواناتِ مثلُنا، حصلوا على أوراقِ عملهم، إنّهم أمريكيو المستقبل، ونحن كنديّو المستقبل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس والثلاثون

غادرْنا المدارسَ في الحادي والعشرين من حزيران عام ١٩٧٧ على سفينةِ شحنٍ يابانيّةٍ بَنَميّةٍ تُدعى تسيم تسوم، كان الضّباطُ العاملون عليها يابانيين، وطاقمُها تايوانيّاً. سفينةٌ ضخمةٌ مثيرةٌ للإعجاب. في يومنا الأخير في بوند تشيري، ودّعْتُ ماماجي والسيّد كومار، وكلَّ أصدقائي حتى الغرباء.

ارتدتْ أمّي أجملَ ساري لديها، شعرُها الطّويلُ مضفورٌ ومسدولٌ خلف رأسها ومزيّنٌ بإكليل زهر الياسمين الغضّ، بدَتْ جميلةً جداً، وحزينة لأنّها ستغادرُ الهندَ بلدَ الحرارة والأمطار الموسميّة، بلدَ حقول الأرز ونهر كوفري، بلدَ الشّواطئ والمعابد الحجريّة، بلدَ عرباتِ البغالِ والسّيّارات الملوّنة، بلدَ الأصدقاء وأصحابِ المَحلّات الذين تعرفُهم، بلدَ شارع نهرو وغوبيرت سالاي، وأشياءَ من هذه وتلك.

بلدٌ مألوفٌ جداً وتحبّه حبّاً جماً، أمّا رجالها الذين تخيّلتُ نفسي واحداً منهم بالرّغم من أنّني لا أزالُ في السادسة عشرة من عمري، كانوا متعجّلين للذهاب، إنّهم بقلوبهم متسولو ويتني.

كانتْ تتباطأُ قبل يومٍ من مغادرتِنا، أشارت أمّي إلى صاحب محلّ سجائرَ، وسألت بجديّة إن كان بالإمكان أن تأخذَ صندوقاً أو صندوقين.

أخبرها والدي بأَنّ التّبغَ متوفّرٌ في كندا، وسألها: لِمَ تريدين شراءَ سجائر؟ نحن لا ندخّن.

نعم لديهم تبغ في كندا، ولكن هل لديهم سجائرُ غولد فلايك؟ هل لديهم آرون أيس كريم؟ هل يملكون دراجاتِ هيرو أو أجهزة تلفزة أونيداس؟ هل يملكون سياراتِ أوبسادور؟ هل تحتوي مكتباتُهم مؤلفاتِ هيفنبوثافر؟

أشكّ أن تكونَ تلك الأسئلةُ قد دارتْ برأس أمي عندما فكّرت بشراء السجائر.

تمّ تهدئةُ الحيوانات، ومُلِئتِ الأقفاصُ، ثمّ أُقفلتْ، وتمّ تخزينُ الطّعام وتخصيص القُمْرات، رُميتِ الحبالُ ونُفختِ الصافراتُ، عندها انطلقت السفينةُ من الحوض، واتّجهتْ نحو البحر، لوّحتُ بيدي بقوّةٍ مودّعاً الهندَ. كانت الشمسُ ساطعةً والنسيم رقيقاً، وقد ملأتْ طيور النورس الهواءَ بزعيقها فوقنا.

اشتدّ انفعالي إذ لم تَجْرِ الأمورُ كما كان متوقعاً، ولكن ماذا يمكننا فعله؟ يجبُ أن تُؤخذَ الحياةُ كما تأتي إليك، وتجعلَها أفضل ما يمكن.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس والثلاثون

المدنُ في الهند كبيرةٌ ومزدحمةٌ بشكلٍ جديرٍ للذكر، ولكنّك عندما تغادرُها فإنّك تسافرُ في امتداداتٍ شاسعةٍ للدولة، فمن الصعوبةِ رؤيةُ شخص ما. أتذكّر أنّني تفاجأتُ كيف يتمكن تسعمئة وخمسون مليون هنديّ من الاختباء.

يمكنُ أن أقولَ الشيءَ نفسَه عن منزله، جئتُ مبكراً قليلاً، لحظةَ وضعتُ قدمي على الدّرج الإسمنتي للرواق الأماميّ، اندفع صبيٌّ خارجاً من الباب الأمامي، يرتدي زيَّ البيسبول، ويحملُ معداتِها، وكان في عجلة من أمره، وعندما رآني تجمّدَ في مكانه مذهولاً، استدارَ واندفعَ نحو البيت، وقالَ: مرحباً، أبي الكاتب هنا، واندفع خارجاً.

جاء والدُه إلى الباب الأماميّ، مُرحباً بي.

- سألتُه بريبةٍ: أهو ابنُك؟

ابتسمَ ليؤكدَ الحقيقة، وأجابني: نعم، آسف لذلك، لم يقابلْك بشكلٍ مناسب، لأنّه متأخرٌ عن التّدريب، اسمه نيخيل، وناديه «نك». لازلتَ في صالة الدّخول.

- لم أكنْ أعلمُ أنّ لديك ابناً.

علا في المكان نباحُ كلب هجين أحمق، أسود وبنيّ اللون، يركض نحوي يلهث ويشمّ، قفز إلى رجلي.

- إنّه ودود... تاتا: اهدأ

- لكن تاتا تجاهله.

سمعتُ كلمةَ مرحباً، لم تكن هذه التحيّةُ قصيرةً وقويّةً مثل تحيّة نك، إنّها تحيةٌ طويلةٌ، خرجت من الأنف وبنعومة. هالووووو مع الأووووو التي وصلتْني مثلَ نقرٍ على الكتف، أو جذبٍ لطيفٍ لسروالي.

التفَتُّ، كانت تستندُ إلى الأريكة، وتنظر إليّ بخجل، بنتٌ صغيرةٌ سمراءُ جميلةٌ، بلباسها الورديّ تشعرُ بالراحة والاسترخاء، تحملُ بين ذراعيها قطعةً برتقاليّةَ اللّون، كلُّ ما كان مرئيّاً منها قدماها الأماميّتان المرفوعتان ورأسَها الغارق بين ذراعي الفتاة المعقودتين، وما تبقّى من القطة كان متدليّاً نحو الأرض، بدا الحيوانُ مرتاحاً تماماً بطريقة حملِه وتمدّده.

- وهذه ابنتُك؟

- نعم، آوشا حبيبتي: هل أنتِ متأكّدة أنّ موكاسين مرتاحٌ هكذا؟

أفلتتْ أوشام موكاسين، فقفز إلى الأرض غير مرتبكٍ.

- مرحباً أوشا. جاءَتْ نحو أبيها، واختلسَتِ النظرَ إليّ من خلف رِجل والدها.

- ماذا تفعلين يا صغيرتي؟ لماذا تختبئين؟ لم تجبْ، نظرتْ إليّ مبتسمةً وخبّأتْ وجهَها.

- كم عمرُك يا أوشا؟ لم تجبْ.

ثمّ انحنى بيسين موليتور باتيل المعروف للجميع باسم باي باتيل التقطَ ابنتَه. أنت تعرفين جوابَ ذلك السؤال، أليس كذلك؟

إنّ عمرك: أربعةُ أعوام، واحد، اثنان، ثلاثةٌ، أربعةٌ...

عند كلّ رقمٍ يضغطُ على أنفِها برفقٍ بسبابته، فوجدتْ ذلك مسلّياً، ما جعلَها تُقهقه، وتدفنُ رأسَها في انحناء رقبته. يا لسعادتها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الجزء الثاني

المحيط الهادئ

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السابع والثلاثون

غرقتِ السّفينةُ، أصدرتْ صوتاً يشبهُ صوتَ تجشّؤِ وحشٍ معدنيّ، وظهرت فقاعاتٌ على سطح الماء، ثمّ اختفت، كلُّ شيءٍ يصرخُ، البحر والرياحُ وقلبي.

من قاربِ النّجاة شاهدتُ شيئاً في الماء، صرخت: أهذا أنت يا ريتشارد باركر؟

كانتِ الرّؤيةُ صعبةً جداً، آه ألا يتوقّفُ هذا المطرُ! ريتشارد باركر، ريتشارد باركر؟ نعم، إنّه أنت!. استطعْتُ رؤيةَ رأسه، كان يجاهدُ ليبقى على سطح الماء، يا يسوعُ، يا مريمُ، يا محمدُ ويا فيشنو، ما أجملَ أن أراكَ ريتشارد باركر، لا، لا تستسلمْ أرجوك، تعالَ يا قاربَ النّجاة، هل تسمع هذه الصافرة؟ تررررر تررررر، تررررر.

لقد سمعْتَها، اسبحْ، اسبحْ، أنت سبّاحٌ قويٌّ، إنّها أقلُّ من مئة قدم.

شاهدَني، بدا مليئاً بالرّعب، أخذَ يسبحُ باتّجاهي، كانتِ المياهُ حوله تتموّج بعنفٍ، بدا صغيراً وعاجزاً.

ريتشارد باركر: هل تصدق ما حدثَ لنا؟ قلْ لي إنّه حلمٌ مزعجٌ، قلْ لي مستحيلٌ أن يكونَ هذا حقيقياً، قلْ لي إنّني لا أزالُ في مقصورتي على تسيم تسوم، وإنّني أتقلّب وأدور في فراشي، إنّني سأصحو سريعاً من هذا الكابوس،

قلْ لي إنّني لا أزالُ سعيداً. أين أنتِ يا أمّي؟ يا ملاكي الحارس، يا ملاكَ الحكمة، أين أنت؟ وأنتَ يا أبي المحبَّ القلقَ؟ وأنت يا رافي يا بطلَ طفولتي المبهر؟ احفظْني يا فيشنو، احمِني يا الله، أنقذْني يا مسيحُ، لا أستطيع تحمُّل هذا.

تررررري، تررررري، تررررري

لم أصَبْ بأيّ جزءٍ من جسدي، لكنّني لم أمرَّ بمثل هذا الألم الشّديد من قبلُ، ألم يشبهُ تمزيقَ الأعصاب وألمَ القلب.

لن ينجحَ بالنّجاة سيغرقُ، كان يتحركُ للأمام بصعوبة، يتحرك بصعوبة، واستمرّ أنفُه وفمُه بالانغمار تحت الماء، فقط عيناه مثبّتتان علي.

ماذا تفعلُ يا ريتشارد باركر؟ ألا تحبّ الحياة؟ تابعِ السّباحة إذن.

تررري تررري تررري.

اضربْ برجليْك، اضربْ... اضربْ... اضربْ

دار في الماء سبح، ماذا عن بقيّة عائلتي؟ الطيور والوحوش والزواحف؟ لقد غرقُوا أيضاً، لقد دُمّرَ كلُّ شيء قيّمٍ في حياتي، أوليس هناك أيّ تفسير؟ أعليّ أن أتعذّبَ بالجحيم دون أيّ حسابٍ من السماء؟ في حالتنا هذه، ما الغايةُ من العقل يا ريتشارد؟ إنّها ليستْ أكثرَ من الدنوّ من الأشياء العمليّة كالحصول على الطّعام والملبس والمأوى.

لماذا لا يقدّمُ العقل أجوبةً أكثر؟ لماذا نرمي السؤال أبعد ممّا نستطيعُ الإجابة عنه؟ ما الحاجةُ لشبكةٍ واسعةٍ إذا كان هناك القليلُ من السّمك لاصطياده؟

كان رأسُه بارزاً فوق الماء، ينظرُ النظرة الأخيرة للسماء، وجدْتُ طوقَ نجاة في القارب مع حبلٍ مربوطٍ به، رفعْتُه ولوّحْتُ به في الهواء، هل ترى الطوقَ يا ريتشارد؟ هل تراه؟ امسكْه. رميْتُه... أوه... سأحاولُ ثانيةً.

كان بعيداً جداً، ولكن رؤيةُ طوق النّجاة يطيرُ نحوه أعطتْه أملاً، انتعشَ وأخذَ يضربُ الماءَ بضرباتٍ قويّة ويائسةٍ.

صحيحٌ... هكذا... واحد، اثنان، واحد، اثنان.

تنفّسْ عندما تستطيعُ، انتبهْ للأمواج.

تجمّدَ الدّمُ في عروقي، حزنْتُ حدّ المرض، لكنْ لا وقتَ للصّدمات، صدمتْني حركتُه.

شيءٌ ما بداخلي يأبى التنازلَ عن الحياة، وأردتُ القتالَ حتى النهاية، لا أدري أين مكان قلبي الآن، أليست سخريةً يا ريتشارد؟ نحن في الجحيم ومع ذلك لإنزال نخشى الخلودَ، انظرْ كم أنتَ قريبٌ. تررر. تررر. تررر.

أسرعْ، أسرعْ، لقد نجحْتَ يا ريتشارد، أمسكْ.

رميتُ الطّوقَ بقوّة، سقطَ بالماء أمامَه تماماً، وبما تبقّى من قوةٍ لديه مدّ نفسَه للأمام وأمسكَ به. تمسّكْ بقوة، سأسحبُك، لا تفلتْهُ، اسحبْ بعينيك بينما أسحبُ أنا بيدي، ستكون على متنِ القارب، وسنكون معاً بعد بضعِ ثوانٍ، انتظرْ لحظةً، سنكون معاً.

هل أصابني الجنون؟ انتبهْتُ لما كنتُ أفعلُه، جذبتُ الحبلَ، أفلتْ طوقَ النّجاة يا ريتشارد باركر، هيّا اتركْهُ، لا أريدُك هنا، أتفهمْ؟ اذهبْ إلى أيّ مكان آخر، دعني وحدي، اغربْ عن وجهي، اغرقْ... اغرقْ.

كان يضربُ برجليه بقوّة، أمسكْتُ بالمجداف دفعتُه باتّجاهه قاصداً إبعادَه، لقد أخطأْتُ، سقطَ المجدافُ من يدي، أمسكتُ المجدافَ الآخرَ، وضعتُه في قاعدةِ المجدافِ ودفعْتُه بكلّ قوتي قاصداً إبعادَ طوقِ النّجاة، لكنْ كلُّ ما استطعْتُ فعلَه هو إمالةُ طوق النّجاة قليلاً لكي أجلبَ أحدَ طرفيه بالقرب من ريتشارد.

رفعتُ المجدافَ في الهواء لأضربَه على رأسه، كان سريعاً جداً، إذ تسلّقَ وسحبَ نفسَه إلى القارب.

يا إلهي! كان رافي مُحقّاً، حقيقةً يجبُ أن أكون الماعزَ التالية.

أصبح لديّ في قارب النّجاة نمرٌ برتغاليٌّ، يبلغ من العمر ثلاثَ سنواتٍ، يرتجفُ من البَللِ، نصفُ غارق، هائجٌ ويسعلُ.

وقفَ ريتشارد باركر على قدميه مترنّحاً على القماش المشمّع، توهّجَتْ عيناه عندما قابلَتا عينيّ، والتصقتْ أذناهُ برأسه، وسحبَ كلَّ أسلحته، كان رأسه بحجم طوقِ النّجاة وبأسنان بارزة.

استدرْتُ وقفزْتُ من فوق الزّرافة، ورميْتُ نفسي على سطح المركب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والثلاثون

لا أفهمُ، اندفعَتِ السفينةُ لعدّةِ أيام بعنادٍ ولا مبالاةٍ بما يحيطُ بها، لامعةً فوق العادة.

سقط المطرُ وهبّتِ الرّياحُ،وارتفعت التّيّارات، وتبنّى البحرُ تلالاً وحفراً وأوديةً، لم تهتمّ لتسونامي، أبحرتْ ببطء وبثقة عالية وكأنّها قارّة.

اشتريْتُ خارطةَ العالم لأجل الرّحلة، وعلّقتُها في مقصورتِنا على لوحٍ من الفلّين، كنتُ أحصلُ على موقعنا يومياً من مقصورةِ القيادة، وأضعُ علاماتٍ على الخريطةِ بقلمٍ برتقاليّ، أبحرْنا من مدراسَ عبر الخليج البنغاليّ نحو مضيق مَلَقا، حول سنغافورة ثمّ إلى مانيلا، أحببْتُ كلَّ دقيقةٍ من الرّحلة، وجودُك على السّفينة شيءٌ مثيرٌ، فالاعتناءُ بالحيواناتِ شغلَنا طيلةَ الوقت، كنّا ننامُ كلّ ليلةٍ متعبين جداً، مكثْنا يومين في مانيلا من أجل الطّعام الطّازج وشحناتٍ جديدة، وأخبرونا أنّ هناك صيانةً روتينيّة للمحركات، استحوذ أوّلُ أمرين على اهتمامي.

تضمّنَ الطّعام الطازج طناً من الموز، والشّحنة الجديدة كانت لأنثى شمبانزي الكونغو، وهي جزءٌ من سلسلة تجارةِ والدي. كان طنّ الموز يعجّ بثلاثةِ أو أربعةِ باوناتٍ من العناكب السوداء الكبيرة. كان الشمبانزي يشبه غوريلا صغيرة، ولكنّها أكثرُ نحولاً وأقلُّ كآبةً من أقاربها الأكبر. كلّما لمسْتُ عنكبوتاً أسودَ كبيراً، ارتجفَتْ وكشّرَتْ، كما كنّا نفعلُ أنا وأنت، وذلك قبل

أن تقومَ بما لم نكن نقوم به أنا وأنت. لقد كانت تسحق العناكبَ بغضبٍ بمفاصلِ أصابعها، الشيءُ الذي لم نكنْ نفعلُه أنا وأنت مثلها.

أعتقد أنّ الموز والشمبانزي كانا أكثرَ إمتاعاً من الأصوات الميكانيكية الغريبة والقذرة للأوعية السوداء على السفينة. أمّا رافي فقد أمضى وقتَه بمراقبة الرجال، وهم يعملون.

حدث عطلٌ ما في المحركات، قال رافي: هل حدث شيءٌ خاطئٌ في إصلاحها؟

- لا أعرف، ولا أظنُّ أنّ أيَّ أحدٍ يعلمُ الجوابَ، هو شيءٌ غامضٌ يكمنُ في الأسفل تحت الماء بآلاف الأقدام.

غادرْنا مانيلا، ودخلنا المحيطَ الهادئ، غرقنا في اليوم الرابع في منتصف الطريق إلى ميداوي، واختفتِ السفينةُ داخلَ الثّقب على خريطتي، وانهارَ جبلٌ أمام ناظريّ واختفى، كان كلُّ شيء حولي عبارةً عن إقياءِ سفينةٍ متخمةٍ.

شعرْتُ بالغثيان، فالصّدمةُ جعلتني أشعر بفراغٍ هائلٍ داخلي، والذي امتلأ بعدها بالصّمت، وحزَّ صدري ألمٌ وخوفٌ فظيعٌ بعد ذلك.

أعتقدُ أنّ انفجاراً قد وقعَ، ولكنّني لم أكن متأكداً.

لقد حدث ذلك بينما كنتُ نائماً، أيقظني الانفجارُ، لم تكن السفينة فاخرةً بل سفينةُ شحنٍ كئيبةٍ، إذ لم تُصممْ للاهتمام بالمسافرين أو براحتهم، كنتُ أسمعُ كلَّ أنواع الضّجيج طوالَ الوقت، وكان مستوى الضوضاء منتظماً جداً لدرجة أنّنا كنّا ننامُ كالأطفال. هو شكلٌ من أشكال الصّمت، الصّمتُ الذي لم يقطعه لا شخيرُ رافي ولا كلامي وأنا نائمٌ، لذلك فإنّ الانفجارَ، إن كان هناك

انفجار، لم يكنْ ضجةً جديدةً، إنّما ضجةٌ غيرُ منتظمة، جعلتْني أستفيقُ مذهولاً وكأنَّ رافي قد فجرَ بالوناً قربَ أذني.

نظرتُ إلى ساعتي كانت الرابعةَ والنّصف فجراً، انحنيت فوق السّرير ونظرتُ للأسفل نحو سرير رافي، لا يزالُ نائماً، ارتديْتُ ونزلْتُ عن السرير، كنت معتاداً النّوم ضمن الضّوضاء، ومن الطّبيعي أن أعودَ للنّوم، لا أدري لمَ استيقظْتُ تلك اللّيلةَ، فقد كانتْ هذه عادةُ رافي، لقد أحبّ كلمةَ إغواء، إغواء المغامرة، وكثيراً ما كان يطوفُ خلسةً في أرجاء السّفينة.

عاد مستوى الضجيجِ إلى طبيعته ثانيةً، ولكنْ بشكلٍ مُختلف، ربّما مكتوماً قليلاً، هززتُ رافي: رافي هناك صوتٌ مضحكٌ، لنذهبَ ونستكشفَ ذلك.

نظرَ إليّ وهو بين النّوم والصّحو، نظرَ إليّ وهزّ رأسَه واستدار، ثمّ سحبَ الغطاءَ حتى خدّه.

- آه يا رافي.

فتحتُ بابَ المقصورة، كنتُ أعرفُ كيف أسيرُ بالبهوِ نهاراً وليلاً. ولكنّني أحسسْتُ ظلمةً عمَّتْ داخلي، وقفْتُ عند باب أبي وأمي، وفكرْتُ أن أقرعَه، ولكنّني نظرْتُ إلى ساعتي وقرّرْتُ عكس ذلك.

أبي يحبُّ النومَ، فكّرْتُ بالصعود إلى سطحِ السفينة لأشاهدَ الفجرَ، ربّما أتمكنُ من رؤية أيّ شهابٍ، فكرتُ بذلك جدّياً.

عندما تسلّقْتُ الدّرجَ، كنّا في الدور السفلي الثاني تحتَ السّطح، نسيتُ تماماً الضجيجَ المُضحكَ، وأدركتُ كيفَ كان الطقسُ لحظةَ فتحتُ البابَ الثّقيلَ المؤدّيَ إلى السّطح.

هل هو مؤهّل للعاصفة؟ صحيحٌ، قد هطلت الكثير من الأمطار، ولكنها لم تكن غزيرةً، لم تكن أمطاراً جارفةً كالتي تراها في الأمطار الموسميّة. ريحٌ قويةٌ بعض الشيء، اعتقد أن بعض الذوّاقةِ سيرفعون مظلّاتهم، عبرتْ السّطح دون أيّ صعوبة، أمّا البحرُ فقد كان هائجاً ومخيفاً، لكنّه بالنّسبة للقاطنين مثيرٌ للإعجاب وجميلٌ وخطرٌ.

وصلَتِ الأمواجُ إلى السّطح، والتقطتِ الرّياح الزّبدَ الأبيضَ وضربته على جوانب السفينة، شاهدت مثل ذلك في الأيّام السّابقة، ولكنّ السفينةَ لم تغرقْ.

طافيةٌ تحت أقسى الظّروف، طقسٌ كهذا لن يُغرِقَ السفينةَ حتماً، ما عليّ إلّا أن أغلقَ البابَ، وستذهبُ العاصفةُ. تقدّمْتُ نحو السّطح، تمسّكْتُ بالسياج وواجهتُ العاصفةَ، تلك كانت مغامرة.

كندا... أنا قادمٌ إليكِ، صرختُ وكأنّني غرقتُ وتجمّدتُ من البرد، شعرتُ أنّني شجاعٌ جداً.

لا يزال الوقت ظلاماً، ولكن هناك بعضُ الضوء الذي يمكنّني من الرؤية، إنّه ضوءُ الجحيم. يمكن أن تقدّم الطبيعة عرضاً مثيراً. المسرح واسعٌ، والإضاءة مثيرةٌ، والإضافات لا حصرَ لها، وميزانية المؤثرات الخاصة غير محدودة على الإطلاق.

رأيتُ أمامي مشهدَ الرّيح والماء، بركاناً من المشاعر التي لا تستطيعُ حتى هوليود تجسيدها.

توقّفَ الزّلزالُ تحت قدميّ، كانت الأرضيّة تحتي صلبةً، وكنتُ مجرّدَ مشاهدٍ مسترخٍ في مقعده.

بدأتُ أشعرُ بالقلق بعد أن رأيْتُ قاربَ النّجاة على البرج، لم يكن القارب متدلّياً للأسفل، بل كان ملقىً أمام مرابطه. التفتُّ ونظرتُ إلى يديّ، صارتْ مفاصلُ يديّ بيضاءَ، لأنّني لم أكنْ متمسكاً بقوّةٍ نتيجةَ الطّقس، فربّما أسقطُ نحو السفينة. بدأَتِ السفينةُ تميلُ نحو الجهة الأخرى، لم يكن مَيَلاناً حاداً، ولكنّه كافياً ليفاجئَني، فعندما نظرت إلى ظهر السفينة من الأعلى، علمتُ أنّ السقوطَ لم يعد شديداً، واستطعتُ رؤيةَ الجانب الضّخم الأسود للسّفينة، فاخترقتْني رجفةُ بردٍ. أخيراً هدأتِ الأمورُ، بالنهاية هي مُجرّدُ عاصفةٍ، وقد حانَ الوقتُ للعودة طلباً للنّجاة، ذهبتُ وبسرعةٍ نحو الجدار، مشيت بمحاذاته وفتحت الباب.

سمعْتُ صخباً داخلَ السّفينة، أنينٌ عميقٌ في هيكل السفينة، تعثرْتُ وسقطْتُ، ولكنّني لم أُصبْ بأيّ أذىً، نهضت بمساعدة سياجِ الدرج، ونزلتُ بيتَ الدرج، أربعُ خطواتٍ بكلّ مرّة، نزلْتُ مستوىً واحداً فقط عندما شاهدت الماءَ، الكثيرُ من الماء يسدّ طريقي، ويندفعُ من الأسفل كحشدٍ غاضبٍ عنيفٍ مزبدٍ وثائر.

اختفى الدّرجُ وتحوّلَ إلى ظلام مائيّ، لم أصدقْ عينيّ، ماذا يفعلُ الماءُ هنا؟ من أين جاء؟ تسمّرْتُ مكاني مرعوباً وغيرَ مصدّق وجاهلاً ما يجب أن أفعل.

هناك في الأسفل كانت عائلتي، صعدتُ الدرجَ راكضاً، ووصلْتُ إلى السّطح. لم يعدِ الجوُّ معتماً أبداً، فقد أصبح الأمرُ جليّاً الآن، وأكثرُ ما زاد خوفي حركةُ السفينةِ، فقد أصبحتْ تميلُ بشكلٍ سيِّئ، ولم تستقمْ على الجهة الأخرى، فهناك انحدارٌ ملحوظٌ من المقدمة إلى المؤخرة.

نظرت من فوق السّطح، لم يكن الماء يبعدُ أكثرَ من ثمّانين قدماً، بدأَتِ السفينةُ تغرقُ ولم يستطعْ عقلي إدراكَ ذلك، شيءٌ لا يُصدّق أن يحترق القمر.

أين الضّباط والطاقم؟ ماذا كانوا يعملون، رأيت في القمّة بعضَ الرّجال يركضون نحو مقدمة السفينة، أعتقد أنّني رأيت بعض الحيوانات كذلك، لكنّني كنت متوهّماً، والسبب المطر والظّلام.

جرتِ العادةُ أن تُغطّى أبواب الحجرات، ولكنّها تُفتحُ عندما يكون الطقس جيداً، وتُحفظُ الحيوانات مقيدة في أقفاصها، وهذا طبيعيٌّ، فالحيوانات التي تنقلها السفينة حيواناتٌ خطرةٌ، وليست حيوانات مَزارع.

أعتقدُ أنّني سمعْتُ بعضَ الرّجال يصرخون على الجسر فوق رأسي.

اهتزّتِ السفينةُ وأصدرتْ ذلك الصوت، تجشؤ المعدن المتوحّش.

ما كان ذلك؟ هل كان مزيجاً من صراخ البشر والحيوانات يثورون ضد موتهم القادم؟ هل كانت السفينة نفسُها تطلق الأشباحَ؟ نهضتُ واقفاً ونظرت من السّطح ثانيةً، كان البحر يرتفع، والأمواج تقتربُ أكثر، إنّنا نغرقُ بسرعة، وسمعت بوضوح صراخَ القردة، شيءٌ ما كان يهزّ سطح السفينة، ثورٌ! نعم، إنّه ثورٌ هنديٌّ، اندفع خارجاً من المطر، ودوّى صوتُه كالرعد بجانبي، كان مرعوباً وهائجاً، نظرت إليه بذهول ودهشة، يا إلهي! من الذي أطلقه؟ ركضتُ عبر الدّرج إلى الجسر هناك حيث الضباط الوحيدون على السفينة الذين يتكلمون الإنكليزية، سادةُ قدرنا الذين يستطيعون إصلاحَ ذلك الخطأ، سوف يفسرون كلَّ شيء، سيعتنون بي وبعائلتي.

صعدت الجسرَ الأوسط، لم يكن هناك أحدٌ على المَيْمنة، ركضت نحو الجهة اليسرى، فرأيْتُ ثلاثةَ رجالٍ من الطاقم، نظروا إليّ ثمّ نظر بعضهم في

وجوه بعضٍ، قالوا بضعَ كلماتٍ، جاؤوا نحوي بسرعة، فشعرْت بالراحة والامتنان، قلتُ: الحمد لله، لقد وجدتكم، ما الذي يجري؟ أنا خائف جداً.

هناك ماءٌ في قاع السفينة، وأنا قلقٌ على عائلتي، ولم أستطع الوصولَ إلى المقصورات حيث يمكثون، هل هذا طبيعيٌّ؟ هل تعتقدون...

قاطعَني أحدُهم، إذ ألبسني سترة نجاة، وعلا صوتُه قائلاً شيئاً بالصينيّة، شاهدت صافرةً برتقاليّةً تتدلّى من سترة النّجاة، أشارَ الرّجال إليّ بقوة عندما رأوني، ورفعوني على أذرعَتِهم القويّة.

لم أعد أفكّر بشيء، اعتقدتُ أنّهم يساعدونَني، فقد كنْتُ على ثقةٍ كبيرةٍ بهم، وشعرتُ بالامتنان عندما رفعوني في الهواء، لكن ساورني الشّكُّ عندما رموني من السفينة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع والثلاثون

سقطْتُ على المُشمّع نصف ملفوفٍ يغطّي قارب النّجاة على مسافة أربعين قدماً تحتي، وكأنّني أقفزُ على الترامبولين.

كانت معجزةً أنّني لم أُؤْذِ نفسي، أضعتُ سترةَ النّجاة، لكنّني حافظتُ على الصافرة في يدي. أُنزلَ القاربُ لمنتصف المسافة، وتُرك معلقاً بأربطته، يتأرجحُ بالعاصفة نحو عشرين قدماً فوق الماء.

نظرت للأعلى، رأيتُ رجلين ينظران إليّ، ويشيران إلى قارب النّجاة ويصرخان، لم أفهمْ ماذا يريدان مني أن أفعل، اعتقدتُ أنّهما سيقفزان بعدي، لكنّهما أدارا رأسيْهما بدلاً من ذلك، والرعب يكسو وجهيهما.

ظهر بعد ذلك ذاك المخلوق في الهواء كجمال حصان سباق، أخطأ الحمارُ الوحشيّ المشمّع، كان ذكراً ضخماً يزنُ أكثرَ من خمسمئة باوند، نزل مصدراً صوتَ اصطدامٍ عالٍ على المقعد الأخير، محطّماً إيّاه، هزّ القاربَ كلّه، زعق عالياً، ظننْت أنّه نهيقُ حمارٍ أو صهيلُ حصان، لم يكن هذا ولا ذاك، يمكن أن تسميه انفجارَ نباح كواها، ها، كواها، ها...

وصلتُ إلى أعلى نقطة من المحنةِ، انفتحتْ شفتا هذا المخلوقِ الذي كان منتصباً وهو يرتجف، فكشفَ عن أسنانٍ صفراءَ ولثةٍ ورديّة داكنة. أسقطوا قاربَ النّجاة المتدلّي في الهواء، فاصطدمْنا بالمياه الهائجة.

الفصل الأربعون

لم يقفزْ ريتشارد باركر إلى الماء بعدي، طفا المجدافُ الذي كنتُ أنوي استخدامَه كعصا، أمسكتُهُ بعد أن وصلتُ لطوق النّجاة الذي فرغَ الآن من مستخدمه السابق.

من المُرعب حقاً أن نكونَ في ماءٍ باردٍ مُعتمٍ وغاضب، شعرتُ وكأنّني في قاعِ بئرٍ مُحطّمة، كان الماءُ يرتطمُ بي من كلّ الجهات وينخر عينيّ ويسحبني للأسفل، ممّا جعلَني أتنفسُ بصعوبة، ولو لم يكن هناك طوقُ نجاةٍ لما استطعتُ الاستمرارَ لدقيقةٍ واحدةٍ.

رأيْتُ شيئاً مثلّثَ الشكل يقطع الماءَ على بعد خمسة عشر قدماً منّي، إنّها زعنفةُ سمكةِ قرشٍ، وخزٌ مرعبٌ باردٌ ولزجٌ يدور حولي، سحبتُ نفسي بكلّ قوةٍ إلى أحدِ طرفي طوقِ النّجاة، فالنهايةُ لا تزالُ مغطاةً بالمشمّع، دفعْتُ بنفسي على طوق النّجاة، فاستطعت مشاهدةَ ريتشارد باركر الذي لم يكنْ على المقعد ولا على المشمّع، بل في قعر قارب النّجاة، رفعتُ نفسي ثانيةً. كلُّ ما استطعْتُ رؤيتَه على الطّرف الأخير هو رأس الحمار الوحشي الذي كان يصطدم بالمركب، وعندما سقطتُ ثانية في الماء، انسلّتْ أمامي تماماً زعنفةُ سمكة قرشٍ مرّةً أخرى.

كان المشمّع مثبتاً بحبل نايلون متين، يشق طريقه بين الحلقات المعدنية في القماش المشمع والخطافات الحادة على جانب القارب. كنتُ أدوسُ الماءَ في مقدمة القارب، لم يكن المشمّع مثبتاً بشكلٍ مُحكمٍ فوق مؤخّرة القارب

ذي المقدّمة القصيرة، كما يدعونه الأفطس، بل كان يُغطي جوانب القارب.
وجدْتُ فراغاً بسيطاً في المشمّع حيث انزلق الحبلُ من خطّاف على جانب المؤخّرة نحو الخطّاف الثاني على الجانب الآخر، رفعْتُ المجداف في الهواء، وأدخلْتُ قبضتَه في الفراغ في تفاصيل إنقاذ الحياة، أدخلْتُ المجدافَ إلى أبعدِ ما يمكن أن تصلَ.

يمتلكُ قارب النّجاة الآن مقدمةً بارزةً فوق الماء، مع أنّها معوّجة، سحبت نفسي للأعلى، ولففْتُ رجلي حولَ المجداف، فارتدّتْ ذراعُ المجداف عن المشمّع، ولكنّه ثبتَ على الحبل، ثمّ خرجتُ من الماء بعد أن تأرجحْتُ لمسافة قدمين أو ثلاثة، وقد استمرت قوةُ الأمواج بضربي.

كنت وحيداً، شعرت باليتم وسط المحيط الهادي، متمسّكاً بمجداف فقط. أمامي نمرٌ بالغٌ، وتحتي أسماكُ قرشٍ، وحولي عاصفةٌ تتحدّاني، وبعد التفكير بالاحتمالاتِ، فإنّي حتماً سأستسلمُ وأفلتُ المجداف، آملاً أنّي سأغرقُ قبل أن أؤكلَ.

لا أذكر أنّه كان لديّ فكرةً واحدةً خلالَ الدّقائق الأولى المتعلّقة بالأمان، لم ألاحظْ حتى انبلاجَ الصباح، تمسكتُ بالمجداف، فقط تمسكت بالمجداف والله وحده يعلمُ لماذا.

بعد لحظاتٍ، مسكتُ بطوق النّجاة، وأخرجْتُه من الماء ثمّ أدخلت المجداف بالفتحة، أدخلته حولي حتى باتتِ الفتحة تحتضنني.

أصبحتِ الآن رجلي فقط هي ما أحاولُ أن أرفعَها، ولو ظهرَ ريتشارد سيكون من الصّعب أنْ يسقطَ من المجداف، رعبٌ مميتٌ، في الوقت نفسه المحيطُ الهادي أمامَ النّمر.

الفصل الحادي والأربعون

سمحتِ المُعطياتُ لي بالبقاء حيّاً، فقاربُ النّجاة لم يغرقْ وريتشارد باركر بقي بعيداً عن ناظريّ، أسماكُ القرش تجولُ حولَنا لكنها لم تهاجمْ، لطمتني الأمواجُ ولكنّها لم تسقطْني عن القارب.

رأيْتُ السفينةَ وهي تختفي وتتجشّأُ بقوّةٍ، والماء حولي يفور.

لمعتِ الأنوارُ وانطفأتْ، نظرتُ حولي بحثاً عن عائلتي، عن ناجين، عن قارب نجاةٍ آخر، عن أيّ شيءٍ يجلبُ ليَ الأملَ، لم يكن هناك شيءٌ إلّا المطر والأمواج المغيرةِ للمحيط المظلم وحطام مأساةٍ، ثمّ انحسرَ الظّلامُ من السّماء وتوقّفَ المطرُ.

لم أستطعِ البقاءَ بالموقع نفسه الذي كنتُ فيه للأبد، البرد لا يفارق جسدي، رقبتي تؤلمني بسبب حملِها لرأسي، وبسبب رفع الأشياء التي كنت أقوم بها، آلَمَني ظهري لانحنائي إلى قارب النّجاة، فقد كان علي أن أقف منتصباً كلّما أردتُ رؤيةَ قواربِ نجاةٍ أخرى.

تحركْتُ ببطءٍ على طولِ المجداف، حتى وصلتْ قدماي إلى مقدمة القارب، التزمتُ الحذر الشديد أثناءَ تقدُّمي، ضمنتُ بقاءَ ريتشارد باركر على أرض القارب تحت المشمّع، ظهرُه لي ووجهُ الحمارِ الوحشيّ الذي وبدون شكّ مقتولٌ الآن، نحوي.

تعتمدُ النّمورُ وبشكلٍ كبيرٍ على نظرها، فنظرُها، من بين حواسِّها الخمس حادٌّ جداً، ولا سيّما في مراقبة الحركة، سمعها جيّدٌ وحاسةُ شمّها عاديّةٌ بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى. طبعاً كنت بجانب ريتشارد أصمَّ وأعمىً وبلا حاسة شمّ، ولكن لحظةَ شاهدني، وفي حالتي الرطبة تلك، ربما لم يشتمّ رائحتي، ولكن ماذا عن صفير الرّيح وهسهسةِ البحرِ عند تكسر الأمواج؟ إذا كنتُ حذراً فلن يستطيعَ أن يسمعَني.

كان لديّ الفرصةُ طالما أنّه لم يشعر بوجودي، فلو أحسَّ بي لكان قد قتلني في الحال.

تساءلت إذا أمكنَه أن يندفعَ من المشمّع، ولكن الخوف والعقل يحومان فوق الجواب، الخوف قال: نعم، إنّه حيوانٌ مفترسٌ، يزن أربعمئة وخمسين باونداً، كلّ مخلب من مخالبه حادٌّ مثل السكّين.

أمّا العقل فقال: لا، فالمشمّع مصنوعٌ من قماش قويّ وليس من ورق جدرانٍ يابانيّ. لقد سقطْتُ عليه من مكانٍ مرتفع، كان يمكنُ لريتشارد باركر أن يمزّقَه بمخالبه الحادّة بسرعة وبالقليل من الجهد، لكنّه لم يستطعْ أن يخترقَه مثل الفيشة في العلبة، وهو لم يرني، وبما إنّه لم يرني فلن يكن لديه سبب أن يشقّ طريقَه عبره.

زحفْتُ مع المجداف، جلَبْتُ أرجلي إلى جهةٍ واحدة من المجداف، ووضعت قدميَّ على شفير ظهرِ المركب، كان أعلى حافة على المركب الحافة بالتحديد، تحرّكْتُ قليلاً حتى أصبحتْ قدماي على المركب، ثبّت نظري على الحافّة البعيدة للمشمّع، توقّعْتُ بكلِّ لحظةٍ رؤيةَ ريتشارد باركر ينهض ويأتي

إليّ، أصابتني رعشةُ خوفٍ مرات عديدة، إذ يُفترضُ أن أكونَ أكثرَ ثباتاً، قدماي هما أكثرُ ما كان يرتجف.

قرعتُ المشمّع برجلي، فأحدثتْ قفزتي خربشةً قويّةً، أقوى ممّا تتخيّل على باب ريتشارد باركر، امتدت الرّعشةُ إلى ذراعي، وكلُّ ما استطعت فعلَه هو أن أتماسكَ. تجاوزْتُ كلَّ نوباتِ الخوفِ عندما أصبح جزءٌ كافٍ من جسدي على القارب، سحبْتُ نفسي للأعلى، ونظرتُ إلى نهاية المشمّع، فدُهشْتُ عندما رأيتُ حمارَ الوحش لا يزالُ حيّاً.

استلقى قربَ المؤخّرة حيث سقطَ ضعيفاً، ولكن معدتُه لا زالتْ تلهثُ وعيناه تتحركان مملوءتين بالرعب. كان على الجانب مواجهاً لي، ورأسه ورقبته متّكئان على المقعد قرب حافة القارب، كُسرتْ رجلُه الخلفيةُ كسراً قوياً، فزاويتُها غيرُ طبيعيّة بالكامل، رأيْتُ العظمةَ بارزةً من جلده وتنزفُ بقوّة. رجلاه الأماميتان الضّعيفتان فقط طبيعيّتان ومنحنيتان، تحملان جسدَه الملتوي، من وقت لآخرَ كان الحمارُ يهزُّ رأسه وينهق وينخز، عدا ذلك كان هادئاً.

إنّه حيوانٌ جميلٌ، العلاماتُ الرّطبةُ عليه تلمعُ باللّون الأبيض والأسود الغامق، أكلني القلقُ لأنّي لم أستطعِ التعايشَ معه. وبعد التّفكير، صدمتْني الجرأةُ الغنيّةُ النّظيفةُ لتصميمه وملاءَمة رأسه.

وما شكّل أهميةً كبيرةً، هي الحقيقةُ الغريبةُ بأنَّ ريتشارد باركر لم يقتلْه بالمسار الطّبيعي للأشياء، كان عليه أن يقتلَه، فهذا ما يفعله المفترسون، يقتلون الضّحيّة في الظّروف الحاليّة، ولكن ريتشارد باركر ما زالَ تحت تأثير إجهادٍ عقليّ هائل، فقد أنتج الخوفُ مستوىً استثنائياً من العدوانية. فمن المفترضِ أن يكونَ الحمارُ الوحشيّ مذبوحاً، والسّبب خلف إبقائه حيّاً انكشف سريعاً.

جمد الدّمُ في عروقي، وبعدها جلبَ لي القليلَ من الارتياح، ظهر رأسٌ بنهاية المشمّع، ونظر إليّ مباشرةً بطريقةٍ مخيفةٍ، غطس تحت المشمّع، ظهر ثانيةً ثمّ غطس، ثمّ ظهر مرّةً أخرى، واختفى للمرة الأخيرة، رأسٌ يشبه رأسَ دبّ، ونظراتٌ جريئةٌ لضبع مرقّط.

كنّا نملكُ في حديقة الحيوان مجموعةً من ستّة ضباع، أنثيان مسيطرتان وأربعةُ ذكور تساعدُها، وكان من المفروض أن يذهبوا إلى مينيسوتا، والضّبع الموجود هنا ذكرٌ، وقد عرفتُه من أذنه اليمنى، إذ رأيتها ممزقةً بشدّة وشفتين بحافة مشرّمةٍ تشهد على عنف قديم.

فهمْتُ الآن لِمَ لَمْ يقتلْ ريتشارد باركر الحمارَ الوحشيّ، ذلك لأنّه لم يعدْ موجوداً في القارب، لا يمكن أن يجتمعَ نمرٌ وضبعٌ في مثل هذا المكان الصّغير، يجب أن يكون قد وقع من المشمّع وغرق.

عليّ أن أوضّحَ لنفسي كيف وصلَ الضّبع إلى قارب النّجاة، أشك بأنَّ الضباعَ تستطيعُ السباحةَ في البحار المفتوحة، فاستنتجْتُ إنّه ظلَّ طوال الوقت على القارب مختبئاً تحت المشمّع، وأنّني لم أره عندما قفزتُ إلى القارب، لاحظتُ شيئاً آخر، الضّبع هو السبب الذي جعل البحّارة يرمونني إلى قارب النّجاة، لم يحاولوا إنقاذي، كان ذلك آخرَ همّهم، بل كانوا يستخدمونَني كعلفٍ، وتأملوا أن يهاجمَني الضّبع أو أن أتخلصَ منه بطريقةٍ ما، وأجعلُ القاربَ آمناً لهم، لا يهمُّ لو كلفني ذلك حياتي، أدركْتُ الآن إلى ماذا كانوا يشيرون بغضب مباشرةً قبل ظهورِ الحمار الوحشي.

لم أفكرْ فقط بأنْ أجدَ نفسي محبوساً بمكان صغير مع ضبعٍ مرقّط، ليس خبراً جيداً، ولكن هذا ما حصل. في حقيقة الأمر، الخبرُ المفرحُ كان مزدوجاً: لو لم يكن الضّبع موجوداً، لما قذف بي البحّارةُ إلى قارب النّجاة، وكنتُ سأبقى في السفينة، ومن ثَمَّ سأغرق، ولو كان عليّ مشاركةُ المأوى مع حيوانٍ متوحش، أفضّلُ بصراحةٍ شراسةَ كلبٍ على قوةِ وخداع قطّة تنفّستُ الصعداء.

بمعيار السلامة تحركتُ على المجداف، جلستُ عليه منفرجَ السّاقين على الحافة المُستديرة لقارب النّجاة، قدمي اليسرى على طرف المُقدمة، وقدمي اليُمنى على ظهرِ المركب، ذلك الوضعُ مريحٌ تماماً، وكنت مواجهاً للقارب.

نظرتُ حولي، لا شيءَ غير السماء والبحر، نفسُ المشهد عندما كنّا على قمّة الهضبة. باختصارٍ البحر يقلّد كلَّ ملامح الأرض، كلّ تلّةٍ، كلُّ وادٍ وكلُّ سهلٍ، والتطوّرات السّريعة في علم اختصاص الجيوتقنية حول العالم في ثمانين مرتفعٍ، ولكنّني لم أجدْ عائلتي في أيّ منها، كانت الأشياء تطوف على الماء ولكن لا شيء منها بعثَ بي الأملَ، لم أرَ أيَّ قاربِ نجاةٍ آخر.

تغيّرَ الطقسُ بسرعة، البحرُ الجبار يخطفُ الأنفاس، أخذ يهدأُ وأصبحَ أكثر ثباتاً، وسكنت الأمواج وتحوّلَ الهواءُ إلى نسيمٍ رقيقٍ، والغيومُ البيضاء اللّامعةُ أخذتْ تتجمّعُ في القبّة الزرقاء الشاحبة الواسعة والعميقة، كانَ فجرَ يوم جميل في المُحيط الهادئ.

بدأ قميصي يجفُّ، اختفى اللّيلُ بالسرعة التي اختفت فيها السفينة. انتظرت فأخذتْ أفكاري تتأرجحُ بعنفٍ، إما أنّي ملتصقٌ بتفاصيلِ العمليّة للنجاة، وإمّا أنّني مشلولٌ من الألم.

بكيتُ بصمتٍ، فمي مفتوحٌ ويداي على رأسي.

الفصل الثاني والأربعون

جاءتْ تطفو على جزيرة مور بهالةٍ من نور، جميلةٌ كمريمَ العذراء، وقد جعلتِ الشمس المشرقة خلفها. وكان شعرَها البراقَ فاتناً.

صرخْتُ يا أمّي العظيمة المقدّسة آلهةَ الخصب في بوند تشيري، مقدّمة الحليب والحُبّ التي تمتدُّ يدَها العجيبةَ بالراحة وخوف الزمن، منقذة الباكين.

هل تشاهدين هذه المأساةَ؟ ليس عدلاً أن يتقابلَ اللّطفُ والرّعب، من المُستحسن أن تكوني ميّتة، كم فرحتُ لمشاهدتِك، إنّك تجلبين الفرحَ والألم بمقياسٍ واحدٍ، الفرح لأنّك معي، والألم لأنّك لن تظلّي معي طويلاً، ماذا تعرفين عن البحر؟ لا شيء.

ماذا أعرفُ أنا عن البحر؟ لا شيء.

سيضيعُ هذا الباص دون سائق، انتهتْ حياتُنا، تعالَي إلى القارب إذا كان هدفُك هو الاندثار الذي سيكونُ وقفتَنا التالية، نستطيعُ أن نجلسَ معاً، تستطيعين أخذَ المقعدِ بجانب النافذة إذا كنتِ ترغبين بذلك، ولكنّه منظرٌ حزينٌ.

آآآه، يكفي هذا الاختفاء، دعيني أقولُها بصراحةٍ: أنا أحبّك، أحبُّك أحبُّك، أحبُّك. أما العناكب فلا أحبّها.

كانت أورنج جوس، دُعيت هكذا لأنَّ لعابُها يسيل، بورنيو أَمْ إنسان الغاب، نجمةُ حديقةِ الحيوان، وأمٌّ لولدين جميلين، محاطةٌ بمجموعة من العناكب السوداء التي تزحف حولها، وكأنّهم مؤمنون حاقدون.

رأيتها محمولةً على الموز الذي أنزلَ من السفينة بشبكة من النايلون، والذي طاف على سطح الماء.

عندما خرجت من الموز إلى القارب تجمعت وتدحرجت حولها، أصبحت الشبكة مفكوكة.

ودون تفكير بالأمر فقط لأنّها كانت بمتناول يدي، وكانت توشك أن تغرقَ، أمسكتُ الشبكةَ وسحبتُها إلى القارب بحركةٍ طارئةٍ، وتحولتُ الى منقذٍ للحياة بأشكالٍ عدّة، أصبحتْ هذه الشبكة أغلى ممتلكاتي.

فصلتُ الموزَ، فزحفتِ العناكبُ بأسرع ما أمكنَها، ولكنّ وضعَها ميؤوسٌ منه، اهتزّتِ الجزيرةُ تحتهم، وغرقت جميعها، باختصار: طاف القاربُ في بحرٍ من الفواكه، التقطتُ الشبكةَ التي ظننْتُ أن لا فائدةَ منها.

هل فكرتُ أن آكلَ من نعمة هذا الموز؟ لا، أبداً.

كان انقساماً بالمعنى الخاطئ للانقسام، فالبحرُ هو من شتّتها، هذه الخسارةُ الفادحةُ ستُثقلُ عليّ فيما بعد.

دخلتُ بنوبةٍ من الهلع إلى جانب حماقتي، واختفتْ أورنج جوس في الضّباب، حركاتُها بطيئةٌ وبدائيّةٌ، وقد عكسَتْ عيناها اضطراباً عقليّاً عميقاً، دخلتْ بحالةِ صدمة عميقة، استلقَتْ ممدّدةً على المشمّع لعدّة دقائقَ، هادئةً دون حراك قبل سقوطها إلى قارب النّجاة بالسلامة، سمعْتُ صراخَ ضبع.

الفصل الثالث والأربعون

آخرُ أثرٍ شاهدتُه للسّفينة كان بقعَ زيتٍ تلمعُ على سطح الماء، كنتُ على ثقةٍ أنّني لم أكن وحيداً، ومن المُقلق أن تغرقَ تسيم تسوم دون إظهارِ أيّ نوعٍ من الاهتمام.

الآن في طوكيو، في مدينة بنما في هونولولو وحتى في وينيبغ، الأضواء الحمراءُ تومضُ للتّعزية، والأجراسُ تُقرعُ، والعيونُ تفتح على مداها رعباً، والأفواه فاغرةً، يا إلهي، لقد غرقَت تسيم تسوم، الأيادي تمتدُّ إلى الهواتف، أضواءٌ حمراءُ بدأت بالوميض، وأجراسٌ أكثر أخذت تُقرع، الطيارون يركضون مسرعين إلى طائراتهم غيرَ مكترثين بأربطة أحذيتهم، قباطنةُ السفن يديرون دفّاتِ سفنهم إلى أن يشعروا بالدّوار، وحتى الغواصاتُ جالت تحت الماء للانضمام إلى عمليّات الإنقاذ.

سيتمُّ إنقاذنا، نعم قريباً ستظهرُ سفينةٌ في الأفق، وستُحملُ بندقيةً لقتل الضّبع، وتنهي بؤسَ حمار الوحش، ربما سيتمُّ إنقاذَ أورنج جوس، سأصعدُ إلى سطح السّفينة لملاقاة عائلتي، فقد تمَّ إنقاذُهم بقارب نجاة آخر.

كان عليّ أن أؤكد نجاتي بالسّاعات القليلة القادمة، حتى تصلَ سفينةُ الإنقاذ.

وصلتُ من مكاني إلى الشّبكة، فتحتُها، وقذفْتها إلى منتصف المسافة على المشمّع لتعمل كحاجز، رغم صغرها جمدَتْ أورنج جوس في مكانها، ظننتُ أنّها تموت بسبب الصدمة، أوووه، ذاك الضّبع هو ما يُقلقني، سمعته يعوي

فتمسّكتُ بأملِ أن يعتبرَ الحمارَ الوحشي فريسةً مألوفةً له، وإنسانَ الغاب فريسةً غير مألوفة، وهذا سيصرفُ تفكيرَه عنّي، أبقيْتُ عيناً على الأفق وعيناً على الطّرف الآخر لقارب النّجاة، وإضافةً إلى عواءِ الضّبع، فقد سمعتُ بعضَ الأصوات من الحيوانات الأخرى، لم تكن أكثرَ من حكّ المخالب على السّطح الصلب، وبعض الأنين والصراخ، يبدو أنّه ما من معركةٍ حقيقيّةٍ هناك.

ظهرَ الضّبعُ ثانيةً في منتصفِ الصباح، وارتفعَ صوتُ عوائه إلى صُراخٍ، قفزتُ فوق الحمار الوحشي إلى المؤخّرة إذ تُجمعُ المقاعدُ الجانبيّةُ على هيئةِ مقعدٍ مثلث.

إنّه موقعُ مواجهةٍ مُمتاز، فالمَسافةُ ما بين المقعد وظهر المركِب اثنا عشر إنشاً تقريباً.

أمعن الحيوان النظرَ فيما وراء القارب بعصبيّةٍ، يبدو أنّ آخر ما يودّ مشاهدته هو الامتداد الواسعُ بالمياه المتبدّلةِ، لذلك فقد أنزل رأسَه إلى قاع القارب خلفَ الحمار الوحشي، المكان ضيّق فما من مُتسعٍ كافٍ له بين ظهر الحمار الوحشيّ العريض وصفائح الطّفوِ الموزّعةِ تحت المقاعد في كلّ أرجاء القارب.

تخبّط قليلاً قبل أن يتسلّقَ نحو مؤخّرة القارب ثانيةً، وقفزَ من فوق الحمار الوحشيّ إلى وسط القارب، واختفى تحت المشمّع. انفجارُ النّشاط هذا استمرَّ أقلَّ من ثوانٍ، إذ اقترب منّي الضّبع لمسافةِ خمسَة عشر قدماً، فكان ردّ فعلي الوحيد، أنّي تجمّدتُ من الخوف، بخلاف ردّ فعل الحمار الوحشيّ الذي هزّ رأسَه ونهقَ.

تمنّيتُ أن يبقى الضّبع تحت المشمّع، ولكن خاب ظنّي، وبالحال قفز فوق الحمار إلى المقعد الخلفيّ ثانيةً، دار حول نفسه عدّةَ مرّاتٍ يئنّ ويتردّدُ،

تساءلْتُ ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ جاء الردُّ بسرعة، فقد أخفض رأسَه، وبدأَ يدور حول الحمار الوحشيّ في دوائر، وانتقل إلى المقعد الخلفيّ، المقاعد الجانبية، المقعد الأوسط مباشرة خلفَ المشمّع بخمسة وعشرين قدماً، أمام السلك المؤدي للداخل.

قفز قفزةً واحدةً، اثنين، ثلاث أربع، خمس دون توقّف، حتى إنّني لم أعدْ قادراً على العدّ، كان طوال الوقت وبعد كل قفزةٍ ينبحُ بصوتٍ عالٍ.

كان ردّ فعلي بطيئاً جداً، فالخوفُ قد كبّلني، ولم أستطعْ شيئاً إلّا المُراقبة. عادَ الوحشُ للانطلاق بسرعةٍ، ولم يكن حيواناً صغيراً بل كان ذكراً بالغاً ويزنُ نحو مئة وأربعين باونداً، ضرباتُ أرجله على المقاعد جعلت القاربَ يهتزّ بأكمله، ومخالبُه تخدشُ سطحَه بصوتٍ عالٍ، بكلّ مرّة يأتي فيها من مؤخرة المركب أتوتّرُ حتى يقفَ شعرُ رأسي على مرآه.

والخوف الذي ينتابُني أكبر، فمن الواضح أنّ أورنج جوس أينما كانت لن تكونَ عائقاً، أما المشمّعُ وارتفاعُ الشّبكة كانا عائقين هزيلين، وبجهدٍ بسيطٍ جداً كان الضّبع قادراً على الوصول أمامي تماماً، لم تكن تظهرُ عليه نيّة القيام بتلك الحركة، كان يقوم بها بكلّ مرة يأتي فيها إلى المقعد الأوسط، ولم أكنْ أرى سوى نصفه العلويّ يتحرك بسرعة على حافة المشمّع، ولكنّ سلوكَ الضّبع غيرُ متوقّع، إذ يمكنه أن يقررَ مُهاجمَتي دونَ سابق إنذار.

بعدَ عدّةِ قفزاتٍ، توقّفَ قليلاً عند المقعد الخلفي، وجثمَ وحدّقَ للأسفل إلى الفراغ تحت المشمّع، رفع عينيه، وثبّت نظره إليّ، كانت نظرته نظرةَ ضبع نموذجيّة، نظراتٌ فارغةٌ وصريحةٌ، فمنَ الواضح أنَّ فضولَه لم يأتِ من العقل، فكّاه مفتوحان وأذناه الكبيرتان مرفوعتان ومتصلّبتان. عيناه سوداوان لامعتان.

لولا الجهد الذي خرج من كلّ خليّة من خلايا جسمه، وهو القلق الذي جعلَ الحيوان يتوهّج وكأنّه مُصابٌ بالحُمّى.

جهّزتُ نفسي لنهايتي. لا لشيء إلا أنه أخذ يركض بدوائرَ مرّة ثانية.

عندما يقرّرُ الحيوان القيام بشيءٍ ما، فإنّه سيقوم به ولمدّة طويلة.

ظلّ الضّبع يركض في دوائرَ طوالَ الصّباح، وهو ينبحُ وينبحُ وينبحُ، من حين لآخر توقّفَ مرّةً عند المقعد الخلفي، وصارتْ كلُّ قفزة مطابقةً لسابقتها دون تعديلٍ في الحركة والسّرعة والخطوة في صوت النباح في تنقّله باتجاه عقارب الساعة، نباحُه حادّ ومزعجٌ إلى أقصى حدّ، حتى أصبحَ الأمرُ مضجراً ومستنزفاً لمراقبته.

وبالنّتيجة أدرْتُ رأسي جانباً محاولاً مراقبته بزاوية عيني، أمّا الحمارُ الوحشيُّ فقد كان يشخرُ في كلّ مرّةٍ يركضُ فيها الضّبع ويُصاب بالذّهول.

وفي كلّ مرة يقفُ فيها الضّبع على المقعد الخلفيّ، يقفزُ قلبي من مكانه، وكلّما أردْتُ توجيهَ انتباهي نحو الأفق إلى حيثُ يقبعُ خلاصي، كان ينحرف باتّجاه هذا الوحش المجنون.

أقسمُ إنّني لستُ الشّخصَ الذي يحملُ الأذيّةَ ضدّ أيّ حيوان، ولكنّ الحقيقة الجليّة أنّ مظهرَ الضّبع المرقّطِ لا يدلُّ عليه، إنّه بالخلاصة حيوانٌ بشعٌ، رقبتُه الثّخينةُ وكتفاه المرتفعتان المنحدرتان إلى عجزه يبدُوان وكأنّهما قد انحدرا من طرازٍ بدائيّ منبوذٍ للزّرافة، ووبرُه الأشعثُ الخشنُ يُظهر البقعَ عليه وكأنّها جاءت من مخلّفات الخلق، اللّونُ ما هو إلا خليطٌ فاسدٌ من الأصباغ، أسودُ وأصفرُ ورماديٌّ، وعليه بقعٌ لا تمتّ بصلة إلى أناقة وفخامةِ البقع الورديّة للفهد.

ألوانٌ تبدو وكأنّها أعراضُ مرض الجرب الجلديّ الخبيث، الرأس كبيرٌ جداً وعريضٌ، وجبهةٌ مرتفعةٌ تشبهُ جبهة الدّبّ، تعاني انحسار الشعر، أذناه تشبهان أذني فأر، كبيرة ومستديرة، وذلك قبل أن تصبحا مقطوعتين في معركة، الفمُ مفتوحٌ ولاهثٌ دائماً، أنفه كبيرٌ جداً، وذيلُه هزيلٌ، ولا يلوّحُ به ويمشي بتثاقلٍ.

إذا جمعنا أجزاءَه كلّها فإنّه يبدو مثل الكلب، ولكن ليس الكلب الذي يرغب أيُّ إنسان اقتناءَه.

لم أنسَ كلمات والدي: تلك الحيواناتُ ليست آكلة جيف جبانة إذا كانت ناشيونال جيوغرافي قد صوّرتها هكذا، فهذا لأنّهم صوروها بالنّهار، يبدأ يوم الضّبع عند ظهور القمر، يثبتُ أنّه صيادٌ مدمرٌ، تهاجمُ الضباع ضمن مجموعات، ومهما كانت سرعة الحيوان يظلُّ فكّاه مفتوحين عندما يكون بقمة حركته.

تفضّل الضباعُ صيدَ الزّرافات المكتملة النضج والنّوّ وجاموس الماء، وليس الكبار من القطيع أو المرضى بل الحيوانات مكتملة النّضج.

ومن المعروف عن الضباع أنّهم مهاجمون قساةٌ، يقفزون من الأسفل، ويضربون فوراً، لا يتراجعون أبداً، إنّها حيواناتٌ ذكية، فكلُّ ما تقدّمه الأمّ يكون جيداً، فالنوّ الذي عمره عشرُ دقائق هو الوجبة المفضّلة، والضباع تأكلُ صغار الأسود وصغار وحيد القرن، إنّها حيوانات مثابرةٌ عندما تكافأُ على جهودها.

خلال فترة خمس عشرة دقيقة كلُّ ما تبقّى من الزرافة هو جمجمتها التي يمكن أن تُسحبَ بعيداً، وتُقضَمَ بمتعة من قبل الصغار في مخبئها، لا شيء

يذهب سُدى. حتى العشب الذي سُفكت عليه الدماء يؤكل. تنتفخ معدة الضباع بشكل واضح لأنها تبتلع قطعًا ضخمة من الفرائس.

إذا كانوا محظوظين فسيشبعون جداً لدرجة أنّهم يجدون صعوبة في الحركة، وعندما يهضمون الفريسة، فإنّهم يتقيؤون كراتِ شعرٍ كثيفة، يزيلون منها ما يؤكلُ قبل أن تتمرّغَ بالشعر، يحدث عرضيّاً أنّها تأكل لحوم البشر، وتستمتعُ كثيراً بالأكل عند وصولها لقضمة من زرافة، فإنّ الضّبع سيأكل أذن أو أنف فردٍ من القطيع بشهيّة قويّة، ولا يشعر بالاشمئزاز من هذا الخطأ، إنّه يعبّر عن سرورٍ كبيرٍ، لأنّه لا يشمئزُّ من أيّ شيءٍ.

في الحقيقة أن شموليّةَ ذوق الضّبع مميزةٌ، إنّها تثيرُ الدّهشةَ، إذ يمكنه شرب الماء حتى وإن تبولَ فيه، الأمر الآخر إنّ لبوله استخداماً أساسيّاً آخر، ففي الطّقس الحار والجاف يبرّد نفسه بإفراغ مثانته على الأرض وتقليب نفسه على الوحل، وبذلك يأخذُ حماماً بارداً من الوحل.

تتناول الضباعُ بمخالبها وجبةً خفيفةً من فضلات الحيوانات العاشبة، وهي تقوقئ من المتعة.

إنّه سؤالٌ مفتوح: ما الذي لا ترغب الضباع بأكله؟! في الحقيقة، إنّها تأكل أبناءَ جنسها عندما يموتون بعد عزوفٍ يمتدُّ يوماً واحداً تقريباً فآذان وأنوف البعض مقبّلات شهيّة.

إنّهم يهاجمون وسائط النقل، الأضواءَ الأماميّة والعادم والمرايا الجانبيّة. فالعصاراتُ الهاضمة لا تقيّد الضباع، ولكن قوّة فكّيها الهائلة هي التي تقيّدها.

هكذا كان الحيوان الذي أتسابق معه في دوائر، الحيوان الذي يؤلم العينَ ويجمّد القلبَ.

انتهتِ الأشياءُ على طريقة الضّبع النموذجيّة، وقف في مؤخرة القارب وأخذ يصدرُ آهاتٍ عميقة قاطعتها نوباتٌ من اللّهاث القويّ، دفعتُ نفسي على المجداف حتى لم يبق على القارب مني سوى قدمي، أخذ الحيوان يقتحمُ ويسعل، تقيّأ فجأةً، دفعةٌ من القيء سقطت خلف الحمار الوحشي، دفع الضّبع نفسه على ما كان قد أنتجه للتوّ، بقي هناك يهتزُّ ويتقلّبُ ويدورُ حول نفسه، ليستكشف أقصى حدود القلق لدى الحيوان، لم يتحركْ من المنطقة المحدّدة لبقيّة النّهار.

في بعض الأحيان، يصدر الحمار الوحشي صخباً حول الحيوان المفترس الذي يقبع خلفه تماماً، لكنه أمضى معظم الوقت مستلقياً يائساً وفي صمت ملحوظ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والأربعون

صعدت الشمس عبر السماء، ووصلت القمةَ، ثمّ بدأتْ تنزل.

قضيتُ النهارَ كلَّه مُتمسكاً بالمِجداف، أتحرّكُ فقط عند الضرورة للحفاظ على توازني، اتّجهتُ جسداً وفكراً نحو بقعةٍ في الأفق التي ستأتي لإنقاذي، عشتُ حالةً من القلق والسأم الذي يقطع الأنفاسَ، ارتبطتِ الساعاتُ الأولى بصوتٍ واحدٍ فقط، ليسَ ما تتوقعه، ليس نباحَ الضّبع أو هسهسةَ البحر، بل صوتُ طنين الذباب، إذ تكاثر ذبابٌ على سطح المركب، اندفعوا وأخذوا يطيرون في المكان، ضمن مدارٍ كبيرٍ وكسولٍ، ولكنّهم عندما يقترب بعضهم من بعضٍ، يحومون بشكلٍ لولبي وبسرعةٍ مذهلةٍ وانفجارٍ من الطّنين، بعضها كان شجاعاً كفايةً ليندفعَ خارجاً حيث كنتُ أنا، أخذوا يتجمّعون حولي، ويصدرون صوتاً كصوت قرقعةِ طائرةٍ ذات مروحةٍ واحدةٍ قبل الإسراع إلى البيت، إما إنّها كانت على القارب أصلاً أو جاءت مع واحدٍ من الحيوانات، أغلب الظنّ مع الضّبع، لا يمكنني الجزم، ولكن مهما كان مصدرُها، فلن تستمر طويلاً، بالفعل فقد اختفت جميعُها خلال يومين، نهشَ الضّبع من خلف حمار الوحش وأكل عدداً منها، والبقيةُ طارت نحو البحر مع الريح، ربما عاشت المحظوظةُ منها، أو قد ماتت بعد عمر طويل.

عندما اقترب المساء، ازدادَ قلقي، كلُّ شيء يتعلّقُ بنهاية اليوم قد أرعبني، في الليل ستجدُ السفينة صعوبةً في رؤيتنا، وفي اللّيل سيعود الضّبع لنشاطه وربما إنسان الغاب أيضاً.

هبط الظلام، وغاب عن هذه الليلة قمرُها، واختفت النّجومُ خلف السحب، وأصبح من الصعب تمييز ملامح الأشياء، اختفى كلُّ شيء، البحر، قارب النّجاة، حتى نفسي.

هدأ البحرُ، ولم يكن هناك ريح، لم أستطع حتى أن أجدَ نفسي من صوتي، شعرتُ وكأنّني أسبحُ في الظّلام الدّامس المبهم.

ثبتُّ نظري حيث يكونُ الأفق، بينما كانت أذناي تنصتُ لأيّ إشارةٍ من الحيوانات، لم أكن أتخيّلُ أنّ ذلك سيستمرُّ طوالَ الليل.

كان الضّبع، في بعضِ الأحيان خلال اللّيل ينخرُ، والحمارُ ينهقُ ويطلق صرخاتٍ حادّةٍ، سمعت صوتَ نقرٍ متكرّر، ارتجفْتُ خوفاً، لن أخفيَ شيئاً، فقد أرحْتُ نفسي في سروالي، جاءت تلك الأصوات من النهاية الأخرى للقارب، ولم أعدْ أشعر بأيّ اهتزازٍ يشير إلى حركةٍ ما، فالوحش الجهنّميّ ما زال بعيداً عني بشكل واضح، ومن مكان قريب في الظلمة، بدأت أسمع صوتَ زفيرٍ مرتفع وأنيناً وهمهماتٍ وأصواتاً مختلفة من فمٍ يقطرُ لعاباً.

كانت فكرةُ تحرك أورنج جوس فكرةً ثقيلة على أعصابي، لذلك تجاهلتها ببساطة، كما أتتْ أصواتٌ من الماء تحتي، صوت ضربٍ وقرقعة مفاجئ وأصوات حفيف، توقفتْ واختفتْ على الفور، إضافةً إلى المعركة من أجل البقاء.

انقضى الليل ببطءٍ دقيقةً بعد دقيقةٍ.

الفصل الخامس والأربعون

شعرتُ بالبرد، وكانت مراقبتي ناقصةً وكأنّ الأمرَ لا يهمّني.

وبشكلٍ تدريجيٍّ تغيّرَ لومُ تلك الزاوية من السّماء، لقد جاء النهار بسرعةٍ، بدأتِ الريحُ تمتلئ بالضوء، انفتحَ البحرُ الهادئُ أمامي مثل كتاب، لا يزال يبدو وكأنّه ليلٌ، لكن فجأة أصبح نهاراً، أصبح الجوُّ دافئاً عندما أشرقت الشمس التي تبدو كبرتقالة مضيئة من الأفق، ولكنّني لم أنتظرْ طويلاً لأشعر بالدّفء، فمع أوّل شعاعٍ للضوء، استيقظ الأملُ بي، انغمستِ الأشياءُ بمحيطها، وامتلأتْ بالألوان، فازداد الأملُ حتى أصبح كأغنيةٍ في قلبي.

آه ما أجمل أن تنعمَ به، ستتطورُ الأشياءُ الآن، فقد انتهى الأسوأ، لقد نجوتُ في اللّيل وسيتمُّ إنقاذي اليوم.

إنّ التّفكير هكذا ربطَ تلك الكلمات معاً في عقلي، وهذا بحدّ ذاته مصدرٌ للأمل، الأملُ الذي يتغذّى على الأمل. عندما أصبح الأفق خطاً واضحاً، دقّقت به بلهفة، كان النهارُ صافياً، وكانت الرؤيةُ ممتازةً، تخيّلت رافي، سيكون أوّل من يلقي عليّ التحيّة مداعباً: ما هذا؟ وجدتَ لنفسك قارب نجاةٍ كبيراً، وملأته بالحيوانات؟ هل تظنُّ نفسك نوحاً أو شيئاً كهذا؟ سيكونُ أبي غيرَ حليق وأشعثَ، ستنظر أمّي نحو السماء وتضمّني.

رواياتٌ كثيرةٌ زارتْ مخيّلتي حول ما سيحدثُ على متنِ سفينةِ الإنقاذ، فيما يخصُّ الأملَ بجمع الشّمل الجميل.

في ذلك الصّباح سيتحوّل الأفقُ إلى اتجاهٍ واحد، وستتحول شفتاي إلى اتجاهٍ آخر، إلى ابتسامة.

الغريب بالأمر أنّني لم ألتفتْ لأرى ما يحدثُ على القارب لمدّةٍ طويلةٍ، إذ هاجمَ الضّبع الحمارَ، وكان فمه ملوثاً بالدّم الأحمر، وجدتُه يمضغُ قطعةً من الجلد، بحثتْ عيناي تلقائياً عن الجرح، عن المنطقة التي تعرّضتْ للهجوم، انقطعتْ أنفاسي رعباً، يا إلهي، رِجلُ الحمار الوحشي المكسورة مفقودةٌ، لقد انتزعها الضّبع ورماها في الخلف وراء الحمار الوحشيّ، تدلّتْ قطعةُ جلدٍ من جذعه، والدمُ لا يزال يقطرُ منها، تحمّلت الضحيّةُ ألمها صابرةً دون أن تظهرَ أيَّ احتجاج، فصريرُ أسنانها البطيءُ والمستمرُّ كان الإشارةَ الوحيدة على محنتها.

انتابتني صدمةٌ واضطرابٌ وغضبٌ، شعرتُ بالسّخط الشديد على الضّبع، وفكّرتُ القيام بأيّ شيءٍ لقتله، لكنّني لم أفعلْ شيئاً، يجبُ أن أكونَ صادقاً بذلك، لم يتبقَّ لدي بقيةُ شفقة على الحمار الوحشي.

عندما تكون حياتُك مهدّدةٌ بالخطر، يتبلّدُ لديك شعورُ العطف بأنانيّةٍ مطلقة للنّجاة بحياتك، معاناتُه الشديدة تبعثُ على الحزن، ولكونه حيواناً ضخماً مربوطاً ليس في نهاية الأمر سبب محنته، ولكن ألّا أتمكّنَ من فعل شيءٍ بخصوصه غير الشعور بالحزن!! هذا الشيءُ الذي لا يمكن أن أفخرَ به، أنا آسفٌ لأني كنت قاسيَ القلب في هذا الأمر، لن أنسى ذلك الحمار الوحشي وما مرَّ به، لم تبقَ صلاةٌ لم أفكر بها، ولم يكن هناك أيُّ إشارة عن أورنج جوس.

أدرْتُ نظري نحو الأفق ثانيةً ذلك المساء، قلّت شدةُ الرّياح، ولاحظْت شيئاً يتعلّقُ بقارب النّجاة، فبالرغم من وزنه إلا إنّه يطفو بخفّةٍ فوق الماء، لا شكّ

أنّ ذلك يعودُ إلى أنّه يحمل وزناً أقلّ من قدرته على الاستيعاب، كان لديّ الكثير من الأماكن الفارغة، والمسافة بين الماء وشفير ظهر المركبِ تحتاجُ بحراً خبيثاً ليغمرَنا، وهي إشارةٌ أيضاً إلى أنّ أيَّ نهاية من القارب تواجه الريحَ ويفترض أن تغرقَ، كانت تجلب لنا مسافةً أبعدَ عن الأمواج، فالنّتيجةُ مع الأمواج الصغيرة ثابتةٌ، مجرد لكْماتٍ على بدن القارب، بينما كانت الأمواج الكبيرة تسبّبُ تقلباً مرعباً للقارب، وكأنّه ينقلبُ من جانبٍ إلى جانب، هذه الحركةُ المتقلّبةُ والمتواصلةُ سبّبت لي الغثيان، ربما سيكون وضعي أفضل في موقع جديد، انزلقت على المجداف، وتراجعتُ للخلف إلى انحناء القارب، جلستُ مواجهاً للأمواج، وبقيّةُ القارب على يساري، صرتُ أقربَ للضبع، ولكنّه لم يكن مهتاجاً. وبينما كنت أتنفس بعمقٍ في محاولة منّي للتّخلّص من الدُّوار، شاهدت أورنج جوس، تخيّلتُها بعيدةً عن الأنظار تماماً، قربَ قوس القارب تحت المشمّع، بعيدة تماماً عن الضّبع بقدر استطاعتها، لم يكن الأمر كذلك، فقد مكثَت على المقعد الجانبي، خلف مدخل الضّبع، مختبئةً مني عند انحناء المشمّع المطويّ.

رفعَتْ رأسها إنشاً أو اثنين فقط، وهكذا حتى تسنّى لي رؤيتها.

ازدادَ فضولي، إذ يجبُ أن أراها بشكلٍ أفضل، وبالرّغم من تقلقُلِ القارب استطعْت اتخاذَ وضعيّةَ الرّكوع، نظرَ الضّبع نحوي، لكنّه لم يتحرّك، ظهرتْ أورنج جوس مترهلةً تماماً ومتمسكةً بشفير ظهرِ المركب بكلتا يديها، غاصَ رأسُها قليلاً بين ذراعيها، فمُها مفتوحٌ ولسانها متدلٍّ، تلهثُ بشكل ملحوظ.

بالرّغم من المأساة الّتي ابْتُليت بها، شعوري بالمرض، أفلتَتْ مني ضحكةٌ، فكلُّ ما كان يتعلّقُ بأورنج جوس ينطقُ بكلمة واحدة «دوار البحر».

انبثقتْ في ذهني صورةٌ لنوعٍ جديدٍ «إنسان الغاب الأخضر النّادر» عدتُ إلى وضعيّةِ الجلوس، وقد بدتْ المسكينة، بطريقةٍ بشريّة، مريضة جداً. من السخرية أنْ تقرأَ سماتٍ بشريّةً في الحيوانات، ولا سيَّما في القرود والسّعادين.

القرود هي أوضح المرايا التي نملكها في عالم الحيوان، لذلك فهي مشهورةٌ جداً في حديقة الحيوان.

ضحكت ثانيةً، ووضعْت يديّ على صدري مستغرباً ممّا شعرتُ به، يا إلهي، انفجرتْ هذه الضحكةُ كبركانٍ بداخلي، لم تُبهجْني أورنج جوس فقط، لكنّها أيضاً سحبتْ من كلينا الإحساسَ بدوار البحر، أشعر أنّني بخير الآن.

عدت لمراقبة الأفق بآمالٍ عاليةٍ. رغم إصابة أورنج جوس بدوار البحر، ثمّةَ شيءٌ شدّ انتباهي لها، فقد أدارت ظهرها للضّبع وكأنّها تشعرُ بأنّها ستكون بأمانٍ بتجاهله.

كان النظامُ البيئيُّ على قاربِ النّجاة فعلاً محيراً، فالظّروفُ الطّبيعيّةُ مفقودةٌ على القارب، ويمكن للضّبع المرقّط وإنسان الغاب أن يلتقيا، لا يوجدُ أيّ حيوان مثل الأوّل في بورنيو، ولا حيوانٌ مثلُ الثاني في أفريقيا، ولا يوجد طريقةٌ لمعرفة كيف يتواصلان.

يبدو لي الأمرُ بعيدَ الاحتمال تماماً، هذا إذا لم يكنْ مستحيلاً بشكلٍ مطلق، وذلك إذا التقى آكلو اللحوم الذين يسكنون الأشجار وآكلات اللّحوم التي تسكنُ السافانا، فكلٌّ منهما وبشكل جوهري سيغلق منزله لكيلا يثيرُ اهتمامَ بعضها بعضاً.

بالتّأكيد ستشكّلُ رائحةَ إنسان الغاب فريسةً للضبع، رغم أنّه حيوانٌ غريبٌ، حيوانٌ سيتمّ تذكّرُه بعد ذلك بقذفه كراتٍ من الشّعْر، ومع ذلك

سيكون طعمه أفضلَ من عادم السيارة، ويستحق البحث عنه قرب الأشجار، وبالتّأكيد فإنّ رائحةَ الضّبع هي رائحة مفترسٍ لإنسان الغاب، وهو سببٌ ليكونَ حذراً إذا سقطتْ منه قطعةً من الدوريان إلى الأرض بالمصادفة، ولكنّ الطبيعةَ تحمل المفاجآتِ دائماً، فربّما لم تكن كذلك.

إذا كانتِ الماعز تُجلَبُ لتعيشَ مع وحيد القرن، لماذا لا تعيشُ الضّباع مع إنسان الغاب؟ سيكون ذلك نجاحاً كبيراً لحديقة الحيوان، يجب أن تُوضعَ لوحةٌ أستطيع رؤيتها: الزائرون الأعزّاءُ، لا تخافوا على إنسان الغاب، إنّهم على الأشجار يعيشون هناك، وليس لأنّهم يخافون من الضّباع، عودوا في موعد الطعام أو عند الغروب، عندما يعطشون، وسترونهم يهبطون عند الشجر، ويسيرون على الأرض غيرَ خائفين من الضّباع إطلاقاً، سيكون والدي مندهشاً.

بوقتٍ ما من ذلك المساء شاهدت أوّلَ نموذج لما سيصبح صديقاً عزيزاً.

سمعتُ صوتَ بقبقةٍ وخربشةٍ على جسم القارب بعد عدّة ثوان، وقريباً جداً من القارب، انحيْتُ وأمسكْتُه، فإذ بسلحفاةٍ بحريّةٍ كبيرةٍ، سلحفاة بزعنفة تدور بتكاسل، أطلّ رأسها من الماء، كان مشهداً صادماً بطريقةٍ قبيحةٍ، قوقعةٌ مجعّدة بنيّةٌ مصفرّةٌ، طولُها نحو ثلاثة أقدام، ومنقّطةٌ ببقع من الطّحالب، وجهٌ أخضرُ عاتم، ومنقارٌ حادٌّ بدون شفاه، فتحتا أنفٍ صلبتان وعينان سوداوان تحدقان بي عن قصد، نظراتٌ تعبّرُ عن غطرسةٍ وقسوةٍ مثل رجلٍ عجوزٍ سيِّئ الطّبع، ويعاني علّةً في عقله. الشيء الأكثر غموضاً حول هذا الحيوان الخسيس، أنّه كان كذلك.

بدتْ متناقضة، تطفو هناك في الماء، شكلُها غريبٌ جداً مقارنةً مع الشّكل الصّقيل المنزلقِ للسّمكة، مع ذلك فإنّ معالَمها واضحةٌ. بينما كنت أنا الشّخصُ الغامضُ، تجوّلتُ حول القارب لبضعِ دقائقَ.

قلت لها: اذهبي وأبلغي السفينةَ أنّني هنا، اذهبي، اذهبي. استدارت وغاصتْ بعيداً عن الرّؤية، بزعانفَ سوداءَ تدفعُ الماءَ بضرباتٍ متتالية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس والأربعون

تجمّعتِ الغيومُ حيث يُفترض أن تظهرَ السّفن، وقد تولّت، هي وهذا اليوم الذي مرّ بصعوبة، مهمةَ إخفاء ابتسامتي، ومن غير المجدي القولُ إنّ تلك الليلةَ كانت الأسوأَ في حياتي، فلديّ الكثيرُ من اللّيالي السيّئة لأختار منها التي لم أكن فيها بطلاً، فاللّيلةُ الثانيةُ في البحر لا تزال تعيش بذاكرتي كإحدى الليالي التي عانيْتُ فيها بشكلٍ استثنائيّ ومختلفٍ عن القلق المتجمّد للّيلةِ الأولى، ذلك لأنّ نوعَ عذاباتِها مصطنعٌ، الانهيارُ والبكاءُ والحزنُ والألمُ الرّوحيّ مختلفٌ، أيضاً اللّيالي التي تبعَتْها في أنّي لا أزالُ أملكُ الفهمَ تماماً ما أشعر به، تلك اللّيلةُ المرعبةُ سبقَها مساءٌ مُرعب، لاحظْتُ وجودَ أسماكِ القرشِ حول القارب، وبدأتِ الشّمسُ ترخي ستائرها على النهار، كأنّه انفجارٌ هادئٌ للبرتقاليّ والأحمر.

سسيمفونيةٌ ملوّنةٌ عظيمةٌ، قماشٌ ملوّنٌ بتناسقٍ خياليّ، إنّه بحقّ غروبٌ رائعٌ للشّمس في المحيط، ضاع مني. كانت أسماك القرش من نوع makos وهي حيوانات مفترسة سريعة وذات أنف مدبب لها أسنان طويلة قاتلة تبرز بشكلٍ ملحوظٍ من أفواهها.

تبعدُ مسافةَ ستة أو سبعةَ أقدام، إحداها أكبرُ من البقيّة. راقبْتُها بقلق، اتّجهَتِ الكبرى فيهم نحو القارب بسرعة، وكأنّها تهاجمه، ارتفعتْ زعنفتها الظّهريّة عدّة إنشاتٍ فوق الماء، ولكنّها غطست تحتنا قبل أن تصلَ إلينا،

وانسلّت تحت أقدامنا بأناقةٍ مخيفة، عادت ولكنّها لم تقتربْ كثيراً هذه المرة، ثمّ اختفَت، بينما الأسماك الأخرى قامت بزيارةٍ أطولَ، تأتي وتذهب على أعماق مختلفة، بعضها ظاهرٌ وبمتناول اليد تحت سطح الماء، والبعضُ الآخر على عمقٍ أكبر، أسماكٌ كثيرةٌ بأشكال وألوان مختلفة.

كنت سأعدُّها أقرب لو لم يجذب انتباهي شيءٌ آخر، إذ بدا رأس أورنج جوس واضحاً للرؤية، إذ التفتتْ ووضعتْ يدها على المشمّع بطريقةٍ تشبهُ الطّريقة نفسها التي نتّبعها في وضع ذراعنا على ظهر كرسي بجانب الكرسي الذي نجلس عليه، وبحركة تشيرُ إلى راحةٍ مطلقة، ولكن هذه الحركة ليستْ من صفاتها، حركةٌ حملتْ شعوراً يعبّرُ عن الحزن الكئيبِ والعميق.

أخذتْ تنظرُ حولها، وتديرُ رأسها من جهة لأخرى، فاقدةً طبيعتَها المرحة، ولدت في حديقة الحيوان صغيرين ذكرين ضخمين، أحدهما بعمر خمس سنواتٍ، والأنثى بعمرِ ثماني سنواتٍ، هذا، دون شكّ، ما تفكّرُ به حينما كانت تبحثُ فوق الماء مقلدةً ما كنتُ أفعله أنا خلال الستّ والثلاثين ساعة.

ولم يصدرْ عنها أيُّ شيء، كنت مجرد حيوان ثان، فقد كلّ شيء، ومرشّحٌ للموت. تدهورَ مزاجي.

ثمّ بزمجرة للفت الانتباه كانَ الضّبع هائجاً، ولم يغادرْ مكانه الضيّق طوال اليوم، وضع قدميه الأماميّتين جهة الحمار الوحشي، وصل إليه وجمع بعضاً من الجلد بين فكيه وسحبها بعنف، خرجتْ حزمةٌ من بطن الحمار مثل هديّةٍ ملفوفة، خرجت من شقٍّ عريض أملسَ، وبصمْتٍ وبطريقةٍ تشبه تمزيق الجلد وبمقاومةٍ عنيفة، اندفعَ الدّم في الحال مثل نهر.

عاد الحمارُ الوحشي للحياة، ليدافعَ عن نفسه، وهو يعوي ويشخرُ ويئِنُّ، دفعَ رجليه الأماميّتين، ورفع رأسه في محاولة لعضّ الضّبع، باءتْ محاولتُه بالفشل، فالوحشُ صار بعيداً، هزّ رجلَه الخلفيّة السليمة، التي لم تكن أكثر من تفسير سبب طرقة الليلة السابقة، فصوتُ الحافر يضربُ على جانب القارب في محاولةٍ لحمايةِ النّفسِ، أثارتِ الضّبعَ ودفعتْهُ إلى نوبةٍ من الشّخير والعضّ، فأحدث جرحاً مفتوحاً في جسم الحمار.

لم يقتنع بالوصول إلى الحمار من الخلف، لذلك قفز على ظهره من الخلف، أخذ الضّبع يسحبُ لفائف من الأمعاء والأحشاء الأخرى، لم يكن هناك ترتيبٌ لما كان يفعله، فقط يعضّ هنا، ويبتلعُ من هناك، غارقاً بالثّروة التي أمامه، بعد ابتلاعه نصفَ الكبد، أخذ يسحبُ جرابَ المعدة الأبيض المنتفخ، ولكنّه كان ثقيلاً، وإذ إنّ كفلَ الحمار أعلى من بطنه، ومع الدّم الذي يفرّ منه، أخذ الضّبع يزحف نحو فريسته.

أقحمَ رأسَه وأكتافَه في أحشاء الحِمار حتى ركبتي قائمتيه الأماميّتين، سحبَ نفسَه وانزلق للخلف، وأخيراً بقي على هذه الوضعيّة، نصفُه بالدّاخل ونصفه بالخارج، لقد أكل الحمارَ من الدّاخل وهو حيّ.

تناقص غضبُه، وأخذ الدّمُ يخرجُ من منخريه، رفع رأسه مرّةً أو مرَّتين للأعلى وكأنّه يناشدُ السَّماءَ، لقد عبَّر تماماً عن بشاعة اللّحظة.

لم ترَ أورنج جوس هذه الأفعال، باللّامبالاة رفعَتْ نفسَها بالكامل على المقعد مع رجليها الصغيرتين اللّتين لا تتلاءَمان مع جذعها الضّخم.

بدتْ وكأنّها ثلاجةٌ على عجلاتٍ ملتوية، ولكن بيديها الكبيرتين المرفوعتين بالهواء بدتْ مثيرةً للإعجاب، فامتدادُ يديها أكبرُ من طولها، يدٌ فوق الماء والثّانيةُ امتدّتْ عبر اتّساع القارب إلى الجهة الأخرى تقريباً.

سحبتْ شفتيها للخلف، وظهرتْ أنيابُها الضّخمةُ، وبدأت تصرخُ صراخاً غاضباً قوياً وعميقاً، صراخٌ أذهلَ الزرافةَ الصّامتة بطبيعتها. جفل الضّبع كما جفلْتُ أنا، فانكمش على نفسه وتراجع، ولكن ليس طويلاً. حدّق الضّبع بأورنج جوس بطريقةٍ جعلتْ شعرَ رقبتها وأكتافها ينتصبُ، وارتفعَ ذيلُها مُستقيماً في الهواء.

عادَ إلى الحِمار الميْتِ، والدمُ ما زالَ يقطرُ من فمه، لقد كانَ ردّ فعله على أورنج جوس لطيفاً نوعاً ما، يرافقه زمجرة عالية، لم تتجاوز المسافة بين الحيوانين ثلاثةَ أقدام، أورنج جوس تواجه مباشرةً فكّين عريضين مفتوحين، وضعا كلَّ طاقاتهما في صراخهما، حتى ظلَّ جسداهما يرتجفان بسبب هذا الجُهد، لدرجةِ أنّني استطعتُ رؤيةَ حُنجرةِ الضَّبع عميقاً.

هواءُ المُحيط الهادئ الذي كانَ قبل دقيقةٍ خلَتْ يحملُ صفيراً وهمساتِ البحر، مثل لحنٍ طبيعيّ كنت سأسميه مُهدّئاً لو كانت الظروف أكثرَ سعادة، امتلأ فجأةً بهذا الصخب المُروّع الذي يشبه غضبَ معركةٍ أثناءَ إطلاق البنادق والمدافع الذي يصمّ الآذان، والانفجار المدوّي للقنابل. ملأ صراخُ الضّبع النطاق الأعلى لما يمكن لأذني أن تتحمّلَه، بينما ملأ صراخُ أورنج جوس النطاق الأدنى، وما بينهما استطعتُ سماعَ صراخ الحمار الوحشيّ العاجز، وبذلك تكون أذناي قد امتلأتا تماماً، بحيث لا يُمكن أن يخترقَهُما صَوتٌ آخر.

بدأتُ أرتجف بشكل يتعذّرُ السّيطرةُ عليه، كنت واثقاً بأنّ الضّبع سيهاجمُ إنسان الغاب، لم أتخيّل أنّ الأمورَ يمكن أن تصبحَ أسوأَ من ذلك، ولكنّها أصبحت وانتهى الأمر.

تنشّقَ الحمار الوحشي بعضاً من دمه فوق القارب، بعد ثوانٍ قليلةٍ سمعْتُ طرقةً قويّةً على القارب، تبعَتْها طرقةٌ أخرى. بدأ الماءُ حولنا يعجُّ بأسماك القرش التي جاءتْ تبحثُ عن مصدر الدّم، عن طعامٍ قريبٍ جداً لها.

طفَتْ زعانفُها السوداءُ فوق الماء، ثمّ أخرجتْ رؤوسها، كانت تضرب القاربَ بشكلٍ متكرّر، لم أكن أخشى أن تلتقطنا أسماكُ القرش، ولكنّني خشيتُ أن تخترقَ الهيكل المعدنيَّ وتُغرقنا.

مع كلّ ضربةٍ كانت الحيوانات تقفزُ وترتعبُ، ولكنّها لم تبتعدْ عن عملها الرئيسيّ، وهو الصراخُ في وجه بعضها بعضاً، كنتُ واثقاً أنّ هذا الصّراخُ سيتحوّلُ إلى عِراكٍ، ولكن بدلاً من ذلك، خمدَتْ بعد بضع دقائقَ، واستدارتْ أورنج جوس وهي تشخر وتمطُّ شفتيها، وأخفض الضّبع رأسه ثمّ تراجع خلف جسد الحمار الممزّق.

توقّفتْ أسماكُ القرش عن الطّرق على القارب، غادرَت إذ لم تجدْ شيئاً. وأخيراً ساد الصّمتُ، ولكن امتلأ الهواء برائحةٍ لاذعةٍ وفاسدة، خليطٌ أرضيٌّ من الصدأ والغائط، انبعثَ من دمٍ متخثّرٍ وكأنّه صدأٌ أحمرُ قاتمٌ، ومنتشر في كل مكان. ذبابةٌ واحدة كانت تطنّ حولي، وكأنّه جرس إنذارٍ من الجنون.

لم تظهرْ أيُّ سفينة أو أيُّ شيء أبداً في الأفق، في ذلك اليوم الذي أوشك أن ينتهي، عندما انزلقتِ الشّمس خلف الأفق، لم يكن النهار وحده الذي مات، إذ مات الحمار الوحشي المسكين، وكذلك عائلتي.

عند غياب شمس اليوم الثاني فتح الكفر طريقاً للألم والحزن، لقد ماتوا، لا يمكن إنكار ذلك، يا لهذا الشيء الذي تقرُّ به في قلبك، أن تفقدَ أخاك يعني أن تفقد شخصاً يستطيع أن تتشاركَ الشّيخوخة معه، والذي يجلب لك زوجةَ أخ وأبناءَ وبناتٍ أخ، مخلوقاتٌ يزوّدونك بأشخاصٍ لشجرة حياتك، ويعطونها فروعاً جديدةً.

أن تفقد أباك، يعني أن تفقد من تبحثُ عن توجيهاته ومساعدته، من يدعمك كما يدعمُ جذع شجرة الأغصان.

أن تفقدَ أمّك مثل فقدانك للشمس فوق رأسك، إنّه مثل فقدان... آسف لن أكمل.

استلقيْتُ على المشمّع، وقضيت اللّيل كلّه باكياً حزيناً ووجهي مدفوناً بذراعَي، أمضى الضّبع جزءاً كبيراً من اللّيل وهو يأكلُ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع والأربعون

طلع النهار رطباً، تصاحبه ريح دافئة وسماء مغطاة بغطاء كثيف من الغيوم الرمادية، وكأنّها أغطية متّسخة، أما البحر فلم يتغير. كان القارب يعلو ويهبط بحركة منتظمة.

يا إلهي، الحمار الوحشي لا يزال حيّاً، لم أصدق ذلك. لديه في جسمه فتحة بعرض قدمين، ناسور يشبه بركاناً انفجر حديثاً، أعضاء من جسمه نصف مأكولة، تقيّأ بها الضّبع، تلمع في الضوء أو تعكس ضوءاً كئيباً وجافّاً، ولكن الأجزاء الرئيسة لا تزال تضج بالحياة قليلاً، انحصرت حركاته بارتجاف رجليه الخلفيتين، وكان يرمش بعينيه من حين لآخر، حركته تظهر كمّ الرعب داخله. لا أدري كيف يستطيع كائن حيّ أن يتحمل مثل هذه الجروح، ويستمرُّ بالحياة!!!

كان الضّبعُ مشدوداً، لم يركنْ طوالَ اللّيل، ولا حتى بعد قدومِ النّهار، ربّما يكون ذلك نتيجة تناولِه كميّةً كبيرةً من الطّعام، وقد تمدّدَت معدتُه بشكل فظيع. كانت أورنج جوس بمزاج خطير، وأخذتْ تتململُ وتبرز أسنانها. بقيتُ حيث أنا، منكمشاً على نفسي، قرب مقدّمة القارب، ضعيفاً جسديّاً وروحيّاً، خفْتُ أن أسقطَ بالماء لو حاولتُ تعديلَ نفسي على المجداف.

مات الحمارُ الوحشيّ ظهراً. تجمّدَتْ عيناي، وأصبحتُ غيرَ مكترثٍ لهجمات الضّبع العرضيّة.

تفجّرَ الغضبُ بعد الظهر، وارتفع التّوتر إلى حدّ لا يُطاقُ، قفزَ الضّبع فوق بقايا الحمار الوحشيّ، واتّجه نحو أورنج جوس. اعتقدْتُ أنّني وضّحتُ خطرَ الضّبع. كان من الواضح جداً الشيءُ الذي لازمَ تفكيري، هو تنازلي المبكّر عن أورنج جوس، حتى قبل أن يكون لديها الفرصة للدّفاع عن نفسِها، لم أقدّرْها جيداً، لم أقدّرْ ثباتَها جيداً.

لكمتُ الحمارَ الوحشيَّ على رأسه، كان تصرفاً مثيراً، جعلتْ قلبي يذوبُ حبّاً وإعجاباً وخوفاً أيضاً.

ألم أذكرْ سابقاً أنّها كانت حيواناً مدلّلاً ومُهملةً بقسوةٍ من مالكيها الأندونيسيّين.

قصّتُها تشبه قصة كلّ حيوانٍ مدلّلٍ غيرِ ملائمٍ، يحدث أن يُشترى وهو صغيرٌ وجميلٌ، فهو يقدّمُ الكثيرَ من التّسلية لمالكيه، ثمّ يكبرُ حجمُه، وتزيدُ شهيّتُه، إلى أن يصبحَ غيرَ قادرٍ على تنفيذِ ما تمّ تدريبه عليه بالمنزل، عندما تزداد قوّتُه سيصبحُ من الصّعب التعاملُ معه، فإذا حدث وأن سحبت الخادمةُ الغطاء من تحتها لتغسلَه، أو قام الابن الأصغر بسحب اللّقمة من يديها مازحاً فإنّها تكشّرُ عن أسنانها، وتسبّبُ رعباً للعائلة، ثمّ ينتهي الأمرُ بها إلى أن تصبحَ خارجَ اهتمام العائلة، ومن بعدها تجد نفسها محمولةً في سيّارة جيبٍ برفقة إخوانها وأخواتها من البشر، يدخلون الغابةَ ليتمَّ التخلصُ منها، وذلك بتركها في ذلك المكان الضّخم والغريب، بينما يلوذون هم بالفرار أملاً بالنّجاة، وتلقي هي نظراتِ الوداع على وجوه من تحبُّهم المختبئةِ وراء زجاج الجيب الخلفيّ، وهي تختفي بسرعة، تُترَكُ وحيدةً لا تفهم ما يحدثُ، ليست مؤهلةً للعيش في هذه الغابة، مثلها مثل إخوانها البشر، تنتظر عودتَهم محاولةً كبحَ الخوف الذي يبدأُ يتملّكُها، ولا يعودون إليها.

تغربُ الشمس وتُصابُ بالاكتئاب فوراً، وتعتزلُ الحياةَ، فتموتُ إمّا من الجوع وإما من التّخلي عنها بعد عدة أيّامٍ أو تهاجمُها الكلابُ.

يمكن أن تكونَ أورنج جوس إحدى هذه الحيوانات المدلّلة البائسة، بدلاً من ذلك انتهى بها المطافُ في حديقة حيوان بوند تشيري. ظلّتْ لطيفةً وغيرَ عدوانيّةٍ طوال حياتها.

لديّ هناك ذكرياتٌ من طفولتي، عندما كانت تحتضنُني بذراعيها وأصابعها التي يعادلُ كلَّ إصبع منها طول يدي، كانت تفتش عن شعري، أنثى صغيرة تتدرّبُ على مهارات الأمومة، عندما اكتمل نموُّها تماماً، بدأتُ أراقبُها عن بعد.

ظننْتُ أنّني أعرفُها جيّداً، لدرجةِ أنّني أستطيعُ التنبّؤ بكلّ حركاتها، أعتقد أنني لم أكن أعرفُ عاداتها فحسب بل حدودها، ولكنّ استعراضَ الشّراسة والشّجاعة الهمَجيّة جعلاني أُدركُ أنّني كنتُ مخطئاً، يبدو أنّني طوالَ حياتي لم أعرفْ سوى جزءٍ منها.

لَكَمَتِ الوحشَ على رأسه، ويا لها من لكمةٍ جعلتْ رأسَ الوحش يرتطمُ بالمقعد، ويُحدثُ صوتاً مرعباً وحاداً، باعدتْ رجليه الأماميّتين لدرجة أنّني ظننْتُ أنّ المقعدَ أو فكّهُ قد كُسر، أو الاثنين معاً.

وقف الضّبع فوراً وانتصبَتْ كلُّ شعرة بجسمه، كما انتصبَ شعرُ رأسي، ولكنّ عدوانيَّتَه لم تتحركْ تماماً، فقد تراجع.

ابتهجتُ لأنّ الدفاع المُثيرَ لأورنج جوس قد أنعشَ قلبي. لم يدمْ ذلك طويلاً.

لا تستطيعُ أنثى إنسانِ الغابِ المُكتملة النّمو هزيمةَ ضبعٍ ذكرٍ مرقّطٍ مكتملِ النّمو، تلك الحقيقةُ التجريبيّةُ الواضحةُ لكلّ علماءِ الحيوان.

ولو أنّ أورنج جوس ذكرٌ، ولو كانت كبيرةً بمقاييسِ الحجمِ كما كانت بقلبي، لكانتْ مسألةً أخرى. وبالرّغم من أنّها سمينةٌ بسبب تناولها كمياتٍ كبيرةٍ من الطّعام في حياتها المريحة في حديقة الحيوان، فقد سجّلتْ وزناً قدرُه مئةٌ وعشرةُ باوندات، أنثى إنسان الغاب تكون بنصف حجم الذّكر، إنّها ليست مسألةُ وزنٍ أو قوّةٍ جسديّةٍ، لم تكن... لم تكن أورنج جوس تفتقرُ لوسيلةِ الدّفاع عن نفسها، ما تفتقر إليه هو الموقفُ والمعرفةُ.

ماذا يعرفُ آكلُ الفواكه عن القتل؟ أين لها أن تتعلّم كيف تعضّ؟ ومدى قوة العضّ؟ وكم يجبُ أن تستمرّ؟ يمكنُ لإنسان الغاب أن يكونَ أطول، وأن يمتلكَ ذراعين طويلتين قويّتين ورشيقتين، وأنياباً طويلةً، ولكنّه إذا لم يعرف كيف يستعملُ هذه الأسلحة، فإنّها ستكون ذات فائدةٍ قليلةٍ.

الضّبع وبفكّيه فقط، سيتغلبُ على القرد، لأنّه يعرفُ ماذا يريدُ، وكيف يحصلُ على ما يريد.

عاد الضّبعُ، وقفزَ على المقعد، فأمسكَ بمعصم أورنج جوس قبل أن تتمكنَ من ضربه، ضربتْهُ على رأسه بذراعها الأخرى، ولكنَّ الضربةَ جعلت الوحشَ يشخرُ بغضبٍ، حاولتْ أن تعضَّه، ولكنّ الضّبعَ تحرّكَ بسرعةٍ. للأسف فإنّ دفاعَ أورنج جوس يفتقدُ التّنظيمَ والدّقةَ، إذ لم يعمل خوفُها إلّا على عرقلةِ حركتِه.

تركَ الضّبعُ رسغَها، ووصلَ بحرفيّةٍ إلى حنجرتها، شاهدْتُها تلكمُ الضّبعَ لكن بلا فائدة، شدّتْ وبرَه بينما كانت حنجرتُها تُعصَرُ بفكّيه.

لقد ذكّرتْني بنا نحن، عيناها تُبديان خوفاً بشريّاً كما فعل أنينُها المُجْهَد. حاولتِ الصعودَ إلى المشمّع، فهزّها الضّبعُ بعنفٍ حتى سقطا معاً عن المقعد إلى قاع القارب، سمعتُ ضجيجاً، ولكنّني لم أعدْ أرى شيئاً.

كنتُ التّالي، وهذا واضحٌ تماماً، استطعتُ الوقوفَ ولكن بصعوبة، فمن الصّعوبة بالنّسبة لي أن أرى من خلال دموعي، بكيتُ، بكيْتُ كثيراً، إما بسبب عائلتي وإما بسببِ موتي الوشيك، فقدْتُ الشعورَ للتمييز بين الأمرين. جعلني التعبُ أبكي كثيراً، وحان الوقتُ لأرتاحَ، تقدّمْتُ على المشمّع بالرغم من أنّه مشدودٌ بقوّةٍ في نهاية القارب، فقد تقعّرَ قليلاً في الوسط نتيجةَ قفزاتٍ متعبةٍ متوثّبَةٍ، وعليَّ الآن الوصولُ إلى الشّبكة والمشمّع الملفوفِ، وهذا الجهدُ في قارب نجاةٍ يعني الدحرجةَ بالحالة التي أنا بها. شعرْتُ وكأنّها رحلةٌ، فعندما وضعْتُ قدمي على المقعد الأوسط، جعلتني صلابتُه القويّةُ أشعرُ وكأنّني قد دسْتُ على أرض صلبة. ثبّتُّ قدماي على المقعد، وتمتّعْتُ بوقفتي الصّلبة، شعرتُ بالدّوار، ولكن بما أنّها اللّحظة الحاسمةُ في حياتي، فإنّ هذا الدوارَ أضافَ المهابةَ إلى شعوري بالرّعب. رفعت يداي إلى مستوى صدري، وهي سلاحي الذي أملكُ ضدّ الضّبع، فنظر إليّ، فمُه مملوء بالدماء، وقد رأيت أورنج جوس ملقاةً إلى جانبه مقابلَ الحمار الوحشيّ، ذراعاها ممدودتان، ورجلاها القصيرتان ملتفّتان بعضهما على بعضٍ، وتميلان قليلاً إلى جهة واحدة.

بدت مثلَ المسيحِ على الصّليب، فيما عدا رأسها، فقد كان مقطوعاً، وجرحٌ في رقبتها لا يزالُ ينزفُ، يا له من مشهدٍ مرعبٍ للعين وقاتلٍ للرّوح.

وقبل أن أستجمعَ نفسي وأقفز على الضّبع، نظرتُ للأسفل، رأيتُ بين قدميّ تحت المقعدِ رأسَ ريتشارد باركر، رأسٌ هائلٌ ظهرَ بحجمِ كوكبِ المشتري لأحاسيسي المنبهرة، مخالبُه تشبهُ مجلداتِ الموسوعة البريطانيّةِ.

عدْتُ إلى مقدّمة السّفينةِ وكنتُ منهاراً. قضيْتُ اللّيلَ في حالة هذيان، فكّرت وفكرْتُ حتى نمْتُ، واستفقْتُ بعد حلمي عن النّمرِ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والأربعون

سُمّيَ ريتشارد باركر بهذا الاسم بسببِ خطأ إداريّ. نمرٌ قويٌّ أرعبَ حيّ كولانا في بنغلادش خارج سوندبانز تماماً، وقد خطفَ مؤخراً طفلةً صغيرةً، وكلُّ ما وُجدَ منها يدٌ صغيرةٌ برسومِ حنّاءٍ على الكفّ، وبعضُ أساورَ بلاستيكيّة. كانت السابعةُ التي قَتَلَها هذا المجرم خلال شهرين، وقد ازدادَ جرأةً.

الضّحيّةُ السّابقةُ رجلٌ تمّتْ مهاجمتُه بحقله في وضح النهار، سحبه الوحشُ إلى الغابة، وأكلَ جزءاً كبيراً من رأسه، ومزّق رجلَه اليُمنى وكلَّ أحشائه، وقد وُجدتْ جثّتُه معلقةً على شجرةٍ في الغابة.

راقب القرويّون طوالَ اللّيل تقريباً آملين بمفاجأة النّمر وقتله، ولكنّه لم يظهرْ أبداً، كما استأجرتْ إدارةُ الغابات صياداً محترفاً، صنع منصّةً صغيرةً مخفيّةً على شجرة قربَ النّهر، حيث وقع الهجومان.

قام بربطِ عنزةٍ على جذع الشّجرة قرب ضفّة النّهر، انتظرَ الصّيادُ لعدّةِ ليالٍ، توقّع أن يكونَ النّمر ذكراً عجوزاً وهزيلاً وبأسنان مهترئة، لا يقوى على اصطيادِ أيِّ شيءٍ أصعبَ من بشري، ولكنّه نمرٌ أملسُ الشعر.

وفي إحدى الليالي، خرج إلى مكانٍ مفتوحٍ، أنثى معها شبلٌ وحيدٌ، ممّا أثار خوفَ العنزةِ، فأخذتْ تثغو، نظر الشّبلُ، الذي يبدو بعمر ثلاثةِ أشهر،

باستغراب للعنزة، ركضَ إلى حافة الماءِ حيثُ شربَ بلهفةٍ، اقتربتْ منه أمّه بسبب الجوع والعطش، إذ إنّ العطشَ هو الدافعُ الأكبرُ.

أطفأتِ الأمّ ظمأَها مرّةً واحدةً، والتفتَتْ نحو العنزة لتسدَّ جوعَها، وقد جهّزَ الصيادُ نفسه ببندقيتين، واحدةٌ برصاص حقيقيّ، وأخرى بسهامٍ تشلّ الحركةَ.

لم تكن هي من أكلَ الرجلَ ولكنّها كانت قريبةً من أماكن سُكنى البشر، فمن الممكن أن تكون هي من سبّبَ الرّعب للقرويّين، ولا سيَّما وأنّ شبلَها معها.

التقط البندقيّةَ ذات السّهام، وأطلق طلقة، كانت النمرة على وشك الوقوع على العنزة، زمجرَتْ وشخرتْ وهربتْ بعيداً، ولكنّ السّهامَ التي تشلّ الحركةَ لا تسبّبُ النّومَ اللّطيفَ مثل فنجان جيّد من الشّاي، بل إنّها تضربُ مثل زجاجةِ مشروبٍ منتصبةٍ.

دفعةٌ من الطّاقة جعلتِ الحيوانَ أكثرَ سرعة. استدعى الصيّادُ مساعديه بواسطة الراديو، فوجدُوا النّمرةَ على بعد مئتي ياردةٍ تقريباً من النّهر، ولا تزالُ واعيةً.

انهارتْ رجلاها الخلفيّتان، وقد وَهُنَ توازنُها على رجليها الأماميّتين، حاولتِ الهروبَ حالما اقتربَ الرجال منها، لكنّها لم تنجحْ بذلك، ثمّ التفّتْ نحوهم رافعةً مخالبَها، وهذا يعني القتل، لكنّها فقدت توازنَها وانهارتْ، وأصبح لدى حديقة حيوان بوند تشيري نمران جديدان.

أما الشبلُ فقد وُجدَ قربَ المكان مختبئاً بشجرةٍ ويموءُ خوفاً، التقطه الصيّادُ، واسمه ريتشارد باركر، بيديه العاريتين متذكّراً كيف اندفعَ إلى الماء

ليشربَ، وأطلقَ عليه اسمَ «عطشان»، ولكنّ موظفَ الشّحن في محطّة هورا للقطارات كان رجلاً مجتهداً ومرتبك، كلُّ الأوراق التي تمَّ استلامُها مع الشّبل صرّحتْ وبوضوحٍ أنّ اسمه ريتشارد باركر، وأنّ الاسم الأوّلَ للصّيّاد هو Thirsty، ولا يوجد اسمٌ للعائلة.

أصدرَ والدي ضحكةً مكتومةً حول هذا الخلط. وهكذا التصق اسمُ ريتشارد باركر بالشّبل.

لا أعلمُ إذا كان ثيرستي قد أُعطي إلى نمرٍ يأكلُ البشرَ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع والأربعون

لم أقوَ على الحركةِ، ففي الصباح كنْتُ مثبّتاً بضعفي على المشمّع، حتى التفكيرُ كان بالنسبة لي مرهقاً. سلّمت نفسي للتّفكير فوراً، وفي النّهاية وببطءِ قافلة جمالٍ تعبرُ الصّحراءَ جاءتْني الأفكارُ مجتمعةً.

يومي هذا يشبه ما قبله، يومٌ دافئٌ وغائمٌ، الغيومُ منخفضةٌ، والنّسيمُ لطيفٌ.

تلك كانت واحدةً من الأفكار، أخذ القارب يهتزُّ بلطف، وتلك كانت الفكرةَ الثّانيةَ، فكّرْتُ في غذائي، فلأول مرّة، منذ ثلاثةِ أيّامٍ، لم أشربْ قطرةَ ماءٍ أو أتناول لقمةً واحدةً أو أحصلَ على دقيقة نومٍ. وقد منحني هذا التفسيرُ الواضحُ لضعفي القليلَ من القوة.

لا يزال ريتشادر باركر على القارب، بل يقبعُ تحتي تماماً، ومن غير المعقول أنّ مثلَ هذا الشيءِ يحتاجُ إلى إذني ليكون حقيقياً، ولكنّه وبعد تفكيرٍ طويلٍ وبتقييمِ العواملِ العقليّةِ المتنوّعةِ ووجهاتِ النّظر، استنتجْتُ أنّ ذلك لم يكنْ حُلماً أو وهماً أو خيالاً أو شيئاً مزيفاً، بل حقيقةً ثابتةً شهدتُها عندما كنت في حالة ضعفٍ وقلقٍ شديدين، حقيقةُ هذا الأمر سأُثبتُها عندما أشعرُ أنّني بحالةٍ جيّدةٍ كافيةٍ للتّحقّق منه.

كيف فشلْتُ في الانتباه، ولمدّة يومين ونصف اليوم، لنمرٍ برتغالي يزن أربعمئة وخمسين باوناً على قارب نجاةٍ، طولُه ستة وعشرون قدماً؟!

إنّه لغزٌ عليّ تحطيمه لاحقاً، عندما يكون لديّ القدرة الكافية.

هذا العملُ الفذّ جعلَ من ريتشارد باركر، بالتّأكيد، أكبرَ مسافرٍ خلسةً في تاريخ السّفر بالبحر.

من أنفه إلى ذيله احتلَّ أكثر من ثلثِ طول القارب الذي هو عليه، وربما تعتقدُ أنّني فقدتُ كلَّ الأمل عند تلك النّقطة، نعم لقد فقدْتُ الأملَ، ولكن بالنّتيجة مددْتُ عنقي، وشعرتُ أنّني أفضلُ بكثير.

نرى ذلك في الرياضة دائماً، أليس كذلك؟ إذ يبدأُ لاعبُ التّنسِ قويّاً، ولكن سرعانَ ما يفقدُ الثّقة في لعبه، يفوزُ المتحدّي باللّعبة، ولكن في الجولة الأخيرة، وعندما لا يبقى له شيءٌ يخسرُه يسترخي ثانيةً، ويصبحُ غيرَ مكترثٍ وجريءٍ، وفجأةً يلعبُ مثلَ الشّيطان، وعلى البطل أن يبذلَ جهدَه للفوز بالنقاط النّهائيّة، وهذا ما حصل معي، حيث بدا لي أنّ التلاؤمَ مع الضّبع بعيدُ الاحتمال، فمن الواضح أنّ ريتشارد باركر متفوّقٌ عليّ، وهذا شيءٌ لا يستحقُّ أن أقلقَ بشأنه، فوجودُ نمرٍ على القارب يعني أنّ حياتي قد انتهتْ، هذا الأمرُ قد حُسِمَ، فلماذا لا أفكّرُ بحنجرتي العطشى؟

أعتقدُ أنّ هذا ما أنقذ حياتي ذلك الصّباح، فقد كنتُ أموتُ عطشاً، الكلمة نفسُها مالحةٌ، وكلّما فكّرتُ فيها أكثر كانت النّتيجةُ أسوأَ، سمعتُ أنّ الجوعَ للهواء يفوقُ الإحساسَ القهريَّ لطلب الماءِ لعدّةِ دقائقَ فقط.

بعد بضعِ دقائقَ تموتُ وتذهبُ معه مشقّةُ الاختناق، بينما العطشُ مسالةٌ طويلةٌ.

انظر: ماتَ السيد المسيحُ على الصّليب مُختنقاً، ولكنّ العطشَ كان شكواه الوحيدة، وإذا كان العطشُ مرهقاً جداً لدرجةِ أنّ اللهَ جسّدَه بالشكوى، فتخيّلْ تأثيرَه في الإنسان العاديّ، كان هذا كافياً ليصيبَني بالجنون.

لم أعرفْ مطلقاً جحيماً جسدياً مثلَ هذا الطّعم العفِن، والإحساسَ بطعم المعجون في الفم، ذلك الضّغط الذي لا يُطاقُ خلف الحنجرة، الشعورُ بأنّ دمي تحوّلَ إلى سائلٍ كثيفٍ لم يكدْ يجري.

إنّ النمرَ لا شيءَ مقارنةً بحالتي.

أبعدْتُ كلّ التّفكير بريتشارد باركر، وذهبتُ دون خوفٍ للبحث عن ماءٍ عذب.

غاصتِ السّنّارة في فكري عميقاً، وتفجّرَ نبعُ ماء عندما تذكّرْتُ أنّني على ظهرِ مركبِ نجاةٍ حقيقيّ، وأنا مثلُ هذا المركب، لا بدَّ أن يكونَ مزوداً بالمؤونة.

كان ذلك افتراضاً معقولاً، وهل يفشلُ القبطان في القيام بهذه الأساسيّات لينقذَ طاقمَه؟ من هو بقّالُ السفينة الذي لا يفكّرُ بكسبِ المزيد من الماء بذرائعَ نبيلةٍ لإنقاذ الحياة؟ تمّتْ تسويةُ الأمر، يوجد ماءٌ على القارب، وكلُّ ما عليّ فعله هو إيجادُه، فيجبُ عليّ التحرك.

زحفتُ بصعوبةٍ إلى حافةِ المشمّع، شعرْتُ وكأنّني أزحفُ على حافةِ بركانٍ، وأنّني أوشك أن أنظرَ من فوق الحافة إلى المرجلِ الفوّار للآفا البرتقاليّة.

مددْتُ نفسي، ورفعْتُ رأسي بحذرٍ، لم أنظرْ إلى أيّ شيءٍ إلّا ما يلزمُ النّظرَ إليه، لم أرَ ريتشارد باركر، كان الضّبع مرئيّاً تماماً رغم أنّه مكثَ خلف ما تبقّى من حمار الوحش، وهو ينظر إليّ.

لم أعدْ أخشاه، رغم أنّه على بعد أقلّ من عشرة أقدامٍ، ولم يعدْ قلبي يخفقُ بشدّة. يبدو أنّ وجودَ ريتشارد باركر نافعٌ، وعند وجود نمرٍ يصبحُ الخوفُ من هذا الكلب التّافه كالخوف من الشظايا عند سقوط الأشجار. غضبتُ جداً من ذلك الحيوان، أيّها المخلوقُ الغبيُّ القبيحُ.

قلتُ في نفسي: إنّ السببَ الوحيدَ لعدم وقوفي ورميه من القاربِ بعصا، هو فقداني للقوّة وعدمُ وجودِ عصا أصلاً، وليس فقداني للشجاعة.

هل أحسَّ الضّبع بشيء من الغموض لديّ؟ هل قال لنفسه ألفا المتفوق يراقبُني، ويُستحْسَنُ ألّا أتحرّك؟ لا أعرف... على أيّة حالٍ فهو لم يتحركْ. إنّ الطريقةَ التي أحنى بها رأسَه أظهرَتْهُ وكأنّه يختبئ منّي، ولكن لا فائدةَ من الاختباء، فسوف يحصلُ على الحلويات قريباً.

كذلك أوضحَ ريتشارد باركر سلوكَ الحيوان الغريب، فقد أصبحَ واضحاً الآن لمَ حبس الضّبعُ نفسَهُ على نحوٍ لا معقولٍ في مساحةٍ صغيرةٍ خلفَ الحمار الوحشيّ، ولِمَ انتظرَ طويلاً قبل أن يقتلَه.

كان خوفُه من الوحش الأكبر، والخوفُ من لَمْس طعامِه، السلام المتوتّرُ والمؤقّتُ بين أورنج جوس والضّبع، وإرجاءُ التّنفيذِ بالنسبة إلي، كانت كلُّها بلا شكّ تعودُ إلى السّبب.

في الحقيقة كنّا كلُّنا أمام هذا المدمّر المتفوّق مُجردَ فريسةٍ، والأساليبُ العاديّةُ للافتراسِ كلّها كاذبةٌ. يبدو أنّ وجودَ النّمر قد أنقذني من الضّبع، ومثالُ ذلك في الكتب كالقفز من المقلاة إلى النار. ولكنّ الوحشَ الضّخمَ لم يكن يتصرفُ كوحشٍ ضخمٍ، إلى أن صارَ الضّبعُ فيها يتصرّفُ بحريّةٍ.

وما كان خمولُ ريتشارد باركر لثلاثةِ أيّامٍ طوالٍ، إلا لواحدٍ من سببين، التخدير أو دوار البحر.

كان والدي يخدّرُ بعضَ الحيوانات بشكلٍ منتَظمٍ ليخففَ من توتّرها.

هل يمكنُ أن يكونَ قد خدّرَ ريتشارد قبل غرقِ السّفينة مباشرةً؟ وهل صدمةُ السفينةِ والضجيجُ والسقوطُ في البحر والصراخُ الهائلُ للسّباحة نحو قارب النّجاة، قد زادت من تأثير المُخدّر؟ هل استولى عليه دُوارُ البحر بعد ذلك؟ هذا التّفسيرُ المحتمل والأقوى الذي استطعْتُ التوصّلَ إليه.

فقدْتُ الاهتمامَ بالسّؤال، فما كان يهمُّني هو الماءُ فقط، أخذتُه من مخزونِ قارب النّجاة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخمسون

كان عمقُه ثلاثةَ أقدامٍ ونصف، وبعرض ثمانية أقدامٍ، وطولِ ستّةٍ وعشرين قدماً بالضبط.

عرفْتُ ذلك ممّا كُتِبَ بحروفٍ سوداءَ على أحد المقاعد الجانبيّة، وكُتبَ أيضاً أنّ قاربَ النّجاة صُمّمَ ليستوعبَ اثنين وثلاثين شخصاً كحدّ أعلى. ألن يكون ذلك ممتعاً لو شاركْتُه مع ذلك العدد، وكنّا، بدلاً من ذلك، ثلاثةً وثلاثين؟ وكان المركب مزدحماً على هذا النّحو المُرعب.

تمّ تشكيلُ القاربِ على نحوٍ متماثلٍ، نهايتان دائريتان من الصّعب التّفريقُ بين المُقدّمة والمؤخرة، يُشارُ إلى المُؤخرة بدفّةٍ صغيرةٍ مثبّتةٍ عليه، ليستْ أكثرَ من امتدادٍ للحافة الحادّة للقارب.

بينما المقدّمةُ، عدا إضافاتي، تشبهُ المؤخّرةَ مع أكثرِ المقدّماتِ خشونةً وكآبةً في تاريخ بناءِ السّفن، وقد رُصّعَ هيكلُ الألمنيوم بالمسامير وصبغ باللّون الأبيض، هذا من الخارج، أما من الدّاخل فلم يكنْ بالرّحابة التي تتوقّعُها، وذلك بسبب المقاعد الجانبيّة، وخزّاناتِ الطّفو. إذ تمتدُّ المقاعدُ الجانبيّة على طول القارب، وتنحني عند المقدّمة والمؤخّرة مشكلةً مع المقاعدِ الأماميّة والخلفيّة ما يشبهُ المثلّث.

كانت المقاعدُ هي السّطحُ العلويّ لخزاناتِ الطّفو المغلقة، والمقاعد الجانبيّة بعرض قدمٍ ونصف، والمقاعدُ في النّهايتين بعمق ثلاثةِ أقدام،

وبذلك تكونُ المساحةُ المفتوحةُ لقارب النّجاة عشرين قدماً طولاً، وخمسة أقدام عرضاً.

وذلك شكل مساحةَ مئةِ قدمٍ مربّعٍ من أجل ريتشارد. يعترضُ هذه المساحةَ ثلاثةُ مقاعدَ من ضمنها المقعدُ الذي حطّمه الحمارُ الوحشيّ. مقاعد بعرض قدمين، ومقسّمةٌ بالتّساوي، وعلى ارتفاع قدمين من سطح القارب.

لو أرادَ ريتشارد اللّعب سابقاً، لضربَ رأسه بسطحها إذا كان تحتها. وكان لديه تحت المشمّع مساحةٌ أخرى بمقدار اثني عشر إنشاً، وهي المسافةُ بين شفير ظهرِ المركبِ التي تثبّتُ المشمّعَ والمقاعدَ، لذا فمساحةُ ثلاثةِ أقدامٍ ستكونُ كافيةً له لكي يقفَ عليها.

أمّا الأرضيّة المكوّنة من الخشب المعالَج مستويةٌ وتتعامدُ معها الجوانبُ العاموديّةُ لخزّانات الطّفو.

إذن، للقارب نهايتان دائريتان وجوانبُ مستديرةٌ، ولكن من الداخل مستطيل الشكل.

يبدو أنّ اللّون البرتقاليّ، هذا اللّونُ الهنديُّ الجميلُ، هو لونُ النّجاة.

القِ نظرةً على القارب، تجد أنّ اللّون البرتقاليَّ لونُ كلّ ما على القارب من المشمّع وستراتِ النّجاة وأطواقِ النّجاة والمجاديف، وكلُّ شيء مهم على القارب، حتى الصافراتُ البلاستيكيّةُ دون حمّالةٍ كانت برتقاليةً.

فقط كلمةُ تسيم تسوم وباناما منقوشتان على جانبَي المقعد بحروف رومانيّةٍ سوداءَ بالكامل.

مشمّعُ القارب مصنوعٌ من قماشٍ مُعالجٍ قاسٍ وخشنٍ على الجلد، ممدودٌ بعد المقاعد الوسطى تماماً، وأحدُ المقاعد الوسطى مخفيٌّ تحت قماش المشمّع في وكر ريتشارد باركر، المقعد في الوسط خلفَ حافةِ المشمّع تماماً، وفي المكان المفتوح كان المقعدُ الثّالثُ مكسورٌ تحت حمار الوحش الميّت، هناك ستّةُ مجاديف وقواعد لتثبيت المِجداف موجودة على الحافة على شكل حرف "u"، خمسةُ مجاديف، فقد فقدت واحداً منها وأنا أحاول دفع ريتشارد باركر بعيداً، ثلاثة مجاديف ملقاة على مقعد جانبيّ واحد، ومجداف ملقى على مقعد آخر؟ ومجداف آخر كان وسيلتي للنجاة.

أشكُّ في فائدة هذه المجاديف كوسيلة للدفع. لم يكن قارب النّجاة هذا قارب سباق، إنّه قارب معدنيّ ثقيل مُصمَّم للطفو الخفيف وليس للملاحة، أعتقد أنه لو كنّا اثنين وثلاثين شخصاً نجدّف معاً، لتمكنّا من شقّ طريقنا.

لم أدرك هذه التفاصيل والكثير غيرها على الفور، فقد وردت إلى ذهني تباعاً، وبحسب الضرورة، عندما كنت أمرُّ بأكثر الأمور ضراوة، وأواجه مستقبلاً كئيباً.

لن يكون الشيء الصغير الذي كان عليه من قبل بل الشيء الأكثر أهمية في العالم، الشيء الذي من شأنه أن ينقذ حياتي. حدث ذلك مرة وأكثر.

ما مدى صحة ما يقال إنّ الحاجة هي أم الاختراع إلى أيّ حدّ هي صحيحة؟

الفصل الواحد والخمسون

عندما دقّقْتُ النظّرَ بالقارب أوَّلَ مرة، لم أرَ التفصيلاتِ الّتي أردتُها. فسطحُ مقاعد الجيب ومقاعد الخلف متصلةٌ وغيرُ مكسورة، وكذلك مقاعدُ خزّاناتِ الطّفو. امتدتِ الأرضيّةُ مسطحةً على بدن القارب، لا يوجد مخابئُ أسفلها، ذلك مؤكّدٌ، إذ لم يوجدْ أيُّ قفل أو صندوق أو أيّ نوعٍ من الحلويّاتِ بأيّ مكان، فقط سطحٌ برتقاليٌّ أملسُ غيرُ منقطعٍ.

تذبذبَ تقييمي لقباطنة السّفن وبائعي الشّموع، اهتزتْ آمالي بالنّجاة، واستمرّ عطشي للماء.

ماذا لو كانتِ المؤنُ في المقدّمةِ تحت المشمّع؟ استدرْتُ وزحفْتُ للوراء، شعرْتُ وكأنّني سحليّةٌ قبيحةٌ، اندفعْتُ على المشمّع، كان منبسطاً ومشدوداً، لو استطعْتُ طيَّه لصنعْتُ لنفسي مدخلاً نحو المُؤنِ التي يمكنُ أن تكونَ مخبّأةً أسفلَه، ولكن ذلك يعني إيجادَ فتحةٍ فوق حظيرة ريتشارد باركر.

لا مجالَ لأيّ تساؤُلٍ، فقد دفعَني العطشُ، دفعْتُ المجدافَ بهدوءٍ تحت المشمّع، ووضعْتُ طوقَ النّجاة حول خصري، ثمّ وضعْتُ المجدافَ على المقدّمة، وانحنيْتُ فوق شفيرِ ظهرِ المركب، دفعْتُ بإبهامي من تحت المشمّع واحداً من الخطّافات، وأزحْتُ الحبلَ الذي يربط المشمّع. كانت لحظاتٍ صعبةً.

بعد الخطّاف الأوّل أصبحَ الأمرُ أسهلَ مع الخطّاف الثاني والثالث، قمت بنفسِ العملِ من جهةِ الخلف، فأصبحَ المشمّعُ رخواً تحت مرفقي،

تمدّدْتُ عليه وقدماي باتّجاه مؤخّرة القارب، لففْتُه قليلاً فحصلْتُ على مكافأتي في الحال، كما أنّ المقدّمةَ تشبهُ المؤخرةَ تماماً، فيها مقعدٌ بنهايتها وفوقه، وعلى بعد بضعة إنشات شاهدْتُ مزلاجاً يلمعُ كالماس، ظهر إطارٌ لغطاءٍ فأخذَ قلبي يخفقُ، طويتُ المشمّعَ أكثر، واختلسْتُ النّظرَ، رأيتُ غطاءً مثلثاً محاطاً بشكلٍ دائريّ، وبعرض ثلاثةِ أقدامٍ وعمق قدمين.

في تلك اللّحظة شاهدْتُ كتلةً برتقاليّةَ اللّون، سحبتُ رأسي للخلف ولكنّ اللّونَ البرتقاليّ لم يتحركْ، ولم ينظرْ إليّ، نظرتُ ثانيةً، لم يكن نمراً بل كان سترةَ نجاة، هناك العديدُ من سترات النّجاة خلف حظيرة ريتشارد باركر.

سرَتْ رعشةٌ في جسدي، إذ رأيتُه من بين سترات النّجاة، وكأنّه خلالَ بعض أوراق الشجر. كانت رؤيتي الأولى البائنة والجليّة لريتشارد باركر، وقد تمكّنْتُ من رؤيةِ وركيه وجزءاً من ظهره، أغبرُ ومخطّطٌ وضخمٌ، مواجهٌ للمؤخرة، وممدّدٌ على معدته في سكونٍ تامّ، عدا حركاتٍ جانبيّةٍ تدل على أنّه يتنفّسُ.

أخذْتُ أرمشُ بعينيَّ غيرَ مصدّقٍ، كم هو قريب مني!! ممدّدٌ على بعد قدمين مني تماماً، لدرجة أنّه كان بإمكاني أن أقرصَه على مؤخّرته، فلم يكن بيننا شيءٌ إلّا مشمّع رقيق يمكن اجتيازه بسهولة.

ليحفظني الله.

حملَ تنفّسي أرقَّ وأعمقَ ابتهالاتي، استلقيْتُ بلا حراكٍ، فعليّ أن أحصلَ على الماء، لذا أنزلْتُ يدي وبهدوء، فككت الرّباطَ، أنزلتُ الغطاءَ وفتحتُها، فظهر لي صندوقٌ.

لقد ذكرْتُ لتوّي فكرةَ التفاصيلِ التي ستكون منجاةً لحياتي، هذه إحداها: كان الغطاءُ معلقاً بمفصلٍ على بعد إنشٍ تقريباً من حافة المقعد الأمامي، وهذا يعني أنّه إذا فتحَ الغطاء، فإنّه سيشكّلُ حاجزاً يغلق الاثني عشر إنشاً من المساحةِ المفتوحة بين المشمّع والمقعد، التي من خلالها يستطيع ريتشارد باركر الوصولَ إليّ بعد أن يدفعَ جانباً سترات النّجاة. فتحتُ الغطاءَ حتى سقطْتُ على المجداف المستعرضِ وحافة المشمّع، ثمّ انتقلْتُ إلى الحاجز مواجهاً القاربَ، إحدى قدميّ على الصندوق والأخرى على الغطاء.

إذا كان ريتشارد باركر سيهاجمُني من الأسفل، فإنّ عليه دفع الغطاء. فدفعُ الغطاءِ حركةٌ إمّا تحذّرُني أو تساعدُني للسّقوط في الماء مع طوق النّجاة، وإن جاء من جهةٍ أخرى متسلّقاً أعلى المشمّع من الخلف، سأكون في أفضل وضعٍ لمشاهدته مبكراً، وثانيةً سأقفز إلى الماء.

نظرْتُ من القارب، فلم أستطعْ رؤيةَ أيّ أسماك قرشٍ، نظرتُ من بين رجليّ، اعتقدت أنّه سيُغمى عليّ من الفرح، فقد أومضَ الصندوقُ المفتوحُ بلمعان أشياء جديدة. أووه، فرحةُ صناعةِ الأشياءِ الجيّدةِ، أدواتٌ من صنع الإنسان، شيءٌ بديعٌ!

تلك اللّحظة من وحي المادّة، جلبَتْ لي المزيدَ من السّعادة، خليطٌ من الأملِ والمفاجأةِ والكُفر والتّشويق والامتنان، تحولَتْ إلى شيء لا يساويه في حياتي أيَّ كريسماس أو عيد ميلادٍ أو زواجٍ أو احتفال ديوالي أو أيّ مناسباتٍ تُقدّمُ بها الهدايا.

أُصِبْتُ بالدوار من السعادة.

وقعَتْ عيناي مباشرةً على ما كنت أبحثُ عنه، إذ كان في زجاجةٍ أو علبةٍ معدنيّةٍ أو كرتونيّةٍ، إنّه الماءُ بالتّأكيد، إنّ خمرَ الحياة قد حُفظَ على هذا القارب في عُلَبٍ معدنيّةٍ بلونٍ ذهبيّ باهتٍ تُناسب اليد.

ماءُ للشّرب، هذا ما كُتبَ على رقعةٍ قديمةٍ بأحرفَ سوداءَ، «ه. ب» للأغذية المحدودة. هم الخمّارون وكانت تحتوي على ٥٠٠ ملمتر.

هناك كومٌ من هذه العلب لا يمكن عدّها بمجرد النّظر إليها، تناولْتُ واحدةً بيدٍ مرتجفةٍ، إنّها ذاتُ ملمسٍ باردٍ وثقيلةٌ، هززْتُها فبدأتْ فقاعاتُ الهواء بداخلها تصدرُ صوتاً باهتاً. كنتُ أوشك أنْ أتخلّص من عطشي الجُهنّمي. تسرّعَ نبضي لهذه الفكرة، الشّيءُ الوحيدُ الذي كان عليّ القيام به هو فتحُ العلبة.

توقّفْتُ، كيف لي أن أفعل هذا؟ لدي مفتاحُ علبٍ؟ بالتأكيد لدي.

نظرتُ داخل الصندوق، هناك العديدُ من الأشياء، فتّشْتُ بداخله، بدأت أفقد صبري، فالآمال المؤلمةُ بدأت تُؤتي ثمارها، يجب أن أشربَ الآن أو سأموتُ، ولكنّني لم أجدِ الأداةَ المطلوبة، لا وقتَ لحزنٍ عديم الفائدة، إنّني بحاجةٍ للعمل.

الآن هل يمكن أن أفتحَها بأظافري؟ حاولْتُ ولم أستطعْ، بأسناني؟ لم تنفعِ التّجربةُ، نظرْتُ نحو شفيرِ المركب، خطّافاتُ المشمّع قصيرةٌ حادّةٌ وقويّةٌ.

ركعْتُ على المقعد وانحنيْتُ فوقها، حملْتُ العلبةَ بكلتا يديّ، ودفعتُها لأعلى بقوّةٍ على الخطّاف، بعجةٌ جيدةٌ، فعلت ذلك ثانيةً، بعجةٌ ثانيةٌ بجانب الأولى، ولكنّها مجردُ بعجة.

قمتُ بنفس الخُدعة، ظهرَ تلألُؤ الماء، لعقْتُه، أدرتُ العلبةَ إلى الجهة المعاكسة وضربْتُها بالخطّاف، فأحدثَ فيها ثُقباً، وتصرفْتُ كالشيطان، أحدثتُ ثقباً أكبر، جلستُ على الحافة ورفعتُ العلبة نحو وجهي، فتحت فمي وأمَلْتُ العلبةَ.

يمكن أن تتخيّلَ مشاعري الآن، ولكن من الصعوبة أن تصفَها. انسابَ الماءُ نقيّاً ولذيذاً جميلاً وبلوريّاً من قرقرة حَنجرتي الجشعة إلى جسمي. إنّه سائلُ الحياة، ارتشفْتُ تلك الكأسَ الذهبية حتى آخر قطرة، وصرت أمصُّ الثّقبَ لالتقاط أيّ بقايا من الماء. آه، آه. ورميْتُ العلبة من فوق القارب ثمّ تناولت أخرى، فتحتها بنفس الطريقة فاختفت محتوياتها بشكلٍ سريع. رميْتُ العلبةَ إلى الماء وفتحْتُ أخرى، وانتهتْ بسرعة أيضاً في المحيط.

شربْتُ أربعَ علبٍ، ليترين من ذلك الرحيق الرائع قبل أن أتوقّفَ. ربما تعتقد أن شربي للماء بتلك السّرعة، وبعد فترة عطشٍ طويلة، يمكن أن يؤذيَ جسمي، هراء، فلمْ أشعرْ بحياتي كلّها أنّني أفضل ممّا أنا عليه الآن. تحسّستُ أساريري، وجدْتُ جبهتي مبلّلةً بعرقٍ منعشٍ نظيفٍ وعذب. كلُّ ما بي، حتى مساماتُ جلدي، يعبّرُ عن الفرح.

انتابَني شعورٌ بالتّحسن فوراً، أصبحَ فمي رطباً وناعماً، نسيْتُ ألمي خلف حنجرتي، استرخى جلدي، وأخذَ فكّاي يتحركان بسهولة كبيرة، خفق قلبي بشدّةٍ مثلَ قرع طبولِ الفرح، وبدأَ الدّمُ يجري في عروقي كسيّاراتٍ خارجةٍ من حفلة عرس، تشقُّ طريقها عبر المدينة، عادتِ القوّةُ واللّيونةُ إلى عضلاتي، وصفا رأسي، بالمختصر: عدتُ للحياة من الموت.

إنّه مجدٌ متألّقٌ، سأقول إنّه من العار أن تثملَ من الخمر، وليس من النُّبل والوجد أن تثملَ من الماء.

نعمْتُ بالسعادة لعدّة دقائق، وشعرْتُ بفراغ ما، تحسّست بطني، وجدتُهُ جوفاً قاسياً وفارغاً، سيكونُ الطّعامُ شيئاً جميلاً. الآن ماسالا دوسا بصلصة جوز الهند، مممم ممم، وسيكون أفضل وجبة أوتابام، مممم، أووووه.

رفعتُ يدي إلى فمي، أدلي، مجرّد التفكير بهذه الكلمة أثار نوبةَ ألمٍ خلف فكّي، وسيلان من اللعاب في فمي، وأخذتْ يدي اليمنى ترتعشُ.

وصلتُ ولمستُ تقريباً كراتِ الأرزّ المسلوق في مخيلتي، وغرستُ أصابعها في اللّحم الحارّ، صنعْتُ كرةً مغمّسةً بالصّلصة، وجلبتُها إلى فمي، مضغتُها واااو، مؤلمة بشكل بديع.

بحثْتُ داخل الصّندوق عن الطّعام، وجدتُ صناديقَ من طعامِ الطّوارئ المعياريّ للمحيطات السّبعةِ قادماً من بعيد، طعامٌ غريبٌ من بيرغن في النّروج، طعامُ الفطور سيعوضُ تسعَ وجباتٍ فائتة، إنّها وجباتٌ غريبةٌ، أحضرتْها أمي، عبارةٌ عن كتلةٍ تزنُ نصفَ كيلو، سميكةٌ صلبةٌ وخاليةٌ من الهواء، مغلفةٌ بغلافٍ بلاستيكيّ فضيّ اللّون، تندرجُ عليه تعليماتٌ باثنتي عشرةَ لغةٍ، تقول «بالإنكليزية» بأنّ هذا الطعامَ يتكوّنُ من ثماني عشرةَ بسكوتة، مصنوعة من القمح المشويّ المعزّز بالدّسم الحيوانيّ والغلوكلوز. وإنّه يجب عدمُ تناول أكثرَ من ستّ قطعٍ خلال أربع وعشرين ساعةً. إنّني أشفقُ على الدّسم، ولكنّ الجزءَ النباتيّ منّي لديه استثنائية، سيغلقُ أنفهُ ويتحمّلها. بأعلى الرّزمة هناك الكلماتُ التالية: اقطعْ هنا لفتحِ الرّزمة، وسهمٌ أسودُ يشير إلى حافة البلاستيك.

انفتحَ الغلافُ تحت أصابعي، خرجتْ منه تسعةَ ألواحٍ مستطيلةٍ مغلّفةٍ بورقٍ شمعيّ، نزعتُ غلافَ إحداها، كُسر طبعاً إلى قسمين، إلى قطعتي بسكويتٍ مربّعتي الشّكل تقريباً، باهتةِ اللّون وطيّبةِ الرّائحة، أكلتُ واحدةً، يا إلهي لم أشكَّ أبداً، كان سرّاً تمّ إخفاؤه عنيّ، ومن المعروف أنّ المطبخَ النرويجيّ هو الأفضلُ في العالم، وهذا البسكويت مثالٌ فهو جيد بشكل مذهلٍ، له مذاقٍ مالح ولذيذ، ليس حلواً جداً ولا مالحاً جداً، تتحطّمُ تحت الأسنان بصوتٍ قرقشةٍ ممتع، وعندما تمتزجُ باللّعاب، فإنّها تشكّل خليطاً حبيبيّاً ساحراً للّسان والفم، وعندما بلعْتُ قالت معدتي شيئاً واحداً فقط: هللويا!

اختفتِ العلبةُ كلُّها خلالَ بضع دقائق، وتطايرَتْ أوراقُ البسكويت في الهواء. قرّرْتُ فتح علبة ثانية، ولكنّني فكّرْتُ بشيءٍ آخر أفضل من ذلك، إذ لا ضررَ من مُمارسةِ القليل من ضبط النّفس، فمعَ وجودِ نصفِ كيلو من طعامِ الطّوارئ في معدتي شعرتُ بثقلٍ كبير.

وعليّ الآن أن أكتشفَ ما الذي يوجدُ داخل صندوق الكنز أمامي، كان صندوقاً كبيراً، أكبرَ من فتحته، اتسعتِ المساحةُ من الأسفل نحو جسم القارب، وارتسمتْ طرقٌ جديدةٌ نحو المقاعد الجانبيّة، أنزلتُ قدميّ نحو الصندوق وجلستُ على حافته وظهري مواجهٌ المؤخرةَ، ثمّ أحصيْتُ صناديقَ المُحيطات السّبع، أكلتُ واحداً منها، وتبقّى واحدٌ وثلاثون صندوقاً.

واستناداً للتّعليمات، فإنّ كلَّ علبة بوزن خمسمئةِ غرام يُفترضُ أن تكفيَ ناجياً واحداً لمدّة ثلاثة أيام، وهذا يعني أنّ لديّ مؤونةً تكفي ثلاثة وتسعين يوماً.

تقترحُ التّعليمات على النّاجين أن يحدّدوا نصفَ ليترٍ ماءً كلَّ أربع وعشرين ساعةً، أحصيتُ علبَ الماء، فوجدْتُ مئةً وأربعاً وعشرين علبةً. لم تجلب لي أيُّ عمليةٍ حسابيّة بسيطة سابقاً مثل هذه الابتسامة الرائعة، ماذا لديّ الآن؟ أدخلتُ يديّ بلهفة إلى الصندوق، وأخذتُ أسحبُ الأشياء الرّائعة، واحداً تلو الآخر، كلُّ واحد فيها، مهما كان نوعه، يبعث بي

الهدوءَ، كنتُ بأمسّ الحاجةِ للرّفقة والرّاحة لدرجة أنّ الانتباهَ جعلَ كلّ قطعةٍ من هذه البضائعِ تُلفِتُ انتباهي وحدها.

تمْتمْتُ مُردّداً: شكراً، شكراً، شكراً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني والخمسون

بعد تحقيق دقيقتين كتبتُ قائمةً كاملةً:

- مئةٌ واثنتان وتسعون حبّةَ دواءٍ مضادّة لدوار البحر.

مئةٌ وأربعٌ وعشرون علبةً معدنيّةً من الماء العذب، وكلُّ واحدة تحتوي على خمسمئة ميليمترٍ ومجموعُها اثنان وستون ليتراً.

- اثنان وثلاثون كيساً بلاستيكياً للإقياء.

- ستّ عشرةَ بطانيّةً من الصوف.

- اثنتا عشرةَ قطّارةَ ماءٍ شمسيّة.

- عشرٌ أو نحوها من سُتَرِ النّجاة البرتقاليّة، مع كلّ سترةٍ صافرةٌ برتقاليّةٌ دون حامل مربوطةٌ إلى السترة بخيط.

- ستُّ حقنٍ أومبولات مورفين.

- ستُّ شعلاتٍ ضوئيّة يدويّة.

- خمسةُ مجاديفَ قابلةٍ للطّفو.

- أربعُ مظلّاتِ إشارةٍ صاروخيّة.

- ثلاثةُ أكياسٍ بلاستيكية شفّافة وقاسية، سعةُ كلّ واحدةٍ منها خمسون لتراً.

- ثلاثُ فتّاحاتِ علبٍ.
- ثلاثةُ أكوابٍ زجاجيّةٍ مدرجَةٍ للشّرب.
- علبتا كبريتٍ مضادّ للماء.
- إشارتا دخان قابلٍ للطّفو، برتقاليتا اللّون.
- دلوان بلاستيكيّان برتقاليتا اللّون متوسطتا الحجم.
- كوبان من البلاستيك برتقاليّ اللّون، قابلان للطفو.
- حاويتا بلاستيك متعدّدتا الغرض، بأغطيةٍ محكمةِ الإغلاق.
- إسفنجتان صفراوان مستطيلان.
- حبلان اصطناعيّان قابلين للطوف، طولُ الواحد منه خمسون متراً.
- حبلان اصطناعيّان غيرُ قابلين للطوف، بطولٍ غيرِ محدّدٍ، ولكنه لا يقل عن ثلاثين متراً.
- سنّارتا صيدٍ مع خطّاف وخيطٍ وثقّالةٍ.
- رمحان لطعنِ السّمك بخطّاف معقوفٍ حادّ.
- مِرساتان.
- وعاءان لجمع المطر.
- قلما حبرٍ أسود جافّ.
- شبكةٌ لشحن النايلون.

- طوقُ نجاةٍ صلب، بقطرٍ داخلي ٤٠ سم، وقطرٍ خارجيّ ٨٠ سم، وحبل موصول به.
- سكّينُ صيدٍ كبيرةٌ، بمقبض صلبٍ ورأسٍ مدبّبٍ وشفرةٍ حادّةٍ من جهة، وشفرة مسننة من الجهة الثّانية، موصولةٍ بخيط طويل إلى حلقة في الصندوق.
- مجموعة خياطة مع إبر مستقيمة ومنحنية وخيط أبيض قوي.
- عدّةُ إسعافاتٍ أوليّةٍ في حقيبةٍ بلاستيكيّةٍ مضادّةٍ للماء.
- مرآةُ إشارة.
- رُزمةٌ من السّجائر الصّينيّة المفلترة.
- لوحٌ كبيرٌ من الشكولاتة السوداء.
- كُتيّبُ نجاةٍ.
- دفترُ ملاحظاتٍ من ثمانٍ وتسعين ورقةً مسطّرة.
- صبي يرتدي مجموعة كاملة من الملابسَ الخفيفة، وبفردةِ حذاءٍ مفقودةٍ.
- ضبعٌ مرقّطٌ واحدٌ.
- نمرٌ بنغاليٌّ واحدٌ.
- قاربُ نجاةٍ واحدٌ.
- محيطٌ واحدٌ.
- إلهٌ واحدٌ.

أكلتُ ربعَ لوحِ الشوكولاتة الكبير، وتفحّصتُ واحداً من وعاءَي جمع المطر، كان عبارةً عن أداةٍ تشبهُ مظلّةً مقلوبةً، لها كيسُ تجميعٍ كبيرِ الحجم، وأنبوبٌ مطّاطيٌّ موصولٌ بها.

وضعتُ ذراعيَّ على طوق النّجاة، وخفضْتُ رأسي، واستسلمْتُ لنومٍ عميق.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث والخمسون

نمْتُ طوالَ الصّباح، أيقظَني القلقُ، ذلك الفيضُ من الطّعام والماء والرّاحة التي سرتْ في جسدي الضّعيف، قدّمتْ لي عقدَ إيجارٍ جديدٍ مع الحياة، ومنحتْني القوةَ، فرأيْتُ مدى يأسي، في تلك الظروف، استيقظتُ على حقيقة وجود ريتشارد باركر، هناك نمرٌ في قارب النّجاة، صدّقتُ ذلك بصعوبة، يجبُ أن أصدّقَ، فعليّ أن أُنقذَ نفسي.

فكّرْتُ أن أقفزَ من القارب وأسبحَ بعيداً، ولكنّ جسدي رفضَ أن يتحرّكَ. كنتُ على بعد مئاتِ الأميالِ عن اليابسة، إذا لم يكن ألفَ ميل، لا أستطيعُ أن أسبحَ كلّ تلك المسافة، حتى بمساعدة طوق النّجاة، ماذا سآكلُ؟ ماذا سأشربُ؟ كيف أُبعدُ أسماكَ القرش عنّي؟ كيف سأحافظُ على دفء جسدي؟ وكيف لي أن أعرفَ بأيّ اتّجاه سأذهبُ؟ لم يكن هناك أدنى شكّ حولَ فكرة أنّ مغادرةَ القارب تعني الموت، ولكن ماذا عن البقاء في القارب؟ سيأتي إليّ كقطّةٍ نموذجيّةٍ دون أيّة ضجّة، وقبل أن أعرفَ بقدومه سيضغطُ على رقبتي من الخلف أو على حنجرتي، وسوف تخترقُني أنيابُه، وتُحدث ثقوباً فيها، ولن أتمكّنَ من الكلام، سيفيضُ القاربُ بي دون أن أتمكّن من نطقِ كلمةٍ واحدةٍ، سيقتلُني بضربةٍ من مخالبه الضّخمة، وسيقطعُ رقبتي، سأموت...

انتحبْتُ بشفتين مرتعشتين.

الموتُ القادمُ موتٌ مرعبٌ تماماً والموتُ الأسوأُ هو الذي يأتي بعد وقتٍ مؤجّل.

الوقتُ الذي به كلّ السعادة، السعادةُ التي تكونُ ملكَكَ أو كلّ السعادةِ التي يمكن أن تكونَ ملكَك، يصبح جليّاً لك. تراه وتعلنُ عنه بكلّ وضوح، ستفقدهُ كلَّه، رؤيتُك للأمر ستجلبُ لك الحزنَ الشّديدَ الذي لا يضاهيه سيارةٌ توشك أن تصدمَك أو ماءٌ يمكنُ أن يُغرقك، هذا الشعور حقيقةً لا يُحتمل. كلماتٍ مثل أبي، أمي، رافي، الهند، وبنيبغ صدمتْنني بحزن حارق.

كنتُ سأستسلمُ لو لم أسمعْ صوتاً في قلبي يقول: أنا لن أموتَ، أرفضُ ذلك، سأرفضُ الموتَ في هذا الكابوس، سأهزمُ الاحتمالاتِ مهما كبرتْ، لقد نجوتُ بمعجزةٍ حتى الآن، سأحوّلُ المعجزاتِ إلى روتينٍ، ستتمُّ مُشاهدةُ العجائب. كلَّ يوم سأعالجُ كلَّ الأعمال الصّعبة الضروريّة. نعم ما دام الله معي، فإنّني لن أموت. آمين.

تجهّمَ وجهي، وارتسمَتْ عليه تعابيرُ التّصميم، سأتكلّمُ بكلّ تواضعٍ عندما أقولُ هذا، اكتشفْتُ تلك اللّحظة أنّني أملكُ إرادةً قويّة للحياة، إنّ ذلك، ومن خلالِ خبرتي، ليس شيئاً واضحاً. البعضُ يتوقّفُ عن الحياة بمجرد تنهيدةٍ، في الوقت الذي يقاومُ فيه البعضُ الآخرُ قليلاً، ثمّ يفقدُ الأملَ، ويبقى الآخرون، وأنا من هؤلاء الّذين لا يستسلمون أبداً، إنّنا نقاومُ ونقاومُ ونقاومُ ونقاومُ، نحاربُ مهما كانتْ كُلفةُ المعركة، الفشلُ الذي نجنيه هو عدمُ احتماليّة النّجاح، إنّنا نقاومُ حتى النّهاية، المسألةُ ليستْ مسألةَ شجاعةٍ، إنّها شيءٌ أساسيٌّ في الحياة، وليس بمقدورنا التّنازلُ عنه، يمكنُ أن يكونَ شيئاً ليسَ أكثرَ من حماقةِ الجوع للحياة.

بدأ ريتشارد باركر يهدرُ في تلك اللّحظة، وكأنّه ينتظرُني، لأصبحَ خصماً جديراً به. انقبضَ صدري خوفاً، أسرعْ يا رجلُ، أسرع.

صفّرْتُ وأنا أتنفّسُ، عليّ أن أرتّبَ الأشياءَ لنجاتي، يجبُ ألا أضيّع ثانيةً واحدة، أحتاجُ إلى ملجأ بالحال.

فكّرتُ بالفسحة التي صنعتُها بواسطة المجداف الآن، إنّ المشمّعَ قد فُتحَ عند المقدّمة، وليس هناك شيءٌ لأثبتَ المجدافَ عليه، ليس بيدي أيّ برهانٍ يثبتُ أنّ التعلقَ بنهاية المجداف سيحمني من ريتشارد، قد يصلُ إليّ بسهولةٍ، ويمسكُ بي، يجبُ أن أجدَ شيئاً آخر.

بدأ عقلي يعملُ بسرعةٍ، بنيْتُ طوّافةَ المجاديف القابلة للطّوف التي تتذكرها، ولديّ سترةُ نجاةٍ، وطوقُ نجاةٍ صُلب.

وبتنفّس هادئٍ أغلقْتُ غطاءَ الصندوق لأصلَ إلى ما تحت المشمّع، والحصولِ على مجاديفَ إضافيّة، والتي رأيتها سابقاً على المقاعد الجانبيّة. لاحظ ريتشارد باركر[1] ذلك، تمكّنْتُ من رؤيته عبر سترة النّجاة، إنّه يهتاجُ كلّما تحركتُ، وبحذرٍ شديدٍ سحبْتُ المجدافَ، ولكنّه لم يسْتدِرْ نحوي، سحبْتُ ثلاثةَ مجاديفَ، أمّا الرّابعُ فقد كان ملقىً بعرض المشمّع، رفعْتُ غطاءَ الصندوق، وأغلقتُ الفتحةَ المؤدّيةَ إلى حظيرةِ ريتشارد باركر.

لديّ الآن أربعةُ مجاديفَ قابلةٌ للطّفو، أصبحَ طوقُ النّجاة الآن محاطاً بالمجاديف، وبدا الرّمثُ كلعبةِ «التك تاك تو» مع وجود الـ o في المنتصف، وهي الحركةُ الأولى في اللّعبة، جاء الآن الجزءُ الخطر، كنت بحاجةٍ إلى سترة

---

(١) ريتشارد باركر: نمر شرس أطلق عليه هذا الاسم البطل باي. **[المترجم]**.

نجاة، تحوّلَ هديرُ ريتشارد باركر الآن إلى قرقرةٍ عميقةٍ تهزّ الهواءَ، ردّ الضّبعُ بعواءٍ متذبذبٍ عالٍ، إنّها إشارةٌ حقيقيّةٌ بأنّ المصاعبَ قادمةٌ.

لم يكنْ لديّ خيارٌ، يجبُ أن أفعلَ شيئاً، أنزلتُ الغطاءَ ثانيةً، فأصبحتْ ستراتُ النّجاة بمتناولِ يديّ، بعضُها أمامَ ريتشارد باركر تماماً.

انفجرَ الضّبعُ بالصّراخ، وصلتْ يديّ إلى أقرب سترةِ نجاةٍ، وجدْتُ صعوبةً في الإمساك بها، فقد كانت يدايَ ترتجفُ كثيراً. سحبْتُ السترةَ، يبدو أنّ ريتشارد باركر لم يلاحظْ ذلك، سحبتُ واحدةً أخرى وثالثةً، تنفّسْتُ بصعوبةٍ شديدةٍ، قلتُ في نفسي: إذا لزم الأمرُ، يمكنني أن أرميَ نفسيَ من القارب مع هذه السترات، سحبتُ آخرَ سترةِ نجاة، أصبح عندي أربعُ ستراتِ نجاةٍ.

سحبتُ المجاديفَ واحداً تلوَ الآخر، أدخلْتُها ضمن فتحاتِ ستراتِ النّجاة ثمّ أدخلْتُهم في واحدة، وأخرجْتهم من واحدة أخرى، لذلك أصبحتْ ستراتُ النّجاة مؤمّناً عليها في الزوايا الأربع للطوف.

ربطتُ كلَّ واحدة وأغلقتُ الفتحات، وجدْتُ أحدَ الحبال الطّافية في الصّندوق، وبواسطة السّكين قطعتُ أربعَ قطعٍ منه، ربطْتُ المجاديف الأربعة حيث تلتقي.

آه، ما أحسنَ أن يكونَ لديك معرفةٌ عمليّةٌ بأنواع العُقد، ربطت عشر عقدٍ عندَ كلّ زاوية، ولا زلْتُ قلقاً من أن تفْلتَ المجاديفُ، فكم كنتُ متوتّراً، وكم لعنْتُ غبائي.

هناك نمرٌ على المركب، ومع ذلك انتظرتُ ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليالٍ لأنقذَ حياتي.

قطعتُ أربعةَ أجزاءٍ أخرى من الحبل، وربطْت طوقَ نجاةٍ على كلّ جهة من المُربّع، أدخلْتُ الحبلَ المربوطَ بأطواق النّجاةِ خلالَ السّترات حول المجداف داخل وخارج طوق النّجاة. صار الضّبعُ يصرخُ بأعلى صوته. بقي شيءٌ واحدٌ فقط أقومُ به، يا إلهي امنحني الوقت لذلك، توسّلتُ إليه أخذتُ بقيةَ الحبلِ، فهناك فتحةٌ تخترقُ قمّةَ القارب قرب المقدمة، أدخلْتُ الحبلَ خلالها وعقدتُه، بقي أن أربطَ نهايةَ الحبل إلى الطوف، وهكذا يمكن أن أكونَ بأمانٍ.

صمتَ الضّبعُ، فتوقّفَ قلبي ثمّ أخذ يدقُّ أسرعَ بثلاثِ مرّاتٍ، استدرتُ يا يسوع، يا مريمُ، يا محمدُ، يا فينشو.

رأيْتُ مشهداً سيظلُّ يرافقني طوالَ حياتي المتبقّية، فقد نهضَ ريتشارد باركر حتى بدا كاملاً، بعيدٌ عنّي مسافةٌ أقلّ من خمسة عشر قدماً، يا لحجمه المذهل، جاءتْ نهايةُ الضّبع، وكذلك نهايتي، تجمّدتُ في مكاني وشُلّت حركتي، لقد استعبدتني الحركةُ التي تمّتْ أمام عينيّ، وقد جعلتْني خبرتي المتواضعةُ بالعلاقة مع الحيوانات البريّة الطليقة في المركب أتوقّعُ الكثيرَ من الصّخب والاحتجاج، عندما يحينُ الوقتُ لسفك الدماء.

ولكنّ ذلك حدثَ عمليّاً دون صوت، إذ مات الضّبع دون تشنّجٍ أو أنينٍ، قتله ريتشارد باركر دون صوتٍ، هذا الحيوان اللّاحم ذو اللّونِ المتوهّج اندفعَ من تحت المشمّع، واتّجه نحو الضّبع، وهو مضطجعٌ على المقعد الخلفي خلف جيفة الحمار الوحشي دون حراكٍ، لم يقاومْ، على عكس ذلك، فقد انكمشَ على الأرض رافعاً مخلبَه الأماميّ في الهواء بحركة دفاعٍ لا طائلَ منها.

مجرّدُ النّظر إلى وجهه يسبّبُ الرّعبَ، حطَّ على كتفيه مخلباً ضخماً، وأطبقَ فكّيه على رقبة الضّبع، جحظَتْ عيناه اللامعتان، لقد سمعْتُ صوتَ قضمِ أعضاءٍ، إذ تمّ تحطيمُ القصبةِ الهوائيّةِ والعمودِ الفقريّ للضّبع، ارتجفَ الضّبعُ، بهتتْ عيناه وماتَ، كانَ يلهثُ وقد تدلّى لسانه من فمه، لعقَ أضلاعَه، هزّ رأسه، اشتمَّ الضّبعَ الميّتَ، رفعَ رأسه عالياً وشمَّ الهواء، ثمّ وضعَ مخالبَه الأماميّةَ على المقعد الخلفيّ، ورفعَ نفسَه للأعلى بقدمين متباعدتين.

يبدو أنّه لم يعجبْه تقلّبُ القارب على الرغم من أنّه تقلّبٌ خفيفٌ، نظرَ من وراء جدارِ القارب إلى البحر الواسع، أبرزَ مخلبَه وزمجرَ بخبثٍ، اشتمّ الهواءَ ثانيةً، أدارَ رأسَه ببطء، استدارَ استدارةً كاملةً حتى وقعَ نظرَه عليّ مباشرةً.

كم أتمنّى لو أستطيعُ وصفَ ما حدث بعد ذلك، وليس كما رأيتُه أنا، ولكنّني سأبذلُ جهدي.

الأمورُ كما شعرْتُ بها: رأيتُ ريتشارد باركر من زاويةٍ أظهرتْهُ بتأثيرٍ كبيرٍ من الخلف، كان نصفَ واقفٍ، ورأسُه ملتفٌّ للخلف، طريقةُ وقوفه توحي بشيءٍ من التكلّف، وكأنّها وقفةٌ مقصودةٌ، مؤثّرةٌ كعرضٍ فنّي استثنائي، يا له من فنّ ويا لهذه القوّة. إنّ حضورَه مُسيطرٌ، ورشاقتُه واضحةٌ وميزةٌ من ميزاته، ضخمٌ بشكلٍ لا يُصدّقُ، أفخاذُه مخيفةٌ ووجههُ اللّامعُ معلّقٌ دونَ إحكامٍ على جسده البرتقاليّ المائلِ للبنّيّ الفاتح، والمُخطّط بخطوطٍ سوداءَ طوليّة، إنّ شكلَه جميلٌ لا يُضاهى، عيونٌ كعيونِ الخيّاطِ التي تبحثُ عن التناسق، صدرُه أبيضُ عارٍ وبطنُه كذلك، تكسو ذيلَه الطويلَ دوائر سوداءُ، رأسُه كبيرٌ ومستديرٌ يُظهر شارتين ولحيةً صغيرةً وبعضَ الشعيرات، هذه هي الأجملُ في عالمِ القطط، طويلةٌ وكثيفةٌ وبيضاءُ، بأعلى الرأس أذنان

صغيرتان معبّرتان على شكل أقواسٍ جميلة، يملكُ وجهُه ذو اللّون الجزريّ البرتقالي ناصيةً واسعةً وأنفاً ورديّاً يمنحُه نزعةً للجرأة، لمساتٌ مموّجةٌ من اللّون الأسودِ تطوّقُ الوجهَ بنمطٍ صادمٍ أكثرَ من كونه رقيقاً، إذ قليلاً ما يجذبُ الانتباهَ كما يفعلُ جزءُ الوجه الذي تُركَ دونَ أن يتّصلَ به، وبريقُه المائلُ للحُمرة يصدرُ بهاءَ البقعِ البيضاءِ فوق العينين وعلى الخدين وحول الفم، كانت اللمساتُ النهائيّةُ المشابهةُ لراقصِ الكاثاكالي. النتيجةُ وجهٌ يشبهُ أجنحةَ فراشةٍ، ويحملُ تعبيرَ وجهٍ صينيّ عجوزٍ وغامض.

عندما التقتْ عيناياَ بعينيْ ريتشارد باركر المتحجّرةِ، شعرتُ بنظراته القاسيةِ الباردةِ والصّارمة، لم تكن نظرات طائشة ولا ودودة، بل نظرات ستنفجرُ غضباً. شدّ أذنيه، ثمّ أدارها دورةً كاملةً، أخذتْ إحدى شفتيه ترتفعُ وتنخفضُ، وكشفَ عن أنيابه باستياء، يا إلهي، أنيابٌ مخيفةٌ، طولُ الواحد منها يتجاوزُ طولَ إصبعي الطويل.

انتصبتْ كلُّ شعرةٍ بجسدي، وصرختْ خوفاً، وذلك عندما ظهرَ جرذٌ لم أدرِ من أين برزَ فجأةً على المقعد الجانبيّ، عصبيٌّ ومقطوعُ الأنفاس، نظرَ ريتشارد باركر بدهشةٍ مثلي، قفزَ الجرذُ على المشمّع وهربَ نحوي، وعندما رأيتُ ذلك، ونتيجةً للدّهشة والمفاجأة، تقصّفتْ رجلاي تحتي، ووقعْتُ في الصّندوق، وأمامَ عينيّ المرتابة قفزَ هذا الحيوانُ القارضُ فوق الأجزاء المتعدّدة للطّوف، قفزَ عليّ وتسلّق إلى قمة رأسي، حتى إنّني شعرتُ بمخالبه الصغيرة تتشبّثُ بفروةِ رأسي، وقفَ طلباً للحياة الثمّينة.

تبعَتْ عينا ريتشارد باركر الجرذَ، إنّهما الآن مثبّتتان على رأسي، أكمل دورةَ رأسه مع استدارةٍ بطيئةٍ من جسده، محرّكاً مخالبَه الأماميّةَ جانباً على

طول المقعد الجانبيّ، قفزَ إلى أرض القارب بخفّةٍ مذهلةٍ، استطعتُ رؤيةَ قمّةِ رأسه وظهره وذيله الطّويل المتعرّج، التصقتْ أذناه بجمجمته. وصلَ إلى وسط القارب بقفزاتٍ ثلاث، ثمّ ارتفعَ نصفُه الأماميّ في الهواء دون جهد، واستقرّتْ مخالبُه الأماميّةُ على الحافةِ المطويّةِ للمشمّع.

كان بعيداً، أقلّ من عشرة أقدام، وكلٌّ من رأسه وصدره ومخالبِه كبيرٌ جداً. بدتْ أسنانه مثلَ كتيبةٍ عسكريّة، تهيّأ للقفز على المشمّع، كنت على وشك الموت، ولكنْ أزعجتْهُ النعومةُ الغريبةُ للمشمّع، بالإضافة لحركة القاربِ التي أربكتْهُ، تردّدَ ريتشارد باركر في حركته إلى أن أمسكْتُ بالجرذ ورميْتُه باتجاهه، ما زلْتُ أتذكّرُه سابحاً في الهواء بمخالبه المفتوحة وذيله المستقيم وخصيتيه الصغيرتين المتهدّلتين، فتحَ ريتشارد فمَه واحتضنَ الجرذَ كما تُحتضنُ الكرةُ في قفّاز لاعب البيسبول، واختفى ذيلُه الخالي من الشعر. لقد امتصّهُ النمرُ كما يُمتصُّ عودُ السباغيتي في الفم.

بدا مقتنعاً بالتّقْدمة، جلسَ ثانيةً ثمّ عاد إلى مكانه تحت المشمّع. بدأت ساقاي تعملان مجدداً، قفزتُ للأعلى، ورفعْتُ غطاءَ الصّندوق ثانيةً كي أغلقَ المكانَ المفتوحَ بين المقعد الأماميّ والمشمّع.

سمعْتُ شخيراً عالياً، وصوتَ سحْبِ جثّةٍ، جعلتِ القاربَ يتأرجحُ قليلاً. بدأتُ أسمعُ صوتَ فمٍ يأكلُ، استرقْتُ النّظرَ تحت المشمّع، رأيْتُ في منتصفِ القاربِ النّمرُ يأكلُ قطعاً كبيرةً من الضّبع بنهمٍ.

فكّرْتُ، لن تأتيَ هذه الفرصةُ ثانيةً، وصلتُ إلى ما تبقّى من ستراتِ النّجاة وجمعْتُها، وعددها ستُّ ستراتٍ، وكذلك المجدافُ الأخيرُ سيعمل على تحسين الرّمث.

لاحظْتُ وجودَ رائحة، لم تكن الرائحةُ الحادّةُ لبول القطّة، بل رائحة إقياءٍ، فهناك بقعة إقياء على أرض القارب، لا بدّ أنّها جاءتْ من ريتشارد باركر، لقد كان فعلاً مصاباً بدوار البحر.

وصلتُ الحبلَ الطّويلَ بالطوف، أصبحَ الطوف والقاربُ مشدودين بعضهما لبعضٍ، ثمّ ربطْتُ سترةَ نجاةٍ إلى أسفلِ كلّ جهةٍ من الطوف، وثبّت سترةَ نجاةٍ أخرى على فتحةِ طوقِ النّجاة لتعملَ كمقعدٍ، حولتُ المجدافَ الأخيرَ إلى مسندٍ للقدمين، وربطتُه إلى جهةٍ من الطوف على بُعد قدمين تقريباً من طوق النّجاة، ثمّ ربطْتُ بقيّةَ سترِ النّجاة إليه، كانت أصابعي ترتجفُ وأنا أعملُ، قصُرت أنفاسي وتوتّرْتُ، تفحّصْتُ وأعدْتُ تفحّصَ كلّ مقعدٍ.

نظرْتُ إلى البحر، رأيتُ أمواجَه كبيرةً وهادئةً، لا أمواجًا مزبدةً، الرياح خفيفةٌ ومستقرّةٌ، نظرتُ للأسفل، رأيتُ أسماكاً كبيرة بجباهٍ ناتئةٍ وزعانفَ ظهريّةٍ طويلةٍ، تُسمى دورادوس، وأسماكاً صغيرةً ورقيقةً لا أعرفُها، وكذلك أسماكٌ أصغرُ وأصغرُ، بالإضافة لأسماكِ قرش، أرخيتُ حبلَ الطوف عن قارب النّجاة، لأنّه إذا لم يطفُ لسببٍ ما، حتماً سأموت.

انساقَ إلى الماء بشكلٍ جميلٍ، في الحقيقة إنّ طوفَ ستراتِ النّجاة بدتْ وكأنّها تدفعُ مجاديفَ وأطواقَ النّجاة خارجَ الماء.

هبط قلبي حالما لمسَ الطوف الماءَ، فقد انتشرتِ الأسماكُ حولي عدا أسماكَ القرش، بقيتْ ثلاثُ أو أربعُ منها، إحداها سبح تحت الطوف مباشرةً. زمجرَ ريتشارد باركر.شعرتُ وكأنّني سجينٌ، ألقى به القراصنةُ في الماء بعنفٍ على لوحٍ خشبيّ.

قرّبْتُ الطوف إلى القارب، إلى حيثُ تسمحُ النّتوءاتُ البارزةُ للمجاديف. انحنيْتُ ووضعتُ يداي على طوق النّجاة خلالَ الصّدوع في أرضيّة الطوف، أُفضّل أن أسميها الشقوقَ المتثائبةَ، فهي أكثرُ دقّةً.

نظرتُ مباشرةً إلى أعماقِ البحر اللّامحدودة، فسمعْتُ ريتشارد باركر ثانيةً، اضطجعْتُ على بطني، استلقيْتُ مستوياً، نشرْتُ ذراعي، ولم أحركْ إصبعاً واحدًا.

توقّعْتُ أن ينقلبَ الطوف في أيّ لحظة، أو تندفعَ سمكةُ قرشٍ وتعضَّ من خلال سترات النّجاة والمجاديف، لم يحدثْ أيٌّ من الأمرين، غرقَ الطوف قليلاً وانحدرَ والتفَّ، ثمّ غاصتْ نهاياتُ المجاديفِ تحت الماء، ولكنّهُ طفا بشدّةٍ.

اقتربتْ أسماكُ القرش، ولم تلمسني أو تلمسْ أيَّ شيء، شعرتُ بجذب خفيف، اهتزّ الطّوف، فرفعتُ رأسي، وجدْتُ أنّ القاربَ والطوف قد افترق بعضهما عن بعض إلى أبعد مدىً للحبل، أيْ نحو أربعين قدماً.

شُدّ الحبلُ وارتفعَ فوق الماء، وأخذ يلوجُ في الهواء، ممّا زادَ في قلقي، لقد هربْتُ من قارب النّجاة لأنقذَ حياتي، أريدُ الآن أن أعودَ إليه.

إنّ الطوف غيرُ مستقرّ أبداً، ويحتاجُ فقط سمكةَ قرشٍ تقضمُ الحبلَ أو تُفلتُ إحدى العُقد، أو موجةً كبيرةً تطوف فوقي، وعندها سيُقضى عليّ.

ومقارنةً بالطوف، فإنّ قاربَ النّجاة هو ملاذُ راحةٍ وأمان.

استدرْتُ بحذرٍ شديدٍ ووقفتُ، كان ثباتي جيداً حتى الآن، وموطئُ قدمي كافياً تماماً، ولكنّه صغيرٌ جداً، توفّرَ لي مكانٌ للجلوس، ولا مساحةَ

غيرَ ذلك. هذا الطوف اللّعبةُ، الطوف الصّغيرُ بل الصّغيرُ جداً، ممكن أن ينفعَ في بركة سباحة، وليس في المُحيط الهادئ.

أمسكتُ الحبلَ، وأخذتُ أسحبُ، كنت أسحب ببطءٍ أكثرَ كلّما اقتربْتُ من القارب، وعندما أصبحتُ بمحاذاة قارب النّجاة، سمعتُ ريتشارد باركر لا يزال يأكلُ. تردّدْتُ لدقائقَ عديدةٍ، بقيتُ على الطوف، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعلَ، فخَيَاراتي مُحدّدةٌ، إمّا أن أقفزَ فوق القارب وأواجه النمرَ، وإما أن أظلَّ أتجولُ فوق سمك القرش.

أدركْتُ جيّداً مدى خطورة ريتشارد، تفحّصْتُ العُقدَ التي تربطُ الحبلَ إلى القارب وإلى الطوف، أرخيْتُ الحبلَ حتى أصبحَ على بعد ثلاثين قدماً أو نحوها من القارب، وقد كانت تلك المسافةُ تتوسّطُ بين خوفي من اثنين، الاقتراب كثيراً من ريتشارد، والابتعاد كثيراً عن قارب النّجاة.

لففْتُ ما تبقى من الحبل، نحو عشرة أقدامٍ، حول المجداف الذي جعلته مسنداً لقدمي، ولكي أستطيع أن أحرّرَه بسرعةٍ إذا اقتضتِ الحاجةُ لذلك.

أزفتْ ساعةُ رحيلِ النّهار، بدأ يسقطُ المطر، فالجوُّ رطبٌ ودافئٌ طوال اليوم، والآن انخفضت الحرارةُ، وأصبح الهطلُ ثابتاً وبارداً، فكلُّ قطرات الماء سقطتْ بقوّةٍ وضاعتْ في مياه البحر، بعد أن نقرتْ سطحَه. سحبتُ الحبلَ مرّةً أخرى، وعندما أصبحتُ بقرب القوسِ ركعْتُ على ركبتيّ، ونظرتُ إلى بطن القارب، رفعْتُ نفسي بحذرٍ واسترقْتُ النّظرَ من فوق الحافة، لم يكن على مدى رؤيتي، وصلتُ إلى الصندوق بسرعةٍ، أخذْتُ جامعَ المطر، وهي حاويةٌ بلاستيكيّةٌ سعةُ خمسين لتراً، وبطانيّةً وكتيّبَ النّجاة، ثمّ أغلقتُ غطاءَ الصندوق،

لم أكن أنوي صفقَه، كنت أريد فقط حمايةَ ممتلكاتي الثمّينة من المطر، ولكنّ الغطاءَ انزلقَ من يدي المبلّلةِ، كان خطأ كبيراً.

وعندما وضعتُ ما يسدُّ على ريتشارد باركر طريقَه، أصدرتُ ضجّةً كبيرةً لأُلفِتَ نظرَه، رأيتهُ جاثماً فوق الضّبع، أدارَ رأسه فوراً.

إنّ الكثيرَ من الحيواناتِ لا تحبُّ مقاطعتَها وهي تأكلُ، زمجرَ ريتشارد وشدَّ مخالبَه، وأخذَ رأسُ ذيله يهتزّ وكأنّ كهرباء قد صعقتْهُ، نزلتُ عائداً إلى الطوف، وأعتقدُ أنّ الخوف هو الذي باعد بين الطوف وقارب النّجاة وليسَ الرّيح والتيار. أرخيتُ كلَّ الحبل، وتوقّعْتُ أن يهجمَ عليّ من القارب، ويسبحُ في الهواء حتى تصلَ مخالبُه وأسنانُه إليّ.

أبقيتُ عينيّ على القارب، كلّما نظرتُ أكثرَ أصبحَتْ توقّعاتي لا تُحتمل.

لم يظهر في اللّحظة التي فتحتُ فيها جامعَ المَطر فوق رأسي، وغمستُ قدمي في حاويةِ البلاستيك، كنتُ قد تبلّلْتُ حتى عظامي، وأصبحْتِ البطّانيّة مُبلّلةً عندما قفزتُ عائداً إلى الطوف، ومع ذلك فقد لففْتُ نفسي بها.

زحفَ اللّيلُ واختفى كلُّ ما يحيطُ بي، تحوّلَ إلى بقع سوداءَ مظلمة، فقط الضرباتُ المتواصلةُ للحبل على الطوف أخبرتني بأنّني مازلتُ موصولاً إلى قارب النّجاة.

بدا البحرُ الذي كان تحتي ببضعة إنشاتٍ بعيداً عن نظري كثيراً، كان يلطمُ الطوف، فأصابعُ الماء وصلتْ عبرَ الشّقوق، وبلّلت مؤخرتي.

الفصل الرابع والخمسون

أمطرتْ طوالَ اللّيل، قضيْتُ وقتاً عصيباً بلا نوم، فالصَّخبُ ملأَ المكانُ، كما أصدرَ المطر في حاوية المطرِ صوتاً كقرع طبولٍ، وسمعت من حولي وفي الظلام هسهسةً، وكأنّني في وكرِ أفاعٍ ضخمٍ، غيّرتْ هبّاتٌ من الريح اتّجاهَ المطر، لذلك فإنّ جزءاً مني، ذاك الجزءُ الذي بدأتُ أشعرُ فيه بالدّفء، قد تبلّلَ للتوّ.

غيّرتُ وضعَ حاوية المطر لكنني فوجئت بشكل غير سار بعد بضع دقائق عندما غيّرتِ الرّيحُ اتّجاهَها مرةً أخرى. حاولتُ الإبقاءَ على بعض منّي جافاً ودافئاً، ولا سيَّما صدري حيثُ أخفيْتُ كتيّبَ النّجاة، ولكنّ البللَ انتشرَ بإصرارٍ عنيد. أمضيْتُ اللّيل كلّه أرتجفُ من البرد، خفْتُ أن ينفصلَ الطوف، وأقلقني أمرُ العُقَدِ التي تربطُني إلى قارب النّجاة، فقد تُحَلُّ في أي لحظة، ويمكن للقرش أيضاً أن يُهاجمَني، تفحّصْتُ العقدَ والأربطةَ باستمرارٍ محاولاً قراءَتها كما يقرأُ الأعمى بريل.

ومع حلول الظّلام، بدأ المطرُ يهطلُ بغزارةٍ، وازدادتْ أمواجُ البحرِ قوةً. كان الحبل إلى قارب النّجاة مشدوداً، ليس كثيراً، لكنّه يهتزُّ، حتى اهتزازُ الطوف صارَ أكثرَ وضوحاً وغيرَ طبيعيّ. ظلّ يطفو، ويرتفعُ مع كلّ موجةٍ ولكنّه لم يكنْ هناك جزءٌ طافٍ، وكلُّ موجةٍ ضربتْه شقّت طريقها عبرَه، وغسلتْه مثلما يغسلُ النّهرُ جلموداً، وقد كان البحر أكثر دفئاً من المطر، وهذا الأمرُ كان في صالحي، إذ لم يبقَ جزءٌ منّي جافاً تلك الليلة.

على الأقلّ شربتُ دون عطش هذه المرة، ولكنّي أجبرتُ نفسي على الشّرب، بدا جامعُ الماء مثلَ مظلّةٍ مقلوبةٍ مفتوحةٍ بفعل الرّياح.

تساقطَ المطرُ في منتصفها، في فتحةٍ متّصلةٍ بأنبوبٍ مطاطيّ على جراب تجميعٍ مصنوعٍ من البلاستيك الشفاف السّميك.

في البداية تشعرُ أنّ طعمَ الماء يشبهُ طعم المطّاط، ولكنّ المطرَ جعل المَجْمعَ يدورُ، وهذا ما جعلَ مذاقَ الماء جيداً خلال تلك الساعاتِ الطّويلة والباردة والمظلمة، وعندما أصبحتْ طقطقةُ المطر غيرِ المرئيّ تصمُّ الآذان، والبحرُ يصفرُ ويلفُّني ويتقاذفني، تمسكتُ بفكرةٍ واحدة: ريتشارد باركر.

لمعتْ في ذهني فكرةٌ للتّخلص منه، حيث سيصبح قاربُ النّجاة لي وحدي.

الخطّةُ رقم واحد: أدفعُه خارجَ قارب النّجاة، ماذا سيفيدُ ذلك؟ حتى لو تمكّنتُ من دفع أربعمئةٍ وخمسين باونداً من حيوانٍ مفترسٍ حيّ عن ظهر القارب، فإنّ النّمورَ سبّاحون ماهرون، ففي ساندربانز عرفُوا أنّهم يسبحون لمسافةِ خمسةِ أميالٍ في مياهٍ مضطربةٍ مفتوحة، فإذا وجدَ نفسَه بشكلٍ غيرِ متوقّعٍ خارجَ القارب، فإنّ ريتشارد باركر ببساطةٍ سيطأُ الماءَ ويتسلّقُ عائداً بقارب، ويجعلُني أدفعُ ثمنَ حياتي.

الخطّةُ رقم اثنين: أن أقتلَه بحُقنِ المورفين الستّ، ولكن ليس لديّ أيّةُ فكرة عن تأثيرها فيه، هل ستكونُ كافيةً لقتله؟ وكيف أستطيعُ إدخالَ المورفين إلى جسده؟ تذكّرْتُ مفاجأتَه مرّةً عندما تمّ أسرُ أمّه، ولكن مفاجأتُه لفترة طويلةٍ

لإعطائه ستَّ حقنٍ مخدّرةٍ؟ مستحيلٌ، فكلّ ما سأفعلُه بعد غرزه بإبرة، هو الحصولُ على لطمةٍ تقتلعُ رأسي.

الخطّةُ رقمُ ثلاثة: مهاجمتُه بكلّ الأسلحة المتوفّرة، سخافةٌ فأنا لست طرزان، أنا كائنٌ حيٌّ صغيرٌ وعنيفٌ من آكلي الأعشاب في الهند، كان لا بدّ من ركوبِ ظهرِ فيلٍ ضخمٍ، وإطلاق نارٍ من بندقيّةٍ قويّةٍ لقتل النّمور. ماذا يُفترضُ بي أن أفعلَ هنا؟ هل أطلقُ صاروخَ إشارةٍ إلى وجهه؟ هل أذهبُ إليه بفأسٍ في كلّ يدٍ وسكّينٍ بين أسناني؟ هل أُنهيه بواسطة إبرِ خياطةٍ مستقيمةٍ ومنحنية؟ إذا تجرّأْتُ على وخزِهِ فسيكونُ ذلك إنجازاً. بدوره سيمزّقُني إرباً، عضواً تلو آخر، لأنّه إذا كان هناك من شيءٍ أكثر خطورةٍ من حيوانٍ معافىً فهو حيوانٌ جريح.

الخطّةُ رقمُ أربعة: تقييده، لديّ حبلٌ لو بقيتُ في بطن القارب، وجعلْتُ الحبلَ يلتفُّ حول المؤخرة، وأنشوطةٌ تلتفُّ حول رقبته، حينها أستطيعُ سحبَ الحبل بينما هو يسحبُه ليصلَ إليّ، وهكذا عند محاولته الوصولَ إليّ سيخنقُ نفسَه، خطة انتحارٍ ذكيّة.

الخطّةُ رقم خمسة: وضعُ السّمّ له، إحراقُه بصدمةٍ كهربائيّة، ولكن كيف؟ وبأيّ وسيلة؟

الخطّةُ رقم ستة: سأشنُّ عليه حربَ استنزاف، كلُّ ما عليّ فعله، هو أن أدعَ قوانينَ الطبيعةَ التي لا تغفرُ تديرُ قوانينَها، وأنا سأكون بأمان، أنتظره حتى توهَنَ قواه ويموت، وهذا الأمر لن يستهلكَ منّي أيَّ جهد.

لديّ مؤونةُ ستةِ أشهرٍ قادمة، فماذا لديه؟ بضعُ حيواناتٍ ميّتةٍ فقط، ولا بدّ ستتلاشى.

ماذا سيأكلُ بعد ذلك؟ والأهمُّ من ذلك، من أين سيحصلُ على الماء؟ يمكن أن يعيشَ لأسابيعَ دون طعامٍ، ولكن لا يوجدُ أيُّ حيوان يمكن أن يعيشَ دون الماء لوقتٍ طويل.

أضاءَتْ هذه الفكرةُ في مخيلتي مثلَ قنديلٍ في الليل، فلديَّ خُطّةٌ وهي خُطّةٌ جيّدةٌ، وكلّ ما أحتاجُ إليه، هو أن أبقى حيّاً لتنفيذها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس والخمسون

جاءَ الفجرُ حاملاً معه الأسوأَ، لأنّني عندما انبثقْتُ من الظّلام، رأيت ما كنتُ أشعرُ به سابقاً، ستائر من المطر تتحطّمُ فوقي من ارتفاعاتٍ شاهقة، وأمواجٌ ترشقُني وتدوسُني تحت أقدامها، الواحدةُ تلوَ الأخرى.

بعينين باهتتين وخدرٍ سببه البردُ، تشبّثْتُ بجامع المطر بيدٍ، وبالطوف باليد الأخرى، بقيتُ منتظراً بعد مرورِ وقتٍ، وبتأكيدٍ مُفاجئٍ من الصَّمتِ الذي تبعَ ذلك، توقّفَ المَطرُ، وانجلتْ السّماءُ، وبدا وكأنّ الأمطارَ قد هربتْ مع الغيوم.

كان التّغيير سريعاً وجذرياً، كتغيير البلدان على الأرض. أنا الآن في مُحيطٍ مُختلفٍ، في الحال أصبحتِ الشّمسُ هي الوحيدة التي ترى السّماء، وصارَ المُحيطُ ناعماً، يعكسُ الضوءَ بملايين المرايا.

شعرتُ ببياسِ جسدي وألمٍ وإرهاقٍ، ولكنّني كنتُ شديدَ الامتنان لبقائي حيّاً، كرّرْتُ جملةَ الخطّة رقم ستّة في فكري كتعويذةٍ، وأعطتني بعضاً من الارتياح، على الرّغم من أنّني لم أستطعْ أن أتذكرْ ما تعنيه الخطّةُ رقم ستة لحياتي.

بدأ الدفءُ يصلُ إلى عظامي، أغلقتُ جامعَ المطر، ولففْتُ نفسي بالبطّانيّة ثمّ استلقيْتُ بساعاتِ الصّباح الأولى، جفّت البطّانيّة تقريباً فالجوُّ

حارٌّ، كانت فترةَ نومٍ قصيرة، رفعتُ نفسي على مرفقيّ، كلّ ما حولي مسطّحٌ ولا نهائيٌّ، مشهدٌ بانوراميٌّ للّون الأزرق، لا شيءَ يحجبُ عنّي الرّؤيا، فالاتساعُ صدمَني كضربةٍ على معدتي، عدْتُ للجلوس، تجشّأتُ، رأيتُ الطوف مهزلةً، لم يكن إلّا بضعةُ عصيّ وسدّادةٌ صغيرةٌ مثبّتةٌ بخيوط، يتخلّلُه الماءُ من كلّ الشّقوق، العمقُ في الأسفل يجعلُ حتى الطائر يشعرُ بالدّوار.

شاهدْتُ قاربَ النّجاة، لم يكن أفضلَ من نصف قشرةِ الجوز.

تشبّثْ إلى سطح الماء كأصابع تتمسّكُ بحافةِ جرفٍ، كانت مَسألة وقت فقط قبل أن تسحبَه الجاذبيّة، وقع بصري على صديقي البعيد، إذ رفعَ نفسَه إلى حافة القارب، ونظرَ نحوي، إنّ الظهورَ المباغتَ للنّمر يلفتُ النظرَ في أيّ بيئة، وهنا على وجه الخصوص. كان التناقض الغريب لفرو هذا الكائن البرتقاليّ الفاتحِ ذي اللّون المخطّطِ والهيكلِ الأبيضِ الباهتِ للقارب مقنعاً على نحوٍ لا يصدّق. توقفَتْ أحاسيسي المجهدةُ الصّارخة، فالمحيطُ الشاسعُ الذي يحيطُ بنا، تحوّل فجأةً إلى صندوقٍ مائيّ ضيّقٍ دون حواجزَ أو جدران.

الخطّةُ رقمُ ستّة، الخطّةُ رقم ستّة، الخطّةُ رقم ستّة، همسَ عقلي بسرعةٍ. ولكن ما هي الخطّةُ رقم ستة؟ أوه نعم حربُ الاستنزاف، لعبةُ الانتظار أو الكُمون، ترْكُ الأشياء تحدثُ، قانونُ الطبيعة الذي لا يرحمُ، مُضِيُّ الوقت الذي لا يرحمُ واحتكارُ المؤونة، تلك هي الخطّةُ رقم ستة.

راودتْني فكرةٌ وكأنّها صرخةٌ غاضبةٌ: أيها الأحمقُ، أيّها المعتوه، أيّها الغبيّ، أيّها البابون المجنون، الخطّةُ رقم ستّة هي أسوأُ الخُطط.

إنّ ريتشارد باركر يخافُ البحر، فالبحرُ الآن مثلُ قبره، ولكنّه عندما يصبحُ مسعوراً من الجوع والعطش سيتغلّبُ على مخاوفه، وسيفعلُ كلَّ ما هو ضروريٌّ ليُشبعَ حاجته، سيتحوّلُ الخندقُ المائيّ إلى جسر، وسيسبحُ إلى أبعد ما يجب عليه، حتى يُمسك الطوف المنجرفَ والطّعامَ الذي عليه. بالنّسبة للماء؟ هل نسيتَ أنّ غورَ سوندربانز معروفةٌ بشربها للماء المالح؟ هل تعتقدُ حقاً أنّه يمكنك تعطيلُ كليتيه؟ أقولُ إنّك إذا أعلنت حرب استنزاف، فإنكَ ستخسرُها، ستموتُ، هل هذا واضح؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس والخمسون

يجبُ أنْ أقولَ شيئاً عن الخوف: إنّه الخصمُ الوحيدُ الحقيقيُّ في الحياة، الخوفُ فقط، فمن يستطيعُ أن يهزم الحياةَ؟ إنّه عدوٌّ غادرٌ وذكيٌّ، لقد أدركتُ ذلك جيداً، ليسَ لديه أخلاقٌ ولا يحترمُ القوانين أو المُعاهدات ولا يُظهر أيَّ رحمةٍ، إنّه يصلُ إلى أضعفِ نقطةٍ لديك، ويجدُها بمنتهى السّهولة، يبدأُ في عقلِك دائماً، بلحظةٍ تشعرُ أنّك هادئٌ مُسيطرٌ على نفسك وسعيدٌ، ثمّ يأتي مُتخفّياً بهيئةِ شكّ جلفٍ، وينزلقُ إلى عقلكَ مثلَ جاسوسٍ.

الشكُّ يقابلُ الكفر، والكفر يحاولُ دفعَه خارجاً، ولكنّ الكفر هو جندي مشاةٍ سيِّئ التّسليح. الشك يتخلص منه مع القليل من المتاعب. تصبحُ قلقاً. ثم يبدأُ العقلُ مَعركتَه لصَالِحِك، تستعيدُ ثقتَك بأنّ العقلَ مزوّدٌ بأحدث تكنولوجيا التّسليح، ولدهشتِك وعلى الرغم مِن الأساليبِ المتفوّقةِ وعددٍ من الانتصاراتِ التي لا ريبَ فيها، فإنَّ العقلَ يُطرَحُ جانباً، تشعرُ أنّكَ ضعيفٌ ومتردّدٌ، ليتحوّلَ قلقُكَ إلى ذُعرٍ، ثمّ يتّجهُ الخوفَ كليّاً إلى جسدك والذي يدركُ بالفعل أنّ شيئاً خاطئاً سيحدث، تطيرُ رئتاك مثل طائر، تشعرُ أنّ أمعاءَك قد انسلّتْ بعيداً مثل أفعى، ويموتُ لسانُك كالآربسيوم، بينما تسترخي عضلاتُك كثيراً، وهذا ما يحدثُ مع بقيّة جسدك، كلُّ جزءٍ منك يسقطُ بالطّريقة التي تلائمُه، فقط عيناك تعملان جيداً، فهما دائماً تنتبهان جيداً للخوف، وبسرعةٍ تتّخذُ قراراتٍ متهوّرةٍ، وتبعدُ آخر حلفائِك «الأملَ والثقةَ»، فهنا ستهزمُ نفسَك وسينتصرُ عليك الخوفُ الذي هو مجرّدُ انطباع.

من الصَّعبِ وصفُ هذه الحالةِ بالكلمات، لأنّ الخوفَ الحقيقيَّ يهزّك حتى قدمَيْك، كشعورِكَ عندما تقفُ وجهاً لوجه أمامَ نهايتك المُميتة، وتُعشّشُ في ذهنك مثلَ الغرغرينا، إنّه يسعى لإفسادِ كلِّ شيءٍ، حتى الكلماتُ التي تعبّرُ عنه، لأنّك إنْ قاتلْتَ بعنفٍ للتّعبير عنه، فعليكَ أن تقاتلَ بعنفٍ لتسليط الضّوءِ على الكلماتِ التي تصفُه، وإن لم تفعلْ، وإذا أصبحَ خوفُك ظلاماً لا تحيط به الكلماتُ مُحاولاً تجنّبَه، أو ربّما تحاولُ جاهداً نسيانه، فإنّكَ ستعرّضُ نفسَك لهجماتٍ أكثرَ من الخوف، فأنت بالفعل لم تقاومِ الغريمَ الّذي هزمَكَ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع والخمسون

هدّأني ريتشارد باركر، فمن سخرية هذه القصّة، أنّ الأحمقَ الذي أرعبَني هو نفسُه الذي يجلبُ لي الأمان، وأستطيعُ القولَ أنّه شيءٌ كاملٌ ينظرُ باهتمامٍ شديدٍ. فقد شاهدتُ نظرتَه بعد مرورِ الوقت، لقد كبرت بهذه النظرة، نظرةُ حيوانٍ مقتنعٍ، ينظرُ من قفصه أو حظيرته بالطّريقة التي أنظرُ بها أو تنظرُ أنتَ بها من طاولةٍ في مطعمٍ بعد وجبةٍ جيّدة، عندما يحين الوقتُ للحديثِ ومشاهدةِ الناس.

من الواضح أنّ ريتشارد باركر أكلَ ما تبقّى من الضّبع، وشربَ كلَّ ماء المطرِ الذي جمعته، لم تكنْ شفتاه ترتفعان وتنخفضان، ولم يُظهِرْ أسنانه، لم يزأر أو ينخر، كان ببساطة يواكبُني، يراقبُني بطريقةٍ رصينةٍ وليس بطريقة تهديدٍ.

ما زال يشدّ أذنيه، ويديرُ رأسَه باتجاهاتٍ مختلفةٍ، هذا كلُّ شيءٍ عن عمله. إنّه يشبهُ قطّةً منزليّةً جميلةً ضخمةً وسمينة، تزنُ أربعمئةٍ وخمسين باونداً.

أصدرَ صوتاً، شخرَ من منخريه، أصخْتُ السّمعَ، لقد فعل ذلك ثانية، دُهشتُ، فالنّمورُ تصدرُ خليطاً من الأصوات، تشملُ عدداً من الزئير والهدير، أعلى هذه الأصواتِ تشبهُ كثيراً أل آووه التي تصدرُ من الحنجرة، وتكون عادةً خلالَ موسمِ التّزاوج بين الذّكورِ والإناثِ الشّبقة، إنّها صرخةٌ تصلُ إلى مسافاتٍ بعيدةٍ طولاً وعرضاً. وهي عادةً صرخاتٌ مروّعةٌ إذا سُمعتْ من مسافةٍ قريبة.

تصدرُ النّمورُ صوتَ نباحٍ عندما يُلقى القبضُ عليها وهي غيرُ منتبهةٍ، انفجارُ غضبٍ حادٍّ يجعلُ رجليك تقفزُ للأعلى، وتدفعانِك للهربِ، هذا إذا لم تتجمدا بمكانيهما، وعندما تُهاجمُ، فإنّها تصدرُ زئيراً من حناجرها. فالهرهرةُ التي تستخدمُها من حناجرها لها ميزةٌ أخرى، والنّمورُ تهسهسُ وتشخرُ، وذلك يعتمدُ على المشاعر التي تدفعُها لذلك، فإمّا أنّ خشخشةَ أوراقِ الخريفِ على الأرض أقربُ إلى صوتِ رنينٍ قويّ، أو صوتُ شخيرٍ غاضبٍ يشبهُ صوتَ صريرِ بابٍ ضخمٍ بحواملٍ صدئةٍ، ويفتحُ على مهل.

في كلتا الحالتين يشبهُ تماماً صوتَ عمودٍ فقريّ متجمّد. وغيرها من الأصوات الأخرى، فهي تنخرُ وتئنُّ وتهرهرُ، ولكن ليس بشكلٍ رخيمٍ أو بشكلٍ متكرّرٍ كالقطط الصغيرة، ولكن فقط عندما تزفرُ.

وإنّ القططَ الصّغيرةَ فقط هي التي تفعلُ ذلك في الشّهيق وفي الزّفير، فتلك إحدى الصفات التي تميّزُ القططَ الكبيرةَ عن القطط الصغيرة. والفرقُ الآخرُ هو أنّ القططَ الكبيرةَ هي فقط تستطيعُ أن تزأر. أخشى أن تنخفض شعبيّةُ القطط المنزليّة كثيراً إذا استطاعتْ هريرةٌ أن تزأرَ تعبيراً عن استيائها. تستطيع النّمورُ أن تموءَ بنبرةٍ مشابهةٍ لتلك التي تصدرها القططُ المنزليّةُ، ولكنّها أعلى وبغضبٍ عميق، وليس هريراً يشجّعُكَ للانحناء والتقاطها، وتستطيعُ النمورُ وبشكلٍ مهيبٍ تماماً أن تبقى صامتةً كذلك.

سمعتُ كلَّ تلك الأصواتِ تعلو، عدا المراوغة، ولا أعرفُ ذلك إلا بفضل والدي الذي أخبرَني بذلك، فقد قرأَ عن وصفها في كتيّبٍ صغير، وسمعَها مرةً واحدةً أثناءَ زيارةِ عملٍ إلى حديقة حيوان مايسور في مشفى الحيوانات، من ذكرٍ

صغيرٍ تحت معالجةٍ من التهابٍ رئوي. وصوتُ المراوغةِ هو أهدأُ أصواتِ النّمور، نفخٌ من الأنفِ للتّعبير عن الصّداقة والنّوايا الطّيبة.

قام ريتشارد باركر بذلك ثانيةً، وهذه المرّة بدورة من برأسه، نظرَ وكأنّه يريد أن يسألني سؤالاً.

نظرتُ إليه بدهشةٍ ملؤُها الخوفُ، إذ لم يكنْ هناك تهديدٌ مباشرٌ، هدأَ تنفّسي وتوقّفَ قلبي عن طرق صدري، ثمّ أخذتُ أستعيدُ حواسي.

عليّ الآن أنْ أروّضَه، أدركْتُ هذه الضرورة. في تلك اللّحظة لم يكنْ الأمرُ يتعلّقُ به أو بي بل يخصُّنا كلينا، فقد كنّا حرفياً وجسديّاً في نفس القاربِ سنموت أو سنعيشُ معاً. يمكن أن يموتَ بحادثٍ ما، أو بعد مدّةٍ قصيرةٍ لأسبابٍ طبيعيّة، ولكنّه سيكونُ أحمقَ إذا اعتمدَ على تلك الاحتماليّة، فمن الواضح أكثرَ أنّه سيحدثُ الأسوأُ، وهو مرورُ وقتٍ قصيرٍ، وبه ستتغلّبُ قساوةُ الحيوانِ بسهولةٍ على إنسانيّتي الهشّة.

لو استطعت ترويضُه لكان بالإمكانِ أن أخدعَه ليموتَ، إذا كان علينا أن نصل إلى هذا العمل المؤسف.

محوت جميع الأفكار، سأقولُ لك سرّاً: جزءٌ مني مسرورٌ لوجود ريتشارد باركر، وجزءٌ منّي لا يريدُ لريتشارد باركر أن يموتَ أبداً، لأنّه لو مات لسوف أُتْرَكُ وحيداً مع يأسي، وهذا عدوٌّ أخطرُ من النّمر بكثير.

وإذا ما زالتْ لديّ الرغبةُ بالحياة فالفضلُ يعود لريتشارد باركر، فقد أبعدني عن التّفكير كثيراً بعائلتي، والتفكيرُ بظروفي المأساويّة هو الذي دفعني لأستمرَّ بالحياة، ولأجل ذلك كرهتُه، ولكنّي بالوقت نفسِه كنت ممتنّاً له.

أنا ممتنٌّ لكونِها الحقيقة العارية، فلولا ريتشارد باركر ما كنت حيّاً اليومَ لأرويَ لكم حياتي.

نظرتُ إلى الأفق، ليس لديّ حلبةُ سيركٍ ممتازةٌ دائريّةٌ بشكلٍ إلزامي وبدون أيّةِ زاويةٍ يستخدمُها للاختباء؟

نظرْتُ للأسفل نحو البحر، أليس هذا مصدراً نموذجيّاً للتعامل، ومن خلاله سيكلّفُ نفسَه للطّاعة؟ شاهدتُ صافرةً تتدلّى من إحدى ستراتِ النّجاة، ألن تصلحَ كسوطٍ مناسبٍ لإبقائه على اتصال؟ ما الشيءُ المفقودُ هنا لترويضِ ريتشارد باركر؟ الوقت؟ ربما سيكونُ لأسابيعَ قبلَ أن تراني السفنُ.

لديّ كلُّ الوقتِ الذي في العالم، ولديّ التصميمُ، ألا يوجدُ شيءٌ مثلُ الحاجة الملحّة لتعطيكَ التّصميمَ والمعرفة؟ ألستُ ابنَ حارس حديقة حيوانات؟ المكافأةُ؟ وهل هناك مكافأةٌ أعظمُ من الحياة؟ ما هي العقوبةُ الأسوأُ من الموت؟

نظرتُ إلى ريتشارد باركر، اختفى الرّعبُ منّي، فقد تمّت السيطرةُ على خوفي، والنّجاةُ هي اليدُ.

لتدوّي الأبواقُ، لتُقرعَ الطّبولُ، ليبدأَ العرضُ. وقفتُ على قدميّ فلاحظ ريتشارد باركر ذلك، ولم يكنِ التوازنُ على الطوف سهلاً. أخذتُ نفساً عميقاً وصرختُ: سيداتي سادتي، أيّها الأبناءُ والبناتُ، أسرعوا إلى مقاعدكم، أسرعوا، أسرعوا.

لا أودُّ أن تتأخّروا، اجلسُوا، افتحُوا أعينكم وقلوبَكم وتهيّؤوا للدّهشة.

ها نحنُ هنا من أجل متعتِكم وتعليمِكم، من أجل بهجتِكم وتنويرِكم. فالعرضُ الذي انتظرتموه طوالَ حياتكم أعظمُ عرضٍ على سطح الأرض. هل أنتم مستعدون لهذه المعجزة؟

نعم؟ حسناً إذنْ إنّهم متكيّفون بشكلٍ مذهلٍ، لقد شاهدتموهم في الغابات المتجمّدةِ المغطّاة بالثّلوج، لقد شاهدتموهم بالغابات الاستوائيّة والموسميّة الكثيفة، لقد شاهدتموهم بشكلٍ متفرّقٍ، وفي المراعي القاحلة، وفي المستنقعات الآسنة. في الحقيقة إنّهم يتلاءَمون مع أيّ مكان، ولكنّكم لم تشاهدوهم أبداً في المكان الذي توشكون أن تشاهدوهم فيه.

سيّداتي سادتي، أيّها الأولادُ والبناتُ، دون مزيدٍ من اللغط، إنّه من دواعي سروري، ويشرّفني أن أقدّمَ لكم مسرحَ بي باتل الهنديّ الكنديّ العائم عبر المحيط الهادئ.

كان لي تأثير على ريتشارد باركر، عند أوّلِ نفخةٍ بالصّافرة انكمشَ على نفسِه وزمجرَ، هه دعْهُ يقفز إلى الماء إذا كان يريد ذلك، دعه يحاولْ زأرَ ورفعَ مخلبه في الهواء، ولكنّه لم يقفزْ، ربّما لم يكنْ خائفاً من البحر عندما أصابَه جنونُ الجوع والعطش، ولكنّه في هذه اللّحظة هو بالتأكيد خوفٌ، أستطيع أن أعتمدَ على ذلك تررررر.

تراجعَ ونزلَ إلى أسفل القارب، انتهتْ فترةُ التّدريب الأولى، حقّقتْ نجاحاً رناناً، وهكذا سَرَتِ الأمورُ.

الخطّةُ رقم سبعة: الحفاظُ عليه حيّاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والخمسون

سحبْتُ كتيّبَ النّجاة، وجدْتُ صفحاتِه لا تزالُ مبلّلةً، قلّبْتُ صفحاتِه بحذرٍ. الكتيّبُ من تأليف البحريّة الملكيّة البريطانيّة، يتضمنُ كنزاً من المعلومات العمليّة عن النّجاة من البحر بعد تحطّمِ السّفينة، ونصائحَ مثل:

اقرأ التّعليماتِ دائماً وأبداً.

- لا تشربِ البولَ أو ماءَ البحر أو دمَ الطّيور.
- لا تأكلْ قنديلَ البحر والأسماكَ المسلّحة بأشواكٍ، أو التي تملكُ مناقيرَ كمنقار الببّغاء، أو التي تنتفخُ كالبالون.
- الضغطُ على عيون الأسماك يسبّبُ لها الشللُ.
- يمكنُ للجسم أن يكونَ بطلاً في معركةٍ. إذا أصيبَ شخصٌ منبوذ فاحذر من العلاج الطبي الحسن النية لكن غير الصحيح. الجهلُ أسوأ طبيب، والراحة والنوم أفضل الممرضين والممرضات.
- أرحْ رجليْكَ على الأقلّ خمسَ دقائقَ كلَّ ساعة، تجنباً للإرهاق غيرِ الضّروريّ. فالعقلُ الخاملُ يهتمُّ بالغرق، لذا يجبُ إشغالُ العقل بأيّ تسليةٍ خفيفةٍ يتمُّ اقتراحُها كلعبِ الورقِ، عشرون سؤالاً، ولعبةُ أرى بعينيّ الصغيرة. إنها نماذجُ ممتازةٌ للتسلية البسيطة. ومن الطّرق الحماسيّة لرفع الرّوح المعنويّة «الأغنياتُ الجماعيّةُ» ويُنصحُ كثيراً بلعبة القصص الملفّقة.

- المياهُ الخضراءُ هي أقلُّ عمقاً من الزّرقاء.
- احذرِ الغيومَ البعيدةَ التي تشبهُ الجبال. ابحثْ عن المياه الخضراء. في النهاية الأرضُ الجيدةُ تُقاسُ بالقدم.
- لا تذهبْ للسباحة، إنّها تُفقدك طاقتَك، إضافة إلى ذلك فإنّ الطّوف ممكن أن ينحرفَ أسرعَ من القدرة على السباحة، لن أذكرَ مخاطرَ الحياة البحريّة.
- إذا شعرتَ بالحرّ، بلّلْ ثيابَك بدلاً من السّباحة.
- لا تبوّلْ داخلَ ثيابك، فإنّ الدّفءَ المؤقّتَ لا يستحقُّ الحكّةَ الناتجةَ عن الحفّاض.
- استرْ نفسَك، فالتّعرضُ للحرارة يمكنُ أن يقتلَ بشكلٍ أسرعَ من العطش والجوع.
- يستطيعُ الجسمُ أن يبقى حيّاً حتى أربعةَ عشرَ يوماً دون ماءٍ طالما أنّه لا يُضيّعُ الكثيرَ من الماء في التّعرق.
- إذا شعرتَ بالعطش، الجأْ إلى مصّ الأزرار.
- يمكنُ الإمساكُ بالسّلاحف بسهولة، وهي تشكّلُ طعاماً ممتازاً، فدمُ السّلاحف هو مادةٌ مغذّيةٌ جيّدة، وهو شرابٌ عديمُ الملح، لحمُها لذيذٌ ويُشبعُ الجوعَ، ويُستخدمُ دُهنُها لاستعمالاتٍ متعدّدةٍ، وسيجدُ المنبوذُ في بيض السّلاحف علاجاً حقيقياً، ولا تنسَ المنقارَ والمخالبَ.
- لا تدع معنوياتك تهتزّ!، كنْ خائفاً ولا تكنْ مهزوماً، تذكّرْ المعنويّاتُ فوق كلّ اعتبار. إذا كان لديك الرغبة في العيشَ، فسوف تعيشُ... حظّاً طيّباً.

هناك أيضاً بعضُ السطورِ المشفّرةِ التي تُلخّصُ فنَّ الملاحة وعلمه.

تعلّمتُ أنّ الأفقَ إذا تمّتْ مشاهدتُه من ارتفاعِ خمسةِ أقدامٍ في يومٍ هادئٍ فسيكونُ على بعد ميلين ونصف الميل.

إنّ النصيحةَ بعدمِ شرب البول غيرُ ضروريّة أبداً.

لم يُشاهد أحدٌ اسمه «بيسينغ» منذ طفولته ميتاً وكأسُ بولٍ على شفتيه، حتى وإن كان على قارب نجاةٍ في وسط المحيط الهادئ.

إنّ المقترحاتِ المعتمدةِ على الذّوق تؤكّدُ أنّ الإنكليزَ لم يعرفوا معنى كلمةِ طعامٍ، من ناحيةٍ أخرى فإنّ الكُتيّبَ هو بيانٌ مدهشٌ عن كيفيّةِ تجنّبِ التّورّطِ في شربِ ماءِ البحر الشّديدِ الملوحة.

موضوع واحدٌ فقط لم يتمَّ تناوله: إنشاءُ علاقات من نوع ألفا - أوميغا مع الآفاتِ البيولوجيّة الرئيسيّةِ على قارب نجاة.

عليّ أن أبتكرَ برنامجَ تدريبٍ لريتشاردر باركر، وجعلِهِ يفهمُ أنّني النّمرُ المتفوّقُ، وأنّ منطقتَه محدودةٌ بأرضيّةِ القارب والمقعد الخلفيّ والمقاعدِ الجانبيّة حتى حدودِ المقعدِ المتوسّطِ، يجبُ أن أزرعَ في ذهنه أنّ سطحَ المشمّع ومقدّمةَ القارب، التي حدودُها هي المنطقةُ العازلةُ حتى المقعد الأوسط، هي منطقتي وممنوعةٌ عليه كليّاً.

عليّ أن أبدأَ بصيد الأسماك حالاً، لن يستغرقَ ريتشاردُ وقتاً طويلاً لإنهاء بقايا الحيوان.

وللعلم، فإنّ الأسودَ والنّمورَ المكتملةَ النّمو تتناولُ عشرةَ باونداتٍ من اللّحمِ كمعدّلٍ يوميّ.

عليّ القيامُ بأشياء كثيرة، كأن أجدَ طريقةً لحماية نفسي، وعلى ريتشارد باركر أن يبقى تحتَ المشمّع كلّ الوقت، ولذا لا بدّ من سببٍ مُلزمٍ له. إنّ بقاءَك خارجاً، وبشكلٍ دائمٍ، معرضاً للشّمس والرّيح والمطر والبحر، سيكون شيئاً مُجهداً، ليس لجسدك فقط، بل لعقلك أيضاً.

ألم أقرأْ لتوّي أنّ التعرضَ لحرارةٍ يمكنُ أن يؤديَ للموت السريع؟ إذنْ لا بد من تصميم خيمةٍ، عليّ أن أربطَ الطّوف إلى قارب النّجاة بحبلٍ ثانٍ، في حال انقطعَ الحبلُ أو أفلت، كما وكان من الضّروري التحسينُ من الطّوف فهو حتى الآن يصلحُ للبحر، ولكن يصعبُ المكوثُ عليه، فعليّ أن أجعلَه ملائماً للعيش، حتى أتمكّنَ من الانتقال إلى إقامتي الدّائمة على القارب مثلاً.

يجبُ أن أجدَ طريقةً لأبقي نفسي جافاً، فقد تجعّدَ جلدي وتورّم، وهذا كلُّه بسبب البللِ المستمرّ، فلا بدّ من تغيير ذلك، والبحثِ عن وسيلةٍ لتخزين ما أحتاجُ إليه على الطّوف. والأهمّ من هذا كلّه أن أتوقّفَ عن الأمل بأنَّ سفينةً ما ستنقذني. فبدلاً من الاعتماد على أيّ مساعدةٍ خارجيّة، يجب أن أعتمدَ على نفسي للبقاء حيّاً.

لقد علّمتْني التجربةُ أنّ أسوأَ خطأ يرتكبُه المنبوذُ، هو أن يأملَ كثيراً، ويعملَ قليلاً. والبقاءُ حيّاً يبدأُ بالانتباه إلى ما هو بمتناولِ يدك، دون تأخير. عليّ القيامُ بالكثير من الأعمال.

نظرتُ إلى الأفق الفارغ، لم يكن هناك الكثيرُ من الماء، كنت وحيداً، وحيداً تماماً، بكيت دموعاً حارّة، حضنْتُ وجهي بيديَّ وبكيْتُ بحرقة، إنّني بوضعٍ بائس جداً.

الفصل التاسع والخمسون

وحيدٌ أم لا، ضائعٌ أم لا فقد كنتُ جائعاً وعطشاناً. سحبتُ الحبلَ المشدودِ قليلاً، انزلقَ لحظةً، أرخيتُ قبضتي عنه فكبرَتِ المسافةُ بين القارب والطّوف، انجرفَ القاربُ أسرعَ من الطّوف وسحبَه معه، لم أفكرْ بما حدث، فكلُّ تفكيري مركّزٌ على ما يفعله ريتشارد باركر.

من خلال نظراتي، وجدتُ أنّه لا يزال تحت المشمّع.

سحبْتُ الحبلَ حتى أصبحتُ بجانب القارب تماماً، ووصلت إلى الحافة عندما جثمتُ مجهّزاً نفسي لقفزةٍ سريعةٍ إلى الصندوق، جعلتني سلسلةُ الأمواج أفكّر، لاحظتُ أنّ قاربَ النّجاة قد غيرَ اتجاهَه عندما كان الطّوف مُحاذياً له، لم يكن متعامداً مع الأمواج ولكنّه محاذٍ لها.

أخذ يتمايلُ من جانبٍ إلى آخر، وقد سبّبَ هذا التمايلُ اضطراباً في معدتي، واتّضح لي سببُ هذا التغيُّر، فعندما أطلقتُ الطّوفَ، عمل كمرساةٍ بحريّةٍ وعمل كثقلٍ يسحبُ قارب النّجاة، وأدارَ مقدمته ليواجه الأمواج، وهكذا فإنّ الأمواج والرياحَ الثّابتةَ عادةً يتعامدان بعضهما مع بعضٍ، فإذا دفعَ القارب وظلّ مربوطاً بمرساة بحريّة فإنّه سوف يستديرُ ليقاومَ الرياحَ، وهذا يعني أنّه طالما بقي محاذياً للأمواج وفي الزّاويةِ الصّحيحة مع الأمواج، فسوف يُسبّبُ انحداراً من الأمام إلى الخلف، وقد يكون أكثرَ راحةً من الميلان من جانب إلى آخر.

ومع وجود الطّوف بمحاذاة القارب اختفى تأثيرُ السّحب، ولم يكن هناك أيُّ شيء لتوجيه القارب مباشرةً نحو الريح، لذلك فقد انحرفَ جانباً وأخذَ يتمايلُ.

هذه التفصيلات كانت شيئاً أنقذَ حياتي، وجعلتْ ريتشارد باركر يشعرُ بالنّدم، فقد سمعتُ زئيرَه، وذلك أكّدَ حكمتي الجديدة، كان زئيرُه حزيناً غامضاً وقلقاً وأخرقَ. من المحتمل أن يكونَ سباحاً ماهراً، ولكنّه لن يكون بحاراً أبداً.

لديّ الفرصةُ إذن، لئلّا يصيبني الغرورُ بقدراتي على التّلاعب به. راودتْني في تلك اللّحظة فكرةٌ خبيثةٌ تماماً عمّا أنا منشغلٌ بمواجهته، فقد بدا لي ريتشارد باركر كقطبٍ مغناطيسيّ للحياة، بجاذبيّته الكبيرة وهويّته المفرطة.

كنت على وشك رفع نفسي فوق مقدّمةِ القارب، فسمعْتُ طنيناً خفيفاً يشقُّ طريقَه عكس الأمواج، رأيت شيئاً صغيراً يحطُّ على الماء بجانبي، إنّه صرصارٌ، طافَ على الماء ثانيةً قبل أن يبتلعَه فمٌ جاء من تحت الماء، بعد دقيقة قفزَ عشرةُ صراصيرَ أو أكثر إلى الماء على جانبي الطوف، كان كلٌّ واحد منها مطلباً لسمكة.

آخرُ تلك الأشكال الحيّة الغريبة كان منفصلاً عن سفينة، نظرتُ بحذرٍ من فوق الحفّة، أولُ شيء شاهدته قابعاً في لفّة المشمّع فوق مقعدِ المقدّمةِ، صرصارٌ كبيرٌ. ربما هو بطريرك تلك الزّمرة.

راقبتُه باهتمامٍ غريبٍ، فعندما قرّرَ أنّها اللّحظة الحاسمة، نشرَ جناحيه وارتفعَ في الهواء، وخشخشَ لدقيقةٍ ثمّ طافَ فوق قارب النّجاة للحظة، وكأنّه أرادَ أن يتأكدَ من أنّه لم يتركْ أحداً وراءه، ثمّ انعطفَ من فوق القارب نحو موته.

أصبحنا اثنين الآن، خلال خمسة أيامٍ تمّتْ إبادةُ سكّان القارب، إنسانُ الغاب والحمارُ الوحشيّ والزّرافةُ والضّبعُ والجرذُ والصراصير، عدا البكتيريا والديدان التي ربّما لا تزالُ حيّةً في بقايا الحيوانات، فلا حياةَ أخرى على قارب النّجاة إلّا ريتشارد باركر وأنا.

لم يكن فكري مُطمئناً، وقفتُ وفتحتُ غطاءَ الصندوق لاهثاً، تعمّدْتُ ألا أنظرَ تحت المشمّع خوفاً من أن تكون نظرتي تلك بمنزلة صرخةٍ تثيرُ انتباهَ ريتشارد باركر. فقط عندما أسندتُ الغطاءَ إلى المشمّع، تجرّأتُ بجعل حواسي تستعرضُ ما يقع خلفه، فقد اشتمَّ أنفي رائحةَ بولٍ عفنٍ حادّةٍ جداً، كرائحة كلّ أقفاصِ القططِ في حديقة الحيوانات.

النّمورُ حيواناتٌ إقليميّةٌ بامتياز، وتُميّزُ حدودَ إقليمها بواسطة بَولها، وهناك خبر جيدٌ بثيابٍ غبيّة، فالرائحةُ أتتْ بشكلٍ خاصٍّ من تحت المشمّع، يبدو أن إقليمَ النّمر الذي يطالب به مُحدّدةٌ بأرضية القارب، وهذا يحمل وعداً، فلو أنّني أستطيعُ أن أمتلكَ المشمّعَ، فحينها يمكنُنا التعايشَ معاً.

حبستُ أنفاسي، وأنزلتُ رأسي وأدرتُه إلى الجانب قليلاً لأتمكّنَ من رؤية ما خلف حافة الغطاء، رأيتُ نحو أربعة إنشاتٍ من ماءِ المطرِ تنسابُ إلى أرضيّة المركب، بركةُ ماءٍ نقيّةٍ خاصّةٍ بريتشارد. لقد فعل بالضّبط ما كنت سأفعله أنا، فلو كنتُ مكانه أبرّدُ نفسي في الظّل.

كان الطقسُ حاراً بشكلٍ وحشيّ، وكان مُمدّداً على أرضيّة القارب ووجهُه بعيد عني، ورجلاه الخلفيّتان ممدودتان كالعصيّ للخلف ومتباعدتان، مخالبُه الخلفيّة موجّهةٌ للأعلى، ومعدته وأعضاؤُه الدّاخليّة ملتصقةٌ مباشرةً بالأرض، وضعيّةٌ سخيفةٌ ولكنّها بدون شكّ جميلة.

عدتُ إلى عملي من أجل النّجاة، فتحتُ صندوقاً من طعام الطّوارئ، وأكلتُ حتى الشّبع نحو ثلث الرّزمة.

الجدير بالملاحظة أنّ كميةً قليلةً جعلتْ معدتي تشعرُ بالامتلاء، وقد كنت أوشك أن أشربَ من مجْمعِ ماءِ المطر المعلّق على كتفي، وقعتْ عيناي على أكوابِ الشّرب المدرّجة، فكّرْتُ: إذا لم أستطعِ الغوصَ في الماء، ألا يمكنُني على الأقلّ أن آخذَ رشفةَ ماء؟ إنّ مؤونتي من الماءِ قد لا تكفيني طويلاً، تناولْتُ أحدَ الأكواب، وانحنيْتُ فوق البركة، ثمّ أنزلْتُ الغطاءَ بقدر ما أحتاج، وبيدٍ مرتجفةٍ غمستُ الكوبَ في البركةِ الخاصّة بريتشارد باركر على بعدِ أربعةِ أقدامٍ من مخالبه الخلفيّة، وِسادتا قدميه المقلوبتان بفروهما المبلّلِ تشبهُ الجُزُرَ الصحراويّةَ المحاطةَ بأعشاب البحر.

حصلتُ على خمسمئةِ ميليمترٍ كاملةٍ، كانت حالكةَ اللّون قليلاً وتطفو بداخلها البُقع.

هل أقلقُ لهضمِ بعضِ البكتيريا الكريهة؟ لم أفكرْ بذلك، فالعطشُ احتلَّ كلَّ تفكيري، شربتُ الكوبَ حتى الثمالة بارتياحٍ تامّ.

الطبيعةُ منهمكةٌ بالتوازن، لذا لم يفاجئْني شعوري بالحاجة المُلحّة للتبوّل، فبعدَ شربي للماء مباشرةً، أرحتُ نفسي في الكوب، أخرجتُ نفسَ الكمّية التي أدخلتها بالضّبط، وكأنّه لم يمضِ دقيقةً واحدةً وأنا لا زلت آخذ بعين الاعتبار مياه المطر العائدةِ لريتشارد باركر.

ترددّتُ، شعرتُ بالحاجة الملحّةِ أن أسكبَ الكوبَ في فمي مرة ثانيةً، قاومْتُ رغبتي، ولكن بصعوبة.

اللّعنةُ على السّخرية، إنّ بوليَ كان لذيذاً، لم أكن أعاني من الجفاف حتى تلك اللّحظة.

وجدتُه سائلاً باهتاً، لمع في الشمس مثل كأسٍ من عصير التّفاح المكفولِ لأنّه طازجٌ، والذي بالتّأكيد لا يمكن أن أقولَه عن المياه المُعلّبة التي هي سلعتي الرّئيسيّة.

فطنْتُ إلى قرارٍ أفضلَ، نثرْتُ بولي على المشمّع وفوق غطاء الصندوق لأدعمَ قوّتي. سرقْتُ كوبين آخرين من ماء ريتشارد باركر دون أن أتبوّلَ هذه المرة، شعرتُ بالارتواء مثلَ نبتةٍ مزروعةٍ في قِدر.

حان الوقتُ لتحسين حالتي، رجعتُ إلى محتوياتِ الصّندوق والأشياء الكثيرةِ الواعدةِ التي يحتويها، أحضرْتُ حبلاً ثانيةً، ووثّقْتُ الطوف إلى قارب النّجاة.

اكتشفْتُ ما هو جهاز التّقطير الشمسيّ، إنّه جهازٌ لإنتاج المياه العذبة من المياه المالحة، فهو يتألّفُ من مخروطٍ شفافٍ قابلٍ للنّفخ وموضوع على طوق نجاةٍ دائريّ يشبهُ حجيرةً قابلةً للطّوف، لها سطح من الكتّان، مغطّىً بالمطّاط وممتدٌّ عبر المركز.

يعملُ هذا الجهاز بمبدأ التّقطير، إذ يُسخَّنُ ماء البحر المتجمّع تحت القمع المسدود الموجود على الكتان الأسود، بفعل الشمس ويتبخّرُ، ثمّ يتجمّع على السّطح الداخلي للقمع، يتقطّرُ الماءُ الخالي من الملح ويتجمّع في مجرىً صغيرٍ في محيط القُمع، ومن هناك يرشح إلى كيس، وكلّ قارب نجاة مجهّزٌ باثني عشر جهازاً.

قرأْتُ التعليماتِ بدقّة كما أخبرني الكتيّب، نفختُ الاثني عشرةَ قمعاً، وملأْتُ كلَّ حجيرة بالعشرة ليترات المطلوبة من ماء البحر، نظّمتُ الأجهزةَ

معاً، وربطْتُ نهايةَ ذلك الأسطول الصغير إلى قارب النّجاة، والنهاية الثانية إلى الطّوف. وهذا يعني ألّا أفقدَ أيّاً منها في حال أفلتتْ أيّة عُقدة، وأيضاً سيكون حبل طوارئ ثانياً يبقيني مربوطاً إلى قارب النّجاة. بدتْ الأجهزةُ جميلة وموضوعة بتقنيّةٍ، وهي تطفو على الماء، وبدت أيضاً واهيةً.

انتابني الشكُّ في قدرتها على إنتاج الماء العذب، ركّزتُ اهتمامي على تحسينِ الطوف، فتفحّصْتُ كلَّ عقدةٍ تربطُ أجزاءَه بعضها مع بعضٍ، وتأكّدْتُ من أنّ كلَّ واحدة مشدودة جيداً وآمنة.

بعدَ تفكيرٍ بسيطٍ، قرّرْتُ تحويلَ المِجداف الخامس «استراحة القدم» إلى ساري. فككْتُ المجدافَ، عملتُ به ثلماً بواسطةِ النّهاية الحادّةِ لسكّين الصّيد، وبعنايةٍ شديدةٍ في منتصف المسافة للأسفل، وبرأسِ السّكين ثقبتُ ثلاثَ فتحاتٍ عبر الجزء المسطّح، كان العملُ بطيئاً، ولكنّه مقنعٌ.

أبقيْتُ تفكيري مشغولاً بهذا العمل، وعندما انتهيْتُ، ربطْتُ المجدافَ بشكلٍ عامودي داخلَ واحدةٍ من زوايا الطّوف، واضعاً الجزءَ المُسطّح قمة الساري مرفوعاً في الهواء، واليدُ مختفيةً تحت الماء.

أدخلْتُ الحبلَ بالشّقّ لمنعِ المجداف من الانزلاق للأسفل ثمّ، وللتأكّدِ من أنّ الساري سيبقى عامودياً، ولكي أصنعَ خيوطاً لأعلّقَ السّتارةَ والمؤونة، أدخلتُ الحبالَ خلالَ الثّقوب التي عملتُها في قمّة الصاري، وربطتها إلى رؤوسِ المجاديفِ الأفقيّة، ربطتُ سترةَ النّجاة التي كانت مربوطةً إلى المجداف «استراحة القدم» إلى قاعدةِ الصاري، ستلعبُ دوراً مزدوجاً، وستزيدُ الطّفوَ لتعوضِ الوزن العامودي للصاري، وستكون مقعداً لي عالياً قليلاً.

رميتُ بطانيّةً فوقَ الحبال فانزلقَتْ. كانت زوايا الحبالِ منحدرةً كثيراً. طويتُ الحافةَ من جهةِ الطّول طيّةً واحدةً، وفتحتُ ثقبين في المنتصف إلى الأسفل على بُعدِ قدمٍ تقريباً.

ربطْتُ الفتحاتِ بخيطٍ سحبتُهُ من الحبل، ورميْتُ بطّانيّةً فوق الحبال ثانية، ثمّ جعلتُ الحبلَ يلتفُّ حولَ قمّةِ الصّاري. لديّ الآن خيمةٌ، لقد استهلكتُ معظمَ النّهارِ لإصلاحِ الطوف.

هناك الكثيرُ من التفصيلاتِ للاعتناء بها، الحركةُ المستمرّة للبحر، مع أنّه هادئٌ، جعلتُ عملي صعباً، وعليّ مراقبةُ ريتشارد باركر.

فالنّتيجةُ عدمُ الحصولِ على سفينةٍ شراعيّةٍ، وما دعوته صاري انهارَ على بعد بضعةِ إنشاتٍ فوق رأسي.

بالنّسبة لسطح الطّوفِ كان يتّسعُ للجلوس أو الاستلقاءِ بوضعيّةِ الجنين، لم أتذمّر، فهو ملائمٌ للبحر، وسينقذُني من ريتشارد باركر.

اقتربَ العصرُ من نهايته بالوقت الذي انتهيْتُ فيه من عملي، أخذتُ علبةَ ماء، ومفتاحَ علبٍ، وأربعَ قطعٍ من البسكويت من طعام النّجاة، وأربع بطانيّات، ثمّ أغلقتُ الصندوقَ بهدوءٍ شديدٍ هذه المرة، وجلستُ على الطّوف، ثمّ أرخيْتُ الحبلَ.

ابتعدَ قاربُ النّجاة، كان الحبلُ الرئيسيّ مشدوداً، بينما حبلُ الأمان الذي جعلتُه أطولَ يتدلّى مسترخياً، وضعْتُ بطّانيّتين تحتي وطويْتُهما بحذر حتى لا تلمسا الماءَ، ربطتُ الاثنين الباقيين حولَ كتفي، وسندْتُ ظهري إلى الصّاري، تمتّعْتُ بالارتفاع القليلِ الذي حصلْتُ عليه من الجلوس على

سترةِ النّجاة الإضافيّة، فقد كنتُ مرتفعاً عن الماء أقلّ من الارتفاع بالجلوس على مخدّةٍ سميكةٍ، وكلّي أملٌ ألّا أتبلّلَ بالماء كثيراً. تمتّعْتُ بطعامي وأنا أشاهدُ الشّمسَ تنحدرُ في سماء صافية. إنّها لحظاتٌ مُريحةٌ، فقبّةُ السَّماءِ ملوّنةٌ بطريقةٍ رائعة، والنجومُ متشوّقةٌ للمشاركة.

حالما سحبْتُ بطانيّةَ الألوان، حتى بدأتْ تتلألأُ باللّون الأزرق الدّاكن، أصبحَ النّسيمُ لطيفاً ودافئاً، والبحرُ يتموّجُ بهدوء، أمّا الماءُ فيعلو ويهبط مثلَ أناسٍ يرقصون في دائرة، ينضمّون بعضهم إلى بعضٍ، ويرفعون أيديهم، ثمّ يبتعدون ليتلاقوا ثانيةً، مرّاتٍ ومرّات.

نهضَ ريتشارد باركر، وظهرَ رأسُه وأجزاءٌ من كتفه فوق حافّة القارب. أجالَ نظرَه، صرخْتُ: مرحباً ريتشارد باركر، ولوّحْتُ له، فنظرَ إليّ، شخرَ وعطسَ، لم تُثِرْ كلمتي انتباهَه، شخرَ ثانيةً، يا لَهذا المخلوق المدهش، سحنةٌ نبيلةٌ، إنّه جديرٌ بلقبِ نمرٍ بنغاليّ ملكيّ.

اعتبرْتُ نفسي محظوظاً بطريقةٍ ما، ماذا لو انتهى بي الأمرُ مع مخلوق أحمقَ أو قبيحٍ مثل التابير أو النعامة أو سربٍ من طيورِ الدّيكِ الرّومي؟ ستكون صحبة متعبة بطريقةٍ أو بأخرى.

سمعتُ صوتَ رذاذٍ، نظرْتُ إلى الماء ففغرْتُ فمي، ظننْتُ أنّي وحدي. سكونُ الهواء وتلألُؤ الضوءِ والشعورُ بالأمان، كلّ ذلك دفعني للشّعور بالوحدة، فعادةً من يعطي الأمان هو الشّعورُ بالصّمت والعزلة، أليس كذلك؟

من الصّعوبةِ بمكانٍ أن تتخيّلَ أنّك بأمانٍ في محطّة المترو، أليس كذلك؟

إذنْ ما كلُّ هذا الهياج؟

بنظرةٍ واحدةٍ اكتشفْتُ أنّ البحرَ يشبهُ مدينةً من تحتي وحولي وجانبي، رأيتُ طرقاً سريعةً، جادّاتٍ وشوارعَ ودوّاراتٍ نشطةٍ بحركةِ مرورٍ تحت الماء، في تلك المياه الكثيفة الزجاجية والمبقّعة بملايين البُقع المشعّة، من العوالق والسّمك الذي يشبهُ الآليّاتِ والحافلات والسيّارات والدرّاجات والمشاة التي تتسابق بجنون، والتي دون شكّ، تزمرُ وتزعقُ بعضها على بعضٍ، كان اللونُ المسيطرُ هو الأخضر، وفي الفقاعاتِ الفسفوريّة الخضراء، التي تدلُّ على استيقاظ الأسماك السريعة، وكلّما تلاشى مسلكٌ، يظهر مسلكٌ آخر. هذه المسالكُ جاءت من كلّ الاتجاهات، واختفتْ بكلّ الاتجاهات، إنّها تشبه الصورَ الملتقطةِ للمدن في اللّيل، المترافقة مع الشرائطِ الحمراءِ الطّويلة للأضواء الخلفيّة للسيارات، مع الفارق أنّ السياراتِ هنا تسير فوق وتحت بعضها بعضاً، وكأنّها في سباقِ تبادل الأماكن، التي تراكمت على ارتفاع عشرة طوابق. والسياراتُ هنا ملوّنةٌ بألوانٍ حمقاءَ، فالسياراتُ الذهبيّةُ اللّون كثيرةٌ، عددُها يفوق الخمسين، تجولُ تحت الطّوف، تستعرضُ لونَها الذّهبي البرّاق، والأزرق والأخضر التي تعبُرُ بقربي، والأسماك الأخرى التي لم أستطعْ تمييزَها كانت صفراءَ وبنيةً وفضّيّةً زرقاء وحمراء ووورديّة وخضراء وبيضاء، ومزيجاً من كلّ الألوان المخطّطة والصلبة والمنقطة.

أسماك القرش فقط هي التي رفضَتْ وبعناد أن تكون ملوّنةً، ولكن مهما كان حجم أو لون الآليّة، فهناك شيءٌ واحدٌ ثابت؛ القيادة الغاضبة. هناك الكثيرُ من حوادث التّصادم، وكلّها ينتجُ عنها ضحايا، فالبعضُ من هذه السّياراتُ لفّت بقوة، وخرجتْ عن السيطرة، فاصطدمتْ بالحواجزِ وانفجرتْ فوق سطح الماء، ناثرةً زخّاتٍ من البريق.

حدّقْتُ في هذه الجلبة المدنيّة مثلَ شخصٍ يراقبُ المدينةَ من منطادٍ هواء ساخن، إنّه مشهدٌ عجيبٌ ومهيبٌ، هذا بالتأكيد تعتبره طوكيو ساعة الذروة.

تابعتُ النظرَ إليها حتى اختفتِ الأضواءُ في المدينة. وكلّ ما رأيتهُ في تسيم تسوم هي الدّلافين، كنت أعتقد أنّ المحيطَ الهادي، عدا المرور بمجموعاتٍ من الأسماك، هو مياهٌ ضائعةٌ متفرقةُ السكان، وقد تعلّمْتُ ذلك عندما كانت سفينةُ الشحن تلك تمرُّ بسرعةٍ كبيرةٍ بحثاً عن الأسماك.

إنّ رؤيتَك للحياة البحريّة من سفينةٍ تشبه رؤيتَك للحياة البرّية في غابةٍ من سيارة على الطريق.

إنّ الدلافينَ سريعةٌ جداً بالسّباحة، تلعبُ حول القواربِ والسّفنِ مثل الكلابِ التي تركضُ خلف السيارات، إنّها تركضُ وتركضُ حتى تعجزُ عن الاستمرار بالركض، فإذا أردْتَ رؤيةَ الحياةِ البرية، يجب أن يكون سيراً على الأقدام وبهدوء، وهكذا يمكنك استكشافُ الغابة، وهذا مشابهٌ تماماً لرؤيتِك للبحر، فإذا أحببْتَ مثلاً رؤيةَ الكنوز والثرواتِ التي يُخفيها فعليك أن تجوبَ المحيطَ الهادئَ بخطواتٍ وئيدةٍ.

جلستُ إلى جنبي، ولأوّل مرّةٍ أشعرُ بالهدوء منذ خمسةِ أيام. بعضُ الأمل الذي استحقَّ مني بعضَ الجهدِ والعقلانيّة أضاءَ نفسي.

شعرتُ بالنّعاس.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الستون

استيقظْتُ أثناء اللّيل، أزحتُ المظلّةَ جانباً ونظرتُ. كان القمرُ هلالاً والسّماءُ صافيةً تماماً، والنجومُ تشعُّ بلمعانٍ حادٍّ ومستمرّ، لدرجة أنّني وجدتُ من السّخافة القولَ إنّ اللّيل مظلمٌ. استلقى البحرُ بهدوء، يغتسلُ بضوءٍ خجولٍ خفيف، ورقصةُ الفضّيّ والأسْوَدِ اللذَين امتدّا إليّ كلّي.

إنّ حجمَ الأشياء كان محيراً، حجمُ الهواء فوقي، وكذلك حجم الماء حولي وتحتي، جعلتني نصفَ متأثّرٍ، ونصفَ خائفٍ، شعرت وكأنّني ماكانديا الحكيم الذي سقط من فم فيشنو بينما كان فيشنو نائماً، وهكذا شاهد العالمَ الكلّي وكلَّ ما فيه، وقبل أن يموتَ الحكيمُ من الخوف، استفاقَ وأعادَه إلى فمه.

لاحظتُ وللمرّة الأولى، كما كنت ألاحظُ باستمرارٍ خلال معاناتي بين نوبةِ الصّراعِ الأولى والثانية، بأنّ معاناتي تحدثُ في موقعٍ كبيرٍ، فقد رأيتُ معاناتي بأسبابها المحدودة والتّافهة، ولا زلتُ أراها كذلك.

إنّ معاناتي لا تتناسبُ مع أيّ معاناة، وأستطيعُ قبولَ ذلك، بدا كلُّ شيء حسناً وضوءُ النّهار الذي أثار احتجاجي؛ لا، لا، لا، إن معاناتي مهمّةٌ أريدُ أن أحيا، لا أستطيعُ إلّا أن أمزج حياتي بحياة الكون. إنّ الحياة ليست إلّا ثقب الباب، ذاك المدخلُ الوحيدُ الضيّقُ نحو الاتّساع.

كيف لا يمكنني العيشُ في هذا المشهدِ الصّغير والضيّقِ للأشياء التي أملكُها؟ إنّ هذا الثّقبَ الصّغيرَ هو كلُّ ما أملكُ، تمْتمْتُ بكلماتِ صلاةِ المسلمين، ثمّ عدتُ إلى النّوم.

الفصل الواحد والستون

في الصّباح التالي، لم أكنْ مبلّلاً كثيراً، وكنتُ أشعرُ بالقوّة، أعتقدُ أنّ هذا شيءٌ مميزٌ إذا أخذْنا بعين الاعتبار التّوتّر الذي كنتُ أعانيه، وكميّةَ الأكل القليلة التي تناولتُها في الأيّام الماضية.

قرّرْت أن أجرّبَ مقدرتي في صيد السمك للمرّة الأولى في حياتي، مستغلاً هذا اليومَ الجميل. فبعد أن تناولْتُ ثلاثَ قطعٍ من البسكويت، شربتُ علبةَ ماءٍ للفطور، وقرأت ما يقوله كتيّب النّجاة حولَ الموضوع. المشكلة الأولى هي الطُّعم، فكّرْتُ به، هناك حيوانات ميّتةٌ، ولكن سرقةُ الطعام من تحت أنف النّمر فكرةٌ لا يمكنني القيامُ بها. لن يعرفَ النّمرُ أنّ ذلك سيكون استثماراً سيعودُ عليه بنتائجَ ممتازة. قرّرْتُ استخدامَ جلد حذائي، فقد تبقّى عندي فردةٌ واحدة، فقدتُ الأخرى عندما غرقتِ السّفينة، زحفتُ إلى قارب النّجاة، وأخذْتُ من الصندوق سنّارةَ صيدٍ واحدة وسكّيناً وعلبةً لأجمع فيها ما أصطاده.

كان ريتشارد باركر مستلقياً على جنبه، تحرّك ذيلُه عندما كنت بمقدّمة القارب، ولكنّه لم يرفعْ رأسَه، أبعدتُ الطّوفَ وربطْتُ الخطّاف إلى الخيط الذي ربطته إلى السنّارة.

اختفتْ بعضُ الأقفال من الرّصاص، اخترتُ ثلاثةً لها شكلُ الطّوربيد، نزعتُ حذائي وقطّعته إلى قطع صغيرة، كان عملاً شاقاً، فجلدُه قاسٍ جدّاً. وبحذرٍ أدخلتُ الخطّاف بقطعة جلدٍ مستويةٍ لإخفائه، ليس عبرَها بل داخلها،

وذلك لأُخفي رأسَ الخطّاف أنزلتُ الخيطَ عميقاً، وجدْتُ الكثيرَ الكثير من الأسماك في اللّيلة السّابقة، لذا توقّعْتُ نجاحاً سهلاً.

لم أصطدْ أيَّ سمكة، اختفى حذائي كاملاً، قطعةً إثرَ قطعةٍ، جذبٌ خفيفٌ لخيطِ السّنارة وراءَ سحبٍ، سعادةُ السّمك الاستغلاليّ مرّةً إثرَ مرّة، خطّاف فارغٌ وراءَ خطّافٍ فارغ، حتى لم يتبقَّ عندي سوى النّعلِ المطّاطيّ وربطة الحذاء.

عندما أثبت رباط الحذاء أنه دودة أرض غير مقنعة، بدافع الغضب الشديد، جربت النعل، كله. لم تكنْ فكرةً جيّدةً، توقّعْتُ أن يكونَ سحبُ الخيطِ واعداً، ولكنّه خفيفٌ بشكلٍ كبيرٍ وغيرِ متوقّع. كلّما سحبْتُه فقدْتُ عدّةَ الصّيد، ولم يكنْ ضياعُها صدمةً قويّةً لي، فهناك خطّافاتٌ وخيوطٌ وأثقال أخرى في المعدات إلى جانبِ عدّةٍ أخرى كاملة، وحتى إنّني لم أكنْ أتصيّدُ السّمكَ لنفسي، فلديَّ الكثيرُ من الطّعام في المخزن.

لا يزالُ جزءٌ من عقلي «الجزءُ الذي يقول إنّنا لا نريدُ أن نسمعَ» يوبّخُني ويقول: للغباء ثمنُه، يجبُ أن تُظهرَ حرصاً أكثر، وحكمةً أكبر في المرّات القادمة.

فيما بعد، وبذلك الصباح، ظهرتْ سلحفاةٌ ثانيةٌ، اتجهْتُ مباشرةً نحو الطّوف، كان باستطاعتها الوصولُ إليّ وعضّ مؤخرتي، حين استدارَتْ لمستُ زعنفتَها الخلفيّة، ولكنّني عندما لمستُها تراجعَتْ بشيءٍ من الرّعب وانسحبَتْ بعيداً.

الجزءُ نفسُه من عقلي الذي يوبّخني لفشلي بالصّيد، عاد وأنّبني: ماذا تريدُ أن تطعمَ نمرَك بالضّبط؟ وبرأيك لِمَ ستكفيه ثلاثةُ حيواناتٍ ميّتة؟ وهل

عليّ أن أذكّرَكَ بأنّ النمورَ لا تأكلُ الجيف؟ تذكرْ أنّه يقفُ على رجليه الخلفيّتين، وربّما لم يرفعْ أنفُه كفايةً، ولكنْ ألا تعتقدُ قبلَ أن يُقْدِمَ على أكل الحمار الوحشيّ السّمين المتعفّن، أنّه سيجرّبُ أكلَ ولدٍ هنديّ وطازج، ويبعدُ عنه مسافةَ غطسةٍ قصيرةٍ؟ وماذا سنفعلُ بالنّسبةِ للماء؟ أنت تعلمُ كم تصبحُ النّمورُ فاقدةً للبصرِ عندما تكون عطشى، هل شممْتَ نَفَسه مؤخراً؟ إنّه كريهٌ للغاية، هذه إشارةٌ سيّئةٌ.

ربّما تتأمّلُ أنّه سيلعقُ المحيط، وعند إرواءِ عطشِه سيسمحُ لك بالسّير في أمريكا!!

إنّ المقدرةَ الخاصةَ التي طوّرتها نمورُ ساندربانز بإفراغِ اللّحم المذهلة تماماً، أعتقدُ أنّها قد جاءت من العيش في غاباتِ المدّ والجزر لأشجارِ المانغروف[1]. أظنُّ ذلك، ولكنّها استطاعةٌ محدّدةٌ.

ألا يُقالُ إنّ الإكثارَ من شرب المياه المالحة، يحوّلُ المرءَ إلى آكلٍ للنّمور؟ آه، انظرْ: إذا ذكرتَ الشّيطان، خرجَ لك.

إنّه هناك يتثاءبُ، عجباً ما أضخمَ هذا الكهفَ الورديَّ، انظرْ إلى تلك الهوابطِ والصّواعدِ، قد يكون لديك الفرصةُ اليومَ لزيارتها.

لسانُ ريتشارد باركر والذي يشبهُ كيسَ الماء الحارّ، تراجعَ وأغلقَ فمه وابتلعَ. أمضيتُ بقيّةَ نهاري مريضاً وقلقاً، وابتعدتُ عن قارب النّجاة على الرّغم من توقّعاتي المروّعة.

---

(١) **المانغروف:** اسمها الأيكة الساحلية وهي وصف لنباتات تعيش في البيئات الشاطئية المالحة. **[المترجم].**

قضى ريتشارد الوقتَ بهدوءٍ تامّ، لا زال لديه ماءُ المطر، ويبدو أنّه لا يهتمُّ بالجوع، ولكنّه أصدرَ أنواعَ النّمر المتنوعة، الزئيرَ والأنينَ وما شابه ذلك، وهذا ما لم يُرِحْني.

يبدو أنّ المعضلةَ غيرُ قابلةٍ للحلّ. إذ لا بدّ لي من الطُّعم لأصطاد السّمك، سأحصلُ على الطُّعم فقط حين أصطادُ السّمك. إذن ما الذي يُفترض أن أفعلَه؟ هل أستخدمُ إحدى أصابع قدميّ؟ أو هل أقطعُ إحدى أُذني؟

ظهرَ الحلُّ في وقتٍ متأخّرٍ من المساء، بطريقةٍ غير متوقّعة أبداً. إذ قمتُ بسحب نفسي نحو القارب، بل أكثر من ذلك، فقد صعدتُ عليه، وبدأتُ البحثَ في الصّندوق، بحثتُ بشكلٍ محمومٍ عن أيّ شيءٍ ينقذُ حياتي، ربطتُ الطّوفَ، فأصبحَ على بُعد ستّةِ أقدامٍ من القارب، تخيّلتُ أني وبقفزةٍ واحدةٍ وحلّ العقدة الرّخوة سأكونُ بأمانٍ من ريتشارد. اليأسُ هو ما دفعني إلى مثلِ تلك المخاطرة.

لم تقعْ يدي على شيء، لا طُعمٍ ولا حتى فكرةٍ جديدة.

جلسْتُ منتصباً فاكتشفتُ أنّني في النقطة الميّتة من مدى رؤيته، كان في الطرف الثّاني من القارب، حيثُ الحمارُ الوحشي، استدارَ واستقامَ بوقفته وكأنّه ينتظرُ بصبرٍ أن أراه.

ماذا حدثَ كيلا أسمعَ هياجَه؟ ما الوهمُ الذي تملّكني وجعلَني أعتقد أنّني قادرٌ على خديعته؟ فجأةً ضربْتُ على وجهي، صرختُ عالياً وأغمضْتُ عينيّ، وبسرعةِ السنّور قفزَ عبرَ المركب وضربني، كان يجب أن يخمشَ وجهي، فتلكَ هي الطّريقةُ التي يجبُ أن أموتَ بها، شعرتُ بألمٍ حادٍّ جداً، لكنّني فقدْتُ الشعورَ، بوركَتِ الصّدمةُ، بورك هذا الجزءُ منّا، الذي يحمينا من الألم الشّديد والحزن في قلب الحياة.

يوجدُ علبةُ صمّامات، همست: هيا يا ريتشارد، إنّها حياتي، ولكن أرجوك أن تفعلَ ما تودُّ فعلَه بسرعة، فالصمّام المنصهرُ يجبُ ألّا يُختبَرَ كثيراً.

أخذَ يتباطأُ، وقفَ عند قدميّ وبدأَ يصدر أصواتاً، لا شك أنّه اكتشف الصّندوقَ، واكتشفَ غِناه.

فتحتُ إحدى عينيّ بخوفٍ، إنّها سمكةٌ! سمكةٌ في الصندوق! تتخبّطُ وكأنّها خرجتْ للتّوّ من الماء، طولُها خمسةَ عشرَ إنشاً، ولها أجنحة، سمكةٌ طائرةٌ رماديّةٌ زرقاءُ غامقةٌ، وأجنحةٌ جافةُ الرّيش، وعيونٌ صغيرةٌ مستديرةٌ لا ترمشُ. لقد كانت سمكةً طائرةً تلك التي ضربتْ وجهي، وليس ريتشارد باركر، الذي مازال على بُعدِ خمسةَ عشرَ قدماً، ودون شكٍّ يتساءلُ عمّا سأفعلُه، ولكنّه شاهدَ السّمكة. استطعْتُ قراءةَ فضولٍ حادّ في وجهه، فهو على استعدادٍ ليتحققَ من الأمر.

انحنيْتُ والتقطْتُ السّمكة ورميْتُها نحوه، فهذه هي الطريقةُ الوحيدةُ لترويضه. ستذهب السّمكة الطائرةُ حيث ذهبَ الجرذُ. ولكن ولسوء الحظّ طارت السّمكة، وفي منتصف المسافة إلى فم ريتشارد المفتوحِ، انحرفتْ وسقطت في الماء.

حدثَ ذلك بسرعةِ البرق، أدارَ ريتشارد رأسَه، وأغلقَ فمه، وضربَ فكّيه، ولكنّ السّمكة كانت أسرعَ منه بكثير. بدت عليه الدّهشةُ وعدمُ الارتياح، التفَتَ إليّ ثانيةً: أين طعامي؟ وبدا من وجهه وكأنّه يستفسر.

انتابني الحزنُ والخوف، وبنصف قلبٍ ونصف أملٍ مفقودٍ تمكّنتُ من القفز إلى الطّوف، قبلَ أن يتمكّنَ من القفز عليّ.

في تلك اللّحظة بالذّات، حدثَ اهتزازٌ ما بالهواء، وصُدمنا بصفّ من الأسماك الطائرة، جاءت كسربِ جراد، لم تكنْ كثيرةَ العدد، ولكن تصدر شيئاً يشبهُ طقطقةَ وطنينَ أجنحةِ الحشرات. خرجتْ من الماء مئاتٌ منها، تطيرُ بعشوائيّةٍ على مساحة مئة ياردة في الهواء، بعضُها غطسَ في الماء أمام القارب، وبعضُها أبحرَ فوقه تماماً، والبعضُ سقطَ على جانبيه محدثاً صوتَ مفرقعاتٍ متفجّرةٍ. المحظوظُ منها عادَ إلى الماءِ بعد أن ارتطمَ بالمشمّع، والآخرون الأقلّ حظّاً، سقطوا في القارب محدثينَ جلبةً وتخبطاً وضرباً، ولا يزالُ البعضُ الآخرُ يطيرُ نحونا مباشرةً.

شعرتُ وأنا أقف دون حمايةٍ أنّني أعيشُ حياةَ العذاب مثل سانت سباستيان، فكلُّ سمكةٍ ضربتني ضربةً تشبه سهماً يخترقُ لحمي، أمسكتُ بطانيّةً لأحمي نفسي، بينما كنتُ أحاولُ الإمساكَ ببعضها، أُصبْتُ بجروح وكدماتٍ في كلّ جسمي، وقد وَضُحَ سببُ هذا الهجومِ في الحال، فقد كانت أسماك القطّ الذهبيّة تقفزُ خارج الماء في مطاردةٍ ساخنةٍ للأسماك الطائرة لا تستطيعُ أسماكُ القط الذهبية مجاراةَ الأسماك الطائرة بالطيران، بسبب كبر حجمها، ولكنّها أسرعُ بالسباحة، رئتاها الصغيرتان قويةٌ جداً، وتستطيعُ إدراكَ الأسماكِ الطائرة إذا كانت خلفها تماماً.

اندفعتْ من الماء بالوقت نفسه، والاتجاه نفسه. إضافة إلى أسماك القرش أيضاً التي تقفزُ من الماء ليس لمجرّدِ القفزِ بل بنتائجَ مدمرةٍ لبعض أسماك القطّ الذهبيّة.

لم يستمرّ هذا الصّخبُ المائيّ طويلاً، لكن أثناءَ حدوثه كان البحرُ يبقبق ويغلي، والأسماكُ تقفزُ، والفكوكُ تجتهد بالعمل.

كان ريتشارد باركر أقسى منّي في وجه تلك الأسماك، وأكثرَ براعةً، فقد رفعَ نفسه وسدّ عليها الطريق، يضربُ ويقضمُ ما استطاع منها، بل الكثيرُ منها أُكِلَتْ بكاملها وهي حيّة، حاولتْ بأجنحتها أن تقاومَ وتضربَ فمه، فكان استعراضاً باهراً للقوّة والسرعة.

في الحقيقة لم تكن السرعة الكبيرة تثيرُ الإعجابَ بقدر الثّقة العالية للحيوان، وانهماكه الشديد في تلك اللّحظة، إنّه مزيجٌ من السهولة والتركيز.

شعرتُ بالمتعة نفسها التي تُحسُّها أثناءَ ممارسة اليوغا.

عندما انتهى كلّ شيء، كانت النتيجةُ إلى جانب الألم في جسدي، ستّ أسماكٍ طائرةٍ في الصندوق، وعدداً أكبر بكثير في القارب، بسرعةٍ لففتُ السّمكة بالبطّانيّة، وأخذتُ بلطةً ثمّ اتّجهْتُ نحو الطّوف.

تابعت بعد تفكير: إنّ خسارتي لأدواتي، ذلك الصباح لها تأثيرٌ مزعجٌ جداً عليّ، لا يمكنني السماح بخطأ آخر.

أخرجتُ السّمكة من البطّانيّة بحذرٍ ضاغطاً بيدي عليها، ومدركاً تماماً أنّها ستحاولُ القفزَ بعيداً، وإنقاذَ نفسها. كلّما اقتربتِ السّمكة من الظهور ازددْتُ خوفاً وقرفاً.

برزَ رأسُها، فالطريقة التي أمسكتها بها كمن يمسك مغرفةً، التصقتْ لزوجتُها بالبطّانيّة الصّوفيّة، تلهثُ طلباً للماء، تفتح فمها وخياشيمها وتغلقُها ببطء، شعرتُ بها تدفعُ يدي بجناحيها، قلبْتُ الدّلو وأنزلتُ رأسَها إلى القاعة، أمسكْتُ بالبلطة ورفعتها في الهواء، ثمّ أنزلتها عليها عدّةَ مرّات، ولكنّني لم أستطعْ إكمالَ العملِ، فمثلُ هذه العاطفةُ قد تبدو سخيفةً باعتبار

ما رأيتُه في الأيّام الأخيرة، ولكن تلك كانت أعمال الآخرين، أعمالُ حيوانٍ مدمّر، أعتقد أنّني مسؤولٌ إلى حدّ ما عن موت الجرذ، ولكن ما فعلته كان مجردَ رميه بعيداً، فريتشارد هو الذي قتله.

الحياةُ النباتيّة المسالمة، هي التي وقفت حائلاً بيني وبين رأس السّمكة المقصود، غطّيْتُ رأسَ السّمكة بالبطّانيّة، وأدرتُ البلطة مرةً ثانيةً، طارت يدي في الهواء، ففكرةُ ضرب رأسٍ حيّ ناعمٍ بمطرقةٍ شيءٌ فظيعٌ بالنّسبة إلي.

وضعْتُ البلطةَ جانباً، وقررتُ أن أقطعَ رأسَها دون أن أراها، لففْتُ السّمكة بإحكام أكثر، وأخذتُ أحنيها بكلتا يدي، وكلّما ضغطتُ أكثرَ قاومَتِ السّمكة أكثر، تخيّلْتُ شعوري لو كنتُ أنا الملفوفُ بالبطّانيّة، وأحدُهم يحاولُ كسرَ عنقي، شعرتُ بالرّعب، وتخلّيْتُ عن الفكرة عدة مراتٍ، ومع ذلك أدركْتُ أنّه يجب أن يتمّ، وكلما انتظرتُ أكثرَ طالَتْ معاناةُ السّمكة.

بكيتُ بحرقةٍ، اجتهدْتُ بالأمر حتى سمعْتُ صوتَ تحطّمٍ، وبعدها لم أشعرْ بأيّ حياةٍ مقاومةٍ في يدي. فتحتُ البطّانيّة، وجدتُ السّمكة الطّائرةَ ميّتة، قمْتُ بفلقها، وقد غطّى الدّمُ إحدى جانبيها حتى الخياشيم. بكيتُ بحُرقة فوق هذه الرّوح الصّغيرة التي توقّفَت عن الحياة، فهي أوّلُ مخلوقٍ واعٍ قتلتُه في حياتي. فأنا قاتلٌ الآن، أنا الآن مذنبٌ مثل قايين.

آلمْتني كثيراً تلك المفارقةُ في حياتي، بين فتىً في السادسة عشرة من عمره، لا يؤذي أحداً، محبّ للكتب ومؤمن، يصبح الآن قاتلاً. يداي ملوّثتان بالدّم، إنّه حملٌ ثقيلٌ، كلّ الحياة الواعية المقدسة، لن أنسى هذه السّمكة في صلاتي.

أصبح الأمرُ سهلاً بعد ذلك، السّمكة الآن ميّتة، والسّمكة الطّائرة بدت كالأسماك التي كنتُ أراها في أسواق بوند تشيري.

كانت شيئاً مختلفاً، شيئاً خارجَ نطاقِ الخلق، قطّعتُها بالبلطة إلى قطعٍ صغيرة، ثمّ وضعتُها في الدّلو، وفي السّاعات المتبقّية من النّهار، حاولتُ الصّيد ثانيةً، لم يكن حظّي في البداية أفضلَ منه في الصباح، ولكنّ النجاحَ صارَ أقلَّ هروباً، قضمتِ الأسماك الخطّاف بحماسةٍ، بات اهتمامي واضحاً، لاحظت أنّها أسماكٌ صغيرة، صغيرةٌ نسبةً إلى الخطّاف، لذلك قذفتُ الخيطَ بعيداً، وتركتُه يغوصُ في الأعماق بعيداً عن الأسماك الصّغيرة التي تمركزَت حول الطّوف وعلى جانبي القارب.

حدث ذلك عندما استخدمْتُ رأس السّمكة الطائرة كطُعمٍ، وبغطسةٍ واحدة قذفتُ الخيطَ بعيداً، وسحبْتُه بسرعة جاعلاً الرأسَ يطفو على سطح الماء. وهكذا كانت الضربةُ الأولى. اندفعَتْ سمكةُ قطّ مذهّبة للأمام نحو الرّأس، تباطأْتُ قليلاً لأتأكدَ أنّها قد ابتلعتِ الطُّعم قبل سحب الخيط، اندفعتِ السّمكةُ على الخيط بشكلٍ جعلني أشعرُ أنّها ستسحبُني من الطّوف، نشّطْتُ نفسي، أصبحَ الخيط مشدوداً، كان خيطاً قوياً لم ينقطعْ، قمتُ بسحب السّمكة، قاومتْ بكلّ قوّتها، وهي تقفزُ وتغوصُ وتتخبّطُ، جرح الخيطُ يدي، فلففْتُها بالبطّانيّة وقلبي يخفقُ بشدّة، إنّها سمكةٌ بقوة ثورٍ، لم أكنْ على ثقة بأنّني قادرٌ على سحبها من الماء.

رأيْتُ كلَّ الأسماك تختفي من حول الطّوف والقارب، لا شكّ أنّها قد شعرتْ بمحنةِ السّمكة الذّهبيّة. أسرعتُ بالسّحب خشيةَ أن يجذبَ صراعُها أسماكَ القرش، ولكنّها قاتلَتْ كالشيطان، آلمتني ذراعي.

بكلّ مرّة أقربُها من الطّوف تهزمني، نوبةُ جنونٍ أخافتني ودفعتني لإرخاء الخيط.

نجحْتُ أخيراً بوضعها على سطح الطّوف، كان طولُها يصلُ إلى ثلاثة أقدام، لم ينفعِ الدّلو، فهو يصلحُ لها قبّعة، قمتُ بتثبيت السّمكةَ من خلال الرّكوع فوقها، وباستخدام يديّ، كانت كتلةَ عضلاتٍ تتلوّى، وذيلُها الطويل برزَ من تحتي، وأخذَ يضربُ الطّوفَ بقوّة، وتخيّلْتُ نفسي كراعي بقرٍ يقوم بالرّكوب القافز، وقد شعرْتُ بنشوة النّصر.

إنّ سمكةَ القط الذّهبيّة كبيرةٌ بشكلٍ مذهلٍ، ملأى باللّحم، ملساءُ وذاتُ جبهة منتفخة وقوة عظيمةٍ وزعنفةٍ طويلةٍ كعرف ديك، لها معطفٌ من الحراشف النّاعمة البرّاقة.

شعرتُ وكأنّني قد وجّهتُ ضربةً قويّةً للقدر باستحواذي على هذا الخصم العنيدِ والأنيق، بهذه السّمكة شعرتُ وكأنّني أنتقمُ من البحر والرياح وغرق السّفينة، ومن كلّ الظروف التي عملتْ ضدي. شكراً يا إله فيشنو، شكراً. صرختُ بأعلى صوتي: لقد أنقذتَ العالمَ مرّةً أخرى، عندما اتّخذْتُ شكلَ سمكةٍ، والآن أنت أنقذتني عندما أخذتَ هيئةَ سمكةٍ. شكراً، شكراً.

لم يعدِ القتلُ مشكلةً، سأجنّبُ نفسي المتاعبَ، ثمّ إنّها كانت من أجل ريتشارد، وسيُجهزُ عليها بسهولة، ولكنّ الخطّافَ عالقٌ في فمها، كنت مبتسماً لحصولي على السّمكةِ في نهايةِ سنارتي، سأكون أقلّ حماساً لو كانتْ نمراً.

قمتُ بعملي بطريقةٍ مباشرةٍ، أخذتُ البلطةَ بكلتا يديّ، وضربتُ السّمكة بعنفٍ على رأسها من جهةِ المطرقة، لم أقوَ على استخدامِ الجهةِ الحادّة للسّكين، فقد قامت السّمكةُ بعمل أشياء غيرِ عاديّة أثناء موتِها، بدأتْ تُصدرُ كلَّ الألوان وبوتيرةٍ سريعة، الأزرقُ والأخضرُ والأحمرُ والذهبي

والبنفسجي، أخذتْ تومضُ وتلمعُ كضوءِ النيون على جلدها، بينما كانت تقاوم، شعرتُ وكأنّني أضربُ قوسَ قزح حتى الموتِ.

اكتشفْتُ أخيراً أنّ سمكةَ القط الذّهبيّة تعلنُ عن موتها بتقزُّح ألوانها، ووقعَتْ بعد ذلك صامتةً، وأصبحَ لونُها داكناً.

استطعْتُ إزالةَ الخطّاف، وحاولتُ جاهداً استعادةَ جزءٍ من الطُّعم.

ربما ستُدهشُ من أنّني خلالَ فترةٍ قصيرة، استطعتُ الانتقالَ من البكاء المكتومِ على قتلي للسّمكة الطّائرة إلى الابتهاج بضربِ سمكةِ القطّ الذّهبيّة حتى الموت، ويمكنُني أن أفسّرَ ذلك بأنّ الفائدةَ من الأخطاء المِلاحيّة للأسماك الطّائرة أثارَ بي الشّفقة، وجعلني خجولاً وحزيناً، بينما متعةُ الإمساك بسمكِ القطّ النّشطة الكبيرةِ جعلني دمويّاً وواثقاً من نفسي، ولكن في حقيقة الأمر، فإنّ هذا التّفسيرَ يمكنُ بمكان آخر، إنّه أمرٌ بسيطٌ وقاسٍ، يمكنُ للمرء أن يعتادَ أيّ شيءٍ حتى القتل.

سحبْتُ الطّوفَ نحو قارب النّجاة بكبرياءِ صيّاد، اقتربْتُ به من جانب القارب، وببطءٍ شديدٍ أرجحْتُ يدي ورميتُ السّمكةَ إلى القارب، فسقطتْ عليه محدثةً صوتَ ارتطامٍ ثقيلٍ استفزّ ريتشارد، وأظهر انطباعاً غامضاً بعد أن شخرَ مرةً أو مرّتين، سمعْتُ صوتَ هرسٍ، إذ بدأَ فمهُ يعملُ. غادرتُ ولم أنسَ أن أُطلقَ الصّافرةَ عدّةَ مرّات، لتذكير ريتشارد بمن كان كريماً معه، وقدّمَ طعاماً طازجاً له.

توقّفْتُ لأتناولَ بعضَ قطع البسكويت وعلبةَ ماء، ماتتِ الأسماك الطّائرة الخمس، وكانت في الصندوق، نزعْتُ أجنحتَها ورميتُها بعيداً، ولففتُها بما

أسميها الآن بطّانيّة الأسماك، بالوقت الذي غسلتُ به نفسي من الدّم، ونظّفتُ أدواتِ الصيد، ووضعتُها جانباً، وتناولْتُ عشائي.

هبطَ اللّيلُ، وغطّتْ طبقةٌ خفيفةٌ من الغيوم القمرَ والنّجومَ، وأصبحَ اللّيلُ شديدَ الظّلمة.

كنتُ متعباً، ولكنّني فرحٌ بالأحداث التي وقعَتْ في السّاعات الأخيرة، شعوري بالانشغال جعلني راضياً، لم أفكر أبداً في محنتي، ولا بنفسي.

إنّ الصّيد حتماً طريقةٌ أفضلُ لقضاء الوقت من تبادلِ الحكاياتِ أو لعبة «أنا أرى». قرّرْتُ البدءَ بالصيد ثانيةً في اليوم التالي حالما يبدأ النهار. أخذني النومُ وبقيَ في ذهني وميضُ ألوانِ سمكةِ القط الذّهبيّة الميّتة كوميض الحرباء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني والستون

عانيتُ في تلك اللّيلة من نومي المتقطّع، وقبل شروق الشّمس بقليل، تخلّيْتُ عن فكرة العودة إلى النّوم، ورفعْتُ نفسي على مرفقي، فرأيْتُ بعيني الصغيرة نمراً، إنّه ريتشارد باركر كان متوتراً يئنُّ ويزأرُ، ويَذْرعُ القاربَ جيئةً وذهاباً، لا بدّ أنّ شيئاً ما مؤثرٌ حدث.

قيّمت الوضعَ، لم يكن ريتشارد جائعاً أو على الأقلّ لم يكن جائعاً بشكلٍ خطيرٍ، ثمّ إنّه لا يلهث، ولا تزالُ معدتُه ومخالبُه مبلّلةً، ولكنّها لم تقطرْ دماً، ربما لم يبقَ الكثيرُ من الماء على القارب، سيصابُ بالعطش قريباً.

نظرتُ إلى السّماء، اختفى غطاءُ الغيوم وصارتِ السماء صافيةً باستثناء بعض نُتَفٍ من الغيوم في الأفق، وهذا يدلّ على أنّه سيكون يوماً حاراً دون مطر، حتى البحرُ يتحركُ ببلادة، وكأنّه متعبٌ من الحرارة القادمة.

جلستُ مستنداً للصاري، وأخذتُ أفكّرُ بمشكلتنا، البسكويتُ ومعدات الصيد أمّنتْ لنا الطّعامَ، إنّ الصعوبةَ هي في تأمين الماء، فهناك الكثيرُ من الماء المتوفر حولنا، ولكنّه مشوبٌ بالملح، ربّما يمكنني مزجُ بعض من ماء البحر مع الماء العذب لديه، ولكن عليّ أن أبحثَ عن المزيد من المياه العذبة للبدء بذلك، لن تستمرَّ علبُ الماء كثيراً لو قُسّمتْ بيننا، في الحقيقة كنت كارهاً لأشارك ريتشارد باركر ولو بعلبةٍ واحدة، وستكونُ حماقةً أن أعتمدَ على ماء المطر.

إنّ أجهزةَ التّقطير هي المصدرُ الوحيدُ المحتملُ للحصول على مياه الشّرب.
نظرتُ إليها نظرةَ شكّ، كانت عاطلة عن العمل منذ يومين وجدتُ أنّ إحداها قد فقدتِ القليلَ من الهواء، سحبتُ الحبلُ لكي أربطه بها أفرغْتُ القمعَ من الهواء دون توقّعاتٍ حقيقيّةٍ، بحثتُ تحت الماء عن الجراب المربوط إلى الحجرة الدائريّة الطافية، أمسكَتْ يدي كيساً منتفخاً بشكلٍ غير متوقّع، انتابتْني رعشةٌ من الإثارة وسيطرَتْ على نفسي.

من الممكنِ أن يكونَ الماءُ المالحُ قد تسرّبَ إليه، فتحتُ الجراب، وباتّباعي للتّعليمات أخفضْتُه وأمَلْت الجهازَ كيلا يدخلَ إليه الماءُ من تحت القمع، ثمّ قفلتُ الصنبورين الصغيرين اللذين يؤدّيان إلى الجراب، وقمتُ بفصله وسحبه خارجَ الماء، كان مستطيلَ الشكلِ ومصنوعاً من البلاستيك الأصفر السّميك والنّاعم، وعلى أحد جانبيه علاماتُ معايَرَة. تذوّقْتُ الماءَ، تذوّقْتُه ثانية، إنّه خالٍ من الملح.

«يا بقرةَ البحر الجميلة» قلتُ ذلك لجهاز التّقطير، لقد أنتجَتْ، ولكن كيف؟!

ما ألذَّ هذا الحليبَ، ولعلمك إنّه ذو طعمٍ مطّاطيّ قليلاً، ولكنّي لا أتذمّر، انظرْ إليّ وأنا أشربُ.

شربتُ العلبةَ (الكيس) كلّه، لم يكنْ يحتوي أكثرَ من لترٍ واحدٍ، وهو ممتلئٌ تقريباً. بعد لحظة من التّنهّد أغمضتُ عيني، علامةُ الرضا.

أعدْتُ ربطَ المحفظة ثمّ تفقّدْتُ باقي أجهزة التقطير، كان لكلّ جهاز ضرعٌ ثقيلٌ، جمعتُ ثمانيةَ لترات من الحليب في دلو الصيد، لقد أصبحت هذه الأدواتُ الغريبة ذاتَ قيمةٍ كبيرةٍ بالنسبة إلي، كقطيعِ الأبقارِ بالنسبة للمزارع.

في الحقيقة لقد بدت لي هذه الأدواتُ التي تطوفُ بهدوءٍ على شكلِ قوس، وكأنّها أبقارٌ ترعى في الحقل، مددْتُ يد العون لاحتياجاتهم بعد أن تأكّدتُ من وجود ما يكفي من ماء البحر داخلَ كلّ واحدٍ فيها، وأنّ المخاريطَ والحجيراتِ منتفخةٌ إلى حدّ الضّغط المناسب بعد أن أضفْتُ بعض ماء البحر إلى محتويات الدّلو، وضعتُه على المقعد الخلفيّ خلف المشمّع تماماً.

ومع انتهاء برودةِ الصّباح، جلسَ ريتشارد بأمان، ربطتُ الدلو باستخدام حبلٍ وخطّافاتٍ المشمّع إلى جانب القارب، استرقْتُ النّظرَ بحذر من فوق الحافة، وجدتُه مستلقياً على جنبه، عرينه مخفيٌّ، والحيوانات الميّتةُ مكوّمةٌ بعضها فوق بعضٍ، بقايا مشوهةٌ لحيوانات نافقة.

لاحظتُ وجودَ رِجْلٍ أو اثنتين، بقعٌ مختلفةٌ لأجزاءَ مخفيّةً من الرأس، وعددٌ كبيرٌ من العظام، وانتشرتْ في المكان أجنحةُ السّمك الطّائر.

قطعتُ سمكةً طائرةً، ورميتُ قطعةً منها على المقعد الجانبي، ثمّ رميت قطعةً أخرى من فوق المشمّع أمام ريتشارد بعد أن جمعتُ ما أحتاج إليه من الصندوق، وكنت أوشك أن أغادر، بعد أن أدّتِ النّتيجةُ المتوخاة.

إذ رأيته وأنا أبتعد يخرج إلى المكان المفتوح ليحضرَ قطعةَ السمك، أدار برأسه، ولاحظَ وجودَ قطعةٍ أخرى، والشيءُ الجديدُ بجانبها، رفعَ رأسَه وأصبحَ رأسُه الضّخمُ فوق الدلو، خفتُ أن يقلبَه رأساً على عقب، ولكنّه لم يفعلْ.

اختفى وجهُه داخل الدلو، ولم تكد تتسع له، وبدأَ يلعقُ الماء، بعد وقتٍ قصيرٍ بدأ الدّلوُ يهتزُّ ويطقطقُ فارغاً مع كلّ ضربةٍ من لسانه، عندما رفع نظرَه، حدّقْتُ بعينيه بعدوانيّة، وأطلقتُ الصّافرةَ لعدّة مرّات.

اختفى تحت المشمّع، ومع انقضاء كلّ يومٍ أصبحَ قاربُ النّجاة يشبه إلى حدّ كبيرٍ حديقةَ الحيوانات أكثرَ وأكثر.

حصل ريتشارد باركر على ملجأ له للنّوم والرّاحة، ومخبأ للطّعام وللمراقبة، والآن حجرة مائه.

ارتفعتْ حرارةُ الجوّ، وأصبحتْ مؤذيةً. قضيْتُ بقيّةَ النّهار في ظلّ الخيمة أصطادُ السّمك، يبدو أنّه قد حالفني حظُّ المبتدئين مع سمكة القط الذّهبيّة الأولى، لم أصطدْ سمكةً واحدةً طيلةَ النّهار ولا حتى في المساء، عندما ظهرتِ الحياةُ البحريّة بكثرة، ظهرتْ سلحفاة من نوع آخر، هذه المرة سلحفاةٌ بحريّةٌ خضراءُ أضخمُ، وبقوقعة أكثر نعومة، ولكنّها غريبة ولها نفس منقارِ الصّقر. لم أفعل لها شيئاً، أعتقدُ أنّه عليّ فعلُ شيء.

الشيءُ الوحيدُ الجيّدُ في ذلك النهار الحارّ جداً، هو رؤيةُ ما أنتجتهُ أجهزةُ تقطيرِ الماء. فكلّ قمعٍ مغطى من داخلِه بقطراتٍ وسيالاتٍ صغيرة من الماء.

شارفَ النّهارُ على الانتهاء، أعتقد أنّه في الصباح القادمِ سيكونُ قد مضى أسبوعٌ كاملٌ على غرق سفينة تسيم تسوم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث والستون

عاشتْ عائلةُ روبرت سوم ثمانيةً وثلاثين يوماً في البحر. الكابتن بلايغ المشهور الذي قادَ التّمردَ على سفينة باونتي، عاش هو والبحّارةُ المنبوذون مدةَ سبعةٍ وأربعين يوماً. ستيفن كلاهان عاش ستةً وسبعين يوماً.

أويين تشينز الذي كانت حكايته عن غرقِ سفينةِ صيدِ الحيتان أيسيكس بوساطة حوتٍ، قد ألهمَتْ هيرمان مالفيل، قد عاش ثلاثةً وثمانين يوماً في البحر برفقة اثنين من زملائه، قطعها العيشُ أسبوعاً واحداً على جزيرة غير مأهولة.

عائلةُ بايلي، عاشت مئةً وثمانية عشر يوماً.

سمعتُ عن تاجرٍ بحّارٍ كوريّ يُدعى بوول على ما أعتقد، عاش في المحيط الهادئ مئةً وثلاثةً وسبعين يوماً، وذلك عام ١٩٥٠.

عشتُ مئتين وسبعةً وعشرين يوماً، وهي المدّة التي استهلكتْها تجربتي. وهي أكثرُ من سبعةِ أشهر، أبقيْتُ نفسي مشغولاً طوال الوقت، وهذا أحدُ مفاتيحِ نجاتي على قارب نجاة، وحتّى على طوف. فهناك دائماً ما يجب القيامُ به.

اليوم العادي بالنسبة إليَّ، إذا كان ما يجدرُ ذكرُه بالنّسبة لمنبوذ، كان يسير على النحو التّالي:

من الشّروق حتى منتصف الصّباح: الاستيقاظُ، الصّلاةُ، إفطارُ ريتشارد باركر، فحصٌ شاملٌ للطّوف وقارب النّجاة مع الانتباه الخاص لكلِّ العُقد والحبال، العنايةُ بأجهزة تنقية المياه من تنظيفٍ وفتحٍ، وملؤها بالماء، الفطورُ

وتفحّص مخزون الطّعام، صيدُ السّمك، وتحضيرُ الأسماك إذا جرى اصطيادُها، إذ أقومُ بإخراج الأحشاء، وتنظيفِ الجوف، وتعليق قطع اللّحم بخيوطٍ لمعالجتِها تحت قرصِ الشّمس.

من منتصفِ الصّباح حتى آخر النّهار: صلاةٌ، غداءٌ خفيفٌ، استراحةٌ ونشاطاتُ الاستراحة من مثل كتابة اليوميّات، وفحصِ بقعِ الجربِ والتّقرّحات وصيانة المعدّات، التسكّعُ حول الصندوق، ومراقبةُ ودراسةُ تحركاتِ ريتشارد باركر، وانتقاءُ عظام السّلاحف...

من العصر حتى بداية المساء: صلاةٌ، صيدُ السمك وتحضيرُه، تحضيرُ قطع اللّحم، إذ أقومُ بتقليبه وإزالةِ الأجزاء الفاسدة، تجهيزُ العشاءِ لي ولريتشارد.

الغروب: الفحصُ العام للطّوف وقارب النّجاة من عُقدٍ وحبال، جمعُ وحفظُ قطاراتِ أجهزةِ التّنقية، وتخزينِ كلّ الطّعام والأدوات، التحضيرُ من أجل الليل، فأقوم بترتيب السّرير، وأخزّنُ أسهمَ الإشارة تخزيناً آمناً في حال مرور سفينة، وتجهيزُ جامع المطر في حال كان هناك مطر، الصلاةُ.

الليل: نومٌ متقطّعٌ، صلاةٌ.

كانت الصباحاتُ بشكل عام أفضلَ من فترات المساء، فعندما يقرّرُ الفراغُ أن يُظهِرَ نفسَه، سيؤثّرُ أيُّ حدث على هذه الرتابة، كسقوط المطر بأيّ وقتٍ من النهار أو الليل، يوقفُ بدوره كلَّ الأعمال الأخرى، وطوالَ استمراره كنت أمسك جامعَ المطر، وأنشغلُ بتخزين ما ينتجُه، كذلك زيارةُ السلحفاة، فأنا أعدُّها تعطيلاً كبيراً.

وأمّا ريتشارد، فقد كان طبعاً يشكّلُ إزعاجاً نظامياً، فإيجادُ مسكنٍ له، كان الأولويّةَ التي لم أكن أستطيعُ تجاهلَها ولو للحظة واحدة. لم يكن يفعل

الكثيرَ عدا الأكل والشرب والنوم، ولكن عبر أوقاتٍ يتحرّكُ فيها بعد خمول، ويتجوّلُ في منطقته، ويثيرُ الصّخبَ، ويصبحُ غريبَ الأطوار. لحسن الحظّ كانت الشمس والبحرُ يسبّبان له التعبَ سريعاً، ولذلك يعودُ إلى مكانه تحت المشمّع، ويستلقي على جنبه أو يتمدّدُ على بطنه، واضعاً رأسَه على قدميه الأماميتين المتصالبتين، ولكن هناك الكثيرُ لأتعاملَ به معه أكثر من الحاجات المحدّدة. أمضيْتُ الساعاتِ وأنا أراقبُه لأنّ ذلك تسليةٌ لي.

فالنمر حيوانٌ مدهشٌ في كلّ الأوقات، وأكثر من ذلك عندما يكون رفيقك الوحيد.

في البداية كان البحثُ عن سفينةٍ شيئاً قهرياً، ولكن بعد بضعة أسابيع خمسةٍ أو ستةٍ، توقّف عن فعل ذلك بشكل نهائي تقريباً.

لقد نجوتُ لأنّني جعلتُ النّسيانَ هو الأمر المُهمّ.

بدأتْ قصتي بتاريخ الثاني من تموز عام ١٩٧٧، وانتهتْ في الرابع من شباط ١٩٧٨، ولكن بين هذين التاريخين لم أعتمدْ أيّ تقويم، لم أُحصِ الأيامَ ولا الأسابيعَ ولا الشهور، فالوقتُ ليس إلا وهماً، يجعلنا نلهثُ فقط، لقد نجوتُ لأنّني نسيتُ حتى كلَّ جزءٍ من الوقت، ما أتذكره هو الأحداثُ والمواجهاتُ والرّتابةُ وعلاماتٌ انبثقتْ من هنا وهناك في محيط الزمن، وانطبعتْ في ذاكرتي رائحةُ عبواتِ أسهمِ الإشارة المستخدمة وصلوات الفجر، وقتل السّلاحف، وبيولوجيا الطّحالب على سبيلِ المثال، وأشياء كثيرة أخرى، ولكنّني لا أعرفُ إذا كان باستطاعتي وضعها بالترتيب، فقد اختلطتِ الأشياءُ في ذاكرتي.

الفصل الرابع والستون

ثيابي المتّسخةُ ضحيّةُ الشّمس والملح، ففي البداية أصبحَتْ نسيجاً رقيقاً، ثمّ تمزّقتْ ولم يبقَ منها سوى الدّرزات، وفي النّهاية تمزّقَتِ الدّرزاتُ. عشتُ لأشهرٍ عدّة عارياً تماماً إلا من الصّافرة المتدلّية من رقبتي بخيط. أمّا ماءُ البحر فقد أصبحَ يغلي ويتحوّلُ إلى اللون الأحمر، غاضباً ومشوهاً وكأنّه مصابٌ بجُذام البحار العالية، وقد انتقل إليّ بوساطة المياه التي بلّلتني، أصبح جلدي شديدَ الحساسيّة في الأجزاء التي أصيبتْ، وكم صرختُ عالياً كلّما حككتُها بشكل عرضي، طبعاً تلك الحبوبُ ساءتْ أكثرَ في أجزاء من جسدي، الأجزاء التي تلامسُ وتحتكُّ بالأجزاء الأكثر رطوبة من الطّوف، أمّا ظهري فلأيامٍ عديدة، كنتُ أجد صعوبةً كبيرةً في إيجاد وضعٍ يمكنُ أن يريحني.

أشعةُ الشّمس والوقتُ كلاهما يحملان لي الألم، ولكن تطوّر الألمِ أكثرُ بطئاً.

كما ظهرتْ لي حبوبٌ جديدةٌ لأنّني لم أستطِعِ الحفاظَ على نفسي جافاً.

الفصل الخامس والستون

قضيْتُ ساعاتٍ طِوالاً محاولاً كشفَ معاني السّطور في كتيّبِ النّجاة في الملاحة، فهي مجرّدُ شروحاتٍ بسيطةٍ وواضحةٍ عن كيفية العيش في البحر، مكتوبة باستفاضة، ولكنّ المعرفةَ الأساسيّةَ عن الطريقة التي تساعدُك لتكونَ ملّاحاً كانت مجرد فرضيّاتٍ من المؤلف.

كان المنبوذ بالنسبة إليه بحاراً متمرّساً، يفهم ويخطط ويستخدم آلة السدس، ويعرف كيف يجدُ طريقَه إلى المتاعب، وكذلك كيفية الخروج منها، فهي بالنّتيجة جملةُ نصائحَ مثل: تذكّرْ أنّ الوقتَ هو المسافةُ، لا تنسَ ضبطَ ساعتك، أو يمكنُك قياسُ خط العرض بأصابعك إذا اضطررْتَ لذلك.

كان لديّ ساعةٌ، ولكنّها تقبع الآن في قعر المحيط، أضعتُها عندما غرقت تسيم تسوم. وبالنسبة لخَطَّي العرض والطّول، فإنّ معرفتي الملاحيّة محدّدةٌ تماماً بما يعيشُ في البحر، ولا تمتدُّ إلى أبعدِ من ذلك.

كانت الرّياحُ والتياراتُ شيئاً غامضاً بالنسبة إلي، والنجومُ لم تكن تعني لي شيئاً، لم أستطعْ إطلاقَ اسمٍ لأيّة مجموعة كواكب.

فقد عاشت عائلتي بواسطة نجمٍ فقط وهو الشّمس، كنّا ننام باكراً، ونستيقظُ باكراً، لقد شاهدت في حياتي الكثيرَ من الليالي الملأى بالنجوم.

وكانت تُرسمُ الطبيعةُ بلونين فقط، وبأبسط الأساليب وأجمل الصور. انتابني شعورُ الإعجاب الذي شعر به جميع أفراد عائلتي، وحصلتُ على الإحساس الواضح للاتّجاهات، على الغالب من مشاهدة ذلك.

عُنيت بذلك الإحساس الرّوحي وليس الإحساس الجغرافي، لم يكن لديّ أدنى فكرة كيف يمكنُ للسّماء في الليل أن تكونَ خريطةً للطريق، كيف يمكنُ للنّجوم المتلألئةِ أن تساعدَني في الاهتداء إلى الطّريق إذا كانت تتحرّكُ باستمرار.

توقّفتُ عن محاولة اكتشاف ذلك، فأيُّ معلومة يمكنني الحصولُ عليها لن تكونَ ذات فائدة، إذ لم يكن لديّ أيّةُ طريقة للتّحكّم بوجهتي، وليس لديّ دفّةُ قيادة أو أشرعةٌ أو محرّكٌ، لديّ فقط بعضُ المجاديف وعضلاتٌ عاجزة.

ما فائدةُ رسمِ الاتّجاهات إذا لم أستطعِ العملَ عليها، حتى لو كنتُ أستطيع، فكيف لي أن أعرفَ إلى أين يمكن أن أذهبَ، غرباً إلى حيث أتينا أم شرقاً حيث أمريكا؟ شمالاً إلى آسيا أم جنوباً حيث ممرات السفن؟ كلّ اتجاهٍ منها جيّدٌ وسيِّئ بالوقت نفسه.

وهكذا جرفني التّيّارُ، إذ إنّ الرياحَ والتياراتِ هي التي تقرّرُ أين أذهبُ، أصبح الزّمنُ هو المسافة لي، كما هو بالنسبة لكلّ المخلوقات.

سافرتُ على درب الحياة، واستخدمْتُ أصابعي لأكثرَ من قياس خطّ العرض. اكتشفْتُ فيما بعد أنّني اتّخذتُ طريقاً ضيّقاً عكس التّيّار الاستوائي في المحيط الهادئ.

الفصل السادس والستون

اصطدْتُ السّمك بأكثرَ من خطّاف، وعلى أعماقٍ مختلفة وأنواعٍ مختلفة من السّمك، وجعلتُ الخطافات الكبيرة وأثقالاً مختلفةً لأسماك الأعماق، والخطافات الأصغرَ والأثقالَ الأخفّ لأسماكِ السّطح.

أتى النّجاحُ بطيئاً، وشعرتُ بالامتنان لمجيئه، ولكنّ المكافأةَ لم تكن تعادلُ الجهد، فالسّاعاتُ طويلةٌ، والأسماكُ صغيرةٌ، وريتشارد باركر جائعٌ دائماً.

ثبتَ رمحُ الأسماك أخيراً، إنّه أفضلُ معدات الصّيد، يأتي الرمح بثلاثة أجزاءٍ، جزءٌ أنبوبيٌّ يشكّلُ المقبض، وقبضةٌ مغلقةٌ بالبلاستيك، وفي نهايتها حلقةٌ لتثبيتِ الرّمح بحبلٍ، ورأسٌ مؤلفٌ من خطّاف بطولِ إنشين تقريباً، وينتهي برأسٍ شوكيّ حادّ. وكلُّ رمحٍ بطول خمسة أقدامٍ تقريباً، خفيفُ الوزن ومتينٌ مثل السّيف.

في البداية اصطدْتُ في المياه المفتوحة، أنزلتُ الرّمحَ إلى عمقِ نحو أربعةِ أقدام، وفي بعض الأحيان قمتُ بوضع سمكةٍ على الخطّاف كطُعمٍ وانتظرت، كنتُ أنتظر أحياناً ساعات، يتشنّجُ جسمي حتى يؤلمني.

عندما تكون هناك سمكة في البقعة المناسبة، كنتُ أهزّ الرمح هزاً عنيفاً بكلّ قوّةٍ وسرعةٍ أستطيعها، ثمّ أنتقل إلى قرارٍ آخر.

علّمتْني التجاربُ أن أضربَ عندما تكون الفرصةُ مناسبة، وهذا أفضلُ بكثير من أن أضربَ ضرباً عشوائيّاً، إذ إنّ الأسماك تعلّمتْ من تجاربها أيضاً، فمن النّادر أن تقعَ في نفس الشّرك مرتين.

عندما أكون محظوظاً، وتعلَقُ سمكةٌ في الخطّاف وتموتُ، أستطيع أن أجلبَها إلى السّطح بكلّ ثقة، ولكن إذا طعنتُ سمكةً في بطنها أو ذيلها فإنّها غالباً ما تهربُ، وهي تهتزُّ وتتّجهُ بسرعة إلى الأمام، ستصبحُ بسهولة فريسةً لمفترسٍ آخر، هديةٌ لم أقصد تقديمَها، وبالنّسبة للسّمكة الكبيرة أصوّبُ على منطقة الاست أسفل الخياشيم، وتحت الزّعانف الخلفيّة، إذ إنّ ردَّ الفعل الغريزيّ للسّمكة عندما تُصاب هو السباحةُ نحو الأعلى بعيداً عن الخطّاف، بنفس الاتّجاه الذي أسحبُها منه، ولذلك يحدثُ أحياناً أن تنطلقَ أسرعَ من الرمح، تندفعُ من الماء أمام وجهي، فأفقدُ قدرتي على السّحب عند ملامستي لكائنٍ بحريّ حيّ، لم أعدْ أرغب بالقيام بهذا النوع من الأعمال التجارية بعد الآن.

كانت السّمكة المندفعةُ من الماء تواجهُ صبيّاً جائعاً يتعلّم باللّمس، يُسمحُ له بالاقتراب منها والقبض عليها.

إذا شعرتُ أنّني لا أمسكُ بالرّمح جيّداً، فإنّني سأفلته. لم أنسَ أن أربطه من الطّوف بحبلٍ، وسأقبضُ على السّمكة بيدي رغم أنّ يدي كليلةٌ، إلا أنّها أكثرُ رشاقةً من الخطّاف، هذا الصّراعُ سيكون سريعاً وقوياً، فكلّ تلك الأسماك زلقةٌ ويائسةٌ، وأنا بدوري يائسٌ جداً. أتمنّى أن يكونَ لديّ أذرعٌ بعدد أذرع الإله دورغا، لحملِ الرّمح، وأربع للإمساك بالسّمكة، واثنتان لاستخدامها مثل البَلْطة. ولكن عليّ القيامُ بذلك بيدين اثنتين.

غرستُ أصابعي في عينَيها، وأدخلتُ يدي في الخياشيم، وحطّمتُ معدتَها بركبتي، ثمّ أمسكتُ الذيلَ بأسناني، لقد عملتُ كلّ ما هو ضروري للإمساك بالسّمكة حتى يتسنّى لي الوصولُ للبلطة وقطع رأسِها، ومع مرور الوقت والخبرة أصبحتُ صياداً أفضلَ، أصبحت أكثرَ شجاعةً، وأكثر رشاقةً، تطوّرتْ لديّ غريزةُ الشعور بما يجبُ أن أفعل.

تحسَّن نجاحي بشكلٍ كبيرٍ، عندما بدأت أستخدمُ جزءاً كبيراً من شبكة الحمولة، لا تصلح أن تكون شبكةَ صيد، فهي ثقيلةٌ وقاسيةٌ، وحبكتُها ليست ضيّقةً كفاية، ولكنّها صالحةٌ تماماً لأن تكونَ شركاً.

انغماسُها بالماء بسهولةٍ شكّل جذباً لا يقاومُ للأسماك، وأصبحتْ أكثرَ جذباً عندما بدأتْ أعشابُ البحر بالنّمو عليها، أصبحتِ الأسماكُ محلية في نطاق الشبكة، وجاورتْها الأسماكُ السّريعةُ التي تنطلقُ بسرعة بجانبها، مثل أسماكِ القطّ الذّهبيّة، فهي تتباطأُ لتزورَ هذه المنشأةَ الجديدة.

لم تَرْتَبِ الأسماكُ القاطنةُ ولا المسافرةُ بوجود خطّاف مخبّأ في طيّاتها.

ولسوء الحظ قليلةٌ تلك الأيامُ التي استطعْتُ فيها جمعَ كلّ الأسماك التي أريدُها حول الرمح، ففي تلك الأيام استطعْت اصطيادَ أكثرَ من حاجتي، وأكثر من قدرتي لإسكات جوعي، لم يكن هناك متّسعٌ على القارب أو على حبال الطّوف لتجفيف الكثير من أسماك القطّ، والأسماك الطائرة، وأسماك الخنزير، والأسماك الكبيرة، وأسماك الإسقمري، ولا متّسع في معدتي لأكْلِها جميعِها، لذا احتفظْتُ بما استطعتُ الاحتفاظ به، وأعطيْتُ الباقي لريتشارد باركر. خلالَ أيّام الوفرة، وضعتُ يدي على الكثير من الأسماك، لدرجة أنّ جسمي بدا يلمعُ من كلّ أنواع الأسماك التي التصقَتْ به.

كانت تلك البقع الفضّية اللّامعة مثل التاكو، وهي بقعةٌ من اللّون نضعُها نحن الهندوس على جباهِنا كرمزٍ ديني. لو جاء إليّ البحارةُ، فبكلّ تأكيد سيعتقدون أنّني إله السمك، واقفٌ على قمة مملكته، ولن يتوقّفُوا عن التفكير بذلك. تلك كانت الأيّامَ الطّيبةَ، وقد كانتْ نادرةً.

إنّ الإمساكَ بالسّلاحف سهلٌ تماماً، كما قال كتيّبُ النّجاة تحت عنوان «الصيد والجمع»، فإنّها تندرج تحت عنوان الجمع، وعلى الرغم من كونِها صلبةً في تكوينها مثل دبابة، فإنّها لم تكن سريعة، ولا ماهرة بالسباحة. يمكنك بيدٍ واحدة الإمساكُ بزعنفتها الخلفية. لقد فشل كتيّب النّجاة في ذكر أن الإمساك بالسّلاحف ليس كالاحتفاظ بها، لا أزالُ بحاجة لجلبها إلى القارب، إذ لم يكن سحبُ سلحفاةٍ مقاومةٍ تزنُ مئةً وثلاثين باونداً إلى متن القارب عملاً سهلاً أبداً، بل هو عملٌ يتطلّبُ قوّةً تعادل قوة (هانومان)، كنت أقوم بجلب السلحفاة إلى جانب القارب، والقوقعةِ نحو بدن القارب، ثمّ أربط حبلاً إلى رقبتها وزعنفتها الأماميّة والخلفيّة، ثمّ أسحبُ حتى أحس أن يديّ ستُخلعان، ورأسي سينفجرُ.

مرّرْتُ الحبل حول خطّافات المشمّع في الجهة الأخرى من المقدّمة، كلما ارتخى الحبلُ قليلاً أضمن حصولي على السلحفاة قبل أن ينزلقَ ثانيةً، وكنت أسحب السلحفاة إنشاً حتى تخرجَ من الماء، وقد أخذَ منّي الكثير من الوقت. أذكرُ أنّ إحدى السّلاحف بقيتْ معلقةً إلى جانب القارب لمدة يومين، بينما كان جسدُها يتقلّبُ، وزعانفها تضربُ الهواءَ. لحسن الحظ في المرحلة النهائية، وعلى شفة الحافة، حدث أن ساعدتني دون أن تقصدَ ذلك، في محاولةٍ لتحريرِ زعانفها المُلتفّة، تسحبُ نفسها عليها، ولو سحبتُ أنا باللّحظة نفسها، فإنّ

جهودَنا ستتوحّدُ، ومن ثَمَّ يصبحُ ذلك سهلاً، وبحركة دراماتيكية تندفعُ السلحفاة فوق الحافة، وتنزلقُ على المشمّع، وأسقطُ أنا على ظهري مرهقاً، ولكن مبتهجٌ.

إن السّلاحف البحريّةَ الخضراءَ تعطي لحماً أكثرَ من السّلاحف ذات منقار الصقر، وزعنفتها البطنيّة أقلُّ ثخناً، ولكنّها أكبرُ من سلحفاة منقار الصّقر، وغالباً ما تكون كبيرةً لدرجةٍ يصعبُ على منبوذٍ ضعيفٍ مثلي أن يسحبَها من الماء.

يا إلهي إنّي نباتيٌّ متزمّتٌ، أذكر أنّني في طفولتي، كنت دائماً أرتجفُ لمجرد نزعي لحاءَ الموزة، لأنّها تصدرُ صوتاً، بالنسبة إليَّ، يشبه صوتَ كسرِ عنقِ حيوان، الآن انحدرْتُ إلى مستوىً من الوحشيّة، لم أكن أتصوّره يوماً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع والستون

أصبحَ الوجهُ السفليُّ للطّوف مسكوناً بالحيوانات البحريّة المتنوّعة مثل شبكة، ولكن بشكلٍ أصغر.

كما بدأتْ تنمو طحالبُ خضراءُ، التصقتْ بستراتِ النّجاة، انضمّتْ إليها أنواعٌ داكنةٌ وخَشُنَتْ من الطّحالب، نمَتْ جيداً، وأصبحتْ كثيفةً، ظهرتْ حياةٌ حيوانيّة.

فكان أوّل ما شاهدته، هو القريدسُ الصغيرُ الشفّافُ الذي لا يصلُ طوله إلى نصف إنش، يتبعها أسماكٌ ليست أكبرَ منها، بدتْ وكأنّها تحت أشعّة إكس دائمة.

بانتْ أعضاؤُها الدّاخلية تحت جلدها الشفاف، وبعد ذلك رأيتُ الديدان السوداءَ بظهورها البيضاء، والبزّاقاتِ الهلاميّةَ الخضراءَ بأطرافها البدائيّة، والأسماكَ متعددةَ الألوان ببطونها الكبيرة، التي لا يتجاوزُ طولها الإنش، وأخيراً السرطاناتُ التي لا يتجاوزُ طولها نصف أو ثلاثة أرباع الإنش ذات اللّون البنّي. جرّبتُ كلَّ شيء عدا الديدان والطّحالب، فالسّرطانات فقط لم يكن طعمُها كريهاً أو مرّاً أو مالحاً.

كلّما ظهرتْ لي، قذفتُها إلى فمي واحداً تلو الآخر، مثل الحلوى، حتى لم يتبقَّ أيٌّ منها، لم أستطعِ السّيطرةَ على نفسي، فقد كان الانتظارُ طويلاً ما بين محصولِ سرطاناتٍ وآخر.

صارَ جسمُ القارب موطناً لحيواناتٍ أخرى أيضاً، البرناقيل[1] رقبةُ الوزّة، كنت أمتصُّ سوائل جسمها، وأعملُ من لحمها طُعماً جيداً لصيدِ الأسماك. أصبحتُ متعلقاً بهؤلاء المتجولين في أعماق المحيط، على الرّغم من أنّها زادتْ وزن الطّوف قليلاً، وقد أضحتْ سبباً للّهو مثل ريتشارد باركر.

قضيتُ ساعاتٍ طويلةً لا أفعلُ شيئاً إلّا الاستلقاءَ على جنبي.

انزاحتْ إحدى ستراتِ النّجاة من مكانها بضعةَ إنشاتٍ، وكأنّها ستارةُ نافذة، لذلك أصبح لديّ مشهدٌ واضحٌ، فما رأيتُه هو مدينةٌ مقلوبةٌ رأساً على عقب، صغيرةٌ هادئةٌ وآمنة، سكانّها عمّالٌ لملائكة، مشهدٌ يبعثُ الراحة لأعصابي التي اعتراها الضّعف.

الهيئة العامة للموارد البشرية

(١) **البرناقيل:** محار يعيش في المياه المالحة، يلتصق بالأشياء تحت الماء ، يوجد على دعامات أرصفة الموانئ والصخور والسلاحف والحيتان وقيعان السفن. يقضي المهندسون البحريون كثيراً من الوقت في إجراء التجارب لمنع البرنقيل من الالتصاق بالسفن والأرصفة. **[المترجم]** .

الفصل الثامن والستون

تغيّر نمطُ نومي مع أنّني كنتُ أرتاحُ طوالَ النّهار، ونادراً ما كنتُ أنامُ ممدّداً أكثرَ من ساعة واحدة في اللّيل، ولم تكن الحركةُ الدّائبةُ للبحر هي التي تُقلقُني، ولا حتى الرياحُ، فسوف تعتادُها كما اعتدْتَ على النتوءات في الفراش.

إنّ القلقَ والخوفَ من شيءٍ مُرْتَقَبٍ هو ما أبقاني صاحياً، وهذا هو السّببُ في حصولي على القليل من النّوم.

على عكس ريتشارد باركر، الذي أصبح بطلاً بالنّوم، إذ كان يستلقي معظمَ الوقت تحت المشمّع، ولكنّه يخرجُ عندما تخفُّ حدّةُ الشّمس، وكذلك في اللّيالي الهادئة، كانت أحبّ الوضعيّات له في الجزء المفتوح من القارب، هو الاستلقاءُ على جنبه على المقعد الخلفي، وبطنُه على حافتِه، أقدامُه الأماميّة والخلفيّة متدلّيةٌ إلى جانب المقعد.

إنّه لَمِنَ الصّعب على النّمر أن يضغطَ نفسه في مكان ضيّق، ولكنّه يفعلُ ذلك، بأَنْ يجعلَ ظهرَه دائرياً، وعندما ينامُ فعلاً، يضعُ رأسَه على قدميه الأماميّتين، وإذا كان مزاجُه نشطاً، ويريدُ فتحَ عينيه لينظرَ حوله، يديرُ رأسَه، ويضعُ ذقنَه على حافة القارب، والوضعيّةُ المفضّلةُ الثانية له هو أن يجلسَ وظهرُه نحوي، ومؤخرتُه نصفُ مرتكزة على أرض القارب، ونصفُه الأماميُّ على المقعد، ووجهُه مدفونٌ بمؤخرة القارب، مخالبُه ملاصقةٌ لوجهه. بدا وكأنّه يلعبُ لعبةَ التّخفي، ومهمّتُه العدُّ. وبوضعيته هذه يميلُ إلى الاستلقاء دون حراك، عدا تحريكِ أذنيه أحياناً للأعلى، وليس بالضّرورة أن يكونَ نائماً.

الفصل التاسع والستون

في كلّ ليلةٍ، كنتُ أقنعُ نفسي أنّني أرى ضوءاً في البعيد، وفي كلّ مرّة كنتُ أطلقُ مسدّسَ الإشارة، وعندما نفدتْ صواريخُ الإشارة، استهلكْتُ الإشاراتِ اليدويّة.

هل فشلتِ السّفن في رؤيتي؟ هل أضواءُ النّجوم الصّاعدة أو النّازلة تقفزُ إلى الشّاطئ؟ هل تحولتِ الأمواجُ المتكسّرةُ وضوءُ القمر إلى وهمٍ يائسٍ؟ مهما كان الأمرُ، فإنّه في كل مرةٍ ينتهي إلى لا شيء، ولم أحصلْ على أيّة نتيجة.

وكم برزَ الشعورُ المرُّ بالملل ثمّ اختفى، ومع مرور الوقت، طردتُ كلّيّاً فكرةَ أن تنقذني سفينةٌ، فإذا كان الأفق يبعدُ ميلين ونصف الميل، ورأسي على ارتفاع خمسة أقدام، فكم سيبعدُ وأنا أجلس على الطّوف مستنداً إلى الصاري، وعيناي لا ترتفعُ أكثرَ من ثلاثة أقدام فوق سطح الماء؟ ما هي الفرصةُ المتاحةُ؟ إنّ سفينةً ما تعبرُ المحيط العظيم، يمكن أن تمرَّ في هذه الدائرة الصغيرة.

ليس هذا فقط، بل ستعبرُ هذه الدّائرةُ الصّغيرة وتراني، ما هي فرصتي إذا حدث ذلك؟ لا يمكنُ الاعتمادُ على البشر ووسائلهم، يجب عليّ الوصول إلى أرض صُلبة وثابتة، أرض حقيقيّة.

انتشرت رائحةَ عبوات ضوءِ الإشارةِ المستعملة، وفجأةً قفزتْ بوند تشيري إلى ذاكرتي، إنّها رائحةٌ رائعةٌ من فقدان الأمل لطلب المساعدة، وعدم سماعها. كانت خبرةً قويّةً جداً، وصلتْ لدرجة الهلوسة، برزت مدينةٌ

كاملةٌ من استنشاق رائحةٍ واحدةٍ، الآن عندما أشتمُّ رائحةَ الكمون أرى المحيطَ الهادئ.

كان ريتشارد يتجمّد كلّما انطلق مسدسُ الإشارة، عيناه بحدقتين ضيقتين كثقبِ دبّوس مثبّتتان على الضّوء باستمرار.

كان ساطعاً جداً بالنسبة إلي، مركزٌ أبيض باهر مع هالة حمراء وردية. كنت أرفعُ ضوء الإشارة في الهواء، وأمدُّ ذراعي على طولها، ثمّ ألوّحُ بها ببطء ولدقيقة تقريباً، انتشرتْ الحرارةُ على ذراعي، وأضاءَ كلُّ شيء بشكل غريب، فالماءُ الذي كان قبل دقيقةٍ أسودَ تماماً، ظهر مزدحماً بالأسماك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السبعون

إنّ تقطيعَ سلحفاةٍ عملٌ شاقّ جدّاً، وقد كان أوّلُ عمل لي هو تقطيعُ سلحفاة منقار الصقر، فقد أغراني دمها، إنّه غذاء جيّدٌ، وشرابٌ خالٍ من الملح، وهذا ما تحدّث عنه كتيّب النّجاة.

حدثَ أن شعرْتُ بالعطشِ لدرجةٍ كبيرة، فأمسكتُ بقوقعة السلحفاة، وثبّتُّها بإحدى زعانفها، وعندما تمكّنتُ من إمساكها قلبْتها في الماء، وحاولْتُ رفعَها إلى الطّوف، أخذتْ تتخبَّطُ بعنف، شعرتُ بعدم قدرتي على التعامل معها على الطّوف، وفكّرتُ إمّا أن أُطلقها أو أجرّبَ حظّي على قارب النّجاة.

نظرت للأعلى، فوجدتُ الجوّ حاراً عديمَ الغيوم، ويبدو أنّ ريتشارد يغضُّ الطرفَ عن وجودي في مقدّمة القارب، بمثل هذا اليوم عندما يكون الهواء بالدّاخل حاراً مثل َفرنٍ لا يخرج من تحت المشمّع حتى مغيبِ الشمس.

أمسكْتُ بالزعنفة الخلفيّة للسلحفاة بيد، وربطتُ الحبلَ إلى القارب باليد الأخرى، لم يكن تسلُّقُ القارب أمراً سهلاً، وعندما تمكّنْتُ من ذلك، قذفتُ السلحفاةَ في الهواء، فسقطتْ على ظهرها فوق المشمّع، وكما تمنّيْتُ. لم يفعلْ ريتشارد شيئاً سوى أنّه زمجرَ مرّةً أو مرتين، ولم يخرج كي يعرّضَ نفسَه لمثل هذه الحرارة.

كان تصميمي غامضاً وأعمى، شعرتُ أنّه يجب أن أستغلّ الوقت، عدتُ إلى كتيّب النّجاة، وكأنّه كتاب طبخٍ، قال: يجبُ وضع السلحفاة على ظهرها، فعلت ذلك.

يُنصحُ أن تغرزَ السكين في رقبتها، لجعل الدّم يخرج من الأوردة والشرايين، نظرت للسلحفاة لم يكن لديها رقبةٌ، تراجعت السلحفاةُ داخل قوقعتِها، ولم يظهرْ منها سوى عينيها ومنقارها محاطين بدوائرَ من الجلد. كانت تنظر إليّ من الأسفل إلى الأعلى بتعبيرٍ صارمٍ، فأخذت السكين آملاً أن أحرّكَها، ونكزتُ الزعنفة الأماميّة، كلُّ ما قامتْ به هو الانكماش أكثر داخل القوقعة.

قرّرْتُ اتّباعَ طريقة مباشرة وبثقةٍ وكأنّني قد فعلت ذلك آلاف المرات، حشرتُ السّكين إلى اليمين تماماً من رأسها بزاوية، ودفعتُ النصلَ عميقاً داخل طيّات الجلد، ثمّ أدرتُها، فتراجعت السلحفاة أكثرَ حيث نصلِ السّكين، وفجأةً دفعت رأسَها للأمام موجّهةً منقارَها نحوي بغضب.

قفزتْ للخلف، وأخرجتْ زعانفها الأربعة، وحاولَتِ الهروب، ثمّ انقلبتْ على ظهرها، وأخذتْ تضربُ بزعانفها بوحشيّةٍ وتميلُ رأسَها من جانب إلى آخر.

أمسكتُ البلطةَ، وأنزلتُها على رقبة السلحفاة وشققْتُها، فاندفعَ الدّمُ الأحمر اللامع، تناولتُ كوباً، وجمعتُ نحو ثلاثمئة ميلليمتر منه، أي ما يعادلُ علبةَ شراب. كان يمكن أن أجمعَ أكثر، يمكن أن يكونَ لتراً، ولكنّ منقارَ السلحفاة حادٌّ، وزعنفتاها الأماميّتان طويلتان وقويّتان. وفي كلّ منها مخلبان.

لم يكن للدّم الذي جمعتُه رائحةٌ ما. أخذتُ منه رشفةً، طعمُه دافئٌ وحيويٌّ. إذا لم تخنّي ذاكرتي، من الصّعب تذكّر الانطباع الأوّل، شربتُ الدّمَ حتى آخر قطرة.

ثمّ فكّرتُ باستخدام البلطة لإزالة قوقعة البطن، ولكن ثبتَ لي أنّ استخدامَ المنشار أسهلُ من السكين، فوضعتُ قدمي على منتصف القوقعة،

والقدمُ الثّانية على الزّعانف المتخبّطة، كان من السهل قطعُ الجلد من جهة الرّأس عدا ما كان حولَ الزّعانف، والقطعُ عند الحوافّ حيثُ تتلاقى القوقعتان. إنّه أمرٌ صعبٌ جداً ولا سيَّما وأنّ السلحفاةَ لم تتوقّفْ عن الحركة، ولم أنتهِ حتى بلّلني العرق، كنتُ مجهداً جداً.

نزعتُ قوقعةَ البطن، نزعتُها بسهولة، فأحدثتْ صوتاً كصوت امتصاصٍ، ظهرتِ الأجهزةُ الدّاخليّةُ الحيويّةُ تنتفضُ وتهتزّ بعنف، العضلات، الدهن، الدم، الأحشاء والعظام، ولاتزال السلحفاةُ تتحرك، قطعتُ رقبتَها حتى الوريد، فلم يشكّلْ ذلك فرقاً، فقد استمرتِ الزّعانف بالضّرب، وبضربتين من البلطة فصلتُ رأسَها، لم تتوقفِ الزعانف عن الضرب، والأسوأ من ذلك، أنّ الرأسَ المنفصلَ استمرّ بالدّوران في الهواء، والعينان تفتحان وتغمضان.

رميْتُ الرّأسَ بالبحر، ورفعتُ بقيّةَ السلحفاة ورميتُها إلى منطقة ريتشارد، الذي أصدرَ ضجيجاً وأصواتاً وكأنّه يوشك أن يزأرْ. من المحتمل أنّه قد اشتمَّ رائحةَ دم السّلحفاة، هربتُ إلى الطّوف، راقبتُه بغضبٍ بينما كان يشكرني على هديّتي.

بدأتُ التّفكرَ بجدّية، كيف سأتعاملُ مع ريتشارد باركر؟ صبرُه هذا في الأيّام الحارّة وعديمةِ الغيوم والذي لم يكنْ ببساطةٍ بل بسببِ الكسل، لم يكنْ شيئاً حسناً، لا يمكنُني أن أظلَّ هارباً منه، أحتاجُ إلى الدّخول الآمن إلى الصّندوق، وكذلك سطح المشمّع بأيّ وقتٍ، وبأيّ طقس، ومهما كان مزاجُه. ما أحتاجُ إليه هو حقوقيٌّ، الحقوقُ التي تلزمُ للبقاء.

حان الوقتُ لأُقحِمَ نفسي، وأرسمَ حدودَ مقاطعتي.

الفصل الواحد والسبعون

لأولئك الّذين يجدون أنفسَهم بمثل هذا المأزق، أنصحهم بالبرنامج التالي:

- اخترْ يوماً تكونُ فيه الأمواجُ خفيفة منتظمة، فيجب أن يكونَ المنظرُ واضحاً عندما يكونُ القاربُ إلى جانبه، دون أن يكونَ منقلباً.
- أنزلِ المرساةَ بكاملها لتجعلَ القاربَ ثابتاً ومريحاً قدر الإمكان. عليك تجهيزُ مكانٍ آمنٍ من القارب في حالِ كنتَ بحاجةٍ له، وعلى الأغلب ستحتاجُ إليه. تدبّرْ بعضَ وسائلِ الحمايةِ الجسديّة إذا استطعتَ، تقريباً كلُّ شيء يمكن أن يصبحَ درعاً. سوف يؤدي لفّ الملابس أو البطّانيات حولَ أطرافك إلى تشكيل درع بالحد الأدنى.
- الآن يأتي الجزء الأصعبُ، عليك أن تستفزَّ الحيوانُ الذي ابتُليْتَ به، نمرٌ أو وحيد قرن أو نعامة أو خنزير برّي أو الدبّ البنّي، لا يهمّ ما هو الوحشُ، لكن يجبُ أن يحصلَ على طعامه.

وإنّ أفضلَ طريقةٍ للقيام بذلك، هو الذهابُ إلى حدود منطقتك، تتسلّل وتُحدثُ ضجةً إلى المنطقة المحايدة، وهذا ما فعلتُ تماماً، ذهبتُ إلى حافة المشمّع، ودُسْتُ على المقعد الأوسط، ثمّ أطلقتُ الصّافرةَ باعتدال، طبعاً من المهمّ أن تُحدِثَ ضجيجاً مستمراً ومميزاً لتنبيه عدوانك، ولكن يجب أن تكونَ حذراً.

إذا أردتَ أن تستفزّ الحيوانَ، فلا تجعله استفزازاً شديداً، فأنت لا ترغبُ أن يهاجمَك فوراً. فإذا هاجمك، فليكنِ اللهُ بعونك، لأنّه سوف يمزّقك إرباً، ويسحقُك وينتزعُ أحشاءَك، ببساطة سيأكلُك، وبالتأكيد أنت لا ترغب بحدوث ذلك، تريد حيواناً فضولياً غاضباً مرتبكاً ضجراً منزعجاً، ولكنّك لا تريد حيواناً ينزعُ إلى القتل.

لا تدخل منطقةَ الحيوان تحت أيّ ظرف، بل يجبُ أن تضمنَ عدوانيّتَك، كالتّحديق في عينيه وإطلاق الصافرة بقوة، وجعله متوتراً.

- عند جعل الحيوان يقف على قدميه، افعلْ كلَّ ما هو سيِّئ لتحريضه على اقتحام الحدود. والطريقة السليمة، بناءً على خبرتي، هي أن تتراجعَ للوراء ببطءٍ وأنت تعملُ على إصدار الصخب، وتأكّد ألّا تُبعدَ ناظريك عن ناظريه، وبذلك تنجزُ هدفَك حالما يضع الحيوان مخلبه في منطقتك، أو حتى يتقدمُ بتصميمٍ إلى المنطقة المحايدة.

يجبُ أن تكونَ سريعاً كيلا يتحدّاك، فلا تنتظرْ حتى تحلّلَ الموقفَ أو تتغاضى عنه، وذلك بأسرع ما يمكنك. الفكرةُ هنا، هي جعلُ الحيوان يفهم بأَنَّ جارَه في الأعلى دقيقٌ في الدّفاع عن منطقته.

- حالما يقتحم الحيوان منطقتك، يجب ألّا يَفتُر غضبَك. ولو هربْتَ إلى ملاذك الآمن خارج قارب النّجاة، أو تراجعْتَ إلى منطقتك على قاربٍ ابدأْ بإطلاق صافرة بكلّ قوّةٍ، وفي الحال أنزلِ المرساةَ، فهاتان الحركتان بالغتا الأهمّية، فلا تتأخر بتنفيذها.

إذا استطعْتَ أن تجعلَ قاربك يتعامدُ مع الأمواج بأيّ وسائلَ أخرى، بواسطةِ المجداف مثلاً، فقم بتدبير أمورك على الفور. وكلّما أسرعتَ في توجيه مركبِك باتّجاه الأمواج كان أفضل.

- التّصفير بشكل مستمرٍ يرهق المنبوذَ الضّعيف، ولكن يجبُ ألّا تتردد. وعلى الحيوان المذعور، أن يترافقَ اشمئزازُه مع الصّرخات الحادّة للصّافرة.

يمكنك أن تساعد في استمرار الأشياءِ بوقوفكَ في مؤخّرة القارب، واضعاً قدميكَ بجانب الحافة، والتّمايل بتواترٍ مع الحركات التي ينقلها البحر. وكلما كنتَ نحيلاً كان القاربُ أكبر، ستُدهشُ من الفرق نتيجةَ ذلك، وأؤكد لك أنّ قاربَك يجبُ أن يستمرّ بالتّمايل مثل الفيس بريسلي، لا تنسَ الاستمرار بالتّصفير طوالَ الوقت، ولكن انتبهْ ألّا ينقلبَ قاربُك.

- يجبُ أن تستمرّ بذلك، حتى يصبحَ لغزَ الحيوان الذي هو عبءٌ عليك، نمراً أو وحيدَ قرن أو مهما يكن، أخضرَ بشكل صحيح حول الخياشيم بسبب دوار البحر، إنّك تودُّ أن تسمعَه يلهثُ ويتقيّأُ، تودُّ أن تراه مستلقياً وقد تدلّى اللّحم تحت الحنكِ والذّقن على أرضيّة القارب، وأطرافُه ترتجف، وعيناه جاحظتان، ويُخرج من فمه المفتوحِ قعقعةُ الموت، وعليك طوال الوقتِ أن تمزّقَ أذنيه بصفيرٍ عنيفٍ من صافرتك.

إذا أُصبْتَ أنت نفسُك بالدّوار، فلا تهدر القيء بإرساله في البحر، القيءُ يشكّلُ حاجزاً ممتازاً، إنّه الروحُ الشرّيرة التي تسيّج منطقتك.

- عندما يظهرُ المرضُ على الحيوان، يمكنك التوقّفُ، دوارُ البحر يأتي بسرعة، ولكنّه يحتاجُ وقتاً طويلاً ليتوقف. لا تحاولْ أن تبالغَ في حالتك، فلا أحد يموت بسبب الدّوار، ولكن يمكنُه جديّاً أن يُضعف الرّغبةَ بالحياة. عندما ينتهي ذلك اسحبِ المرساةَ وحاولْ

أن توفّرَ الظل للحيوان إذا كان منهاراً من تعرّضه المباشر للشّمس. ولتتأكّد من توفّر ماء الشرب له عندما يستعيدُ نشاطه، مع حبوب مضادّة لدوارِ البحر مذابة به إن توفّرتْ. التّجفافُ خطرٌ حقيقيٌّ عند هذه النّقطة، وإلّا فعليك أن تتراجعَ إلى منطقتك، واتركِ الحيوان بسلام، فالماءُ والراحةُ والاسترخاءُ إلى جانب قاربٍ مستقرّ كلُّ ذلك سيعيدُه للحياة. يجب السماحُ للحيوانِ استعادةَ نشاطه قبل الدّخول بالخطوات من واحدٍ إلى ثمانية.

- يجب تكرارُ العلاج، حتّى يعودَ التآلفُ في ذهن الحيوان، ما بين صوت الصّافرة والشّعورِ بالتّوتّر والدّمار الذي يسبّبُ العجزَ، طبيعياً وواضحاً تماماً. بعد ذلك فالصافرة وحدها ستصبحُ كافيةً للتّعامل مع المتعدي أو أيّ سلوكٍ آخر غيرِ مرغوبٍ به. صفرةٌ واحدةٌ عنيفةٌ، وسترى أنّ الحيوانَ سيرتجفُ من الوعكة، وسيأوي بكلّ سرعته إلى الجزءِ البعيدِ من منطقته.

عندما تصلُ إلى هذا المستوى من التّدريب فإنّ استخدامَ الصّافرةِ سيكون قليلاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني والسبعون

في حالتي تلك، ولحمايةِ نفسي من ريتشارد باركر، أثناء تدريبه، صنعتُ لنفسي درعاً واقية من قوقعة سلحفاةٍ، وعملتُ فتحةً بالقوقعة من الجهتين، وربطتُ بينهما بقطعة من حبل. كان الدّرعُ أثقلَ وزناً مما أردت، ولكن هل سبقَ لجنودٍ أن اختاروا عتادَهم؟

في المرّة الأولى التي حاولتُ بها، كشّرَ ريتشارد باركر عن أنيابه، وأدارَ أذنيه دورةً كاملةً، وتقيّأَ قليلاً، ثمّ زأرَ وهاجَمَني، رفعَ مخلبَه بالهواء، وصفعَ درعي صفعةً جعلتني أطيرُ من القارب، اصطدمتُ بالماء، ونزعتُ الدّرعَ في الحال، غرقَ دون أن يتركَ أثراً، وبعدما ضربني على ذقني، أُصبْتُ برعبٍ شديد، من ريتشارد ومن سقوطي بالماء. تخيّلْتُ أنّ سمكةَ قرشٍ تندفعُ الآن من الماء ساعيةً ورائي.

سبحْتُ نحو الطّوف بضرباتٍ خائفة، بالتّحديد تلك الضرباتُ التي تجذُها أسماكُ القرش دعوةً لذيذةً، ولحسن الحظّ، لم يكن هناك أيّ أسماك قرش وصلتِ الطّوفَ، أرخيتُ كلّ الحبال، وجلستُ ويداي حولَ ركبتي، ورأسي للأسفل محاولاً إطفاءَ نارِ الخوف التي كانت تشتعلُ بداخلي. مرّ وقتٌ طويلٌ حتى توقّف جسمي تماماً عن الارتجاف، قضيتُ بقيّةَ النهار وكلّ الليل دون أن أتناولَ شيئاً.

فعلتُ ذلك ثانية، فقد أمسكتُ بسلحفاة، قوقعتُها أصغرُ وأخفّ وزناً. وصنعْتُ منها درعاً أفضلَ من السابق، ومرة ثانيةً تقدّمتُ نحو القارب وبدأتُ أضع قدمي على المقعد الأوسط.

وأتساءَلُ إذا ما كان هؤلاء الذين سمعوا بقصّتي سيفسّرون سلوكي على أنّه تصرّفٌ مجنونٌ أو محاولةُ انتحارٍ مقنعة، ولكنّها ببساطة ضرورية، إمّا أن أروّضَه وأجعلَه يدرك من هو رقمٌ واحد ومن هو رقم اثنين، أو أن أموتَ في ذلك اليوم، فقد أردْتُ الصعودَ إلى القارب أثناءَ الطّقسِ السيِّئ، وهو رفضُ ذلك.

لو أنّني نجحتُ في فترة التدرّب هذه كمدرّبِ حيواناتٍ في أعالي البحار، فذلك لأنّ ريتشارد باركر لم يكنْ يريدُ مهاجمتي فعلاً. النّمور، بل كلّ الحيوانات، لا تفضّلُ العنفَ كوسيلة لإحراز النّقاط. فعندما يهاجمُ الحيوانَ، فهو يهاجمُ بنيّة القتل مع إدراكه أنّ من الممكن أن يُقتل.

إنّ الصّراعَ يكلفُ الكثير، وهكذا فإنّ الحيواناتِ تملكُ نظامَ إشاراتٍ للحذر، مصمَّمةٌ لتُجنّب الجسم، وإن استطاعت التّنازلَ عن هدفها فستتنازلُ بسرعة عنه.

من النّادر أن يهاجمَ النّمرُ مفترساً مرافقاً له دون إنذار، فالشكلُ النّموذجيّ للاندفاع نحو الخصم، يترافقُ مع الكثير من الزّئير والدّمْدَمَة، ولكن قبل أن يفوتَ الوقتُ سيتجمّدُ النّمر، ويقيّم الوضعَ ويحشرُ التهديدَ في حنجرته، سوف يقيّمُ الوضعَ، وإذا قرّرَ أنّه ليس هناك أيّ تهديد، فإنّه سيبتعدُ مع شعوره بأنَّ هدفَه قد تحقّقَ.

حقّقَ ريتشارد هدفَه معي أربع مرات، ضربني بمخلبه اليمين ورماني من فوق القارب، أربعُ مراتٍ فقدتُ درعي، أربعُ مرات كنتُ مرعوباً قبل وأثناء وبعد كلّ هجمة. قضيْتُ وقتاً طويلاً أرتجفُ من الخوف على الطّوف، وأخيراً تعلّمْتُ قراءةَ الإشارات التي أرسلها ريتشارد باركر لي. وجدتُ ذلك في حركة أذنيه في عينيه، وفي فكيه التي كانت تخبرني بخطوته التّالية.

تعلّمْتُ أن أتنازلَ قبل أن يرفعَ مخلبَه في الهواء، ثمّ حدّدْتُ هدفي، القدمان على حافة القارب، القاربُ يتمايلُ، لغةُ الإشارة الوحيدة تأتي من الصافرة، وريتشارد يئنّ ويلهثُ في قاع القارب.

استمرّتَ الدّرعُ الخامسة معي حتى نهاية التدريب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث والسبعون

كانتْ أمنيتي الكبرى إلى جانب بقائي حيّاً، هي أن يكونَ لديّ كتابٌ يحتوي قصصاً لا تنتهي، كتابٌ أستطيع قراءتَه مرّاتٍ ومرّاتٍ، بنظرة جديدة وإدراكٍ جديد في كلّ مرة. للأسف لم يكن هناك أيّ كتابٍ مقدّسٍ على قارب النّجاة، كنتُ كأرجون البائس وبعربةٍ محطّمة، دون الاستفادة من كلماتِ كريشنا.

أذكرُ أنّني انفجرتُ بالبكاء عندما عثرتُ على الإنجيل، لأوّل مرّة على طاولةٍ بجانبِ سريري في غرفة فندقٍ في كندا، وفي اليوم التّالي، أرسلتُ مساهمةً إلى Gideons مع ملاحظةٍ لحثّهم على توسيع نطاقِ نشاطِهم إلى كلّ مكانٍ ينامُ فيه المسافرون المُتْعبون والمنهَكون، وليس فقط في غرف الفنادق، وألّا يقتصرَ على توفير الإنجيل فقط، بل كلّ الكتب المقدّسة الأخرى.

لا أستطيعُ التّفكيرَ بطرقٍ أخرى لنشر الدّين، فالتّبشيرُ المدوّي لا يكون من كرسيّ الوعظ، وليس من الإدانة الصّادرة عن الكنائسِ الفاسدة، ولا بضغطٍ من الأقران. فقط الكتابُ المقدّس الذي ينتظرُ بهدوء ليقول لك: مرحباً كقبلةٍ ناعمةٍ وقويّةٍ لطفلةٍ صغيرةٍ على خدك.

ليتني أملك، على الأقل، رواية جيدة، لكن ليس لديّ إلا كتيب النّجاة الذي قرأته ألف مرة حول محنتي.

احتفظْتُ بدفتر يومياتي، ستلاحظُ أنّه من الصّعب قراءته، لأنّني كتبته بخطّ صغيرٍ جداً، فقد خشيْتُ أن ينفدَ، إذ لا يتوفّرُ ورقٌ بما فيه الكفاية. كانت الكلماتُ تخدشُ الأوراقَ محاولةً التقاطَ الحقائقِ التي اجتاحتني. بدأتُ بها بعد أسبوعٍ من غرق تسيم تسوم، فقبلَ ذلك كنتُ مشتّتاً جداً. لم يكنْ هناك أرقامٌ أو تواريخ للعناوين. وأكثر ما أدهشني الآن، هو امتلاكي وقتاً أسعفني للقيام بذلك.

أيّامٌ عديدةٌ وأسابيعُ كثيرةٌ على ورقة واحدة، جمعْتُ فيها كلّ ما يمكنُ أن تتوقّعوه، من مثل الأشياء التي حدثتْ، وشعوري نحوها، وما لفتَ نظري وما لم يلفتْ نظري، المشكلاتُ والحلولُ، البحرُ والطقسُ، وعن ريتشارد باركر، وكلّها أمورٌ عمليّةٌ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والسبعون

مارستُ الطقوسَ الدّينيّةَ التي تبنّيتها في مثل هذه الظروف، وحيداً دون كهنةٍ أو حشودٍ مشاركةٍ أو رجلٍ مبجّلٍ، ودون تماثيلَ تجسّدُ براهمان، ودون تقديمِ أضحيةٍ من لحمِ السلحفاة السّام، وطقوسِ عبادةِ الله.

لم أستطعْ تحديدَ جهةِ مكّة، ونطقت العربيّةَ بشكلٍ خاطئ. ورغمَ صعوبة الأمر، إلّا أنّ كلَّ ذلك جلب لي الرّاحة، فالإيمانُ بالله هو الانفتاحُ، الثقةُ العميقة، الانطلاقُ، حريةُ ممارسةِ الحبّ لكن من الصعب أحياناً أن تحبَّ. آلمني قلبي الذي خشيتُ عليه أن يغرقَ في قاع المحيط، أن يغرقَ بالغضب والإعياء والعزلة بشكلٍ سريع، وحينها لن أكونَ قادراً على رفعه.

في مثل تلك اللحظات، حاولتُ أن أرفعَ نفسي، وكنتُ ألمسُ العمامة التي عملتها من بقايا قميصي، وأصرخ عالياً: هذه قبّعة الله!

كنت ألمس سروالي وأقول بصوت عالٍ: هذه كسوة من الله!

كنت أشير إلى ريتشارد وأقول بصوت عالٍ: هذه قطة الله!

كنت أشير إلى قارب النّجاة وأقول بصوت عالٍ: هذا فلك الله!

كنت أفتحُ ذراعيّ على وسعهما وأقولُ: هذه أطيانُ الله!

كنت أشير إلى السماء وأصرخ عالياً: هذه أذن الله!

وبهذه الطّريقة ذكّرتُ نفسي بالخلق وبمكاني فيه، ولكن قبّعة الله دائماً تنحلّ، ويسقطُ سروالُ الله، والتصقتْ صفةُ الخطورة بقطّة الله، وصارت أطيانُ الله الشاسعة تقتلُني وببطء، واتّضحَ لي أنّ أُذنَ الله لم تكن تسمعُني.

أضحى اليأسُ ظلمةً ثقيلةً لا تسمح للنور بالدّخول أو الخروج، وجحيماً عصياً على الوصف.

ومع ذلك شكرتُ الله أنّ كلَّ ذلك يمرُّ وينقضي. ظهرتْ مجموعةٌ من الأسماك حول الشبكة، وصرختْ إحدى العُقد طالبةً إعادةَ ربطها. فكّرتُ بعائلتي كيف تجاوزُوا كلّ هذا الرعب. تحرّكْتِ الظّلمةُ واختفتْ بالتّدريج، وبقي اللهُ نقطةَ الضّوء المشرقة في قلبي، والتي جعلتْني أستمرُّ بالحبّ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس والسبعون

عندما أحصيْتُ الأيّام، كان هذا اليوم هو عيد ميلاد أمي، فغنّيْتُ لها بصوت عالٍ «عيد ميلاد سعيد».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس والسبعون

اعتدْتُ التّنظيفَ دائماً خلفَ ريتشارد باركر، حالما أدركْتُ أنّ أمعاءه تتحرّك، توصلتُ إلى التّعامل معه بطريقةٍ خاصّة، وهي عمليّةٌ خطرة تتضمّنُ دفعَ برازه بخطّافٍ حديديّ حتى المشمّع، إذ يمكن أن يصابَ البرازُ بالطفيليات، وهذا لا يؤثّرُ على الحيوانات في البرّ، لأنّهم لا يبقون جانب برازهم طويلاً، بل غالباً ما يعزلون أنفسَهم عن البراز. فالحيوانات التي تسكنُ الأشجارَ لا يرونها مطلقاً، والحيواناتُ التي تسكن اليابسة، فعادةً تتغوّطُ ثمّ تتابع سيرها.

أما الحيواناتُ المحتجزةُ في حديقة الحيوان، فإنّ تركَ برازِها يُعدّ بمنزلة دعوة لتجديدِ العدوى، وذلك يشجّعُ الحيوانات على أكلها، فالحيواناتُ تصبحُ شرهةً لأيّ شيء يشبه الطعام عن بعد.

ولهذا يتمُّ تنظيفُ الزرائب للاهتمام بصحّة أمعاء الحيوانات، وعدمُ إلحاق الأذى بعيونِ وأنوفِ الزائرين. لكنّ إثباتَ سمعة عائلة باتيل للمعايير العالية في إدارة حدائقِ الحيوانات، ليستْ محلَّ اهتمامي الآن.

خلال بضعة أسابيع، أصيبَ ريتشارد بالإمساك، فحركةُ أمعائه لم تُحدثْ سوى مرّة واحدة بالشّهر. لذا كان عملي الخطرُ في الحراسة لا يستحقُّ ذلك من وجهة نظرِ الصّحة. لقد فعلتُ ذلك لسبب آخر.

فعندما تغوّط ريتشارد للمرة الأولى على القارب، حاولَ إخفاءَ النّتيجة. لم تغبْ عنّي أهميّةُ ذلك، فعرضُ برازِه والتباهي به دلالةٌ على الهيمنة الاجتماعية، وعلى العكس من ذلك، فإنّ إخفاءَه دليلٌ على الوقار، وهذا رأيي.

ويمكن القول إنّ هذا الأمرَ جعله عصبيّاً، يُصدرُ همهمةً دائمةً، ويظلّ جالساً، ورأسُه يميلُ إلى الخلف. تقدّمْتُ بحذرٍ شديد، ليس فقط حفاظاً على حياتي، بل أيضاً لإعطائه الإشارةَ الصّحيحة، وهذه الإشارةُ تتلخّصُ في أنّي قمتُ بأخذ برازه بيدي، وكوّرْتُه لعدّة ثوانٍ، قربتُه من أنفي وتنشّقتُه بصوت عالٍ، جُلْتُ بنظري نحوهُ لأُثيرَ هياجَه، ولكن ليس مطوّلاً كيلا أستفزَّه، وبكلّ حركةٍ من عينيّ كنتُ أطلقُ صافرةً بصوتٍ منخفضٍ وبأسلوبِ تهديد. وبتصرّفي هذا، ومضايقتي له بعيني - ولا سيَّما أنّ الحيواناتِ ونحنُ البشر أيضاً نعدّ التّحديقَ عملاً عدوانيّاً - وإطلاقُ صافرتي هو نذيرُ سوءٍ.

فسّرْتُ لريتشارد أنّه من حقي، حقّ السيادة عليه، أن أداعبَ برازَه وأشتمَّه، إذا ما أردت ذلك.

وكما ترى فإنّ ما أفعله ليسَ جيداً بالنّسبة لإدارة حديقة الحيوان، فهذا سيكولوجياً يُعدّ تنمّراً وترهيباً. المهم أنّني نجحتُ في ذلك.

لم يهتمّ ريتشارد بتحديقي، فقد كان يحدّقُ في الهواء وليس عليّ، وهذا شيءٌ شعرتُ به كما شعرتُ بكرة البُراز في يدي التي برعتُ في صناعتها، وهذا الأمرُ خلّصني من التّوتّر وجعلني مبتهجاً.

وبالمناسبة فقد أصبْتُ، أنا أيضاً بالإمساك، وذلك نتيجة البرنامج الغذائي الذي يتضمّنُ القليلَ من الماء، والكثيرَ من البروتين. وموضوعُ إراحة نفسي مرّةً واحدةً كلَّ شهر صعبٌ جداً عليّ، فالأمرُ صعبٌ وشاقٌّ لدرجة أنّه يتركُني سابحاً بالعرق، ومرهقاً بشكلٍ أسوأَ من الحمّى.

الفصل السابع والسبعون

بعد أن تناقصتْ علبُ المُؤَن، خَفّضْتُ حصّتي من الطّعام، واتّبعتُ التّعليمات بدقّة، وعوّدْتُ نفسي تناول قطعتين من البسكويت كلَّ ثماني ساعات. لازمَني الجوعُ بشكل دائم، وراودني القلقُ لكثرةِ تفكيريْ بالطّعام، وكلّما أكلتُ أقلَّ زادَ عددُ القطع التي أحلمُ بها.

كبرَتْ وجباتي الخياليّة حتى أصبحتْ بحجم الهند. كميّةٌ كبيرةٌ من شوربة الدّال، تشاباتي[1] ساخنة بحجم راجستان[2]، أطباقٌ من الأرزّ بحجم أوتابراديش[3]،

---

(١) **تشاباتي:** طعام هندي مشهور. **[المترجم].**

(٢) **راجستان:** أكبر ولايات الهند من حيث المساحة، وتقع في شمالي غرب الهند وتمثل حدودها الغربية جزءاً من حدود الهند مع باكستان، وتعني كلمة راجستان «أرض الملوك» باللغة السنسكريتية، تبلغ مساحتها حوالي ١٣٩ ,٣٤٢ كم٢ وبذلك تغطي ١٠% من مساحة الهند. **[المترجم].**

(٣) **أوتابراديش:** هي إحدى ولايات الهند. عاصمتها ومن أكبر مدنها: لكنو هي عاصمة ولاية أتر براديش الهندية. يبلغ عدد سكانها ٤٨٧٥٨٥٨ نسمة. تقع لكنو في منطقة تاريخية كانت تعرف في السابق باسم «أوده»، وهي اليوم مدينة متعددة الثقافات. تلقب «مدينة النواب» نسبة للنواب المسلمين الذين حكموا الهند في الماضي. **[المترجم].**

والسامبار[1] يطفو على كلّ أنحاء تاميل نادو[2]، والآيس كريم مكوّمٌ بحجم جبال الهمالايا.

أصبحتْ أحلامي ذاتَ خبرة، فكلّ مكوناتِ أطباقي طازجةٌ وبكمياتٍ كبيرة، والفرنُ والمقلاةُ على درجة حرارة مناسبة، نِسَبُ الأشياء دائماً متساويةٌ، لا شيءَ يحترقُ، لا شيءَ حارٌّ جداً أو باردٌ جداً أو غيرُ ناضج. كلُّ وجبة ببساطة كانت ممتازة، تفتقرُ لأمرٍ واحدٍ وهو عدمُ وجودها.

ازدادتْ حدودُ شهيتي بالتّدريج، فقبلاً كنتُ أنزعُ أحشاءَ السّمكة وأزيلُ جلدَها بصعوبةٍ، ثمّ أغسلُ اللّزوجةَ عنها قبل أن أعُضَّ عليها فرحاً، وأبتهجُ لمثل هذه اللّذة بين أسناني.

فما ألذَّ طعمَ اللّحم الأبيض الورديّ للأسماك الطّائرة، وكم كان لأسماك القطّ الذّهبيّة مذاقٌ رائقٌ رغمَ قساوة أنسجتها.

صرتُ الآن أنتقي رؤوسَ الأسماك بدلاً من رميها لريتشارد باركر أو استخدامِها كطُعم. فقد اكتشفْتُ أنّ طعمَ الدّمِ الطّازج اللّذيذ، يمكن امتصاصُه ليس من عينيِ السّمكة الكبيرةِ فقط، بل من وريدها أيضاً. وقد أصبحتِ السّلاحف التي سحبْتُها من قوقعتها، ورميتُها لريتشارد، طبقي المفضّل.

---

(١) **السامبار:** هو العدس المطبوخ بالخضار مع للبسلة وصلصة التمر الهندي، لها شعبية في جنوبي الهند وسيرلانكا. **[المترجم]** .

(٢) **تاميل نادو:** هي إحدى ولايات الهند البالغ عددها ٢٨ ولاية، وعاصمة هذه الولاية هي مدينة تشيناي. وتقع ولاية تامل نادو في أقصى جنوب شبه القارة الهندية، ويحدّها إقليم بونديتشيري الإتحادي وكذا ولايات كيرلا وكارناتاكا وأندرا برديش. **[المترجم]** .

من المستحيل أن أتخيّلَ أنّه مرّ عليّ وقتٌ كنت أنظرُ فيه إلى سلحفاة مائيّةٍ حيّةٍ كعشر وجباتٍ مقطّعةٍ، تملكُ هذا الطّعمَ اللّذيذَ كاستراحة من تناول السمك، ولكنّه هكذا، إذ يجري في أوردة السلحفاة دمٌ لذيذٌ، ولا بدّ من امتصاصه لحظةَ يندفعُ من رقبتها، لأنّه يتجمّدُ بأقلّ من دقيقة، فأفضل طبقِ بوريال وكوتو على اليابسة لا يضاهي لحمَ السلحفاة إذا كان بُنيّاً أو أحمرَ قانئاً أو طازجاً، ولم يكن طبقٌ من الكارداموم باياسام [1] سبق وتذوّقتُه، ألذّ وأغنى من بيض السلحفاة الدّسمة أو دهنها السّليم.

خليطٌ من كبدِ السلحفاة ولحمِها ورئتيها وأمعائها وقلبِها ممزوجةٌ مع قطع السّمك بعد تنظيفها، وجمعها مغمورةٌ بالملح وصلصة اللّحم تُكوّنُ وجبة تالي تفوقُ الوصف، وتجعلكَ تلعقُ أصابعَك بعدها.

في نهاية رحلتي، كنت قد تناولْتُ كلّ ما قدّمتْه السلحفاةُ لي، ولن أنسى البرناقيل والسرطانات الصغيرة التي وجدتُها تغطّي قواقعَ بعض سلاحف منقار الصقر.

مررْتُ باليوم الذي أُجبرت فيه على تناول ما في معدةِ السلحفاة، فقد قضيْتُ الكثيرَ من الساعات الممتعة وأنا أقضمُ زعنفةً أو أفلقُ العظامَ المفتوحةَ وأمتصُّ نخاعها. وكثيراً ما كانت أصابعي تنتزع قطعاً من الدّهن الجافّ واللّحم أيضاً الذي يعلقُ في الجزء الدّاخليّ للقوقعة. أُنقّبُ عن الطّعام بالطّريقة التقليديّة للقرود. إنّ قواقعَ السّلاحف سهلةُ المنال، فلم تخدمني كدروعٍ فقط بل كألواحٍ لتقطيعِ السمك، وأوعيةٍ لخلط الطعام.

---

(١) الكارداموم باياسام: طعام هندي مشهور. **[المترجم].**

عندما تمزّقتِ الأغطيةُ من أشعة الشمس، ولم يعدْ بالإمكان إصلاحها، استخدمتُ القواقعَ لحماية نفسي من الشمس، وذلك بإسناد كلّ واحدةٍ للأخرى والاستلقاءِ تحتها.

وكم خفتُ من فقدانِ ما يملأُ المعدةَ ويجعلُ المزاجَ طيباً، فالكثيرُ من الماء والطعامِ يعني مزاجاً حسناً، وإنّ وجودها شديدُ التقلّب، لذا كنت دائماً شاكراً لحصولي على السّلاحف ومبتسماً لأجل ذلك.

وفي الوقت الذي انتهتْ فيه آخر قطعة بسكويت، أصبحَ كلُّ شيء آكلُه لذيذاً مهما كان طعمُه.

امتلكْتُ القدرة لوضع أيّ شيء في فمي أمضغه، أقضمه، لذيذاً، خشناً، ناعماً لا يهمّ ما دام ليس مالحاً، فجسمي كارهٌ للملح ولازلْتُ أعاني منه حتى اليوم، لدرجة أنّني حاولتُ مرةً تناولَ برازِ ريتشارد، وذلك عندما لم تكن معدتي قد تعوّدَتْ الجوع بعد، ومخيّلتي لم تزلْ تبحثُ عن حلول، فحدثَ أن وصلتُ إلى دلْوه ماءً مقطراً من جهاز التقطير، وبعد أن شربَه دفعةً واحدةً، اختفى تحت المشمّع، عدت بدوري إلى الصندوق لأبحثَ عن أشياءَ صغيرةٍ كما كنت أفعل قبلاً، نظرْتُ من تحت المشمّع لأتأكدَ من أنّه لم يكن واقفاً، ولكن هذه المرّة وجدتُه واقفاً بالفعل، ظهره مكوّرٌ، ورجلاه الخلفيتان متباعدتان، رفعَ ذيلَه وضربَ به على المشمّع، إنّها وضعيّةُ إنذارٍ لأمرٍ ما، وأنا لم أكنْ أفكّرُ إلا بالطّعام وليس بنظافة الحيوان، ولم أنسَ موضوعَ خطورته.

استدار إلى الجهة الأخرى حتى أصبحَ رأسُه خارجَ الرؤية، ومع احترامي لسلميّته وهدوئه، إذ إنّه لربّما لم يَرَني، أمسكتُ بكأسٍ فارغةٍ ومددْتُ ذراعي،

وصل الكأسُ بالوقت المناسب، والمكانِ المناسب، عند قاعدة ذيله، انتفخَ إستُ ريتشارد وخرجَ منه ما يشبه بالونَ العلكة، كرةٌ من البرازِ الأسودِ سقطت في كأسي محدثةً صوتَ خشخشةٍ، وممّا لا شكّ فيه أنّني سأُعتبَرُ فاقداً لآخر أثرٍ من الإنسانيّةِ من قبل أولئك الذين لا يدركون معاناتي عندما أقولُ إنّ هذه الخشخشةَ وقعتْ في أذني مثلَ موسيقا قطعةٍ من خمسة روبلات، سقطتْ في كأس متسوّلٍ.

شقّتِ الابتسامةُ شفّتيَّ وجعلتها تنزفُ دماً. شكرتُ ريتشارد عميقاً ثمّ أعدتُ الكأس وأخذتُ الغائط بأصابعي، كان دافئاً جداً ولم تكن رائحتُه قويّةً، وبحجم كرةٍ من الجمان ولكنّها لم تكن بنعومته، في الحقيقة كانت صلبةً كحجر. لو حشوتُ بها بندقيّةً لاستطعْتُ قتلَ وحيد القرن.

أعدْتُ الكرةَ إلى الكأس ووضعتُ عليها قليلاً من الماء، وضعتُها جانباً بعد تغطيتِها.

سالَ لعابي وأنا أنتظرُ، فقمتُ بدفعِ الكرة في فمي، لم أستطعْ أكلَها فطعمُها لاذعٌ.

في الحقيقة ليس طعمُها بل طعمُ فمي وبكلّ وضوحٍ أقول: لا يوجد أيّ شيء يمكن تناوله، كان الأمر مجرد مضيعة للوقت، بصقتُه بعيداً، فطعمُه مرٌّ لأنّه يفتقر للماء، خالٍ من العناصر المعدنية. أخذتُ المجرفةَ ورحت أجمعُ ما تبقى من براز ريتشارد ودفعتُها نحو الأسماك.

بعد أسابيعَ قليلةٍ أخذ جسمي يتدهور، فقد تورّمتْ قدماي وعقباي حتى أصبحتُ أعاني من الوقوف.

الفصل الثامن والسبعون

تعدّدتِ السّماواتُ في ذاك النهار، فقد كانت مغطّاةً بغيوم كثيفةٍ بيضاءَ، مسطّحة في الأسفل ومنتفخة في القمّة، سماءٌ صافيةٌ تماماً، لونُها الأزرق يأسرُ الحواس، وقد اختنقَتْ بطبقةٍ كثيفة من الغيوم الرّمادية دون أن تُنذرَ بالمطر. سماءٌ مغطّاةٌ بغيوم خفيفة، سماءٌ مرقّطةٌ بغيوم بيضاءَ صغيرةٍ ناعمةٍ كالصّوف، سماءٌ مخطّطةٌ بغيوم رقيقة عالية، تبدو مثلَ كراتِ قطنٍ منتشرةٍ ومتباعدة. فقدتِ السماءُ ملامحَها، كساها سديمٌ حليبيّ. سماءٌ كثيفةٌ بغيوم سوداء عاصفة، وقد عبرَتْ دون هطل، سماءٌ ملوّنةٌ بعددٍ قليلٍ من الغيوم الرّقيقة التي بدتْ مثلَ حواجزَ رمليّة.

شكّلتِ السماءُ حاجزاً يمنعُ تأثيرَ الرؤية للأفق: (ضوءُ الشمس السابح على المحيط، الحدودُ العاموديّةُ بين النّور والظلّ مميّزةٌ بدقّتها).

بدتِ السماءُ كغطاءٍ أسودَ ملحوظٍ، لكنّه لا يُسقط المطرَ، سماء مغطاةٌ بغيوم متنوعة على مستويات متنوعة، بعضُها كثيفٌ معتمٌ، وبعضها الآخر مثلُ الدخان، سماءٌ سوداءُ تبصقُ المطرَ على وجهي المبتسم، ليست السماء سوى سقوطِ المطر، سيلٌ لم يتوقّفْ، تَسَبّبَ بتجعّدِ جلدي وانتفاخِه، وجمّدني لدرجة التصلّب.

وتعدّدَتِ البحارُ أيضاً، فتجدُ بحراً يزمجر مثل النّمر، وبحرٌ يهمس في أذنك مثل صديق، بحرٌ آخر يُهَسْهِسُ كصوت سنفرةٍ على الخشب، وبحرٌ يصدرُ صوتاً كصوت شخص وهو يتقيّأُ، بحرٌ ساكنٌ كالأموات.

وما بين الاثنين «السماء والبحر» تلعبُ كلّ أنواع الرّياح، وتسرحُ بينهما كلُّ أنواع الأقمار والليالي.

أن تكونُ منبوذاً، يعني أن تكونَ دائماً نقطةً في مركز دائرة. مهما تغيرت الكثير من الأشياء فقد يتحوّل البحرُ من الهمس إلى الغضب وقد تتبدّل السّماء من الأزرق الصّافي إلى الأبيض الناصع ثمّ إلى الأسود شديدِ الظُّلمة.

الشكل الهندسي لا يتغيّرُ أبداً، فأنت ترى نصفَ المدى، فالمحيطُ ضخمٌ دائماً. في الحقيقة، إن الدّوائرَ تتضاعفُ. أن تكون منبوذاً، يعني أن تكون واقعاً في حلقات الباليه المروّعة، أنتَ مركزُ إحدى الدوائر، فوقك دائرتان متعاكستان تدورُ حولك.

الشمسُ تزعجك كالازدحام، ازدحامٌ صاخبٌ عدوانيٌّ يجعلك تصمُّ أذنيك، وتغلق عينيك، حتى إنّك تودّ الاختباء. يزعجُك القمرُ حين يذكرك بعزلتك، فيجعلُك تفتحُ عينيك على وسعها لتهربَ من الوحدة، وعندما ترفعُ بصرَك فإنّك تتساءلُ عما إذا كان في قلب العاصفة الشمسية، ووسط بحر الهدوء أحدٌ مثلك محبوسٌ بمساحةٍ صغيرة ويرفعُ بصرَه، يقاومُ الخوفَ والضّيقَ والجنونَ وفقدان الأمل واللّامبالاة.

من ناحيةٍ أخرى، أن تكون منبوذاً هو أن تكون أسيراً ضمن متناقضات مرهقةً ومروّعة، فعندما ينتشرُ ضوءٌ فإنّ فضاءَ البحر يضيءُ، ولكنّه في الوقت نفسه يرعبُ، وإذا كان مظلماً فإنّ ظلمتَه خانقةٌ.

يأتي النّهار بحرارته العالية، فيجعلُك تتمنّى البرودةَ وقُمعَ الآيس كريم، فتسارعُ لسكب ماء البحر على جسمك.

يرحلُ النهار ليأتي الليلُ بعده حاملاً معه برودةً قارسةً، تجعلُك تتمنّى أن تكونَ دافئاً، وتحلمُ بالكاري الحارّ، وتكتفي بلفّ نفسِك بالأغطية.

عندما يكون الطقس حاراً فإنّك ستشعرُ بالعطش وتتمنّى الرّطوبة، وإنْ أمطرتْ فسيُغرقُك المطرُ حتى تتمنّى توقّفَه. إنْ توفّرَ الطّعامُ بكثرة فعليك أن تتمتّع، وإنْ قلّ فستجوع.

إنْ هدأَ البحرُ واستوتْ أمواجُه فستتمنى أن يهيجَ. وعندما ترتفعُ الأمواجُ ويحطّمُ الدائرة التي تحيط بك بتلالٍ من المياه، فسوف تعاني خاصيّة الأمواجِ العالية، وتعاني الاختناق في الأماكن المفتوحة، وتتمنّى عودتَه هادئاً.

غالباً ما تحدث الأضداد في نفس اللحظة، بحيث عندما تحرقك الشمس حتى تضربك، تدرك أيضًا أنها تجفف شرائح السمك واللحوم المعلقة على الحبال وأنّها نعمةٌ لأجل الحوامل الشّمسية وعلى العكس من ذلك، فالمطرُ الذي يكمّلُ مؤونتَك من الماء العذب، فأنت تعلم أن الرطوبة ستؤثّرُ على الاحتياطي لديك، وسيُفسِدُ بعضَها ويتحوّلُ لونُها إلى أخضرَ شاحبٍ. عندما يهدأ الطقسُ العاصفُ، وتدركُ أنك نجوتَ من خيانة البحر وهجوم السماء.

إنّ غبطتَك بماء المطر سيتأرجح مقياس غبطتك بين الغضب من أنّ الكثيرَ من الماء العذب سيسقطُ في البحر مباشرة، والقلقُ من أنّ هذه آخرُ الأمطار التي ستراها، وأنّك ستموتُ عطشاً قبل سقوط قطرات المطر التالية.

إن أسوأَ المتناقضاتِ هي السأمُ والخوفُ، تكون حياتك أحياناً مثل رقّاص الساعة الذي يتأرجحُ من جهة لأخرى.

البحرُ ساكنٌ تماماً لا يوجد نفحةُ ريح.

تستمر الساعات للأبد.

إنّك تشعرُ بالكثير من الملل لدرجة أنّك تغرقُ بحالةٍ من اللّامبالاة التي تشبهُ الغيبوبة، وفجأةً يهتاجُ البحر، فتنجرفُ نحو نوبةٍ جنون. حتى كلا المتناقضين لا يمكن تمييزُهما.

ففي حالة سأَمِكَ هناك عواملُ من الخوف مثلاً: تنفجرُ بكاءً، تمتلئُ رهبةً، تصرخُ، تؤذي نفسك. وأنت في قلب العاصفة، أسوأُ عاصفة، ستشعر بالملل والضّجر من كلّ شيء.

الموتُ فقط هو ما يثيرُ مشاعرَك، إما أنّك تفكّرُ به ملياً عندما تكون بأمان ومجهداً أو أن تهربَ منه عندما تكونُ حياتُك الثمينة مهدّدةً.

لم تكن الحياة على قارب النّجاة تشبه الحياة، بل كانت بالنهاية كلعبة الشطرنج. لم يتبقَّ إلا بعضُ القطع، ولا يمكن للقطع البسيطة أن تتكفل بالرّهانات العالية.

جسدياً هي مرهِقة جداً، ومعنوياً قاتلة، لذا عليك ببعض التّعديلات إذا أردتَ البقاءَ حيّاً، فالكثيرُ من الأشياء اسْتهلكتْ.

احصلْ على سعادتِك حيث تستطيعُ، ستصل إلى نقطة حيث تكون في قاع الجحيم، تشبكُ ذراعيك بابتسامةٍ على وجهك، وتشعرُ وكأنّكَ الشخصُ الأكثرُ خطأ على الكرة الأرضية. لماذا؟ لأنك تملكُ عند قدميك سمكةً صغيرةً ميّتةً.

الفصل التاسع والسبعون

أسماكُ القرش متوفّرةٌ بشكلٍ يوميّ، وأكثرُها الماكوس والقرش الأزرق وكذلك قرش المحيط الأبيض، ظهرت فجأةً سمكةُ قرشِ النّمر وكأنّها قادمةٌ مباشرةً.

أحلكُ الكوابيس كوابيسُ الفجرِ والغسقِ فهما وقتُها المفضّل. لم تشكل لنا قلقاً جدّياً، حدثَ مرّةً أنّها ضربت بَدن القارب بذيلِها، لا أعتقدُ أنّه حدثٌ عرضيٌّ، بل جزءٌ من أسلوب القرش لمعرفة طبيعةِ القارب، ضربةٌ قويّةٌ على أنف الجاني جعلتْهُ يختفي وبسرعةٍ إلى الأعماق. إلا أنّها أسماكٌ خطرةٌ في الماء، تماماً مثل الاقتراب من أملاك خاصةٍ حيثُ توجد لافتةٌ تقول: احذرِ الكلابَ.

من ناحيةٍ أخرى أصبحتُ متعلقاً بأسماك القرش، صاروا كأصدقاءَ قدامى بخلاءَ لكنّهم لا يعترفون أنّهم يحبّونني، ومع ذلك يأتون لرؤيتي طوال الوقت.

القروش الزّرقاءُ أصغرُ، ولا تتجاوز أربع أو خمس أقدام، وهي أكثرُ جاذبيّةً، ملساءَ ونحيلةً بأفواهٍ صغيرة وفتحاتِ خياشيمَ مميّزة، ظهورها لازورديّة صارخةٌ وبطونُها بيضاءُ كالثّلج، ألوانٌ تختفي أو تتحول إلى رماديّ أو أسودَ عندما تكون تحت الماء وتصبح برّاقة إذا اقتربتْ من السّطح.

قروش الماكوس أكبرُ حجماً، ذاتُ أسنانٍ مرعبةٍ تبرز من أفواهها ولكنّها ذاتُ ألوان جميلة أيضاً، الأزرق النّيلي الذي يومض بشكل جميل تحت الشمس.

قروش المحيط على الغالب بلّوطية الرأس، أقصر من الماكاو، يصل طول بعضها إلى اثني عشر قدماً، لكنّها أكثرُ لزوجةً، ولها زعانفُ ظهرية كثيرةٌ، تبدو حين تعلو على سطح الماء وكأنّها راية حرب.

مشهدٌ يمرُّ سريعاً لا يحتاجُ جهداً كبيراً لرؤيته، إضافةً إلى ألوانها الداكنة، بنّيٌّ مائلٌ للرّمادي، وحواف زعانفها البيضاء المرقطة التي لا تجذبك كثيراً.

اصطدْتُ عدداً من أسماك القرش الصغيرة، أغلبُها من القروش الزرقاء، وبعض الماكوس أيضاً. كنت ألتقطُها بعد الغروب مباشرة، عندما يبدأ ضوء النّهار بالاختفاء، أمسكها بيدي العاريتين عند اقترابها من قارب النّجاة. وذات مرّة التقطْتُ سمكةَ قرش كانت الأكبر وسمكة ماكاو زرقاء بطولٍ يزيد على أربعة أقدام، اقتربت من مقدمة القارب عدة مرات، فأنزلتُ يدي بالماء وأمسكتها قبل الذيل مباشرةً، فهو الجزءُ الأضعفُ من جسمها، ساعدتْني خشونةُ جلدها في إمساكها، وسحبتها دون التفكير بشيء، وعندما سحبتُها أخذتْ تقفزُ وتهزُّ ذراعيّ بقوة، ومع دهشتي أخذتْ تتقافزُ بالهواء مُحدثةً انفجاراً من ماء ورذاذ. لجزءٍ من الثانية لم أعرفْ ماذا أفعلُ بعد ذلك، كانت أصغر مني، ولكن ألست أنا البطلَ المتهوّرَ هنا؟ أليس عليّ أن أدعها تذهب؟ استدرْتُ وتأرجحْتُ وسقطتُ على المشمّع ثمّ رميْتُ الماكو نحو المؤخرة، سقطت السمكةُ من السّماء نحو منطقة ريتشارد باركر، سقطت محدثةً صوت اصطدامٍ، وبدأت تضربُ بقوة كالرّعد لدرجةِ أنّني خشيْتُ أن تُحطّمَ القاربَ. ذُهل ريتشارد باركر وهجمَ بسرعة.

بدأتْ معركةٌ ملحميّةٌ من وجهة نظر عالم الحيوان يمكن أن أدلي بما يلي:

النّمر لا يهاجم سمكةً تخرج من الماء بفكّيه، لكنه يضربُها بمخالبه الأمامية.

بدأ ريتشارد باركر يضربُ سمكة القرش، ضرباتُه المخيفة جعلتني أرتجف مع كلّ ضربةٍ، ولو تلقاها مخلوقٌ بشريّ لتحطمَتْ عظامُه، ويمكنُها أن تحوّلَ أيَّ قطعة أثاثٍ إلى نتفٍ، وتحولَ بيتاً بأكمله إلى كومةٍ من الأنقاض.

من الواضح أنّ الماكو لم تكنْ تتمتعُ بهذه المعاملة، وذلك من الطريقة التي تتراقصُ وتلتفُّ بها، وطريقة ضربها بذيلها وامتداد ذلك في فمها.

ربّما لم يكن ريتشارد باركر معتاداً أسماك القرش، فلم يسبقْ له أن واجهَ سمكةً مفترسةً تحت أيّ ظرف.

حدث مرةً بشكل عرضيّ في إحدى المرات عندما تذكّرتُ أنّ ريتشارد لم يكن في وضع جيد، وأنّه رغم غرائزه المشحوذة فإنّه أخرق. وضع مخلبَه الأيسرَ في فم الماكو التي بدورها أغلقتْ فكّيها، تراجع ريتشارد مباشرةً على قدميه الخلفيتين، فاهتزّت السّمكةُ، ولكنّها لم تستطعِ الهرب، سقط ريتشارد على ظهره وفتحَ فمه على مداه وزمجر بصوتٍ عالٍ. شعرتُ بلفحةٍ حارّةٍ على جسمي، اهتزّ الهواءُ مثل الحرارة الصادرة عن الطريق في يومٍ حارّ.

تخيّلْتُ أنّه، وفي مكانٍ بعيد على بعد مئةٍ وخمسين ميلاً من هنا، أنّ مراقبَ السفينة شاهد ذلك، واندهشَ ونقلَ أغربَ شيء، لقد سمع مواءَ قطةٍ يأتي من جهة الشمال، وبعد عدة أيّام لا يزال ذلك الزئير يرنُّ في أحشائي، ولكنَّ سمكةَ القرش صمّاء، وهذا شيءٌ متّفَقٌ عليه، لذا بينما كنت أنا الذي لم يفكرْ في الضغط على مخلب النّمر والذي تُرك وحيداً يجرب ابتلاع واحدة، تلقيت زئيراً كبركانٍ اندفع في وجهي، فارتعدت وارتجفت وذبت خوفاً ثمّ انهرت، بينما شعرتْ سمكةُ القرش باهتزاز بارد فقط.

استدار ريتشارد باركر وبدأ يمزق رأس السّمكة بمخلبه الأمامي ويقضمها بفكيه، بينما بدأت قدماه الخلفيتان بتمزيق بطنها وظهرها. بقيت

السّمكة معلقة بمخالبه، وهي الطريقة الوحيدة للهجوم والدفاع. كما أخذت تضرب بذيلها، وتمايل كل من النمر والسّمكة معاً واهتزّا معاً.

وبجهد كبير استعدْتُ سيطرتي على جسدي للوصول إلى القارب وتحريرِها، انحرفَ القاربُ بعيداً، ورأيتُ ومضاتٍ من البرتقالي والأزرق الغامق، من الفرو والجلد، وبينما كان القارب يتمايلُ من جهة إلى أخرى كان زئير ريتشارد باركر مرعباً.

توقّفَ القاربُ أخيراً عن الحركة، وبعد عدّةِ دقائقَ وقفَ ريتشارد، وأخذَ يلعقُ مخلبَه الأيسر.

خلال الأيّام التالية، أمضى ريتشارد باركر معظمَ وقتِه يعتني بمخالبه الأربعة.

جلدُ سمكةِ القرش مغطّى بدرناتٍ دقيقة تجعله خشناً كورق السنفرة، لقد جرحَ ريتشارد نفسَه عندما هزَّ السّمكةَ بشكل متواصلٍ، جرح مخلبَه الأيسر، ولكن يبدو أنّ الجرح ليس دائماً، لم يفقد إصبعاً أو مخلباً.

أما بالنسبة للماكو وباستثناء رأسها ومنطقة فمها، فإنّها لم تُمَسّ، كانت ذبيحةً نصف مأكولة، قطعٌ من اللحم الأحمر الورديّ وكتلٌ من الأحشاء متناثرةٌ في المكان.

حاولتُ جاهداً سحبَ بعض من أحشاء القرش، ولكن لسوء الحظّ فإنّ فقراتِ القرش لا تحتوي على سوائلَ، وعلى الأقلّ لحمُها لذيذٌ ولا يملك طعمَ السمك، وغضاريفُها المقرمشةُ ممتعةٌ أكثرَ بكثير من اللّحم الأحمر. بعد ذلك توجهتُ نحو أسماك القرش الصغيرة، وكنت أقتلها بنفسي، وقد اكتشفت أنّ طعنَها بسكين في عيونها، هي الطريقةُ الأسرعُ من ضربها على رأسها.

الفصل الثّمانون

من بين كلّ أسماك القطّ، تذكّرْتُ واحدةً فقط، واحدة محدّدة. ففي يوم غائمٍ بأحد الصباحات، وسط عاصفةٍ من الأسماك الطائرة، كان ريتشارد باركر منشغلاً بضربها بعنف، وقد اختبأتُ خلف قوقعة سلحفاة لأحميَ نفسي من السّمك الطّائر.

أمسكتُ بخطّاف في نهاية شبكةٍ تمتدّ إلى البحر، متأملاً أن اصطادَ السّمكَ بهذه الطريقة، لم أكن محظوظاً جداً، فقد طنّت بجانبي سمكةٌ طائرةٌ، اندفعت سمكة القطّ التي تلاحقُها من الماء، كانت حساباتُها خاطئة، أفلتتِ السّمكة الطائرة القلقةُ مبتعدةً عن شبكتي، لكنّ سمكةَ القطّ ضربتْ قاعَ القارب وكأنّها قذيفةُ مدفع، وقد هزّ ارتطامَها القاربَ بأكمله، ورشق انبجاسُ الدّم المشمّعَ، كان ردُّ فعلي سريعاً.

فقد وقعتُ تحت وابلِ السّمك الطائر ووصلتُ إلى سمكة القط مباشرةً أمام القرش، ثم رفعتها إلى القارب، وجدتها ميتةً تقريباً، وتصدر كلّ الألوان، يا له من صيد! يا له من صيد! أدهشني ذلك كثيراً، شكراً لكما يا يسوع ويا ماتسيا، إنّها سمكةٌ سمينةٌ ودهنيّةٌ فوزنُها يقاربُ الأربعين باونداً، وتكفي لإطعام قبيلةٍ، عيناها وعمودها الفقري وحدهما كافيان لإرواء صحراء.

توجه وللأسف رأسُ ريتشارد نحوي، شعرتُ به من زاوية عيني، كانت الأسماك الطائرة لا تزال تأتي ولكنّه لم يكن يأبه بها. فكلُّ تركيزه على

السّمكة التي بيدي، كان على بعد ثمانية أقدام مني، فمه نصف مفتوحٍ ويتدلى منه جناحُ سمكة، أصبح ظهرُه أكثرَ استدارة، أردافه تنتفضُ وذيلُه يهتزُّ، من الواضح أنّه يربضُ متأهباً لمهاجمتي. لكنّ الوقت متأخرٌ جداً للهروب، حتى إنّه متأخرٌ لإطلاق صافرتي، لقد حانت نهايتي.

يكفيني ذلك، لقد عانيت كثيراً، جمعْتُ كثيراً، تبقّى عدة أيام كي أعيشها دون طعام.

وهكذا وبلحظة جنون سبّبَها الجوعُ، لأنّني فكّرْتُ بالطعام أكثر من تفكيري بالبقاء حيّاً، ودون أيّ وسائل دفاع، وعارٍ بما تعنيه الكلمة من معنى. نظرتُ إلى ريتشارد باركر وكانت نهايتي.

إنّ قوتَه الوحشية طغت على ضعفه المعنويّ، لم يكن يساوي شيئاً مقارنة مع مفهوم القوة في فكري. حدقتُ في عينيه، عينان متسعتان وجريئتان. ثم أدرنا وجوهنا بعضها عن بعضٍ.

أيّ قيّمٍ على حديقة حيوان سيخبرك أنّ النمرَ أو أيّ قطة أخرى، لا تهاجم وجهاً لوجه متحدّيةً التحديقَ المباشر، ولكنّها تنتظرُ الغزال أو الظّبي أو الثّور البرّيّ حتى يدير وجهه، ولكن لمعرفة ذلك وتطبيقه هناك شيئان مختلفان تماماً (إنّها معلومةٌ لا فائدة منها إذا كنت تأملُ أن تحدّق بقطة واحدة من قطيع، وبينما تسيطرُ على أسد بنظرك، سيأتي أسدٌ آخر ويهاجمك من الخلف) ولمدة ثانيتين أو ربما ثلاث ثوان، ستقوم معركة حاميةٌ في تفكيرِ كلّ من الصّبيّ والنّمر معركة على السلطة والمكانة. كان ريتشارد باركر يحتاج لوقتٍ قصير للقفز عليّ، لكنّني تابعت التحديق، لعق ريتشارد فمَه، زمجر واستدار بعيداً. ضربَ سمكةً طائرةً بغضب.

لقد تفوّقْتُ عليه، لهثَ غيرَ مصدّقٍ، رفعتُ سمكةَ القط بيدي، وأسرعتُ هارباً إلى الطّوف. بعد ذلك بوقت قصير، أرسلتُ لريتشارد قطعةً كبيرةً من السّمكة.

منذ ذلك اليوم لم تعدِ سلطتي موضعَ تساؤل، وقد بدأتُ أقضي وقتاً أطولَ على القارب، بالبداية عند المقدمة، وبعد ذلك أصبحتُ أمتلكُ الثّقةَ بنفسي، فصرْتُ أقضي وقتاً على المشمّع المريح. كنت لا أزال أخاف من ريتشارد باركر، ولكن هذا الخوف لم يكنْ يظهرُ إلا بالضّرورة، فلم يعدْ حضورُه يوتّرني.

إنك تستطيعُ أن تتعوّدَ أي شيء، ألم أقل ذلك من قبل؟ أليس هذا كلّ ما يقولُه كلُّ الناجين؟

بدايةً أخذتُ أستلقي على المشمّع واضعاً رأسي على الطّوف الأمامي الملفوف بالمشمّع، وهو ملفوفٌ قليلاً وحواف القارب أعلى من أوسطه، وهكذا أستطيع إبقاءَ عينيّ على ريتشارد باركر.

بعد ذلك، استدرْتُ للنّاحية الأخرى واضعاً رأسي على المقعد الأوسط، وظهري نحو ريتشارد باركر ومنطقته. وبوضعيّتي تلك أصبحْتُ بعيداً عن حوافّ القارب، وأقلّ تعرضاً للرّياح والرذاذ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الواحد والثّمانون

أعرفُ أنّ نجاتي أمرٌ لا يُصدّق، فأنا نفسي كلّما فكّرتُ بالأمر صعبَ عليّ تصديقُه. لم يكن استغلالي لضعف رجليّ ريتشارد باركر في البحر هو الوحيد، فهناك استغلالٌ آخر: إذ كنت أنا المورّدُ الوحيدُ للغذاء والماء، وكان ريتشارد باركر حيواناً في حديقة الحيوانات على ما يتذكّر، وهو معتادٌ المعيشة دون استخدام مخالبه.

حقيقة، عندما تمطر ويصبح القارب بكامله مجمعَ ماءٍ، كان يدركُ من أين يأتي الماء، وعندما كانت تضربنا أفواجٌ من السمك الطّائر، لم يكن دوري واضحاً أيضاً، ولكنّ هذه الحوادثَ لم تغيّرْ من حقيقة الأشياء، وعندما نظرَ خلف حواف القارب، لم يشاهدِ الغابةَ التي يستطيع الصيدَ بها، ولم يرَ أيّ نهرٍ يمكنُه أن يشربَ منه بحُريّةٍ، ومع ذلك فقد كنت أحضرُ له الطعام والماء العذب، وكانت وسيلتي نقيّةً وإعجازيّةً، لقد منحتني القوة والبرهان على ذلك أنّني بقيتُ حيّاً يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، ولم يكن يهاجمُني حتى عندما أكونُ نائماً على المشمّع. والبرهان على ذلك أنّني أقص عليكم حكايتي.

الفصل الثاني والثّمانون

احتفظْتُ بماء المطر والماء الذي جمعتُه من المصافي الشمسية في الصندوق بعيداً عن عيون ريتشارد باركر، وذلك في ثلاثة أوعية، سعةُ كلّ واحد منها خمسون ليتراً. وقد أصبحتْ تلك الأوعيةُ البلاستيكية أثمن عندي ممّا لو كانت تحتوي الذهبَ والياقوتَ والماس. كنت دائمَ القلق عليها، وأسوأ كابوس يراودني هو أن أفتحَ الصندوقَ صباحاً وأجدَ الأوعية الثلاثة قد انسكبت مياهها. والأسوأ أن تكون متشقّقةً، ولتجنّبِ مثل هذه المأساة فقد لففْتُها ببطانيّة لتجنبِ احتكاكها بالحافة المعدنية للقارب، وأبعدتُها قليلاً للتخفيف من تلفها، ولكنّني قلقتُ على أعناقها ألّا يجعلَها الخيط تتآكل، كيف أُحكمُ إغلاقَها إذا قُطعت رقابُها؟

عندما استمرّ المطر بالنزول غزيراً، وعندما احتوتِ الأوعيةُ ماءً أكثر ممّا كنت أظنّ، ملأتُ أكوابَ التصريف ودلوي بلاستيك، وحاوياتٍ بلاستيكية متعددة الأغراض، وملأتُ الأكوابَ الثلاثة وعلبَ الماء كلَّها ماءً التي أحتفظ بها الآن كثروة.

بعد ذلك ملأتُ أكياسَ القيء كلّها، وأحكمتُ إغلاقَها بلفّها على نفسها وربطها. وبينما كان المطر يهطلُ، استخدمتُ نفسي كوعاء، وضعتُ نهايةَ أنبوبِ صائد الماءِ في فمي، وأخذت أشرب وأشرب وأشرب. وقد أضفْتُ قليلاً من ماء البحر إلى المياه العذبة التي قدّمتُها لريتشارد باركر بنسبةٍ أكبرَ في الأيام التي تلي

المطر، وبنسبةٍ أقلّ في أوقات الجفاف. أحياناً وفي وقت سابق، يمدّ رأسَه من فوق القارب ويشمّ البحر ثمّ يأخذُ رشفةً من مياهه، ولكنّه سرعان ما يتوقف عن فعل ذلك.

لم نكدْ نتدبّرُ ذلك. إنّ ندرة الماء العذب شكّلتْ مصدرَ القلق الوحيد لنا والمعاناة أثناء الرحلة.

وقد نال ريتشارد باركر حصةَ الأسد من أيّ طعام كنتُ أحصل عليه، لم يكن لدي خيار آخر، إذ كان ينتبه بسرعة حالما أُمسك بسلحفاةٍ أو سمكة قطّ أو سمكة قرش، وعليّ أن أقدّمَها له بسرعة وبكرم.

أعتقد أنّني سجلت رقماً قياسياً بسرعة فتحِ بطن السلحفاة، أما بالنسبة للأسماك، فقد كانت تقطّع عمليّاً وهي تنتفض.

إذا كنتُ عشوائياً فيما أتناولُه من طعام فهذا لا يعود للجوع الهائل الذي شعرتُ به بل بسبب السّرعة، فلم يكن لديّ وقتٌ لأميّزَ ما الشيء الذي أمامي، فإما أن يدخلَ فمي بتلك اللّحظة، أو يُقذف لريتشارد باركر الذي يخدشُ ويضربُ الأرضَ بمخالبه، وينفخُ بلا تروّ على حافة منطقته.

وذلك دليل لا يخطئ على مدى سقوطي، عندما لاحظت، مع اختناق بصدري، أنّني أصبحتُ آكلُ مثل حيوان، وأنّ شراهتي بابتلاع الأكل دون مضغٍ، والصخبَ والهوجَ لديّ هو بالضبط ما كان يفعله ريتشارد باركر عندما كان يأكلُ.

الفصل الثالث والثّمانون

في إحدى المساءاتِ تقدّمتِ العاصفة ببطء، وبدتِ الغيومُ كأنّها تتعثّر خائفةً أمام الرياح، وأخذَ البحر إرشاداته، يعلو ويهبطُ بطريقةٍ جعلت قلبي يسقط.

أخذتُ أدواتِ تنقيةِ المياه والشبكة، آه لو أنّك رأيتَ ذلك المشهد! ما رأيته حتى الآن كان تلالاً من الماء، تلك الأمواجُ كانت جبالاً حقيقية، والأودية التي وجدْنا أنفسَنا بها كانت حادة الجوانب، لدرجة أنّه بدأ ينزلقُ عنها وكأنّه يركبُ الأمواجَ، وأصبح الطّوف عرضةً لمعاملةٍ خشنة، حيث كان يُسحب من الماء ويُرمى بعيداً ويقفز بكلّ الاتّجاهات.

نشرت المرساتان على طولين مختلفين كيلا تتداخلُ بعضها ببعضٍ، تعلّقَ القاربُ بكلتا المرساتين، وهو يتسلّقُ الأمواجَ مثل متسلق معلق بالحبل. اندفعنا للأعلى حتى بلغنا قمّةً بيضاءَ كالثلج في انفجارٍ للضّوء والرغوة وميلانِ القارب من الأمام. لا بدّ أنّ المشهدَ واضحٌ لمسافة أميال.

انزاح الجبلُ وبدأتِ الأرض تحتنا تغرقُ بطريقة مثيرة للغثيان، وبسرعةٍ استقرّ وضعُنا على القارب ثانيةً في قاع، واااو، مظلمٌ ومختلفٌ عن السابق، ولكن يشبههُ مع آلاف الأطنان تحومُ فوقنا، وقد أنقذَنا وزنُنا الخفيف فقط، تحركتِ الأرضُ ثانية وحبالُ المرساة تجذبُ بشدّة حد الإنشداد، وعملتُ بكرة القاعدة الثانية.

قامت المرساةُ بعملها بشكل جيّد، في الحقيقة بشكل جيد جدّاً، فكلّ موجة تحاولُ تحطيمَنا، إلا أنّ المرساتين ثقيلتان ومتينتان وتسحبنا، ولكن أثناء سحبِها لنا كانت مقدمة القارب تنخفضُ نحو الأسفل، والنّتيجة انفجارٌ من الرغوة والرذاذ في المقدمة، كنت أقبل تماماً بكلّ مرّة يحدث ذلك.

ثمّ جاءت موجةٌ تقصد قذفَنا بعيداً، هذه المرة اختفتْ مقدمةُ القارب تحت الماء، تبلّلتُ كلّياً وتجمّدتُ من البرد، وكنت أحمق ومرعوباً، ولم أكد أستطيع التشبّثَ.

غمرَ الماءُ القاربَ، سمعت ريتشارد باركر يزمجر، شعرت أنّ الموتَ يحيطُ بنا، فالخيارُ الوحيدُ المتروكُ لي هو الموت غرقاً أو الموتُ بوساطة حيوان، فاخترتُ الموتَ بوساطة الحيوان.

أثناءَ غرقنا في مؤخّرة الموجة، قفزتُ إلى المشمّع ولففْتُه باتجاه المؤخرة، وأغلقتُ على ريتشارد باركر. لم أسمع اعتراضَه وبأسرع من آلة الخياط، أخذتُ قطعةً من القماش وربطتُ المشمّع إلى جانبي القارب، صعدنا الموجة الثانية، أخذَ القاربُ يتمايل بثبات، وكان من الصعوبة الكبيرة أن أحافظَ على توازني، فالقارب أصبحَ الآن مغموراً والمشمّع مربوطاً عدا جهتي أنا.

حشرتُ نفسي بين المقعد الجانبيّ والمشمّع، ثمّ سحبتُ ما تبقّى فوق رأسي. لم يكن لديّ مساحةٌ كافيةٌ، فالمسافةُ ما بين المقعد وجدار القارب لا تتجاوز الاثني عشر إنشاً فقط، وعرضُ المقاعد الجانبيّة قدمٌ ونصفُ القدم فقط.

لم أكن مجازفاً جداً حتى في مواجهة الموت، وكي أنتقلَ إلى قاع القارب، وجدتُ أربعة خطافات يمكن التمسّك بها، مددتُ يدي من الفتحة وربطتُ

الحبلَ الذي يصبحُ أكثرَ قساوةً للوصول إلى الخطّاف الذي يليه، ربطتُ الاثنين بصعوبة. بقي خطّافان، كان القارب يرتفعُ إلى الأعلى بحركة سهلة ودون توقّف وبدرجة ميلان قدرُها ثلاثون درجة، شعرتُ أنّني أُسحبُ نحو خلفية القارب، وبِثَنْيِ يديّ بشكلٍ محمومٍ نجحتُ بالوصول إلى خطّافٍ آخر بوساطة الحبل. كان ذلك أفضل ما يمكنُني القيامُ به.

حقيقةً ذلك عملٌ يجب أن يتمّ من خارج القارب وليس من داخله. جذبتُ الحبلَ بقوة، وهذا شيءٌ جعلَ الأمرَ أسهل. كما أنّ التمسكَ بالحبل كان يمنعني من الانزلاق للأسفل على طول القارب. تجاوزَ القاربُ وبسرعةٍ درجةَ انحرافٍ تقدّر بخمس وأربعين درجة.

كنا على درجة انحرافٍ قدرُها ستون درجةً عندما وصلنا قمة الموجة وانزلقنا عبر قمتها إلى الجهة الأخرى، أصابَنا القليلُ من الماء، فشعرت وكأن قبضةً هائلة قد ضربتني، مالَ القاربُ بشكل مفاجئ نحو الأمام، وبذلك تمّ الحفاظ على كلّ شيء.

صرتُ الآن في النهاية المنخفضة من القارب، والماءُ الذي ملأ القاربَ والنّمر الغارق بالبلل كان بطريقي، لم أشعرْ بوجود النّمر، ولم يكن لديّ أدنى فكرةٍ عن مكان وجود ريتشارد باركر. كان عبارةً عن بقعة سوداء تحت المشمّع، وقبل أن نصلَ إلى الوادي التّالي، كنتُ قد أصبحتُ نصف غريق.

ولبقيّة النهار وبداية الليل، كنا نصعدُ ونهبطُ، نصعدُ ونهبطُ، نصعدُ ونهبطُ حتى أصبح الرّعبُ مألوفاً، وحلّ محلّه الذهولُ والاستسلامُ الكامل. تمسكْتُ بيد واحدة إلى حبل المشمّع، وباليد الأخرى تمسكت بحافة المقدمة،

بينما استلقى جسدي ممداً على المقعد الجانبيّ بتلك الوضعية، وظلّ الماءُ ينسكبُ داخلَ القارب وخارجه، والمشمّع يضربني بقوة. كنت مبللاً ومتجمداً من البرد، وقد أُصبْتُ بالكثير من الكدمات والجروح بعظام قواقع السّلاحف، واستمرّ صوتُ العاصفة كما زئيرِ ريتشارد باركر.

أثناءَ اللّيل شعرتُ أنّ العاصفة قد توقفَتْ تقريباً، فالقاربُ يتمايلُ على سطح الماء بشكل عاديّ. نظرتُ إلى السّماء عبر شقّ المشمّع وشاهدت سماءَ اللّيل ملأى بالنجوم وصافية، فتحتُ المشمّعَ واستلقيْتُ عليه.

في الفجر تنبّهْتُ إلى فقدان الطّوف. فكلُّ ما تبقى منه مجدافان مربوطان وبينهما سترةُ نجاة. إنّ تأثيرَ ذلك عليّ كتأثير آخرِ شعاعٍ من بيت محترقٍ على صاحبِه.

استدرْتُ وتفحّصْتُ كلّ جزء من الأفق، لا شيءَ، اختفتْ مدينتي البحريّة الصغيرة، وبمعجزةٍ لم تختفِ المراسي، بقيتْ مربوطةً إلى قارب النّجاة بكلّ إخلاص، وفيه كان عزائي، ولكن دون تأثيرٍ يُذكر، لم يكن فقدانُ الطّوف مميتاً لجسدي بل مميتاً لروحي.

كان القاربُ بحالةٍ يُرثى لها، تمزقَ المشمّع في أكثر من مكان، وبعض الشقوق كانت بفعل مخلبِ النمر، فُقد معظمُ طعامِنا، ربّما سقط من القارب أو دمّرته المياهُ الدّاخلة إليه، أُصبتُ بتقرّحاتٍ في كلّ أنحاء جسمي، إضافةً إلى جرحٍ كبيرٍ في فخذي، حتى تورّمَ وتحوّلَ لونُه إلى اللون الأبيض. خفتُ من تفتيش محتويات الصّندوق، ولكن حمداً لله لم ينسكبِ الماءُ من الحافظات، لقد ملأت الشبكة وأجهزة التّنقية الماء التي لم أُفرغْ منها الهواء كليّاً، ملأتُ الفراغاتِ، ومنعتُ الحافظاتِ من أن تتحرّكَ كثيراً.

شعرتُ بالتّعب الشديد والاكتئاب، أزلتُ أربطةَ المشمّع عن الخطّافات الخلفيّة. أمّا ريتشارد باركر فقد ظلّ هادئاً جداً لدرجة أنّني تساءلت فيما إذا كان قد غرق. لم يغرق، فعندما طويتُ المشمّع حتى المقعدِ الأوسط،وقعَ عليه ضوءُ النهار، فزمجرَ وهمهم، ثمّ خرج من الماء، وجلس على المقعد الخلفي، أخذتُ خيطاً وإبرةً وبدأتُ أرتقُ شقوقَ المشمّع.

بعد ذلك ربطت حبلاً إلى إحدى الدِّلاء، وأخذْتُ أُفرغُ القاربَ من الماء. راقبني ريتشارد باركر وهو مشتّتُ الانتباه، بدا وكأنّ كلّ ما أفعلُه يبعثُ على الملل، كان اليوم يتقدّمُ ببطءٍ والحرارةُ تشتدّ.

غنيمةٌ واحدةٌ فقط أعادتْ لي شيئاً كنتُ قد فقدتُه، اعتبرتُها كذلك، كان كفّي يحتضنُ كلّ ما تبقى بيني وبين الموت... آخر صافرةٍ برتقاليّة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والثّمانون

نمتُ على المشمّعِ وأنا ألتحفُ بطانيّةً وأحلمُ، أستفيقُ وأرى أحلامَ اليقظة، وهكذا قضيْتُ الوقتَ، كان النسيمُ ثابتاً ومن وقتٍ لآخر يبلّلُ القاربَ بعضٌ من رذاذٍ قادمٍ من قمّة الموج.

اختفى ريتشارد باركر تحت المشمّع، يبدو أنّه لم يرغبْ في أن يتبلّلَ ثانيةً، ولم يعجبْه تراقصُ القارب. سماءٌ زرقاءُ وهواءٌ دافئٌ وبحر يتحرّكُ بانتظام، هذا ما كان عليه الجوّ من حولي.

استيقظْتُ على صوت انفجار، رأيْتُ ماءً في السماء يسقط عليّ، نظرت ثانية للأعلى، فوجدتُ السّماءَ زرقاءَ صافية، ثمّ حدثَ انفجارٌ آخر إلى اليسار مني، ولكنّه لم يكنْ بقوة الأول، زمجرَ ريتشارد بعنف، وسقطتْ عليّ مياهٌ أكثر، مياهٌ ذاتُ رائحةٍ كريهة.

نظرتُ من فوق حافةِ القارب، فكان أوّل شيءٍ رأيتُه شيئاً أسودَ يسبحُ على سطح الماء، تطلّب منّي بضعُ ثوان لأعرفَ ما ذلك.

وقد دلّت التجعّدات القوسيّة على ذلك، كانت عيناً، إنّهُ حوتٌ، عينُه بحجمِ رأسي تنظرُ إليّ.

خرجَ ريتشارد باركر من تحت المشمّع، وأخذ يُهَسْهِسُ. شعرتُ من التغيير في لمعان عين الحوت أنّه الآن ينظرُ نحو ريتشارد باركر، حدّقَ لثلاثين ثانيةٍ أو نحو

ذلك قبل أن يغوصَ بهدوء، خفتُ أن يضربَنا بذيله، ولكنّه غاصَ مباشرةً، واختفى في المحيط الأسود. ذيلٌ ضخمٌ باهتٌ وبدعامةٍ دائريةٍ.

كنْتُ واثقاً أنّه يبحثُ عن قرين، ومن المؤكد أنّه وجدَ حجمي لا يصلح لذلك، إضافةً إلى أنّه لديّ شريكٌ.

شاهدْنا عدداً من الحيتان، ولكن لم يكنْ أحدُها يقتربُ منّا كما فعل أوّل حوت، تنبّهْتُ لوجودهم بواسطة تدفّق الماء، فقد ظهرت على مسافة قصيرة منّا، ثلاثة أو أربعة منها قرب أرخبيلٍ لا يدومُ طويلاً لجزيرة بركانيّة، تلك العالقةُ اللّطيفة كانت دائماً ترفع معنوياتي، حتى إنّي اقتنعتُ بأنّها تفهمُ وضعي، وبرؤيةِ أحدها لي قال: «آه إنّه ذلك المنبوذ مع قطّته الصغيرة.

يا لَلولد المسكين، أتمنى أن يكونَ لديه الكثيرُ من العوالق البحريّة الميّتة. عليّ أن أخبرَ مامفو وتومفو وستيمفو عنه، أتساءَل إذا كان هناك سفينةٌ قريبةٌ يمكن أن أنبّهَها لوجودي، ستُسَرُّ أمي كثيراً لرؤيته ثانية، الوداع يا ولدي، سأحاولُ مساعدَتك. اسمي بيمفو». وهكذا وبتثاقلِ الإشاعات، فقد عرفَني كلّ حوتٍ في المحيط، وكان سيتمُّ إنقاذي منذ مدةٍ لو لم يبحثْ بيمفو عن المساعدة من سفينة يابانية طاقمُها خسيسٌ، والذين قتلوه طعناً بالرماح، وصارَ مصيرُه كمصير لامفو على يدي سفينة نرويجيّة، إنّ صيدَ الحيتان جريمةٌ بشعة.

أصبحتِ الدّلافينُ زواراً منتظمين، فإحدى المجموعات بقيت معنا طوال النهار والليل، كم هي مرحةٌ، فغطسُها والتفافُها وتسابقها تحت القارب له غايةٌ واحدة، وهي التسلية.

حاولتُ الإمساكَ بأحدها، ولكن لم يقتربْ من الرّمح، حتى لو كان أحدُها قد اقتربَ، فإنّه بعيدٌ جداً، لذا تخلّيْتُ عن الفكرة، واكتفيْتُ بمراقبتهم.

شاهدتُ ستّةَ طيورٍ مجتمعة، اعتبرتُ كلَّ واحدٍ منها ملاكاً يخبرُني عن أرض قريبة، ولكنّها طيورُ بحرٍ، والتي يمكنها أن تجتازَ المحيطَ دون أن ترفّ بجناحيها. راقبتُها بمهابة وحسد وإشفاق على نفسي.

شاهدْتُ طائرَ القطرسِ مرتين، كلُّ واحد يطيرُ عالياً في الهواء دون أن ينتبه لوجودنا. حدّقت بها فاغراً فمي، كانت شيئاً غامضاً وخارقاً للطبيعة.

وبوقت آخر وعلى مسافةٍ قصيرةٍ من القارب طائرا نوّ ويلسون، مرّا على سطح الماء مشياً على قدميهما فوق الماء، وكذلك لم يلاحظا وجودَنا، وتركاني مذهولاً.

وأخيراً جذبْنا انتباهَ جَلَم الماء قصير الذّيل، أخذ يدورُ حولنا، ونزل نحونا بالتّدريج، مدّ رجليه وأدار جناحيه ثمّ نزل على الماء وطفا وكأنّه قطعةٌ من الفلّين، نظر إليّ بفضول، وبسرعة وضعتُ قطعةً من سمكة طائرة كطُعم على الخطّاف، رميتُ السنّارة باتجاهه، لم أضعْ ثقلاً بالسّنّارة، لذلك وجدت صعوبةً بتقريبها من الطائر، في المحاولة الثّانية جدّفَ الطائر نحو الطُّعم الغارق، وغمسَ رأسَه في الماء ليلتقطَه، فبدأ قلبي يدقّ فرحاً.

لم أجذبِ الخيطَ إلا بعد عدّة ثوان، وعندما جذبتُه نعق الطائرُ، وتقيأ ما كان قد ابتلعَه للتوّ، وقبل أن أعيدَ التجربةَ فتحَ الطائرَ جناحيه، ورفع نفسَه في الهواء، وبضربتين أو ثلاثٍ من جناحيه كان في الطريق الصحيح.

حالفني حظٌّ أوفرُ مع طائر الأطيش المبرقع، لقد ظهرَ فجأةً وهو ينحدرُ نحونا وجناحاه يمتدان لأكثرَ من ثلاثة أقدام. حطّ على ظهر المركب، وقد كان بمتناول يدي، أخذتْني عيناه المستديرتان نحو تعبيرٍ محيّر وجدّي.

إنّه طائرٌ كبيرٌ وبجسمٍ أبيضَ كالثّلج، ذو جناحين بلونٍ أسودَ فاحمٍ على قمّتها وحوافِها البعيدة، يحتوي رأسُه المنتفخُ على منقار بلون أورانج مصفرّ، يبدو بعينيه الحمراوين القابعتين خلف القناع الأسودِ كلصّ قضى ليلةً طويلةً جداً، قدماه البنّيتان الضخمتان هما الشيءُ الوحيدُ المحبّب في شكله.

لم يكن خائفاً، إذ قضى عدةَ دقائقَ يقرصُ ريشَه بمنقاره، وينتزعُ الناعم منها، وعندما انتهى من ذلك، نظر للأعلى وعادَ كلُّ شيء لمكانه، أظهرَ نفسه كما كان: طائراً ناعماً وجميلاً وانسيابياً، عندما قدّمت له قطعةً من سمكة القطّ، التقطَها من يدي واخزاً راحتي بمنقاره.

كسرتُ رقبته بأن لويت رأسَه للخلف، فدفعتُ منقاره بيد، وأمسكتُ رقبتَه باليد الأخرى.

كان ريشه ملتصقاً تماماً لدرجة أنّني عندما بدأتُ أنزعُه فقد خرج الجلدُ معها، لم أنتفْ ريشَه فقط بل قطّعته لأجزاء، كان خفيفاً جداً حيث أصبح كتلةً بلا وزن، أخذتُ السكين وسلختُ عنه جلده، بالنسبة لحجمه فقد خيّبَ آمالي، إذ وجدتُ القليلَ من اللّحم فقط على الصدر، أما أنسجته فقد احتاجت للمضغ أكثر من لحم سمك القط، ولكنني لم أجدْ فرقاً في الطّعم بينهما، وجدتُ في معدته إضافةً لقطعة سمك القط التي منحتُه إياها ثلاث أسماك صغيرة، بعد أن نظّفتها من العصارة الهاضمة أكلتُها، ثمّ أكلتُ قلبَ وكبدَ ورئتي الطائر، ابتلعْتُ عينيه ولسانه مع رشفة ماء، حطّمْتُ جمجمتَه وأخرجْتُ دماغَه الصّغير، أكلتُ أنسجةَ ما بين أصابعه.

وما تبقى من الطائر من عظام وجلد وريش رميتُها على حافة المشمّع لأجل ريتشارد باركر الذي لم يلاحظْ وصولَ الطّائر، فظهرَ مخلبٌ برتقاليّ ووصلَ إليها.

بعد عدة أيام رأيتُ الريش والزغب لا تزال تطفو في حظيرته، ثمّ تطايَر نحو البحر، وتلك التي سقطت في الماء تناولتْها الأسماكُ.

لم يعلنْ أيُّ طائر أبداً عن اليابسة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس والثّمانون

لمعَ البرقُ مرةً، بدتِ السّماءُ سوداءَ ولبسَ النهارُ ثوبَ اللّيل، أمطرتْ بغزارة، سمعتُ الرّعدَ من بعيد، واعتقدتُ أنّ ذلك سيستمرّ طويلاً، ولكن هبوبَ الريح قذفتِ الأمطارَ هنا وهناك.

بعد ذلك مباشرةً سقطتْ فلقةٌ من السماء واخترقت الماءَ، وقد كانت على مسافة ما من القارب، ولكن تأثيرُها بدا واضحاً تماماً، بدا وكأنّ الماء قد قُذفَ بما يشبهُ الجذورَ البيضاء، باختصار انتصبتْ شجرةٌ سماويّةٌ في البحر، ولم أتخيّل مطلقاً أنّه يمكنُ أن يحدث ذلك. فقد ضربَ البرقُ البحرَ، ولمع بشكل لافتٍ، واكتملَ المشهدُ برعدٍ هائلٍ.

التفتُّ نحو ريتشارد باركر قائلاً: انظر يا ريتشارد، هناك الكثير من البرق.

بشعوره إزاء ذلك، فقد تمدّدَ على أرض القارب، وأطرافُه متباعدةٌ وترتجفُ بشكلٍ كبير.

تأثيرَه عليّ كان عكس ذلك تماماً، كان شيئاً انتزعني من دروبي المميتة، ودفعني نحو انشداهٍ عالٍ.

فجأةً قصف الرعدُ بالقرب مني، ربما يعني ذلك لنا أنّنا قد سقطنا من قمة موجة، وانحدرنا خلفها عندما ضربَتْ قمتها، حدث انفجارٌ للهواء الحارّ والماء الحار لثانيتين أو لثلاث ثوانٍ، تراقصت في السّماء قطعةٌ بيضاءُ

لامعةٌ ضخمةٌ من نافذة كونيّة مكسورة واهية، ولكنّها قويةٌ على نحو كبير. عشرة آلاف بوق وعشرون ألف طبل ليس بإمكانها أن تُحدث مثل تلك الضّجّة التي أحدثتْها تلك الصاعقةُ من البرق، صاعقةٌ تصمُّ الآذان حقّاً.

تحوّل البحرُ إلى اللّون الأبيض، واختفت كلّ الألوان الأخرى، كلُّ شيء أصبح إمّا أبيضِ صافياً أو ظلاً أسود، ويبدو أنّ الضوء لا يُصدرُ نوراً ولكنّه يخترق المكان، اختفى الرعد حالما ظهرَ ولم يزل الرذاذُ يسقطُ علينا ثمّ اختفى، تحولتْ قمّةُ الموج إلى اللون الأسودِ وتدحرجتْ بلا مبالاة.

أُصبتُ بالذهول، وبصدمة الرعد بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنىً، ولكنّني لم أخفْ وتمتمتُ قائلاً: الله ربُّ كل العوالم العطوف الرحيم صاحب الأمر يوم القيامة، وصرخت بريتشارد باركر: توقف عن الارتجاف، هذه معجزةٌ، إنّه انفجارٌ من السماء، إنّه... إنّه، لم أستطعْ أن أعرفَ ما كان ذلك.

إنّه شيءٌ رائعٌ لا حدودَ له، جعلني مبهوراً لدرجة أنّني لم أستطعِ الكلام. استلقيتُ على المشمّع ومددتُ ذراعيّ ورجليّ، فقد اخترق بردُ المطر عظامي ولكنّني بقيتُ مبتسماً، تذكّرتُ تلك الصدمة بسبب صعقة الكهرباء وحروق الدرجة الثالثة بأوقات المحنة عندما كنتُ أشعر بالسعادة الحقيقية.

لحظاتٌ من الدّهشة تجنّبكَ التفكيرَ بالأشياء الصغيرة والتّمتّع بالأفكار التي تمتدّ بسعة الكون، والتي تستولي على كلٍّ من الرعد والأزيز الثّخين والنحيف والقريب والبعيد.

الفصل السادس والثّمانون

ريتشارد باركر، سفينة!

سررتُ لإطلاق تلك الصّرخة، كنتُ بمنتهى السعادة، سقط كلُّ الأذى وكلُّ الإحباطات وامتلأتُ بالشعور الإيجابيّ بالفرح.

لقد نجحْنا، لقد تمّ إنقاذُنا، أتفهم هذا يا ريتشارد باركر؟ لقد نجوْنا، ها، ها، ها، ها.

حاولتُ التحكّم بإنفعالي. ماذا لو مرّتِ السفينة بعيداً عنّا كثيراً ولم تَرَنا؟ هل أطلقُ صاروخ إشارة؟ هراء.

إنّها تتّجهُ نحونا مباشرةً يا ريتشارد! شكراً لك يا إلهي غانيشا، ليتبارك تجلّيك يا إلهي براهمان.

لا يمكنُ أن تضيّعَنا، وهل هناك فرحٌ أكبرُ من فرح الإنقاذ؟ صدقني لا.

انتصبتُ واقفاً للمرّة الأولى منذُ مدّة طويلةٍ، ولم أبذلْ ذلك الجهد.

هل تصدقُ هذا يا ريتشارد باركر؟ سيكون هناك بشرٌ وطعامٌ وشرابٌ وسريرٌ، لقد وُهِبنا الحياة ثانيةً، يا للنعيم!

اقتربت السفينةُ، وبدا وكأنّها ناقلةُ نفطٍ، أخذ شكلها يتّضح أكثر.

كان الخلاص يرتدي ثوباً أسودَ وزركشةً بيضاء اللون، وماذا لو... ؟

لم أجرؤ على نطق الكلماتِ، يبدو أنّ والديّ وأخي لم يكن لديهم الفرصةُ للبقاء أحياء. لقد احتوتْ تسيم تسوم على عدد من قوارب النّجاة، ربما أنّهم وصلوا كندا قبل عدّة أسابيع، وينتظرون ويقلق أخباراً عنّي، ربما أكونُ الشخصَ الوحيدَ مجهولَ المصير بعد غرق السفينة.

يا إلهي ما أكبرَ ناقلاتِ النفط! تبدو وكأنّها جبلٌ يزحفُ نحونا، ربما يكونون الآن في وينيبغ، أتساءلُ كيف يكون شكلُ بيتنا؟ هل تعتقد يا ريتشارد باركر أنّ المنازلَ في كندا تمتلكُ باحاتٍ داخليّة على نمطِ منازلِ التاميل؟ ربما لا.

أعتقدُ أنّها تمتلئُ بالثّلج في الشتاء، للأسف لا يوجدُ أمانٌ يشبهُ أمانَ الباحة الداخليّة في يومٍ مشمس، أتساءلُ ما هي التّوابلُ التي تزرع في مانيتوبا؟

أصبحتِ السفينة قريبةً جداً، سيوقفُها الطّاقمُ الآن أو ستستديرُ بحدّةٍ نحونا.

نعم، ما هذه العطورُ؟ يا إلهي...!

أدركتُ والخوفُ يتملّكني أنّ الناقلةَ لم تكن تبحرُ بمسارنا، في الحقيقة كانت تتّجهُ مباشرةً نحونا، وهيكلُها عبارةٌ عن جدارٍ واسعٍ من المعدن، وأخذَ يكبرُ كلّ ثانية، تقدّمتِ الموجة التي تحيط بها نحونا بلا هوادة.

شعرَ ريتشارد باركر أخيراً بظهورِ تلك الشاحنة الضّخمة، التفتَ وأخذَ ينبحُ وينبحُ، ولكن ليس مثل كلبٍ بل نباحُ نمرٍ قويّ، نباحٌ مخيفٌ ومناسبٌ للحالة تماماً.

ريتشارد باركر سوف تصدمنا السفينة، ماذا سنفعل؟ أسرع... أسرع مسدسُ إشارةٍ، لا، يجبُ أن نجدّفَ، ضعِ المجدافَ على قاعدته، هكذا، جدّف، جدّف، جد...

قذفتْنا موجةُ مقدّمةِ السفينة إلى الأعلى، ربضَ ريتشارد باركر، وقف شعرُ جسمه، انزلقَ القاربُ عن الموجة مبتعداً عن الناقلة أقلّ من قدمين، انزلقَ القارب مسافةً بدت لي وكأنّها ميلٌ من جدارِ وادٍ عميق أو حصنِ قلعة، ولم يكن هناك حارسٌ يشاهدنا، ونحن لا حولَ لنا في هذا الخندق المائي.

أطلقتُ صاروخَ إشارةٍ، ولكنّني أخطأتُ التصويبَ، فبدل أنْ يندفعَ فوق حافة السّفينة وينفجرَ أمام وجه القبطان، ارتدّ عن جسم السفينةِ وسقطَ مباشرةً في المحيطِ حيث انطفأَ وهو يهسهس.

أطلقتُ صافرتي بكلّ قوّتي، وصرختُ بأعلى صوتي، ولكن دون جدوى.

زمجرتْ محركاتُها عالياً ومراوحُها تتلاطمُ بصوتٍ كالانفجار تحت الماء وحرّكتِ الماءَ بعنفٍ وهي تتجاوزُنا وتتركُنا نرتفع ونتمايلُ بطريقها المزبد.

بعد أسابيعَ عدّةٍ من سماعنا الأصوات الطبيعية كانت تلك الأصوات الميكانيكية غريبة ومرعبة وقادتْني إلى صمتٍ مذهل.

بعد أقلّ من عشرين دقيقة، أصبحتِ السفينةُ ذاتُ الثلاثمئة ألفِ طنّ بقعةً في الأفق.

وعندما التفتّ رأيتُ ريتشارد باركر لا يزالُ ينظرُ نحوها. وبعد برهة استدارَ أيضاً والتقتْ عيونُنا، كانت عيناي تعبران عن الشّوق والألم والمعاناة

والوحدة، كلّ ما شعرَ به أنّه حدث شيءٌ خطير، شيءٌ خارجٌ عن حدود فهمه، لم يدركْ أنّنا قد فقدْنا وسيلةَ إنقاذٍ، ما رآه فقط أنّ الألفا كانت هنا.

هذا النّمرُ الوحشيّ الذي لا يمكن التنبؤ بأفعاله، والشّديدُ الانفعال، جلسَ للقيلولة مرّةً أخرى، وعلّق على الحدث بمواءٍ غريبٍ فقط.

أحبكَ. خرجتِ الكلماتُ مني واضحةً ودون قيد، وقد ملأَ هذا الشعورُ صدري، حقيقةً أحبّكَ يا ريتشارد باركر، فلو لم تكن معي الآن لما عرفت ماذا سأفعل، لا تظنّ أنّني يمكن أن أتحمّلَ، لا، ما كنت أستطيع ذلك، بل سأموتُ من اليأس.

لا تستسلمْ يا ريتشارد باركر، لا تستسلمْ، أعدُك أنّني سأقدمُ لك اليابسةَ، أعدُك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السّابع والثّمانون

إحدى طرقِي المفضّلةُ للهروب من الاختناق هي استخدامي لقطعةِ قماشٍ كنت قد قطعتُها من بقايا بطانيّة، سمّيتها خرقةُ الأحلام، أبلّلُها بماء البحر وأستلقي على المشمّع، وأغطّي وجهي بها بشكل يلائمُ تقاسيمَه، حينها يصيبُني الدّوارُ الذي لن يكون صعباً على أحد أن يبدأ به إذا كان بحالة سبات.

تمتّعتْ خرقةُ الحلم هذه بصفةٍ خاصةٍ وهي منعي من استنشاق الهواء، زارتْني أحلامٌ ورؤىً ونشوةٌ وأفكارٌ ومشاعر وذكرياتٌ. كان الوقت يمرّ سريعاً، أصحو عندما يضايقني اللّهاثُ وارتجافُ الخرقة وسقوطها ولا يفرحُني سوى مرورِ الوقتِ سريعاً، وجفافُ الخرقة برهاني على ذلك، والأهمُّ من ذلك شعوري بأنَّ الأشياءَ بدتْ مختلفةً، وأنّ اللّحظة الحاضرةَ مختلفةٌ عن اللّحظة السابقة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والثّمانون

ذات يومٍ وجدْنا بعضَ الفضلات، في البداية كان البحرُ يلمع بسبب بقعةِ نفطٍ، أعقبَها مباشرةً بقايا منزليّة وصناعيّة وعلى رأسها بقايا بلاستيكية بأشكالٍ مختلفةٍ وألوانٍ متنوّعةٍ، وكذلك قطع من الخشب وعلب بيرةٍ معدنيّة وزجاجاتِ خمر ومزقٍ من قماشٍ وقطع من حبلٍ ويحيطُ بها جميعِها رغوةٌ صفراءُ.

تقدّمْنا نحوها، وبحثتُ عن أيّ شيء يمكنُ أن يفيدَنا، التقطْتُ زجاجةَ نبيذٍ فارغةً بسدادةِ فلّين، ثمّ اصطدمَ القاربُ بثلّاجةٍ فقدتْ محركَها، طفتْ على سطح الماء وبابُها نحو السماء، وصلتُ إليها، وأمسكْتُ المقبضَ وفتحتُ بابَها، ففقزتْ منها رائحةٌ مقزّزةٌ، بدتْ وكأنّها لوّثتِ الهواء، وضعتُ يدي على فمي ونظرتُ داخلَها، وجدتُ بقعاً ملونةً وعصيراً أسودَ وكميّةً من الخضار المتعفّنة تماماً وحليباً متخثّراً وملوثاً وذا لونٍ أخضرَ، وبقايا مربعةَ الشكل من حيوانٍ ميتٍ لونُه أسودُ تماماً، لدرجة أنّني لم أستطعْ تمييزه، وبالنظر إلى حجمه أعتقدُ أنّه لحمُ خروف.

أصبحتِ الرائحةُ المنبعثةُ من الأجزاء المغلقةِ والرّطبة للثلّاجة أكثرَ هياجاً وحدّةً، فقد اقتحمَتْ حواسي بغضبٍ مكبوتٍ، ما جعل قلبي ينتفضُ ومعدتي تتحركُ بعنف، ورجلاي ترتجفان، ولحسن الحظّ فقد ملأ البخارُ الحفرةَ المرعبةَ وغرقتْ كلُّ الأشياء تحت سطح الماء، تُرك المكانُ والثلاجةُ الممتلئةُ بالفضلات المتبقّية.

تركْنا الفضلاتِ خلفنا، وبقيتُ فترةً طويلةً أشمُّ تلك الرائحة كلما هبّتِ الريحُ من ذلك المكان، مرّ يومٌ كاملٌ حتى استطاع البحر تنظيفَ المكان من بقايا النّفط المحيط بالقارب.

وضعتُ رسالةً في الزجاجة تقول: سفينة تسيم تسوم المملوكةُ من قبل اليابان، وتحملُ علمَ باناما، غرقتْ في الثاني من تموز ١٩٧٧ في المحيط الهادي على بعد أربعةِ أيام من مانيلا. أنا على ظهر قاربِ نجاةٍ واسمي باي باتيل، ولديّ بعضُ الطعام والماء ولكنّ نمراً برتغالياً يسبّبُ لي مشكلة حقيقية. الرجاءُ إبلاغُ عائلتي في وينيبيغ بكندا، وأي مساعدة ستكون محلّ تقدير كبير.

الزجاجةَ وغلّفتُ السدادةَ بقطعةِ بلاستيك، وربطتها حول عنق الزجاجة بخيط من النايلون وعقدتُه بإحكام ثمّ أسقطتها في الماء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع والثّمانون

عانيْتُ من كلّ شيءٍ، وقد أصبحَ كلُّ شيء أبيضَ ومهترئاً بسبب الشمس وتقلبات الطقس، القاربُ والطّوفُ الذي فقدناه، المشمّع، جهازُ التقطيرِ، جامعُ المطر والأكياسُ البلاستيكيّة وصنارة الصّيد والبطانيّاتُ وشبكةُ الصيد اهترأتْ جميعُها وترهّلت وتشققت وتيبّستْ وتمزّقتْ وفقدَتْ ألوانها. فما كان لونُه برتقالياً أصبح أبيضَ برتقالياً، وما كان ناعماً صارَ خشناً، وما كان خشناً أضحى ناعماً، وما كان حاداً أصبح كليلاً، وما كان جزءاً واحداً تحوَّلَ إلى أجزاء.

ولم يصنعْ دهنُ الأشياء بجلد الأسماك أو دُهن السّلاحف أيَّ فرقٍ، فقد استمرّ الملحُ بأكل كلّ شيءٍ بملايين الأفواه لديه. وأما بالنسبة للشمس فقد شوتْ كلَّ شيء، ووضعتْ ريتشارد باركر في حالةِ استعبادٍ قهريّ.

أصبحتِ الهياكلُ العظميّةُ نظيفةً تماماً، وحوّلتها الشمسُ إلى اللون الأبيض الناصع، وأحرقتْ ثيابي، وألهبتْ جلدي، وعلى الرغم من كونه داكناً فإنّني لم أحمِه تحت البطانيّات وتُروس السّلاحف التي وضعتُها كشمسية.

وكلّما أصبحتِ الحرارةُ لا تُطاق كنت أملأُ دلواً من ماء البحر وأسكبُه عليّ، وأحياناً عندما يكون الماء حاراً جداً أحسُّه وكأنّه شرابٌ. تكفّلتِ الشمس بكلّ الروائح، ولم أتذكّرْ أيَّ رائحة، ربما رائحةُ مسدس الإشارات التي استهلكتُها باقيةٌ على يدي. تبدو رائحتُها مثلَ رائحة الكمون، هل سبق

أَنْ ذكرتُ ذلك؟ لا أتذكّرُ أبداً رائحةَ ريتشارد باركر. لقد أُهلكْنا، حدثَ ذلك ببطءٍ لدرجةِ أنّني لم ألاحظْه طوال الوقت، ولكنّني كنتُ أراه بانتظام.

كنّا حيوانين ثديين هزيلين يعانيان العطشَ والجوع، وقد فقد فراء ريتشارد باركر لمعانه، وسقط بعضه عن كتفيه ووركيه، لقد فقد الكثيرَ من وزنه وأصبحَ هزيلاً في حقيبةٍ من الفرو المهترئ، وكذلك أنا فقد أصبحتُ ذابلاً، وفقدتُ رطوبةَ جسدي، وبرزتْ عظامي بوضوح من تحت لحمي الضّعيف.

صرتُ أقلّدُ ريتشارد في النّوم لساعاتٍ طويلة، لم يكن نوماً حقيقيّاً، ولكنّه أشبهُ بفقدان الوعي الذي لم أستطعْ خلاله أنْ أميّز بين الحلم واليقظة. استخدمتُ خرقةَ الأحلام كثيراً.

هذه هي الصفحات الأخيرة من مذكراتي:

اليومَ رأيتُ سمكةَ قرشٍ أكبرَ بكثيرٍ ممّا رأيتُه سابقاً، وحشٌ بدائيٌّ طوله عشرون قدماً، مخططٌ، سمكةُ نمرٍ خطيرةٍ جداً، وقد دارَتْ حولَنا، وازداد خوفُنا من مهاجمتِها لنا. لقد نجوتُ من الموت على يد نمر؛ لا أريدُ أن أقتل على يد نمرٍ آخر. لم تهاجمْنا بل سبحتْ بعيداً. جوٌّ غائمٌ ولكن لا شيء.

لا أمطارَ، فقط صباحٌ رماديٌّ ودلافين، حاولتُ الإمساكَ بإحداها فوجدتُ نفسي لا أستطيعُ الوقوفَ.

ريتشارد باركر ضعيفٌ وبمزاجٍ سيِّئ، ولو هاجمني لن يكونَ بمقدوري الدّفاعُ عن نفسي لشدّةِ ضعفي، ببساطة ليس لديَّ القدرةُ حتى لإطلاق الصافرة.

يومٌ هادئٌ وملتهبٌ والشمسُ تضربُ بلا رحمة. أشعرُ بدماغي يحترقُ داخلَ رأسي، إنّه شعورٌ مروّعٌ إلى أقصى حدّ.

منهكٌ للجسد والروح، سأموتُ قريباً، ريتشارد باركر يتنفّس لكنّه لا يتحرّكُ، لا بدّ سيموت أيضاً، لن يقتلَني.

الإنقاذُ. ساعةٌ من المطر الغزير واللذيذ والجميل، ملأتُ فمي وملأتُ الأوعيةَ والصفائحَ، وملأتُ جسدي حتى لم يعدْ بمقدوري الاستزادةَ بقطرةٍ أخرى.

بلّلْتُ نفسي بالماء لإزالة الملح عني، ثمّ زحفتُ لأرى ريتشارد باركر، لا ردّ فعلٍ لديه، ملتفٌّ على نفسه، وذيلُه ممدودٌ، فراؤه رطبٌ، بالعادة يصبحُ أصفرَ عندما يبتلّ، إنّه ضعيفٌ، لمستهُ للمرّة الأولى لأتأكّدَ إذا كان ميتاً، لا ليس ميّتاً، جسمُه لا زال دافئاً، من المدهش لمسُه، فحتى وهو في هذه الحالة تراه قوياً وذا عضلاتٍ وحيًّا.

لمستُه ولمسْتُ فروَهُ، فارتجفتُ وكأنّني بعوضةٌ صغيرة.

أخيراً حرّكَ رأسَه المغطّى نصفُه بالماء، من الأفضل أن يشربَ بدلاً من أن يغرقَ، أبدى إشاراتٍ جيدة، فقد قفزَ ذيلُه ثمّ رميْتُ قطعةً من لحم السّلحفاة أمام أنفه، لا شيء...

وأخيراً نهضَ ليشربَ، شرب وأكل ولم يقفْ بشكل كامل، أمضى ساعةً كاملةً وهو يلعقُ نفسَه بالكامل ثمّ نامَ.

لا فائدةَ، سأموتُ اليوم، سأموت اليوم، سأموتُ.

كان ذلك آخر دخولٍ لي إلى مذكّراتي، تابعتُ من هناك، تحمّلتُ ولكن دون ملاحظة ذلك.

هل ترى تلك الكلمات اللولبيّة غيرِ المرئيّة على هوامش الورقة؟ اعتقدتُ أنّه قد نفدَ مني الورقُ، إنّ الأقلامَ هي من نفدَتْ.

الفصل التسعون

سألْتُ ريتشارد باركر: «هل لديك مشكلةٌ؟ هل أصبحتَ أعمى»؟ سألته وأنا ألوّح بيدي أمام وجهه.

طوال يومٍ أو يومين استمرّ في حكّ عينيه والمواء بشكلٍ يفطرُ قلبي، لكنّني لم أُعر اهتماماً للأمر، الألمُ والجوعُ هما الأمران الوفيران في طعامنا.

أمسكتُ بسمكةِ قطّ، فلم نتناولْ شيئاً منذ ثلاثة أيام، جاءتْ سلحفاةٌ إلى القارب أمس، ولكنّني كنت ضعيفاً جداً، فلم أستطع سحبَها إلى القارب.

قطّعتُ السّمكة إلى قسمين، نظرَ ريتشارد باركر نحوي، رميْتُ له حصّةً، وقد توقّعتُ أن يلتقطَها بفمه بذكاء، لكنّه تركَها تسقطُ على وجهه عديمِ الملامح، انحنى وبعد أن اشتمّ يميناً ويساراً وجد السّمكةَ، وبدأ يأكلها، كلانا يأكلُ ببطءٍ الآن.

حدّقتُ في عينيه لم تكونا مختلفتين عمّا مضى ربما تكونُ الإفرازاتُ في زواياها الداخليّة أكثر بقليلٍ، ولكنّها لم تكن مثيرة، حقيقة لم تكن مثيرة أكثر من شكله كلّه، لقد حوّلتنا المحنةُ إلى جلدٍ وعظم.

لاحظتُ أن أجوبتي كلَّها جاءتْ من مجرّدِ النظر إليه، حدّقتُ في عينيه وكأنّني طبيبُ عيون، بينما نظر إليّ بعينين فارغتين.

القطّةُ العمياءُ فقط تفشل في إظهار ردة فعلٍ على مثل هذا التّحديق.

أشفقت على ريتشارد باركر، فقد اقتربتْ نهايتُنا، في اليوم التالي بدأتُ أشعرُ بوخزٍ في عينيّ، حككْتُها كثيراً ولكنّ الوخزَ أخذ يزدادُ، وعلى عكس ريتشارد باركر فقد بدأتْ عيناي تنزّان صديداً.

حلّ الظلام عندما رمشت عيناي، في البداية كان أمامي مباشرةً بقعةٌ سوداءَ وسطَ كلّ شيء أنظرُ إليه، ثمّ تحولتْ إلى لطخةٍ وصلتْ إلى حافة رؤيتي، كلُّ ما رأيتُه من الشمس في الصباح كان فرجةً من الضوء في أعلى عيني اليسرى مثل نافذة صغيرة عالية، تحوّلَ كلُّ شيء إلى ظلمةٍ عند الظهيرة.

تشبّثتُ بالحياة، وقد أصبتُ بالحمى، وصارتْ حرارتي جهنّمية، خارتْ قواي ولم أعدْ أستطيعُ الوقوفَ، شفتاي جافتان ومتشقّقتان، فمي جافّ ومُغطى بلعابٍ لزج، فقدتُ القدرةَ على التّذوق أو الشمّ، وقد احترقَ جلدي وأخذت عضلاتي الواهنة تؤلمُني، تورّمتْ ساقاي ولا سيّما قدميّ، وأصبحتا مصدرَ ألمٍ مستمرّ، شعرتُ بالجوع وللمرّة الثانية لم يكن هناك طعامٌ، أما بالنسبة للماء فقد شربَ ريتشار باركر منه كثيراً، بينما تراجعَتْ حصّتي إلى خمسِ ملاعقَ في اليوم، ولكنّ هذا الألمَ الجسديّ ليس شيئاً يُذكر أمام المعاناة النفسيّة التي بدأتُ أتحمّلها، فقد اعتبرْتُ إصابتي بالعمى هو بدايةُ معاناتي الشديدة، لا أذكر بأيّ يومٍ من الرحلة حدث ذلك، فقد أصبح الوقتُ كما ذكرتُ سابقاً لا صلة له بالأمر، ويجب أن يكونَ ذلك قد حدثَ ما بين اليومِ مئة واليوم مئتين، أنا متأكّدٌ أنّني لن أستمرَّ مئةَ يومٍ أخرى.

صباح اليوم التالي فقدتُ كلّ الخوف من الموت، وصمّمتُ أن أموتَ، ووصلتُ إلى النّتيجة الحزينة أنّني لن أستطيعَ الاعتناءَ بريتشارد باركر بعد الآن.

لقد فشلْتُ بعملي كحارسٍ في حديقة الحيوان، تأثّرْتُ بنهايته الوشيكة أكثرَ من تأثّري بمأساتي، في الواقع أنا محطمٌ وضائعٌ، ولذا لم يكنْ بإمكاني فعل شيء.

حانت الساعة. أحسسْت بضعفٍ قاتلٍ يزحفُ إليّ، سوف أموتُ في المساء، ولأجعلَ موتي أكثرَ راحةً قرّرْتُ أن أضعَ حداً للعطش الذي أعيشُ معه منذ مدّة طويلة، شربتُ أكبرَ كمّية من الماء، وتمنّيْتُ لو كنت أملكُ قضمةً من الطّعام، ولكنْ بدا أنّه لا وجودَ لها.

جلست مستنداً إلى الحافة المطويّة من المشمّع وسطَ القارب، أغمضْتُ عينيّ، وانتظرْتُ أن يغادرَ النفَسَ جسدي، تمْتَمْتُ: الوداعُ ريتشارد باركر. أنا آسفٌ لأنّني خذلْتُك، فعلتُ ما بوسعي... الوداع، تحياتي أبي العزيز وأمي الغالية وعزيزي رافي، ابنكم المحبوب وأخوك المحبوب قادمٌ للقائكم.

لم تمرّ ساعة واحدة دون أن أفكرَ بكم، فلحظةُ مشاهدتكم ستكون أسعدَ لحظةٍ بحياتي، والآن سأتركُ الأمرَ بين يدي الله.

الله الحبُّ ومن أحبّ...

سمعت السؤال. هل يوجد أحدٌ هناك؟

إنّه شيءٌ مذهلٌ أن تسمعَ أحدَهم وأنت تعاني الوحدةَ في ظلمة عقلك الميّت، صوتٌ دون لونٍ أو شكلٍ يبدو غريباً، إن كنتَ أعمى فإنّك تستطيعُ أن تسمعَ.

جاءت الكلماتُ ثانية، هل يوجد أحدٌ هناك؟

وصلتُ إلى نتيجةٍ أنّني قد جُننت، شيءٌ محزنٌ ولكنّها الحقيقة، البؤسُ يحبّ الصحبةَ والجنون يأتي أولاً.

هل يوجدُ أحدٌ هناك؟ جاءَ الصوتُ ثانيةً وبإصرار.

جنوني الواضحُ مذهلٌ، صوتٌ له طابعُه الخاص، ونبرةٌ ثقيلةٌ ومتعبةٌ، قرّرْتُ أن ألعب الدور.

طبعاً يوجدُ أحدٌ هناك، دائماً يوجد أحد ما هناك، من الذي يسأل هذا السؤال؟ تمنّيتُ أن يكونَ هناك أحدٌ آخر.

ماذا تعني بقولك «شخصٌ آخرُ؟» هل تعرفُ أين أنت؟ إذا لم تكن سعيداً بهذه القصّة من نسج خيالك، فاخترْ واحدةً أخرى، هناك الكثيرُ من القصص الخياليّة التي يمكنُ أن تختار منها.

آه، تلفيق، ت ت، ألن يكونَ التّينُ مناسباً؟

إذن ليس هناك أحدٌ، هل هناك أحدٌ؟

هش، أنا أحلمُ بالتّين.

تين! هل لديك حبةُ تينٍ؟ رجاءً هل لي بواحدة؟ أتوسّل إليك، حبّةٌ صغيرة فقط، إنّني أتضوّرُ جوعاً.

ليس لديّ فقط حبّةٌ واحدةٌ بل عندي أكثر ممّا تتخيّل، لديّ كميّةٌ خياليّةٌ من التّين! أرجوك هل لي بالبعض منه؟ أنا...

تلاشى الصوتُ أو مهما كان، فقد ترك أثراً في الرّيح أو الموج.

تابعتُ قائلاً: إنّها ممتلئةٌ وفوّاحةٌ وثقيلةٌ، أغصانُ الشجرة منحنيةً بحملها الثقيل من التّين، لا بدّ من وجود ثلاثمئة حبّةِ تينٍ في تلك الشجرة.

صمتٌ.

جاء الصوتُ ثانيةً، دعْنا نتحدّثُ عن الطّعام.

يا لها من فكرة جيدة.

ما الذي ترغبُ بتناوله إذا كان لديك كلُّ ما تريد؟

سؤالٌ ممتاز، أرغب ببوفيه رائعٍ، يبدأُ بالأرزّ والسامبار وهو عبارةٌ عن أرزّ جرام دالا الأسمر وأرزّ باللّبن الرائب و...

سأتناولُ...

لم أنته بعد، سأتناول سامبار التّمر الهنديّ الحارّ وسانبار بالبصل و...

أيُّ شيء آخر؟

سأكملُ لك، أرغبُ بتناول ساغو بالخضار وكورما بالخضار وبطاطا بخلطة التوابل وفاداي الملفوف ودوساي بالبهارات وراسام بالعدس الحارّ و...

انتظرْ، وباذنجان محشيٌّ ومشويٌّ، وبطاطا بجوز الهند وأرزّ إيدلي وفاداي بالخاثر وباجي بالخضار و...

تبدو أنّها...

هل ذكرتُ لك الصلصة؟ صلصةُ جوز الهند، وصلصةُ النّعنعِ ومخلّلات الفلفلِ الحارّ ومخلّلات عينِ الثّعلب، كلُّها تُقدَّمُ مع خبز النان المعتاد والبابا دوفر، وكذلك فطيرةُ الباراثا والبوريس.

السلطاتُ! سلطةُ المانجو الكثيفة، وسلطةُ البامية الكثيفة، وسلطة الخيار الطازج.

وللتّحلية ألموند باياسام بالحليب وبنكيك، وتوفي بالبندق، وبورفي بجوز الهند والفانيللا، وآيس كريم مع صلصة الشوكولا الكثيفة.

وسأنهي هذه الوجبةَ بعشرة ليتراتٍ من الماء البارد المثلّج العذب النّظيف وفنجانِ قهوةٍ.

يبدو شيئاً جيدًا.

إنّه كذلك.

قُلْ لي ماهي اليام كوتو بجوز الهند؟

ليستْ معجزةً، تحتاجُ لصناعتها بطاطا وجوزَ هند مبشوراً وموزاً ومسحوقَ الفلفل الحارّ وفلفلاً أسودَ مطحوناً وكركماً مطحوناً وخردلاً بنيّاً والقليلَ من زيت جوز الهند، وتقلي جوزَ الهند حتى يصبحَ فاتحاً.

هل أقدّمُ اقتراحاً؟

ماذا؟

بدلاً من ذلك، لماذا لا تأخذُ لسانَ العجل المسلوق مع صلصة الخردل؟

إنّ هذا طعامٌ غير نباتيّ.

إنّه كذلك ومن ثمّ الكرش.

الكرش؟ لقد أكلتُ لسانَ الحيوان، والآن تريدُني أن آكلَ معدتَه؟

نعم، فأنا أحلمُ بطبقٍ من معدة العجل ساخنةً مع الخبز الحلو.

الخبزُ الحلو؟ يبدو هذا أفضلَ، وما هو الخبز الحلو؟

الخبز الحلو يُصنع من بانكرياس العجل.

البنكرياس؟

رائع مع صلصة الفطر، إنّه ببساطة لذيذ.

من أين جاءتْ تلك الوصفةُ المدبّسة بالمقدسات المقززة؟ هل ذهبتَ بعيداً لدرجة أنني أتوقّع مكاناً فيه بقرة صغيرة.

أيُّ رياحٍ مرعبةٍ قادتْنا إلى هنا؟ هل عادَ القاربُ إلى موقع الفضلات الطّافية؟

ما الإهانةُ التّالية؟

دماغُ العجل مع صلصةِ الزّبدة الدّاكنة.

هل عدنا ثانيةً إلى الرّأس؟

سوفليه الدماغ!

أشعرُ بالغثيان، هل هناك أيُّ شيءٍ لا ترغبُ بأكله؟

ماذا سأقدّمُ مقابلَ شوربة ذيل الثور؟

مقابلَ صغير خنزير محشوّ بالأرز، وسجقٍ ومشمشٍ وزبيب، كلية عجل بالزّبدة، والخردلُ والبقدونس مقابل أرنب متبّل ومطبوخ بالنبيذ الأحمر.

مقابل نقانقِ كبد الدّجاج، فطيرة لحم خنزيرٍ أو الكبدِ ولحمِ العجل مقابل الضفادع، آه، أعطني الضفادع، الضفادع!

لا أكاد أتمالكُ نفسي.

تلاشى الصوت، ارتجفتُ من الغثيان، الجنونُ بعقلي شيءٌ آخر، ولكنّه لم يكن من العدل أن ينزلَ إلى معدتي.

هبطَ عليّ الإدراكُ فوراً.

- هل تأكلُ لحمَ عجلٍ نيّئاً مدمّى؟ سألتُ.

- طبعاً، فإنّني أحبّ ستيك الطرطار.

- وهل يمكنك تناولُ دم خنزيرٍ ميتٍ مجمّداً؟

- كلَّ يوم مع صلصة التّفاح.

- هل يمكنك تناولُ أيّ شيء من الحيوان، آخر بقاياه؟

- مفرومٌ وسجقٌ، سأتناول طبقاً مليئاً منه.

- ما رأيك بالجزر؟ هل يمكنك أكلُ الجزر النّيِّئ العادي؟

لا جواب.

- ألم تسمعْني؟ هل ستأكلُ الجزرَ؟

- سمعتُك، ولكي أكونَ صادقاً معك، فإنّني لن آكله، ليس لديّ معدةٌ تتحمّل ذلك النوع من الطعام، وجدتُه دون طعمٍ كلّيّاً.

ضحكتُ، عرفتُ ذلك.

لم أكنْ أسمعُ أصواتاً، لم أجنَّ بعد، إنّ ريتشارد باركر هو من يحدّثُني، إنّ الحيوانَ اللّاحم الوغد، كلّ تلك المدة معاً ولم يختر إلا آخر ساعةٍ ليؤنّبني، ابتهجتُ لحديثي مع نمرٍ، امتلأتُ بالفضول المبتذَلِ كذلك الذي يعاني منه نجوم السينما بين معجبيهم.

- عندي فضولٌ، هل سبق أن قتلتَ إنساناً؟

أشكّ في ذلك.

إنّ آكلي البشر نادرون بين الحيوانات، كما هو حال القتلةِ بين البشر، وبالنسبة لريتشارد باركر فقد تمّ أسرُه عندما كان جرواً.

ولكن هل يمكنُنا القول إنّ أمَّه وقبل القبض عليها من قبل ثيرستي، أمسكت إنساناً؟

- يا لهذا السؤال، أجاب ريتشارد باركر.
- يبدو معقولاً.
- أهو كذلك؟
- نعم.
- لماذا؟
- لديك سمعةٌ في فعلِها.
- أنا أفعلها؟
- طبعاً، وهل أنت أعمى عن تلك الحقيقة؟
- أنا كذلك.
- حسناً دعني أشرح لك ما ليس واضحاً، لديك تلك السمعةُ، لذا هل سبقَ أَنْ قتلتَ إنساناً؟
- صمت.
- حسناً أجبْ.
- نعم.
- آه، لقد بعثتَ القشعريرةَ في جسدي، كم واحداً؟
- اثنان.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- هل قتلت رجلين؟

- لا، رجلاً وامرأةً.

- بالوقت نفسه؟

- لا، الرجل أولاً ثمّ المرأة.

- أيها الوحش! أراهن أنّك اعتقدت ذلك تسليةً كبيرةً، لا بدّ أن وجدْتَ صرخاتِها ومقاومتَها مسلّيةً جداً.

- في الحقيقة لا.

- هل كانا جيّدين؟

- نعم، لا تكن بليداً.

- هل كان مذاقُهما لذيذاً.

- لا، لم يكنْ طعمُهما جيداً.

- اعتقدتَ ذلك، سمعتُ أنّه مذاقٌ مكتسبٌ في الحيوان. لذا لمَ قتلْتَهما؟

- الحاجة.

- حاجة وحشٍ. ألم تشعرْ بالندم؟

- كان يجب أن أكونَ أنا أو هما.

- تلك حاجة لا أخلاقيّة، هل تشعرُ بأيّ ندمٍ الآن؟

- إنّها وليدة اللّحظة، وبسبب ظرفٍ ما.

- غريزةٌ، إنّها غريزةٌ، هل تشعرُ بالندم الآن؟ أجب.

- لا أفكرُ بهذا الأمر.

- تفسيرُ حيوان، هذا ما أنت عليه.

- وماذا تكون أنت؟

- مخلوقٌ بشريٌّ، أردتُك أن تعرفَ ذلك.

- يا لصلفَ الكبرياء!

- إنّها الحقيقةُ الواضحةُ.

- لذا فإنّك سترمي الحجر الأوّل، أليس كذلك؟

- هل سبق لك أَنْ تناولتَ الأوثابام؟

- لا، لم أفعلْ، أخبرني عنها، ماهي الأوثابام؟

- إنّها جيّدة جداً.

- تبدو لذيذةً، هيا أخبرني المزيد.

- تصنع الأوثابام غالباً من اللّبن والبيض، ولكن نادراً ما تحتفظُ بفكرةٍ - عن كيفيّة طبخها.

- أستطيع أن أتذوّقَها.

غرقتُ في النّوم أو ربما هذيان الموت، ولكن شيءٌ ما كان يعبثُ بي، لم أستطعْ معرفته، ومهما يكن فإنّه يُقلق موتي.

- عرفتُ ما الذي أزعجني.

- اعذرْني.

- نعم، جاء صوتُ ريتشارد الضّعيف.

- لماذا تتحدّثُ بهذه النّبرة؟

- لا أفعل، أنت من يستخدمُ تلك النبرة.

- لا، أنت لفظتَ حرفَ الزّاي.

- لفظتُه كما يجبُ أن يكون، إنك تتحدّثُ برخام حَرْفَي فمكَ، فلديك لهجةٌ هندية.

- إنك تتحدثُ وكأنّ لسانَك فشارٌ والكلمات الإنكليزيّةُ مصنوعةٌ من خشبٍ، لديك لهجةٌ فرنسية.

إنّه تضاربٌ واضحٌ، وُلِدَ ريتشارد باركر في بنغلادش، وتربّى في تاميل نادو، فلم يتحدثْ بنبرةٍ فرنسيّة؟

كانت بوند تشيري سابقاً مستعمرةً فرنسيّةً، ولكن لن يصدّقَني أحدٌ في أنّ بعضَ الحيوانات في حديقة الحيوان كانت حلفاءَ للفرنسيين في رودوماس.

كان شيئاً محيراً، دخلتُ في الضباب ثانية.

استفقتُ وأنا ألهثُ، هناك أحدٌ ما! الصوتُ الذي يدخلُ أذني لم يكن هواءً يحملُ لهجةً، ولا حيواناً يتحدّثُ بصوتٍ عالٍ، كان شخصاً آخر.

أخذَ قلبي يدقُّ بسرعة، ويدفع الدّمَ في جسدي المُنْهَك، وحاول عقلي أن يقومَ بمحاولةٍ أخيرة وهي أن يكونَ صافياً.

خشيتُ أن يكون صدىً، فهو لا يكاد يكون مسموعاً.

انتظرْ، أنا هنا. صرختُ.

صدى في البحر.

لا إنّه أنا.

هذا سينتهي!

يا صديقي!

أنا تائهٌ.

انتظر، انتظرْ.

لم أكد أسمعه.

صرختُ مذعوراً.

وهو صرخ مذعوراً أيضاً.

لديّ فكرةٌ.

صرختُ بما تبقّى لديّ من نفَسٍ، اسمي بيسين موليتور باتيل.

كيف يمكنُ للصّدى أن يصنعَ اسمي؟

هل تسمعُني؟ أنا بيسين موليتور باتيل، معروفٌ للجميع باسم *باي باتيل*.

ماذا؟ هل يوجد أحدٌ هناك؟

نعم يوجد أحدٌ هناك.

ماذا! هل يمكن أن يكونَ هذا صحيحاً؟ أرجوك هل لديكَ أيُّ طعام؟ أيُّ شيء مهما يكن، لم يتبقَّ لديَّ طعامٌ، ولم أتناولْ شيئاً منذ أيام، يجب أن آكلَ شيئاً، سأكونُ شاكراً لأيّ شيءٍ يمكنُ تقديمه، أتوسّلُ إليك.

ليس لديَّ أيُّ طعام أيضاً، أجبت. وأنا نفسي لم أتناول شيئاً منذ عدة أيام.

كنت آمل أن يكونَ لديك طعامٌ، هل لديك ماءٌ؟ إن الماء لديّ قليلٌ جداً.

لا ليس لديّ.

ليس لديك طعام أبداً؟ ولا أيّ شيء؟

لا، لا شيء.

صمتٌ ثقيلٌ.

- أين أنت؟

- أنا هنا، أجاب بقلق.

- ولكن أين بالضبط؟ لا أستطيع رؤيتك.

- لماذا لا تستطيع رؤيتي؟

- لقد أُصبْتُ بالعمى.

- ماذا؟

- لقد أُصبتُ بالعمى، فعيناي لا ترى شيئاً إلّا الظّلام، أرمش بعيني، لا شيءَ، في اليومين الأخيرين كنتُ أثقُ بجلدي ليخبرني إذا كان الوقتُ نهاراً أم ليلاً.

سمعتُ عويلاً مخيفاً.

- ماذا؟ ماذا هناك يا صديقي؟

تابع العويلَ.

- أجبْني أرجوك، ماذا هناك؟ أنا أعمى وليس لدينا طعام، ولكن لدينا بعضنا، وهذا شيءٌ ثمينٌ، ماذا هناك يا أخي العزيز؟

- أنا أعمى أيضاً.

- ماذا؟

- أرمشُ بعينيّ ولا شيءَ كما تقولُ أنت.

تابع العويل، أُصبتُ بصدمة، لقد صادفْتُ رجلاً أعمى في قارب نجاةٍ آخر في المحيط الهادي.

- ولكن كيف يمكنُ أن تكونَ أعمى؟ تمْتَمْتُ.

- ربما لنفس السّبب لديك، هذا نتيجةُ عدمِ النّظافة، وجسدٍ جائعٍ في نهاية طوره.

انهار كلانا، أخذَ ينوحُ، وأنا أجهشُ، هذا كثيرٌ، حقيقةً هذا كثير.

- قلت بعد برهة، لديّ قصةٌ.

- قصة؟

- نعم.

- ما فائدةُ القصة، أنا جائع.

- إنّها قصةٌ عن الطعام.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- الكلماتُ لا تعطي حريرات.

- ابحث عن مكان الطعام.

- هذه فكرة.

صمتُّ، صمتَ الجوع.

- سألني: أين أنت؟

- هنا، وأنت؟

- هنا.

سمعتُ صوت مياهٍ عندما سقطَ المجدافُ به، ثمّ وصلتُ إلى أحد المجاديف التي أنقذتُها من الطّوف المحطّم، كان ثقيلاً جداً، تحسّسْتُ بيديَّ أقربَ قاعدة للمجداف، وضعْتُ المجدافَ به، وسحبت إحدى القبضتين، لكن قواي قد خارت، ورغم هذا جدّفْتُ بأفضل ما أستطيع.

- قال لاهثاً: دعنا نسمعُ قصتك.

- حدث ذاتَ مرةٍ أنّ موزةً كبرتْ ونمتْ حتى أصبحتْ كبيرةً وقويّةً، صفراءَ وعطرة الرائحة، ثمّ سقطتْ على الأرض، فوجدَها أحدُهم وتناولَها.

- توقفْ عن التجديف، ما أجمل هذه القصة!

- شكراً لك.

- امتلأتْ عيناي بالدّموع.

- لديّ منحىً آخر.

- ما هو.

- سقطت الموزةُ على الأرض فوجدها أحدُهم، تناولها وشعر بعدها بالتحسّن.

- قال: إنّها قصةٌ تخطفُ الأنفاسَ.

- شكراً.

فترةُ صمت.

- ولكن أليس لديك موزٌ؟

- لا، لقد حالني عنها لإنسان الغاب البرتقالي.

- ماذا؟

- إنّها قصةٌ طويلة.

- هل لديك معجونُ أسنان؟

- لا.

- لذيذٌ بعد السّمك، ألديك سجائر؟

- لقد أكلْتُها.

- أكلتَها؟

- لا يزال لديّ الفلاترُ، بإمكانك أخذها إذا أردْتَ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- الفلاترُ؟ ماذا يمكنني أن أفعلَ بفلاتر السجائر دون تبغ؟ كيف أمكنَكَ أكل السجائر؟

- وماذا كنتُ سأفعل بها، فأنا لا أشربُ السجائر.

- كان عليك الاحتفاظ بها للتّجارة.

- تجارة؟ مع من؟

- معي.

- يا أخي عندما أكلتُها كنتُ وحيداً، في قارب النّجاة في المحيط الهادئ.

- وإذن؟

- إذن، فإنّ فرصةَ مقابلةِ أحدٍ وسطَ المحيط الهادئ تستطيعُ أن تتاجرَ معه بالسّجائر لم ترِدْ إلى ذهني كاحتمالٍ ممكنٍ.

- عليك أن تخطّطَ بعيداً أيّها الولدُ الغبيّ، الآن ليس لديك أيّ شيء تتاجر به.

- حتى لو كان معي شيءٌ للتجارة فبماذا سأبادله؟ ما الذي لديك وأنا بحاجته؟

- لديّ حذاء، قال لي...

- حذاء؟

- نعم من جلد ناعم.

- ماذا سأفعل بحذاء جلدٍ في قارب نجاةٍ وسط المحيط الهادئ؟ هل تعتقدُ أنّني أمارسُ المشي لمسافاتٍ طويلةٍ في وقتِ فراغي؟

- يمكنُك أن تأكلَه.

- آكل حذاءً؟ يا لها من فكرة.

- لقد أكلْتَ سجائرَ، فلم لا تستطيعُ أكلَ حذاء؟

- إنّها فكرة مقزّزة، بالمناسبة لمن الحذاء؟

- كيف لي أن أعرف؟

- هل تقترحُ أن آكل حذاءَ غريبٍ بأكمله؟

- وما الفرق في ذلك؟

- أنا مندهشٌ، حذاء؟!! لو وضعنا جانباً حقيقة أنّني هندوسيٌّ ونحن الهندوسُ نعتبرُ البقرَ مخلوقاتٍ مقدسة، وأكلُ الحذاءِ يستحضرُ إلى ذهني أنّني آكلُ كلّ النجاسة التي يمكن للطّعام أن ينضجَ بها إضافةً إلى النجاسة التي تتكون عند انتعال الحذاء.

- إذن لا حذاء لك.

- لا.

- ماذا؟ هل تتوقّعُ أن أبادلَك بشيءٍ لا يُرى؟

- كلانا مصابٌ بالعمى، لا تنس.

- صف لي هذا الحذاء إذنْ، أيّ بائع تعيس أنت! لا عجب أنّكَ تجوعُ من أجل زبائنك.

- نعم هذا صحيحٌ.

- حسناً، والحذاء؟

- إنّه حذاءٌ جلديٌّ.

- ما نوعه؟

- النوعُ العادي.

- ماذا تعني؟

- حذاءٌ برباطٍ مع ثقوبٍ ولسانٍ ونعلٍ داخليّ، يعني هو من النوع المعتاد.

- ما لونُه؟

- أسودُ.

- بأيّ حال هو؟

- مهترئٌ، ولكن جلدُه طريّ وملمسُه ناعمٌ.

- والرّائحةُ؟

- جلدٌ رقيقٌ وطيّبُ الرائحة.

- عليّ الاعترافُ أنّه يبدو مغرياً.

- يمكنُك أن تنساه.

- لماذا؟

صمت.

- ألن تجيبَ يا أخي؟

- لا يوجدُ حذاءٌ.

- لا حذاءَ؟

- لا.

- هذا يحزنُني.

- لقد أكلتُه.

- أكلتَ الحذاء؟

- نعم.

- هل كان لذيذاً؟

-لا، وهل كانت السجائرُ لذيذة؟

- لا، لم أستطعْ إكمالَ أكلِها.

لم أستطعْ إكمالَ أكلِ الحذاء.

كان هناك موزةٌ نَمَتْ ونَمَتْ حتى أصبحتْ كبيرةً، قويّةً وصفراء ومعطرة، سقطتْ على الأرض، فشاهدَها أحدُهم فأكلَها، وبعد ذلك شعر بتحسّنٍ كبير.

- أنا آسف، آسف على كلّ ما قلتُه وفعلتُه، أنا شخصٌ لا قيمةَ له.

- ماذا تعني؟ أنت أغلى وأروع شخصٍ على الأرض، اقتربْ يا أخي لنكنْ معاً، ونأكلُ بصحبةٍ بعضنا بعضاً.

- نعم.

المحيطُ الهادئ ليس مكاناً للمجدّفين خاصة عندما يكونون ضعفاءَ ومصابين بالعمى، وعندما تكون قواربُ نجاتِهم كبيرةً وصعبةَ المراس، والرياح غير متعاونة.

إنّه يقترب، إنّه يبتعدُ، إنّه على يساري، إنّه على يميني، إنّه أمامي مباشرة وقد كان خلفي ولكن في النهاية قد نجحْنا، اصطدم قاربُنا بشكلٍ ألطف من اصطدامها بسلحفاة.

رمى لي الحبلُ وسحبْتُ قاربَه نحو قاربي، ثمّ فتحتُ ذراعيّ لاحتضانه، ابتسمْتُ وعيناي مليئتان بالدموع، أصبح أمامي مباشرةً، هذا الحضورُ الذي أضاءَ ظلامي.

- همستُ قائلاً، أخي الحبيب.

- أجاب: أنا هنا.

سمعتُ زمجرةً خفيفة.

- أخي، هناك شيءٌ نسيتُ أن أذكرَه.

نزل عليّ بقوةٍ، وسقطنا معاً نصفُنا على المشمّع ونصفُنا الآخر على المقعد الأوسط.

وصلتْ يداه إلى حنجرتي، أخي، شهقتُ وهو يحتضنُني، قلبي معك، ولكن يجبُ أن أقترحَ بسرعةٍ أن تذهبَ إلى جزءٍ آخر من مركبي المتواضع.

أنت محقٌّ إنّ قلبك معي، وكذلك كبدَك ولحمَكَ.

شعرت به ينولُ عن المشمّع نحو المقعد الأوسط واضعاً قدمَه على أرض المركب بطريقة مهلكة.

- لا، لا يا أخي لا تفعل نحن لسنا...

حاولتُ دفعَه عنّي، لكن للأسف جاء ذلك متأخراً جداً. وقبل أن أقولَ كلمةً لوحدنا، صرتُ وحيداً مرّةً أخرى. سمعتُ أجملَ قرقعةٍ للمخالب على أرض المركبِ تشبهُ صوتَ سقوط اثنين من المشاهدين إلى الأرض.

في اللّحظة التالية صرخَ أخي الصغيرُ في وجهي كصوت إنسانٍ لم أسمعْ مثلَه من قبل. لقد تركتَني وحيداً.

كلّف ذلك ريتشارد باركر كثيراً، لقد وهبَني الحياةَ لكن على بسلب حياة أخرى. مزّقَ لحمَ رجلٍ آخر، وسحق عظامَه، وقد ملأتْ رائحةُ الدّم أنفي، مات ومات بي شيءٌ، ولم أعدْ أستطيع إحياءَه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الواحد والتسعون

صعدت قاربَ أخي واستكشفْتُه بيدي، لديه قطعةُ لحم سلحفاةٍ ورأسُ سمكة القطّ، وحتى مكافأةٌ عظيمةٌ، كِسرةُ بسكويت، ولديه ماءٌ وقد وجدَ كلّ أولئك طريقَه إلى قاربي، وأطلقْتُ قاربَه.

أعمى البكاءُ عينيّ، فالنافذةُ في أعلى عيني اليسرى حدث فيها شقٌّ، قمت بغسل عينيّ بماء البحر، ومع كلّ رشقة ماء يزدادُ الشقُّ أكثر، استعدتُ بصري خلال يومين، ثمّ تمنّيْتُ لو عدتُ أعمى بعد أن رأيْتُ ذلك المشهد، جسدُهُ المذبوحُ والمقطّعُ ملقىً على أرض المركب، أكل منه ريتشارد باركر بإسهابٍ على العشاء، بما في ذلك وجهَه، لذلك لم أستطعْ رؤيةَ أخي هذا.

أحشاؤُه المنزوعةُ وجذعُه مع أضلاعه المنحنية للأعلى كانت مثل بدنِ سفينةٍ يشبه إلى حدٍّ كبير قاربَ نجاة صغيراً، ودمُه الذي يغمرُ المكان يشكّلُ حالةً مرعبةً.

سأعترفُ أنّني أمسكْتُ إحدى ذراعيه بالبلطة، واستخدمْتُ لحمَه طُعماً للأسماك، وأعترفُ أنّه وبناءً على حاجتي المُلحّة والجنون الذي دفعني، قد أكلتُ بعضاً من لحمِه، أعني قطعاً صغيرةً، حيث استخدمتُ بعضاً منها لخطّاف الرمح وعندما جفت الشمس بدتْ كأنّها لحمُ حيوانٍ عادي، انزلقتْ في فمي دون الإحساس بها، يجبُ أن تدركَ أنّ معاناتي دائمةٌ، وكان هو الميت.

توقّفْتُ عن ذلك حالما اصطدتُ سمكةً.

لقد صلّيتُ لروحه كلّ يوم.

الفصل الثاني والتسعون

وقعتُ على اكتشافٍ نباتيّ مميّزٍ، لكن سيكون هناك الكثيرون ممّن لا يصدّقون هذا الحدث، وسوف أقدّمُه لكم الآن لأنّه جزءٌ من القصة وممّا حدث لي.

كنت على الجهة التي تخصّني، وذلك بعد ساعةٍ أو ساعتين من ظهيرة يوم هادئٍ ونسيمٍ عليل، نمتُ نوماً خفيفاً دون راحة أو أحلام، تقلّبتُ في موقعي باذلاً جهداً قليلاً في فعل ذلك.

فتحتُ عينيّ، رأيتُ أشجاراً على مسافة قريبةٍ، لم يصدرْ منّي أيّ ردّة فعل، وقد اعتقدتُ أنّ ما أراه وهماً سيزولُ إذا أغمضْتُ عينيّ وفتحتها.

ظلّتِ الأشجار مكانها، وقد نَمَتْ حتى شكلِ غابةٍ، وهي جزءٌ من أراضٍ منخفضةٍ في جزيرة. دفعت نفسي للوقوف، وبقيْتُ غير مصدّقٍ عينيّ ولكنّه كان إثارةً لا يمكن اعتباره خداعاً بهذه الطريقة رفيعة المستوى، إنّها أشجارٌ جميلةٌ من النّوع الذي لم أشاهدْه من قبل، أشجارٌ ذاتُ لحاءٍ شاحب وأغصان متشعّبةٍ بشكلٍ متوازٍ، تحملُ غزارةً مدهشةً في الأوراق اللامعة الخضراء، اخضرارٌ زمرديٌّ براقٌ، وإلى جانبها غطاءٌ نباتيٌّ نبتَ أثناءَ الرياح الموسميّة، وزيتونٌ باهتُ اللّون.

صرتُ أرمش بعينيّ عن عمدٍ وكأنّ جفوني تعملُ كحطابٍ، ولكن الأشجار لم تسقط.

نظرتُ للأسفل فقد أصبحتُ مقتنعاً وفاقداً للأمل بما شاهدته، لا تحتوي الجزيرةُ على تربة، ولم تكنِ الأشجارُ مزروعةً بالماء، ولكنّها تقفُ فيما بدا لي كأنّها كتلةٌ كثيفةٌ من الغطاء النباتيّ لامعةً وبراقةً مثل أوراق الشجر.

هل سمع أحدكم بجزيرة لا تحتوي تراباً؟ وبأشجارٍ تنمو خلالها الأعشاب؟

اقتنعتُ لأنّ مثل هذه الجيولوجيا تؤكدُ أنّني على حقّ بأَنَّ هذه الجزيرةَ مجرّدُ وهمٍ، خدعةٌ من العقل، ولنفس هذه الدلالة شعرتُ بفقدان الأمل بأنَّ الجزيرة أيّ جزيرة ومهما كانت غريبةً تبقى مكاناً جيداً للنّزول عليها.

حدّقتُ طوالَ رؤيتي للأشجار واقفةً، النظرُ إلى الأخضر بعد الأزرق بمنزلة موسيقا لعينيّ، فالأخضر لونٌ جميلٌ، إنّه لون الإسلامِ، وهو لوني المفضّل.

دفع التيارُ القاربَ بلطفٍ قربَ هذا الوهم، لا يمكنُ أنْ نسمّي ما رأيتُ شاطئاً، حيث لا رمال ولا حصىً ولا يوجدُ تلاطمُ أمواجٍ للمركبة، فالأمواج التي تضرب الجزيرةَ تختفي وتتلاشى متحوّلةً إلى مسام.

من جرفٍ يمتدّ لثلاثمئة ياردة تنحدرُ الجزيرةَ نحو البحر وتدخلُ به نحو أربعين ياردة، تسقطُ بانحدارٍ شديدٍ مختفيةً عن الأنظار نحو أعماق المحيط الهادي، وهي بالتّأكيد أصغرُ رصيفٍ قاريّ معروف.

بدأتُ أعتادُ الوهم العقلي، ولأجعلَه يدومُ توّقفْتُ عن تلويثه، عندما اصطدمَ القاربُ بالجزيرة لم أتحركْ، فقط تابعتُ حلمي.

بدتْ بنيةُ الجزيرة معقّدةً، يا لهذه الجزيرة الخيالية!!

بعد عدة دقائق زحفتُ إلى حافة القارب، ووقفْتُ أبحثُ عن اللّون الأخضر هكذا قال كتيّبُ النّجاة، حسناً هذا أخضر.

في الحقيقة كانت نعيماً أخضرَ اللون، بدا الطعامُ فيها أخضرَ ويلمعُ كمصباح، أخضر لتشرب وتسكر عليه.

بالنتيجة فإنّ مساحةَ قدمٍ واحدة كافيةٌ لتحكمَ على الجزيرة تبعاً للكتيّب، كانت الجزيرة على بعد قدم واحدة، أن تحكم عليها وتصاب بخيبة أمل كافيةٍ أو لا تحكم عليها وتلك هي المشكلة.

قرّرْتُ أن أحكمَ عليها، نظرتُ لأرى إذا كان هناك أسماك قرش، لا يوجد أيّ منها، استدرتُ على بطني وتمسكْتُ بالمشمّع، أنزلْتُ رجلي برويّةٍ، فأنزلتُ قدمي في البحر الذي أفرحتني برودتُه، كانت الجزيرة تحت قدمي قليلاً متلألئة في الماء، مددتُ جسمي متوقعاً أن تنفجرَ فقاعاتُ الوهم في أي لحظة، فلم يحدثْ ذلك، غرقتْ قدمي في الماء ولاقتْ مقاومةً مطّاطيّةً لشيء مرن، ولكنّه صلبٌ، ضغطْتُ أكثرَ، لم يظهرِ الوهم، وضعتُ كلَّ ثقلي ولكن قدمي لم تغرقْ، مازلْتُ غيرَ مُصدقٍ، أخيراً صارَ أنفي يختبرُ الجزيرةَ، فقد التقطَ رائحةَ الاخضرار المنعشِ الذي طغى على المكان، شهقْتُ، بعد أشهر من رائحة الماء المالح، ورأيْتُ ذلك البساطَ العضويَّ الأخضرَ الذي يبعث على النّشوة، صدّقْتُ ذلك، والشيءُ الوحيدُ الذي غرقَ هو عقلي، فقد أصبحَ فكري مشتتاً، أخذتْ رجلي ترتجفُ وتنهّدْتُ قائلاً: يا إلهي! يا إلهي!

سقطتُ من القارب، وقد أعطتني صدمةُ اليابسة والماء البارد القوّةَ لدفع نفسي إلى الجزيرة، تمتمْتُ بالشّكر لله وانهرْتُ.

لم أستطعِ البقاءَ دون حراك، كنت شديدَ الانفعال، وقد حاولتُ الوقوفَ على قدمي، تراجعَ الدّمُ من رأسي واهتزّتِ الأرضُ تحتي بعنفٍ، تغلّبَ عليّ الشعورُ بالعمى والدّوار حتى ظننْتُ أنّه سيُغمى علي، ثبّتُّ نفسي وكلُّ ما استطعتُه هو اللهاث، نجحتُ بالنّهوض.

أخذْتُ أصرخُ: ريتشارد باركر، أرض، أرض، لقد نجوْنا.

كانتْ رائحةُ العشبِ قويةً جداً والأعشابُ نَضِرةٌ وناعمةٌ لدرجة أنّها بعثتْ بي القوةَ من مجرّدِ رؤيتها.

ما هي تلك الشبكة المعقّدةُ من الطّحالب البحرية الأسطوانية؟ هل هي صالحةٌ للأكل؟ بدتْ وكأنّها طحالبُ بحريّةٌ متنوعةٌ، ولكنّها صلبةٌ جداً ومختلفةٌ كلّيّاً عن الطّحالب العادية، ذاتُ ملمسٍ رطبٍ ومفتّتٍ، وقد اقتلعتُ بعضها، فتكسّرتْ خيوطُها دون أيّ جهد، مترابطةٌ ترابطاً عرَضيّاً وقد كوّنتْ جدراناً أحاديّةَ المركز، الجدار الخارجيّ الرطب والقاسي شديد الخضرة وجدارٌ آخر يتوسّطُ الجدارَ الخارجيّ ومركزَ الطّحالب. الاختلافُ بين الأنبوبين واضحٌ، فالأنبوبُ المركزيُّ أبيضُ اللّون بينما الأنبوبُ حوله أخضرُ، ويتناقصُ كلّما اقتربَ من الجدار الداخلي.

قرّبتُ قطعةً من الطّحالب من أنفي ففضلاً عن الرائحة المقبولة للأعشاب هناك رائحةٌ حياديّةٌ، لعقتُها فتسرّعَ نبضي، وقد تبلّلتِ الطّحالبُ بالماء العذب، قمتُ بعضّها فأصابتني العضّةُ بالصدمة، لأنّ الأنبوبَ الداخليَّ شديدُ الملوحة، أما الأنبوبُ الخارجيُّ ففضلاً عن شكله المحبّب فهو لذيذٌ. أخذ لساني يرتجفُ كإصبع يقلّبُ بقاموسٍ محاولاً إيجادَ كلمةٍ طويلةٍ منسيّةٍ، وجدتُها وأغمضتُ عيني بسعادةٍ لسماعها، حلوة ليس لكونها جيّدة فقط بل هي حلوة المذاق.

السلحفاة والأسماك جيدةٌ، ولكنّها ليست طيبةَ المذاق أبداً، أمّا الطّحالب فتحتوي على طعمٍ حلوٍ خفيفٍ وقد فاقتْ في مذاقها نسغَ أشجار القيقب هنا في كندا وبدرجة اللّزوجة، أستطيع أنْ أقارنَها بكستناءِ الماء.

بدأ اللّعابُ يرتشحُ بقوّةٍ في فمي المعجونيّ القوام، وأنا أصدرُ أصواتَ بهجةٍ عاليةٍ، أخذتُ أقطعُ الطّحالب حولي والأنابيب الداخلية والخارجية انفصلتْ بسهولة ويسر، صرتُ أمتصُّ الحلوَ بفمي، استخدمت كلتا يدي وأخذت أحشو فمي الذي بدأ يعملُ بقوّة وأسرع ممّا كان منذ مدة طويلة، أكلْتُ حتى صنعْتُ خندقاً من حولي.

وقفتْ شجرةٌ وحيدةٌ على بعد مئتي قدم، وهي الشجرةُ الوحيدةُ على الجرف الذي يبعد مسافةً بعيدةً، أقول جرفاً وربّما هذه الكلمة لا تعطي الانطباعَ الصّحيحَ لمدى الانحدار نحو الشاطئ، كانت الجزيرة كما قلت سابقاً منخفضةً، والارتفاعُ خفيفاً يصل إلى ستين قدماً تقريباً، وبدا الارتفاعُ في المنطقة التي كنتُ فيها وكأنّه جبلٌ.

بدتِ الأشجارُ شديدةَ الجاذبيّة، ورأيتُ ذلك من خلال بقعةِ ظلالها، حاولتُ الوقوفَ ثانيةً لكنّني شعرتُ بالدّوار، ثمّ حاولت القرفصاء، لم أستطع الحفاظَ على توازني، مع أنّني لم أسقطْ، ولم تكن في رجليّ بقيّةٌ من القوة، ولكنّ إرادتي كانت أقوى، لذا قرّرْتُ السيرَ نحو الأمام، زحفتُ، ثم سحبتُ نفسي وقفزتُ كالضّفدع حتى الشجرة، أيقنتُ أنّني لن أدركَ فرحاً كبيراً كهذا، وعندما دخلتُ ظلَّ تلك الشجرة المبقّع المتلألئ، وسمعتُ صوتَ الرّيح الجافّ البارد يهمسُ لأوراقها، ولم تكن تلك الشجرة بحجم وطول تلك الأشجار على اليابسة، ولكونها على الجهة المغايرة للجرف فهي أكثرُ عرضةً لعوامل الطّبيعة، فقد كانت شجرةً صغيرةً هزيلةً، ولم تتطوّرْ كمثيلاتها، لكنّها شجرةٌ يسعدُك كثيراً أن تراها بعد ضياعٍ في البحر لمدّةٍ طويلة جداً.

غنّيْتُ لبهاءِ تلك الشجرة، لمتانتِها ونقائها وجمالها الهادئ. آه لو كنتُ مثلها متجذّراً بالأرض، وبيدين مرفوعتين تمجدان الله، بكيْتُ وبينما قلبي

يمجّدُ الله بدأ عقلي يجمعُ الأفكارَ عن عمل الله، لقد نبتتِ الشجرة فعلاً خارج الطّحالب كما بدا لي ذلك من قارب النّجاة، لم يكن هناك أيُّ أثر لوجود التّربة، ولم يكن هناك تربةٌ تحتها أو ربّما تكون هذه الفصيلةُ من الأشجار عبارةً عن مثال جيدٍ للبكتريا المتعايشة أو الطفيليّة، جذعُها بحجم صدر رجلٍ، وقشرتُها ذاتُ لونٍ أخضرَ مائلٍ للرمادي، قشرةٌ رقيقةٌ وناعمةٌ ولينةٌ لدرجة أنّني استطعتُ خدشَها بأظافري، أوراقُها على شكل قلبٍ كبيرة وعريضة وتنتهي برأسٍ حادّ، رأسُ الشجرة دائريٌّ وجميل، يشبه شجرةَ المانجو، ولكنّها ليست شجرة مانجو، رائحتُها رائحةُ شجرةِ السّدرة ولكنّها ليست سدرةً، وليست شجرة مانغروف، وليست كأيّ شجرة أخرى رأيتها في حياتي، كلُّ ما أعرفه أنّها شجرةٌ جميلةٌ خضراءُ.

سمعتُ زمجرةً، التفتُّ فرأيتُ ريتشارد باركر يراقبُني من قارب النّجاة، وكان ينظر للجزيرة أيضاً، بدا وكأنّه يريدُ أن يأتيَ إلى الشّاطئ، لكنّه خائفٌ، وأخيراً وبعد الزئير والحركة قفزَ من القارب، قرّبْتُ الصافرةَ البرتقاليّةَ من فمي، ولكنّه لم يبدِ أيَّ عدوانيّة، كان التوازن البسيط كافياً للتحدي، أخذَ يترنّحُ على قدميه مثلي، وعندما تقدّمَ زحف قريباً من الأرض بقدمين ترتجفان مثل جروٍ وُلدَ حديثاً، اتّجه نحو الجرف، واختفى داخل الجزيرة تاركاً لي مكاناً واسعاً للنّوم.

أمضيتُ نهاري وأنا آكلُ وأستلقي محاولاً الوقوفَ، اغتسلتُ بشكل عام بالبركات، شعرتُ بالغثيان لأنّني أجهدتُ نفسي كثيراً، وقد استمر شعوري بأَنَّ الأرضَ تنزاحُ تحتي، وأنّني أكادُ أسقط حتى وأنا جالسٌ دون حراك.

بدأتُ أقلقُ بشأن ريتشارد باركر عند المساء، وقد بدّلتُ الموقعَ، لم أكنْ متأكداً كيفَ سيتأقلَم معي إذا رآني.

رغماً عنّي، ولكي أضمنَ سلامةَ نفسي زحفتُ، وبما أنّ ريتشارد باركر اتّخذَ من الجزيرة مكاناً له، فقد أصبحتْ مقدمةُ القارب والمشمّع لي.

بحثتُ عن بقعةٍ جافةٍ ليرسو القاربُ فيها، من الواضح أن الطّحالب كانت تغطي الشاطئ بكثافةٍ، وقد كانت كلَّ ما استطعتُ إيجادَه.

أخيراً وجدتُ الحلّ، غرسْتُ يدَ المجداف عميقاً في الطّحالب، وربطتُ القالبَ فيه.

زحفتُ نحو المشمّع وأنا مُنْهَكُ القوى، فقد كان جسمي منحنياً بسبب تناولي الكثيرَ من الطّعام، وكنت مشدوداً وعصبياً لتغيّرِ حظّي المفاجئ.

عندما انقضى النهارُ سمعتُ صوتَ ريتشارد باركر بشكلٍ ضبابيّ يزأرُ من بعيدٍ، ولكن غلبَ عليّ النوم.

نهضتُ ليلاً ولديّ شعورٌ غريبٌ ومزعجٌ أسفلَ بطني، اعتقدْتُ أنّه حالةُ تسمّم نتيجةَ تناولي كميةً كبيرةً من الطّحالب، ثمّ سمعتُ ضجّةً، جُلْتُ بنظري فرأيتُ ريتشارد باركر على القارب، لقد عاد أثناء نومي، يموء ويلعقُ باطنَ قدميه، إنّ رجوعَه محيرٌ، ولكنّني لم أفكرْ به كثيراً، وقد أصبحَ التشنّج أشدّ، وبسرعةٍ انطويْتُ على نفسي من شدّة الألم، وأخذَ جسمي يرتجفُ بسببه، إلى أن خطرتْ ببالي طريقةٌ طبيعيّةٌ ولكنّها منسيّةٌ بالنسبة لي منذ زمن التغوّط، كانت عمليةً مؤلمةً جداً لكنّني رحتُ بعدها في نومٍ عميقٍ ومنعشٍ لم أذُقْهُ منذ الليلة التي سبقت غرقَ تسيم تسوم.

استيقظْتُ صباحاً، وقد شعرْتُ بقوّةٍ أكثر، ثمّ زحفْتُ بنشاطٍ نحو الشجرة المنعزلة، وشبّعت نظري منها كما فعلتْ معدتي بالطّحالب، تناولْتُ فطوراً رائعاً نتجَ عنه حفرة كبيرة.

تردّدَ ريتشارد باركر ثانيةً، ولعدة ساعاتٍ قبل أن يقفز من القارب، وقد فعل ذلك عند منتصف الصباح، وحالما وصل الشاطئَ قفزَ راجعاً، وأسقطَ نفسَه في الماء، لم يكنْ لديّ أدنى فكرةٍ عمّا يقومُ به، ثمّ زال قلقُه. وبخطواتٍ واثقةٍ أكثرَ من اليوم السّابقِ اختفى ثانيةً في الجرف.

ذلك اليوم كنت مستنداً إلى الشّجرةِ، وقفتُ فشعرتُ بالدّوار، أغمضْتُ عينيّ وقد وجدتُها الطريقةَ الوحيدةَ لأجعلَ الأرضَ تتوقّفُ، وكذلك تمسكْتُ بالشجرة ودفعْتُ نفسي محاولاً المشيَ فوقعْتُ بالحال، ارتفعَتِ الأرضُ نحوي قبل أن أتمكنَ من نقلِ قدميّ، ولكنّني لم أُصبْ بأذىً فقد كانت أرضُ الجزيرة مغطاةً بالخضرة المطّاطيّة المنسوجة بإحكام، إنّها مكانٌ مثاليٌّ لتعلّمِ المشي ثانيةً، فلو سقطتَ في أيّ مكان من المستحيل أن تصابَ بأذى.

في اليوم التّالي وبعد ليلة مريحة على القارب الذي عاد إليه ريتشارد باركر صرْتُ قادراً على المشي، وبعد سقوطي ستّ مرّات تمكّنْتُ من الوصول إلى الشّجرة، شعرتُ أنّ قوّتي تتزايدُ كلَّ ساعة، استطعْتُ قطعَ غصنٍ من الشّجرة بواسطةِ البلطةِ، وانتزعْتُ بعضَ الأوراق النّاعمة التي لم تكنْ مغطّاةً بالشمع، ولكن طعمها مرٌّ.

التزمَ ريتشارد باركر حظيرتَه على القارب، وذلك تفسيري لسبب عودته لليلةٍ أخرى.

رأيتُه عائداً ذلك المساءعند الغروب، أعدْتُ ربطَ القارب إلى المجداف وقد بقيْتُ عند المقدّمة لأتأكدَ أنّ الحبلَ مربوطٌ جيداً.

ظهر فجأةً إذ لم ألاحظْ وجودَه عند البداية، هذا الحيوانُ الرائعُ المندفعُ فوق الجرفِ بقفزاتٍ رائعةٍ لا يمكن أن يكونَ هو نفسُه ذلك النّمر العصبيّ

الرثّ الذي رافقَني في سوء الحظّ، ولكنّه هو، إنّه ريتشارد باركر الذي اندفعَ نحوي بأقصى سرعته، بدا ثابتَ العزم وقد ارتفعَتْ رقبته القويّةُ فوق رأسه المتدلي، واهتزّتْ عضلاتُه وشعرُه مع كلّ خطوة، وشعرْتُ بوقع جسدهِ الثّقيل على الأرض.

لقد قرأتُ ذات مرة أنّ هناك نوعين من الخوف لا يمكن التخلص منهما: تأثيرُ المباغتة عند سماع صخبٍ غيرِ متوقّعٍ والدّوارُ الدّهليزي، وأنا أضيف نوعاً آخر وهو الإحساسُ بالوصول السريعِ والمباشرِ لقاتلٍ معروفٍ.

أمسكْتُ بصافرتي وأطلقْتُها بكلّ قوتي حين كان على بعد خمسة وعشرين قدماً تقريباً من القارب، صافرةٌ مزّقت الهواء كصرخةٍ حادّة.

لقد كان لها التأثيرُ المطلوب، فقد جعلَتْ ريتشارد ينبحُ، من الواضح أنّه يريد التّقدمَ ثانيةً، لكنّني أطلقتُ الصافرة ثانيةً، فأخذ يدور مكانه ويقفزُ كغزال وهو يشخرُ بقوّةٍ، ثمّ أطلقْتُها للمرّة الثّالثة، فانتصبَ شعرُه، ورفعَ مخالبَه وهاج بشكلٍ مخيف، خشيتُ أن ينهارَ الجدار الواقي للصافرة ويهاجمني.

لكنّه فاجأني بردّة فعلِه غير المتوقّعة، إذ بدلاً من مهاجمتي قام بالقفز إلى البحر بكلّ إرادةٍ وتصميم، ثمّ جدّف عائداً إلى مؤخرة القارب. فكّرْتُ في إطلاق الصافرة، لكنّني عدلتُ عن ذلك، وفتحتُ غطاءَ الصندوق، وجلستُ متراجعاً في الملجأ الخاص بي.

اندفعَ نحو مؤخّرة القارب وقد انسكبَ من شعره كمّيّة كبيرة من المياه، ممّا جعلَ نهايةَ القارب تغوصُ ثمّ تعلو.

وقف على الحافة للمقعد الخلفي، وبدأ يوازنُ نفسَه ليحدّدَ مكاني.

ضعفتْ ضربات قلبي، ولم أتوقّعْ أن أكونَ قادراً على إطلاق الصافرة ثانيةً.

نظرْتُ إليه بانشداه، ورأيته قد نزلَ إلى أرض القارب ثمّ اختفى تحت المشمّع، لقد رأيتُ أجزاءً منه من خلال حواف الغطاء الصندوق، رميتُ نفسي على المشمّع بعيداً عنه، لكنّني فوقه تماماً، وقد تمنّيْتُ لو ينبتُ لي جناحان فأطيرَ بها هارباً منه بعيداً.

هدّأتُ من روعي، وتذكّرتُ تماماً أنّ حالتي هذه بدأتْ منذ مدّة طويلة ولإتزال، وهذه الحالةُ تقتضي أن أعيشَ مع نمرٍ حيّ وشرسٍ يسكنُ تحتي.

وبعد أن هدأَ تنفّسي، شعرتُ بالنعاس.

استيقظتُ أثناءَ نومي ونسيتُ خوفي، نظرتُ للأعلى، كان يحلم، يرتجفُ ويهرهر في نومه، ضجيجُه عالٍ لدرجةٍ جعلتني أنهض من نومي.

وفي الصباح كالعادة ذهب إلى الجرف.

أن أذهبَ وأستكشفُ الجزيرةَ عندما أصبح قوياً كفاية. بدَتْ كبيرة جداً، إذا اعتبرْنا خط الشاطئ مؤشراً فإنّ الجزيرةَ تمتدُّ يميناً ويساراً بانحناءٍ طفيفٍ يُظهر أنّ للجزيرةِ حجماً لا بأس به. أمضيْتُ النهار أمشي من الشاطئ إلى الشجرة وبالعكس، وذلك في محاولة مني لاستعادة صحة رجليّ، ومع كلّ سقطةٍ أتناولُ وجبةً كاملةً من الطّحالب.

انتظرْتُ عودةَ ريتشارد باركر أبكرَ من اليوم السابق، جلستُ صامتاً ولم أُطلقِ الصافرة، جاء من جهة الماء، وبقفزةٍ قويّةٍ واحدةٍ وصل إلى ظهر القارب، ودخل منطقتَه دون تطفّلٍ على منطقتي، وجعل القاربَ يميلُ من جهة واحدة، وقد كانت عودتُه إلى عادته شيئاً مرعباً.

في الصّباح الباكر، وبعد إعطاء ريتشارد باركر الكثيرَ من الفرص، انطلقتُ لأستكشفَ الجزيرةَ، مشيتُ إلى الجرف، وقد وصلت إليه بسهولة واضعاً قدماً بعد أخرى في مشيةٍ مفعمةٍ بالحيوية، ولو أنّها لا تزال صعبةً، ولو كانت ساقاي أضعف فإنّها ستفتح لي الطريقَ عندما رأيتُ ما رأيتُ خلف الشجرة.

لأبدأَ بالتفاصيل:

رأيت أنّ الجزيرةَ بأكملها مغطّاةٌ بالطّحالب، لا جوانبُها فحسب، وهضبةٌ بمنتصفها غابةٌ خضراء، وقد رأيت العديدَ من البِرك المنتشرة داخل هذه الغابة بلا انقطاع وبأحجام متساوية، وقد توزّعتْ بينها على نحوٍ خفيفٍ أشجارٌ متماثلةٌ.

لا بدّ أنّ هذا التّنظيمَ يعطي انطباعاً بأنّها تتبعُ تصميماً ما.

أما السراقط فقد تركتْ أكبرَ أثرٍ في مخيلتي، فبنظرة واحدة رأيتُ آلاف الآلاف منها، وقد كستِ الأرضَ سراقطُ كثيرةٌ، تلتفتُ نحوي مندهشةً مثل الدجاج في مزرعة، وقد وقفتْ على قدميها.

لم نكن نملكُ أيّاً من هذه الحيوانات في حديقة الحيوان، ولكنّني كثيراً ما قرأتُ عنها. تجدُ لها ذكراً في الأدب والكتب، فالسّرقاطُ حيوانٌ ثدييٌّ، من جنوب أفريقيا صغيرٌ من سلالةِ النّمس. وهو حيوانٌ لاحمٌ يعيش في جحور، طولُه لا يتجاوزُ القدمَ الواحدة، وعندما يكونُ بالغاً نحيلاً فإنّه يزنُ باوندين، يشبه ابنَ عرسٍ في بنيته، وله خطمٌ مدبّبٌ وعينان تستقران في مقدّمة وجهه وأرجل قصيرة وكفٌّ بأربعةِ أصابعَ ومخالب غير قابلةٍ للانكماش، أمّا ذيلُه فطويلٌ يصلُ ثمانيةَ إنشات، ويتدرج لونُ فروه بين الرمادي والبنّي وبخطوط سوداء أو بنّيّة على ظهره، بينما رأسُ ذيله وأذنيه والدوائرُ حولَ عينيه ذاتُ لونٍ

أسودَ. إنّه مخلوقٌ رشيقٌ وذكيٌّ، حيوانٌ اجتماعيٌّ يظهر نهاراً، ويتغذّى من بيئته المحلّية في صحراء كالاهاري في أفريقيا الجنوبية، إلى جانب حشراتٍ أخرى على العقارب يملكُ مناعةً قويّةً ضدّ سمّها.

عندما ترى السراقطَ تجدُها واقفةً بالكامل على قمّة أقدامها الخلفية، وتُوازنُ نفسَها على هيئة دعامةٍ ثلاثية القوائم باستخدام ذيلها، وفي غالب الأوقات تأخذُ السراقطُ وقفةً جماعيّةً وتتجمهرُ وتحدّقُ في الاتجاه نفسه مثل المسافرين الذين ينتظرون الحافلة، الانطباعُ الأوّلُ على وجوههم والطريقة التي تمدُّ فيها مخالبَها الأماميّةَ تظهرُ وكأنّها أطفالٌ يتوضّعون شعورياً أمام مصوّرٍ، أو كمرضى في عيادةِ طبيبٍ متجردين من ملابسهم ويحاولون تغطيةَ أعضائهم التناسلية.

هذا ما رأيتُه من نظرةٍ واحدةٍ. مئاتُ الآلاف من السّراقط، أكثرُ من مليون يلتفتون نحوي ويقفون على أهبةِ الاستعداد، وكأنّهم يقولون: حاضر سيدي.

ولعلمك: عندما يكون السرقاط واقفاً، يصلُ طولُه إلى ثمانية عشرَ إنشاً كحدّ أعلى، لذا فإنّه ليس ذلك المخلوق الذي يخطفُ الأنفاسَ عندما يكون بحشودٍ كبيرة.

تجمّدْتُ مكاني دون أن أنبس بكلمةٍ واحدةٍ، لو انطلق مليون منها وركضَتْ خائفةً، فإنّها ستُحدِثُ فوضىً لا توصف.

لم يدمِ اهتمامُها بي طويلاً، بعد بضع ثوانٍ عادوا إلى عملهم قبل أن أظهرَ لهم، إمّا أن يقرضوا الطّحالب وإمّا أن يحدقوا بالبُرك، إن رؤيتَهم ينحنون في الوقت نفسِه ذكّرَتني بالصّلاة الجماعيّة في المسجد.

لم تُبدِ تلكَ المخلوقاتُ أيَّ شعورٍ بالخوف، فعندما انحدرَتْ من الجرف، لم يبدِ أيّ منهم ردةَ فعلٍ أو توتّرٍ لوجودي، ولو أردْتُ لَلمسْتُ أحدَهم أو حملتُه.

لم أفعلْ أيّ شيءٍ من ذلك، ببساطة مشيْتُ بين أكبر مستعمرة للسراقط، وقد كانت أغربَ وأجملَ تجربةٍ في حياتي.

صخبٌ لا ينقطعُ، فقد ملأ المكان زقزقتُها وزعيقُها ونقيقُها، أعدادُها هائلةٌ وكذلك تقلّباتُ هياجِها، صخبٌ يذهبُ ويجيءُ كسربِ طيورٍ، فأحياناً يحوم حولي عالياً جداً ثمّ يختفي بسرعة، إذ تصمتُ السراقط القريبةُ منّي لتبدأَ السراقطُ البعيدةُ عني.

أكانوا غير خائفين منّي لأنّني يجبُ أن أخافَ أنا منهم؟

غيّر هذا السؤالُ تفكيري، لكنّ الجوابَ واضحٌ تماماً، فتلك الحيواناتُ غيرُ مؤذية. للاقتراب من بركة الماء التي يتجمعون حولها بكثافة، كنت أنكزُها بقدمي كيلا أدوسُ عليها، استجابُوا لذلك دونَ أيّ اعتداءٍ، وأخلت لي المكان مثلَ حشودٍ دمثةِ الأخلاق.

شعرْتُ بأجسادِها الدّافئةِ المغطاة بالفرو تلمسُ كاحليّ، بينما كنت أنظرُ إلى البركة.

كل البُرك لها الشّكلُ الدائريُّ نفسُه، وبنفس الحجم تقريباً، وبقطر أربعين قدماً، وقد توقّعتُ أن تكونَ بركةً ضحلةَ المياه، ولكنّها كانت عميقةً ومياهُها صافيةً، عميقة لدرجة أنّك لا ترى قاعَها، ما استطعْتُ أن أرى إلا أنّ حوافَها مكونةٌ من الطّحالب الخضراء، من الواضح أنّ الطبقةَ التي تغطي الجزيرة غنيّةٌ جداً.

لم أستطعْ رؤيةَ شيءٍ يشيرُ إلى فضولِ تلك السراقط، ولم أستطعْ إيجادَ جوابٍ لعدم سماعي الزعيق والنقيق عند البركة. وقد تدافعتْ وتزاحمَتْ بشكل كبير عندما حاولت السراقط في الخلف الوصولَ إلى حافّة البركة، فضلاً عن الهياج الجماعي. حتى السراقطُ الصغيرةُ حاولتِ الوصولَ إلى الماء رغمَ أنّ أمهاتِها وحراسَها حاولُوا إعاقتها. لم أصدّقْ ما رأتْ عيناي، فلم تكنْ تلك سراقطُ صحراءِ كالاهاري المعروفة، فسراقط كالاهاري لا تتصرّفُ كالضّفادع، ومن الواضح أنّ هذه السراقط تنتمي لسلالةٍ فرعيّةٍ تتميّزُ بأسلوبٍ جذّابٍ ومدهش.

توجهْتُ نحو البركة واضعاً قدمي بحذرٍ شديدٍ، بينما كنت أشاهدُ السراقط وهي تسبحُ وتجلبُ الأسماكَ بالعشرات إلى الشاطئ، ولم تكن أسماكاً صغيرةً أيضاً، فبعضُها من سمك القطّ التي أصبحتْ وجباتٍ كاملة على قارب النّجاة.

بدت السراقطُ أقزاماً إلى جانبها. ولم أفهمْ شيئاً، كيف استطاعتِ السّراقطُ سحبَ تلك الأسماك؟!!

كما لاحظت شيئاً غريباً، فعندما قامتِ السراقطُ بسحبِ الأسماك من البركة وتقديمها كطعام جماعي، أنّ كلَّ سمكة دون استثناء كانتْ ميتةً حديثاً، والسراقط تجلبها إلى الشاطئ ميتةً، ولم تقمْ هي بقتلها.

جثوتُ على ركبتيّ بجانب البركة، وأبعدتُ السراقطَ المبلّلةَ جانباً، ثمّ لمستُ الماءَ، فوجدته أكثرَ برودة ممّا توقعت. هناك تيارٌ يدفعُ الماءَ الأكثرَ برودةً من الأسفل. أخذتُ حفنةَ ماءٍ وقرّبتها إلى فمي، وتناولت رشفةً منه، إنّه ماءٌ عذبٌ، وهذا يفسّرُ لمَ ماتتِ الأسماك طبعاً، فإذا وضعنا أسماك المياه المالحة بالمياه العذبة فإنّها ستنتفخ بسرعة وتموت، ولكن ماذا تفعل الأسماك التي تسكن بالبحر في بركة ماء عذب؟ كيف وصلت هناك؟

ذهبتُ إلى بركة ثانية شاقاً طريقي عبر السراقط، فوجدتُ مياهَها عذبةً أيضاً، بركةٌ أخرى، وكذلك رابعةٌ، لقد كانت جميعها بِركاً عذبة. سألتُ نفسي: من أين جاءت كلُّ تلك الكمياتِ الكبيرة من الماء العذب؟ كان الجواب واضحاً: جاءت الأسماك من الطّحالب، إنّ الطّحالبَ تقطّرُ ماءَ البحر بشكل طبيعيّ ودائم، ولهذا السبب يكون لُبُّها مالحاً، بينما سطحُها الخارجي مبللاً بالماء العذب، فهي تطرح الماءَ العذبَ خارجاً.

لم أسألْ نفسي لماذا تفعل الطّحالب أو كيف أو أين يذهبُ الملحُ؟ توقف عقلي عن مثل هذه الأسئلة، فقط ضحكتُ وقفزتُ إلى إحدى تلك البرك، فوجدت من الصعوبة البقاءُ على سطح الماء، فقد كنتُ ضعيفاً جداً ولا يمتلك جسمي إلا القليلَ من الدّهون لكي تساعدُه على الطّوف، تمسكتُ بحافة البركة، لا أستطيع أن أصفَ بالكلمات تأثيرَ الاستحمام بماء صافٍ نقيٍّ وخالٍ من الملح بعد تلك المدة الطويلة في البحر، أصبح جلدي كجلدِ الحيوان، وصار شعري طويلاً ولبداً ومعدنياً مثلَ سلك صيدِ الذّباب. شعرتُ أنّ روحي تآكلتْ بالملح، لذلك وتحت أنظار آلاف السراقط، بلّلْتُ نفسي تاركاً الماءَ العذب يُذيبُ كلّ ذرّةِ ملح لوّثَتْ جسدي.

نظرت السراقط بعيداً كأنّها رجلٌ واحدٌ، نظرتْ جميعُها بنفس الاتجاه وبالوقت نفسه، سحبتُ نفسي من البركة لأرى ما الأمر، إنّه ريتشارد باركر، لقد أثبتَ ما كنت أشكّ به، إنّ تلك السراقطَ مرّتْ بعدّة أجيال دون رؤيةِ حيواناتٍ مفترسةٍ بينها، وإن فكرةَ الهروب والخوف قد اجتُثّت منها. كان يمشي بينها وهو متأجّجٌ قتلاً وتمثيلاً بجثث قتلاه ومفترساً سرقاطاً بعد آخر، والدّم يقطر من فمه، والسراقط حولَه تتقافزُ بمكانها كأنّها تناديكَ جاء دوري،

إنّه دوري. شاهدت ذلك المشهد مراراً، لا شيءَ يبعدُ السراقط عن حياتها البسيطة، وهي التّحديقُ ببركة الماء وقضمِ الطّحالب.

إذا قام ريتشارد باركر بقضم جماجِمِها بطريقةِ النّمر قبل أن ينزلَ بينها مزمجراً ويتسكع بلا مبالاة، فذلك لا يشكلُ أيّ فرق لهم، ولن يتكدّروا، وقد سيطرَ عليهم الخنوع.

قتل ريتشارد باركر منهم أكثرَ من حاجته، قتل الكثيرَ منها دون أن يأكلَها، إنّ دافعَ القتل عند الحيوان منفصلٌ تماماً عن دافع الأكل.

أن يعيش فترة طويلةً دون أكلِ فريسةٍ يصطادُها، ثمّ فجأة يكون لديه الكثيرُ منها ذلك يثير لديه غريزةَ الصيد بطريقةٍ انتقائيّة.

ما زال بعيداً عنّي ولم يكن يشكلْ خطراً عليّ، على الأقل في هذا الوقت.

قمتُ بتنظيف القارب في الصّباح التّالي بعد أن غادرَ، وقد كنتُ بحاجة ماسّةٍ للقيام بذلك. لن أستطيعَ وصفَ منظر بقايا العظام المختلطة مع عدد لا يحصى من بقايا الأسماك والسّلاحف.

قذفت تلك الأوساخ بعيداً، ولم أجرؤ على وضع قدمي على أرضية القارب خوفاً من أن أتركَ أيَّ أثرٍ لوجودي فيراها ريتشارد باركر، لذا فإنّ ذلك تمّ باستخدام المجرفة، وأنا أقفُ على المشمّع أو جانب القارب وأنا أقفُ في الماء. وما لم أستطعْ إزالتَه بالماء هو رائحةُ البقع الدّبقة.

لذا سكبتُ عليها الماءَ مستعيناً بالدّلو. في تلك اللّيلة دخلَ حظيرتَه الجديدةَ النظيفةَ دون أيّ تعليق، وقد حمل بفكّيه عدداً من السراقط الميتة التي تناولَها أثناء الليل.

قضيت باقي الأيام آكلُ وأشربُ وأستحمُّ وأراقبُ السراقطَ وأركض وأمشي وأستلقي وأصبحُ أقوى، صرتُ أركضُ بسهولة وبلا خجل، وذلك مصدرُ نشوةٍ. شُفي جلدي وغادرتْني آلامي وأوجاعي، ببساطة لقد عدتُ للحياة.

استكشفْتُ الجزيرةَ، وحاولتُ أن أدورَ حولَها، ولكنّني تراجعْتُ، تصوّرْتُ أن يكون قطرها نحو ستة أو سبعة أميال، وهذا يعني أنّ محيطَها نحو ثلاثين ميلاً.

ما رأيتُه حتى الآن يدلُّ على أنّ الشاطئ حولها له الشكل نفسه، واللون الأخضر الطاغي عليها نفسه، الجرف نفسه، وكذلك الانحدار من الجرف إلى الماء، وشجرة هزيلة هنا وهناك لكسر الرتابة.

استكشافي للشاطئ أظهر لي شيئاً غيرَ عادي: إنّ الطّحالبَ والجزيرةَ نفسَها تختلف في الارتفاع والكثافة تبعاً للطقس.

ففي الأيام شديدةِ الحرارة يصبحُ نسيجُ الطّحالب أكثرَ كثافةً وصلابةً، وتزدادُ الجزيرةُ ارتفاعاً، فيصبح تسلقُ الجرف أكثرَ صعوبةً ويصبح الجرفُ أكثرَ ارتفاعاً. ليست عمليةً سريعة، ما يدفع إلى ذلك نوبة الحرارة التي تمتدُّ لبضعة أيام، وذلك يحدثُ دون خطأ.

أعتقدُ أنّ ذلك يرتبط بكميّة الماء التي يتمُّ الاحتفاظُ بها، وكذلك بتعرضِ سطوح الطّحالب لأشعة الشمس، ظاهرةُ التحوّل تقلقُ الجزيرةَ، فقد كانت أسرع وأكثر دراماتيكية، وبدتْ أسبابُ حدوث ذلك أكثر وضوحاً، بمثل تلك الأوقات يصبحُ الجرف رخواً جداً لدرجة أن قدميّ تعلقان به، ذلك التفكّك سببه الطقس الملبّد للغيوم، وكذلك البحر الهائج.

عشتُ على الجزيرة أثناءَ عاصفةٍ شديدةٍ، وبعد تلك التجربةِ أصبحتُ على ثقة بالبقاء عليها أثناء الإعصار.

إنّه لمشهدٌ رائعٌ أن تجلسَ على شجرة وتشاهدَ الأمواجَ العملاقة تضربُ الجزيرة، وبالوقت نفسه تصعد الجرفَ وتطلقُ العنانَ للفوضى والاضطراب، وترى كلَّ موجةٍ تتلاشى، وكأنّها قد مرّتْ فوق الرمال المتحركة، في هذه الحالة تُعتبرُ الجزيرةُ من أتباع فلسفة غاندي: إنّها تقاومُ دون مقاومة، فكلُّ موجة تختفي دون اشتباكٍ مخلّفةً بعضَ الزّبد والرغوة، وما كان يدلُّ على عبورِ قوةٍ عظيمة، وبالمرور عبرَها تتلاشى الأمواجُ على حوافّ الجزيرة.

ظهرتْ وتابعتْ طريقَها، إنَّ من أغرب المناظر أن ترى الأمواجَ تغادرُ الشواطئَ، والعاصفةُ والهزّاتُ الأرضيّةُ الصغيرة التي رافقتْها لم تزعج السراقط، استمرتْ في عملها وكأنّه لم يحدثْ أيُّ شيء.

من الصعب جداً فهمُ العزلة المطلقة لهذه الجزيرة، لم أرَ مثل هذه البيئة المجرّدة، ولم يحمل هواؤها ذباباً ولا فراشات ولا نملاً ولا أيّ حشراتٍ أخرى. لم تأوِ الأشجارُ أيَّ نوع من الطيور، ولم تُخفِ السهولُ أيَّ قوارضَ أو يرقاتٍ أو ديداناً أو أفاعيَ أو عقاربَ، لم تنبتْ أيُّ نوع من الأشجار أو الشجيرات أو الأعشاب أو الأزهار، لم تحتوِ البركةُ على أيّ من أسماك المياه العذبة، ولم يكنِ الشاطئُ مأهولاً بالأعشاب أو سرطانات البحر أو الجراد أو المرجان أو الحصى أو الصخور. غير السراقط لم يكنْ هناك أيُّ كائنٍ غريبٍ على الجزيرة، عضويّ أو غير عضوي، لم تكنْ إلّا طحالب براقة وأشجار لامعة.

لم تكن الأشجارُ أشجاراً طفيليّة، اكتشفتُ ذلك بأحد الأيام عندما أكلتُ الكثير من الطّحالب حول قاعدة شجرة صغيرة حتى تكشّفَتْ جذورُها، فوجدتُ

أنّ الجذورَ لم تكن مستقلةً بنفسها بل انضمّتْ إلى الطّحالب وأصبحتْ منها، وهذا يدلُّ على أنّ الأشجارَ، إما أن تكونَ قد عاشت بعلاقة تكامليّةٍ مع الطّحالب بطريقةِ الأخذِ والعطاء، مما يكوّن فائدةً متبادلةً أو ببساطة أكثر، هي جزءٌ من الطّحالب متكامل النمو.

أعتقد أنّ الفكرة الأخيرة هي الصحيحةُ، لأنّ هذه الأشجارَ لم تحمل الأزهار أو الثّمار، وأنا أشكّ أن يتوقّفَ الكائن العضوي عن جزءٍ أساسي في حياته وهو التكاثر، مهما كان تعايشه بشكل حميمي مع الآخر.

إن شهيّةَ الأوراق لضوء الشّمس كما يتضّحُ من غزارتها وكبر حجمها ووفرة اليخضور فيها، جعلني أشكّ في أنّ لتلك الأشجار وبشكلٍ أساسيّ قدرةً على تجميع الطاقة، إنّه مجرد تخمين.

أودُّ أن أقدّمَ ملاحظةً أخيرةً قائمةً على الحدس بدلاً من الواقع:

إنّ تلك الجزيرة لم تكنْ جزيرةً بالمعنى المألوف، بل قطعةً صغيرةً من الأرض، قاعدتها في أرض المُحيط، أو ربّما كانت نمطَ كائنٍ عضوي طافٍ، كرةً من الطّحالب الضخمة.

قادني حدسي إلى أنّ بركَ الماء تلك تصلُ إلى حوافّ كتلةٍ ضخمةٍ وتُفتح على المحيط، وهذا يفسّرُ وجودَ سمك القطّ وأنواعٍ أخرى من أسماك البحر فيها. كلُّ ذلك يلزمُه دراسةٌ أعمقُ، ولكن لسوء الحظّ قد فقدتُ الطّحالبَ التي أخذتُها معي.

لقد عدت إلى الحياة، كذلك ريتشارد باركر بفضلِ تزويدِ نفسه بالسراقط.

لقد ازدادَ وزنُه، وعاد لفروه لمعانُه، وعاد إلى صحّته بهذا العمر، وقد استمرّ على عادته بالعودة إلى قارب النّجاة في آخر كلّ يوم.

كنت أواظبُ على الوصول قبلَه، وأحدّدُ منطقتي بالبول كيلا ينسى من أنا ومن هو ولمن تلك المنطقة، لكنّه غادرَ بأوّل خيوط النّهار، وتجوّلَ بحقولٍ أبعدَ من التي أتجوّلُ بها أنا.

ولأنّ الجزيرةَ صغيرةٌ اعتدتُ أن أبقى بمنطقة واحدة، وقليلاً ما كنتُ أراه أثناءَ النهار.

أصبح عصبياً وقد شاهدته كيف يخدشُ الأشجارَ بمخالبه الأماميّة، ويتركُ حفراً عميقةً على جذوعها.

بدأتُ أسمعُ زئيرَه الأجشَّ وصرخاتِه العميقةَ كالذهب أو رحيق الأزهار أو البرودة التي تصيبُ الظهر في منجمٍ غير آمن، أو مثلَ آلاف من النحل الغاضب، ليس بحثُه عن أنثى هو ما كان يقلقني، بل لأنّه مرتاحٌ جداً على تلك الجزيرة، ممّا يجعله يفكرُ بإنجاب الصغار، ما أثار فزعي أنّه في حالته الجديدة ربّما لن يحتملَ فكرةَ وجود ذكرٍ آخرَ في منطقته، منطقتُه اللّيليّةُ بالتّحديد، ولا سيّما إذا لم يجدْ رداً على صرخاته، وهذا ما سيحدث.

في أحد الأيام كنت أمشي في الغابة بنشاط وأفكر بنفسي، مررْتُ بشجرةٍ ودون قصدٍ مشيتُ باتجاه ريتشارد باركر، دُهش كلانا، أخذ يُهسهسُ وقفز على قدميه الخلفيتين من فوقي، وكانت مخالبه المخيفةُ توشك أن تقذفَني أرضاً، وقفتُ جامداً في مكاني مشلولاً من الخوف والصدمة، سقط على أقدامه الأربع وابتعد، وعندما ابتعدَ ثلاثَ أو أربعَ خطوات، استدارَ ثمّ زأرَ وزمجرَ ثانيةً، بقيتُ واقفاً كالتّمثال، وبعد عدة خطواتٍ كرّر التهديدَ نفسَه للمرّة الثالثة، وبعد أن اقتنعَ أنّني لا أشكّلُ أيّ تهديد، سار على مهلٍ وابتعد.

حالما التقطْتُ أنفاسي وتوقفْتُ عن الارتجاف، رفعْتُ الصافرةَ إلى فمي وأخذتُ أركضُ وراءَه، كان قد ابتعد مسافةً كبيرةً، ولكنّه لا يزال في مجال النظر.

ركضتُ بقوةٍ فاستدار وشاهدني، ربضَ ثمّ فرّ هارباً، أطلقْتُ الصافرةَ بكلّ قوةٍ آملاً أن يغطّي صوتُها مسافةً ومساحةً أكبرَ من صرخات نمرٍ وحيد. تلك اللّيلة ارتاح تحتي على بعد قدمين، أدركت أنّني لا بدّ أن أدخلَ السيرك ثانيةً.

الصعوبة الكبرى في تدريب الحيوانات هي في كونهم يتصرفون إما بالغريزة وإما بالفساد الأخلاقي، وإنّ الطريقَ المختصرةَ الذكيّةَ هي في إيجاد روابطَ لا تكون غريزيّةً وتتوفّرُ بالحدّ الأدنى، لذلك فإنّ خلقَ انطباعِ الرابطِ المفتَعلِ في ذاكرة الحيوان يكون بتخدير عقله من خلال التكرار، مثلاً إذا قام بحركة معيّنةٍ كالتدحرج فإنّه سيتلقى مكافأةً.

إنّها عمليّةٌ بطيئةٌ تعتمد على الحظ أكثر من اعتمادها على العمل الجاد، وذلك عندما يصبح الحيوانُ بالغاً.

أخذتُ أنفخ في الصافرة حتى آلمتني رئتاي، وأتعبْتُ صدري حتى غطتْهُ الكدماتُ، أخذت أصرخ: هيا، هيا، هيا وهي لغةُ الأمر بالنسبة للنّمر.

افعلْ كذا، قلتُها آلافَ المرات، رميتُ مئاتِ القطعِ من السراقط له التي كنت سأفرح لو أكلتها أنا.

إنّ تدريبَ النّمور ليس عملاً سهلاً، فعقولُها أقلُّ اكتساباً للأوامر من الحيوانات الأخرى، ولم يتمّ تدريبها عادة في السيرك أو حديقة الحيوان، خذ

على سبيل المثال الأسود والشمبانزي، لكنّني لا أريد أن أكون واثقاً بما فعلتُه من أجل ريتشارد باركر. إنّ حظي الجيد هو الذي أنقذَ حياتي، إذ لم يكن صغيراً يانعاً، بل كان مطواعاً، حيوان أوميغا.

وكثيراً ما خفتُ أن تلعبَ الظروفُ على الجزيرة ضدي، يمكن لوفرة الطعام والماء والفسحة الكبيرة أن يصبحَ مرتاحاً أكثرَ وواثقاً أكثر، ممَّا يجعله بعيداً عن تأثيري، لكنّه لا يزال متوتّراً.

أعرفُه جيداً لدرجة أنّني أشعر بذلك.

في الليل كان دائم القلق والصخب، وقد أوعزتُ توتّرَه هذا للبيئة الجديدة في الجزيرة، فكلّ تغييرٍ ولو كان إيجابياً يجعلُ الحيوانَ متوتراً.

ومهما كان السببُ فإنّ توترَه يُظهِرُ استمرارَ جهوزيّته للالتزام أكثر من حاجته للالتزام. درّبتُه على القفز من خلال طوقٍ صنعته من أغصان الشجر، كانت القفزات الأربع شيئاً معتاداً، مع كلّ قفزةٍ يكسب قطعةً من السرقاط.

عندما سار نحوي، حملتُ الطوقَ بنهاية ذراعي اليسرى على ارتفاع ثلاثةِ أقدامٍ عن الأرض، وعندما انتهى من القفز عبْرَها، توقف عن الركض، حملتُ الطوقَ بيدي اليمنى وظهري نحوه، أمرتُه أن يعودَ ويقفزَ عبرَه ثانيةً، ومع القفزة الثالثة ركعتُ على الأرض، ووضعْتُ الطوقَ فوق رأسي، كانت تجربةً مرهقةً للأعصاب أن أراه يأتي نحوي، لم يغادرني الخوفُ أبداً والإحساسُ بأنّه لن يقفز فقط بل سيهاجمني.

الحمد لله أنّه في كلّ مرّة يقفزُ فقط، بعد كل قفزة أقفُ وأرمي الطوقَ ويتدحرجُ مثل عجلةٍ، وكان من المفروض أن يلحقَ ريتشارد باركر به، ويدخل

عبره للمرة الأخيرة قبل أن يقعَ على الأرض، لم يكن جيداً أبداً في الجزء الأخير من اللعبة، إما لأنّني فشلتُ برمي الطوق بالشكل الصحيح أو لأنّه قفز عبره بحماقةٍ، على الأقل يتبعُه وهذا يعني أنّه ابتعدَ عني. ملأتهُ الدهشة عندما سقطَ الطوق، نظر إليه باهتمام وكأنّه حيوانٌ رفيقٌ له ركض معه وسقط بشكل غير متوقع، وظلّ بجانبه يشمّه.

رميتُ له آخرَ هديّة وابتعدتُ، هجرتُ القاربَ بالتدريج، أصبح شيئاً غير مألوف أن أقضيَ الليل في مكانٍ ضيقٍ مع حيوانٍ يصبح فسيحاً عندما يحتاج إليه، بينما أستطيع الحصولَ على جزيرةٍ كاملة، فوجدتُ أنّ الشيء الأكثر أماناً هو أن أنامَ على الشجرة، إنّ نومَ ريتشارد باركر في الليل بقارب نجاة لم يكن أبداً قانونياً برأيي، لم تكن فكرةً جيدةً أن أكونَ خارج منطقتي نائماً على الأرض دون حماية في الوقت الذي يقررُ فيه الذهاب بجولةٍ بمنتصف الليل.

لذلك غادرتُ القاربَ بصحبة شبكةٍ وحبلٍ وبعض الأغطية، وفتّشتُ عن شجرة ملائمة في حافة الغابة، ثمّ رميتُ الحبلَ فوق أخفضِ فروعها، منحتني لياقتي الكافية القدرة على سحب نفسي للأعلى معتمداً على ذراعي وتسلق الشجرة، عثرتُ على فرعين متينين متوازنين ومتلاصقين، ثمّ ربطتُ الشبكةَ إليهما، ورجعتُ في آخر النهار.

لحظة انتهيتُ من ثَنْيِ البطانياتِ لعمل الفراش، اكتشفتُ هياجاً بين السراقط، نظرتُ، أبعدتُ الأغصان لأرى بوضوح أكثر، نظرت بكلّ اتجاهٍ حتى حدود الأفق، لم أكن مخطئاً، لقد كانت السراقط تغادرُ البرك والسهلَ كلّه، وتركض نحو الغاب.

رأيتُ أمةً من السراقط تتحركُ بظهورها المتقوسةِ وأقدامِها غيرِ الواضحةِ. تساءلتُ ما المفاجأة التالية التي تخبّئُها تلك الحيواناتُ عندما لاحظْتُ وبفزعٍ أنّ السراقطَ التي غادرتِ البركَ القريبةَ منّي قد طوّقتْ شجرتي، وأخذتْ تتسلّقُ جذعَها.

بدأ الجذعُ يختفي تحت موجة السراقط، اعتقدتُ أنّها قادمةٌ لمهاجمتي والسببُ أنّ ريتشارد باركر قضى ليلته في القارب، أثناء النهار كانت السراقط وديعة ومسالمةً ولكنّها في الليل وتحت وزنها مجتمعةً فإنّها تحطّمُ أعداءَها بلا رحمة.

لقد استأتُ وخفتُ، ففكرةُ البقاء حيّاً لمدة طويلة مع نمر برتغالي يزن أربعمئة وخمسين باونداً، وتموتُ فوق شجرةٍ على يدي سرقاط يزن باوندين اثنين صعقَني.

إنّها مأساةٌ غيرُ عادلةٍ وسخيفةٌ ولا يمكن تحمّلُها. لم تؤذني أبداً، تسلقتْ فوقي وحولي وجلستْ على كلّ غصن من الشجرة، فأصبحتْ مثقلةً بهم. حتى إنّها احتلّتْ فراشَ نومي، وحصل الشيءُ نفسُه على كلّ الأشجار، فقد تسلقوا كلّ غصنٍ على مرأى منّي، تحولتِ الغابةُ كلُّها إلى اللون البني وحلّ الخريف خلال بضع ثوان، عندما فرّتْ بشكلٍ جماعي وبحشود كبيرةٍ قاصدةً الأشجارَ الفارعةَ في عمق الغابة، فقد أحدثتْ صخباً أعلى من الصخب الذي يسبّبُه قطيعٌ من الفيلة المذعورة.

تحولَ السّهلُ في تلك الأثناء إلى مكانٍ عارٍ وخالٍ من السكان.

بسرير فارغ وبوجودِ نمرٍ ومسكنٍ مزدحمٍ بالسراقط، هل سيصدقُني أحدٌ إذا ما قلتُ إنّ الحياةَ يمكن أن تأخذَ دورَ المفاجأة؟ تدافعت السراقط

ولم أتمكّن من الحصول على مكانٍ في سريري، ودَنَتْ منّي التماساً للحماية، فلم يتبقّ إنشٌ واحدٌ فارغاً.

جلستْ جميعُها وتوقفتْ عن الزقزقة والنقيق، وساد الصمتُ الشجرةَ وغطَّ جميعنا في النوم، استيقظتُ في الفجر وكنت مغطىً من رأسي حتى قدميّ بغطاء من الفرو الحيّ، فبعضُ جراء السراقط اكتشفتِ الجزءَ الأكثرَ دفئاً، فقد طوّقتْ عنقي بياقةٍ مُحكمةٍ مُبلّلة بالعرق، لا بدّ أن تكون أمها التي رقدتْ جانب رأسي بكلّ قناعة، بينما حشر الآخرون أنفسَهم في منطقةٍ استقرتْ فيها مخدتي.

غادرُوا الشجرةَ بخفّةٍ ودون تكلّفٍ مثلما احتلّوها، حدث الشيء نفسه في كلّ الأشجار المحيطة، بدتِ الأشجارُ فارغةً، وشعرتُ بشيءٍ من الفراغ، لقد أعجبتْني فكرةُ النّومِ بوجود السراقط.

صرتُ أنامُ على الشجرة كلّ ليلة، قمتُ بإفراغ القارب من الأشياء المفيدة وصنعتُ لنفسي غرفةَ نومٍ بأعلى الشجرة، اعتدتُ الخدوش العريضة التي تلقّيتُها من السراقط التي تسلّقتْ فوقي، تغوّط السراقط فوقي هو الشكوى الوحيدة لديّ.

أيقظتْني السراقطُ في إحدى الليالي، إذ كانت تثرثرُ وترتجفُ، نهضتُ ونظرتُ نحو الجهة التي ينظرون إليها، سماءٌ صافيةٌ قمرُها بدرٌ فوق أرضٍ مسلوبةِ اللّون، كلُّ شيءٍ يلمعُ بالسّواد الرمادي والأبيض غريب الشكل. شيءٌ ما فضّي اللون يتحركُ في البركة، ويندفعُ من الأسفل، ويحطّمُ السّطحَ الأسودَ للماء.

سمكٌ نافقٌ يطفو آتياً من العمق، وسوف أُذكّركم بأنَّ قطرَ البركة أربعون قدماً، وقد امتلأتْ كلُّها بالسمك النافق الذي طفا على السّطح، فتحولَ لونُها من الأسود إلى الفضّي. وبدا واضحاً من الطّريقة التي يظهرُ فيها على السّطح متقلقلاً أنّ مزيداً من الأسماك ستطفو إلى جانبها. في الوقت الذي ظهرتْ فيه سمكةُ قرش ميتة، ازدادَ هياج السراقط وانفعالها، وأخذتْ تصرخُ مثلَ الطيور الاستوائية.

انتشرتْ الهيستيريا إلى الأشجار المجاورة، صرخاتٌ تصمُّ الآذان.

تساءلتُ: هل سيصلُ الأمرُ إلى أن تتسلّقَ الأسماكُ الشجرة؟

لم يذهبْ أيُّ سرقاط إلى البركة، ولم يقمْ منها بالحركة الأولى للنزول عن الشجرة، عبّروا عن إحباطهم بصوتٍ عالٍ.

رأيت مشهداً مشوقاً، فهناك شيءٌ مقلقٌ حول كلّ تلك الأسماك الميتة. استلقيْتُ ثانيةً، وبذلتُ جهدي للعودة إلى النوم مع الجلبة التي أحدثتْها السراقطُ. ولكن دون جدوى مع خطوط الصباح الأولى تزحزحتُ من رقادي على ضوضاء أحدثتْها كتائبُ السراقط التي بدأتْ تنزل عن الشجرة، تثاءبتُ وتمدّدْتُ بينما كنت أنظرُ نحو البركة حيث مصدر الانفعال والهياج في الليلة.

رأيتُ البركةَ تقريباً فارغةً، ولم يكنْ هذا بفعل السراقط، إنّهم فقط يغوصون فيها للحصول على ما بقيَ من الأسماك.

لقد اختفتِ الأسماكُ، ارتبكتُ. هل كنت أنظرُ إلى البركة الخطأ؟ لا، أنا متأكدٌ أنّها هي.

هل السراقط لا علاقة لها بإفراغها؟ بالتّأكيد لا علاقة لها، فأنا لم أرَهُم يسحبون سمكةً قرشٍ واحدة على ظهورهم ويختفون.

هل يمكن أن يكون ريتشارد باركر؟ احتمالٌ بسيطٌ، ولكن لا يمكنُه إفراغُ البركة بكاملها في ليلة واحدة.

حقيقةً، إنّه شيءٌ غامضٌ، ولم يطلْ تحديقي بالبركة وحوافها الخضراء العميقة حتى استطعْتُ تفسيرَ ما حدث للأسماك، انتظرتُ في اللّيلة التّالية ولكن لم تأت أيُّ سمكة جديدة للبركة.

جاء الجواب على ذلك الغموض بعد مدّةٍ، ومن عمق الغابة.

إنّ الأشجارَ في قلب الغابة أكبرُ وأكثرُ قرباً بعضها إلى بعضٍ، خاليةٌ من أي طبقةٍ أعشابٍ في الأسفل أو الجينات، ولكن قممُها كثيفةٌ جداً لدرجة أنّها تمنعُ رؤيةَ السماء، بعبارة أخرى، ترى السماءَ منها خضراءَ بشدّة، فقربُ الأشجار من بعضها جعل الأغصانُ تنمو في فضاءاتِ بعضها وتتشابكُ، حتى إنّه لا يمكنُك تمييزُ بداية الشجرة ونهاية الأخرى، لاحظت أنّها تمتلكُ جذوعاً ناعمةً ونظيفةً دون أيّةِ خدوش على لحائها، كتلك التي تحدثُه السراقط لها.

عرفتُ السببَ بسهولة: إنّ السراقطَ تستطيع أن تنتقلَ من شجرة إلى أخرى دون الحاجة إلى التّسلق أو النزول عنها، ووجدتُ برهاناً على ذلك، فالكثير من الأشجار في محيط قلب الغابة، قد تمّ تمزيقُ لحائها، وقد كانت تلك الأشجار دون شكّ البواباتِ إلى السراقط ساكني الأشجار بنشاطٍ وصخبٍ أكثرَ ممّا في كالكوتا.

هذا المكانُ الذي وجدتُ فيه الشجرةَ التي لم تكنِ الأكبرَ في الغابة أو النقطةَ الميتةَ أو المُميزةَ بأيّ طريقةٍ أخرى. فكلُّ ما يميزها أنّها كثيفةُ الأغصان وتشكلُ النقطةَ التي ترى منها السماء أو تلجأُ إليها السراقط ليلاً.

ولقد وجدتُ هذه الشجرةَ بالضّبط في اليوم الذي سبق مغادرتي هذه الجزيرة.

لاحظتُ الشجرةَ لأنّها بدتْ وكأنّها تحملُ ثمّاراً بينما في الأماكن الأخرى أشجارُ الغابة خضراء بشكل غير مألوف. وقد ظهرتْ تلك الثمارُ بلونٍ أسودَ مقابلَ اللّون الأخضر، وفروعُها التي تحملها ملتفّة بطريقة غريبة.

نظرتُ باهتمام، الجزيرةُ بكاملها مغطّاةٌ بأشجارٍ غير مثمرة عدا واحدة وليست كلّها، فقد نمتِ الثمارُ في جزءٍ منها، اعتقدْتُ أنّني ربما عثرتُ على الغابة، وتساءلتُ فيما إذا كانت الطّحالبُ ستتوقّفُ عن إدهاشي بنباتاتِها الغريبة.

أردتُ تجربةَ الفاكهة، ولكن الشجرة عاليةٌ جداً، لذا عدتُ ومعي حبلٌ، وتساءلْتُ إذا كانت الطّحالبُ لذيذةً، فكيف سيكون طعم الفاكهة؟

ربطتُ الحبل حول أخفضِ فروعِ الشجرة، وتسلّقتُ غصناً بعد غصن وفرعاً بعد فرع، حتى وصلتُ إلى الحديقة الغنيّة.

اللّونُ في الأعلى بجانب الثمار أخضرُ باهتٌ. ثمارُها بحجم حبة البرتقال وكلُّ واحدة منها تقعُ في منتصف عددٍ من الأغصانِ الصغيرةِ المتشابكةِ بإحكامٍ حولها لحمايتها أعتقد.

عندما اقتربتُ أكثر، اكتشفتُ غرضاً آخرَ لتلك الأغصانِ المتشابكة، وهي الدعمُ، فكلّ حبّةٍ من الفاكهة لها دزينة سيقانٍ، وسطوحُها مرصّعةٌ بسيقانَ تربطُها بالسيقان المحيطة بها، اعتقدتُ أنّ تلك الثمارَ يجب أن تكون ثقيلةً وطريّةً، اقتربتُ منها وأمسكتُ بواحدة، فخاب ظنّي عندما شعرتُ بخفّة وزنها، إنّها لا تزن شيئاً، سحبتُ واحدةً بعد أن انتزعتُها من كلّ السيقان التي تحيط بها.

أرحتُ نفسي على فرعٍ متينٍ يسندُ ظهري جذع الشجرة، ويظلّلُني سقفٌ من الأوراق الخضراء التي سمحتْ لأشعةِ الشمس بالمرور، وحولي على مدّ النظر تسنّى لي رؤيةُ الطرقِ الملتويةِ والمعلّقةِ لسكانِ المدينة الكبيرة المعلقين في الهواء، انسابَ نسيمٌ عليلٌ، وقد دفعني فضولي الشّديدُ لتفحّصِ واحدةٍ من الثّمار.

آه كم تمنّيْتُ لو لم تأتِ تلك اللّحظةُ، لكنّني على استعدادٍ أن أعيشَ لسنواتٍ من أجلها بل لبقيةِ حياتي على تلك الجزيرة. لا شيءَ يمكنُه أن يدفعَني للعودة إلى قارب النّجاة، وإلى المعاناة والجوع والذي عليّ أن أتحملَه... لا شيء، ما السبب الذي يجبرني على مغادرة الجزيرة؟ ألم أجدْ حياتي الفيزيولوجية هنا؟ أليس هناك ما يكفيني من الماءِ العذب طوال حياتي؟

ألا يوجدُ طحالبُ تزيد على حاجتي للأكل؟ وعندما أتوقُ للتغيير ألا يمكنني تناولُ السراقط والأسماك؟ وهل يمكن للجزيرة أن تطفو وتسبحَ في اتجاه خاطئ؟ ألا يمكنُ أن تكونَ سفينةُ أعشابٍ جلبتني إلى هذه الجزيرة؟ والآن أليسَ لديّ هذه السراقطُ الجميلة؟ أليس ريتشارد باركر ما زالَ بحاجةٍ للقفزةِ الرابعة؟

لم يخطرْ ببالي مغادرةُ الجزيرة أبداً منذ وصولي إليها، لقد مرتْ أسابيعُ عدة الآن، لا أعرفُ عددَها بالضبط، وستمتدُّ، أنا متأكدٌ من ذلك.

إذا كانت هذه الفاكهة تحملُ بذوراً، فهي بذورُ مغادرتي.

لم تكنِ الثمار ثماراً، بل إنّها تجمّعٌ للأوراق التحمَ بعضها ببعضٍ على شكل كرة، وما السيقانُ المحيطةُ بها سوى سيقانِ الأوراق التي فقدتْ سيقانَها والتصقتْ بالكرة، كلُّ ساقٍ انتزعْتُها تسبّبَتْ بسقوط ورقة.

بعد عدة طبقاتٍ وصلتُ إلى أوراقٍ نفذتْ سيقانُها والتصقت بالكرة، استخدمتُ أظافري للإمساك بحوافها ونزعتُها، انتزعتُها طبقةً بعد طبقةٍ، مثلَ قشور البصل.

استطعتُ بسهولةٍ تقطيعَ الثمرة التي مازلتُ أسميها ثمرةً، لأنّني لم أجدْ لها اسماً آخر، وقد تقلّصَتْ من حجم برتقالة إلى حجم المندرين.

غطت الأوراقُ الناعمةُ الأغصانَ في الأسفل، إنّها الآن بحجم الرامبوتان.

استمرّ ارتعاشي عندما فكّرْتُ بها، إنّها الآن بحجم حبة الكرز.

ثمّ ظهرتْ للضّوء وكأنّها لؤلؤةٌ ببطن محّارةٍ لا يمكن وصفها بالكلمة. سِنٌّ بشريٌّ.

وأكثر دقّة إنّها ضرسٌ، سطحُه أخضرُ ومغطى بالثقوب.

بدأ الخوفُ يعتريني، وقد كان لدي الوقت لقطف ثمرة أخرى.

احتوتْ كلُّ ثمّرةٍ ضرساً، إحداها احتوتْ ناباً، وأخرى احتوتْ سناً قاطعة. وبثمّرةٍ أخرى هناك ضرسٌ، اثنتان وثلاثون سناً، مجموعة أسنانٍ بشريّةٍ لم يُفقَدُ منها سنٌّ واحدةٌ.

لم أصرخْ، فكرت في الأصوات في أفلام الرعب، أصابتْني القشعريرةُ وغادرتُ الشجرةَ.

أمضيتُ نهاري مضطرباً، وفكرت بالخيارات لديّ، للأسف كلُّها سيّئةٌ.

في تلك الليلة، وأنا في فراشي على الشجرة، اختبرتُ قراري، أمسكْتُ بسرقاطٍ ورميْتُه من على الغصن. أخذ يزعقُ وهو يهوي إلى الأرض، وعندما

لمسَ الأرضَ اتجهَ بسرعةٍ نحو الشجرة، عاد إلى مكانه بجانبي بكلّ براءةٍ، وأخذَ يلعقُ مخالبه بقوّةٍ، يلهثُ بسرعةٍ، وقد بدا عليه عدم الارتياح.

كان باستطاعتي تركه على حالته تلك، لكنّي أردتُ أن أعرفَ.

نزلتُ وأمسكتُ الحبلَ، وقد عملتُ به عُقداً كثيرة لأتمكن من التسلق بسهولة، وعندما أصبحتُ بالأسفل غرقتْ قدمايَ بالأرض لمسافة إنش، تردّدْتُ ثمّ تركتُ الحبلَ.

في البداية لم أشعرْ بشيءٍ، ثمّ شعرتُ بألمٍ حارقٍ في قدمي، انكمشتُ على نفسي، ظننْتُ أنّي سأسقط أرضاً، حاولتُ جاهداً الإمساكَ بالحبل، وسحبتُ نفسي إلى الأعلى، ثمّ قمتُ بفرك باطنِ قدمي على جذع الشجرةِ بشكل مسعورٍ، ساعدني ذلك، ولكن ليس كثيراً.

ثمّ تسلّقتُ ثانية إلى الفرع الذي كنتُ أجلس عليه، غمستُ قدميّ بدلو الماء جانب سريري، وقمتُ بتجفيفها ببعض أوراق الشجر، ثمّ تناولت السكين وقتلتُ اثنين من السراقط لاستخدام دمائِها وأحشائِها في علاجِ الحرق وتخفيف الألم. لا تزالُ قدماي تؤلمانني، وظلتْ تؤلمني طوالَ اللّيل حتى إنّني لم أستطعِ النومَ بسبب ذلك، إضافةً لقلقي.

يبدو أنّ الجزيرةَ مفترسةٌ، وهذا يفسّرُ اختفاءَ الأسماك من البركة، تجذبُ الجزيرةُ الأسماكَ عبرَ المياه المالحة إلى أنفاقٍ تحت الأرض، كيف؟ لا أعرف.

ربما تأكل الأسماك الطّحالبَ بشراهةٍ كما فعلتُ أنا، فتصبحُ سجينة، هل فقدتْ طريقَها؟ هل أُغلقَتِ الفتحاتُ المؤدّيةُ إلى البحر؟ هل تبدّلتْ ملوحةُ الماء بسرعة ولم تدركِ الأسماكُ ذلك إلا بوقتٍ متأخر؟ مهما كان الأمر فقد

وجدتْ نفسَها عجوزةً في مياهٍ عذبةٍ وماتتْ، بعضُها طفا على وجه الماء وهي البقايا التي تتغذّى عليها السراقط ليلاً، وبعمليّةٍ كيميائيةٍ لا أعرفُ عنها شيئاً، ولكن من الواضح أنّ الشمسَ تكبحُها، فتحوّلُ الطّحالبَ إلى نباتاتٍ عاليةِ الحموضةِ، وتتحوّلُ البِركُ إلى أحواضٍ من الحمض وتقوم بهضمِ الأسماك، ولهذا كان ريتشارد باركر يعودُ إلى القارب كلّ ليلةٍ، وتنام السراقط على الشجرة، وهذا يفسّرُ عدمَ وجودِ شيءٍ على هذه الجزيرة سوى الطّحالب.

كما يفسّرُ هذا وجود الأسنان، إذ لا بدَّ من أنّ شخصاً تائهاً قد وصل هذه الشواطئَ المخيفة قبلي، كم أمضى أو أمضيْتُ من الوقت هنا؟ أسابيعَ؟ شهوراً؟ سنواتٍ؟ كم أمضى من الوقت وحيداً برفقة تلك السراقط ومع تلك الثمار؟ كم من الأحلام عن حياةٍ سعيدةٍ قد تحطّمتْ؟ كم من الآمال أدتْ إلى اللاشيء؟ كم من الأحاديثِ قد ماتتْ دون أن تُقال؟ كم تحمّل من الوحدة؟ كم من اليأس قد مرّ به؟ وفوق كلّ هذا ماذا عنها؟ ما الذي تبديه؟

لا شيءَ عدا بعض الأسنان، تغييرٌ بسيطٌ في الأسنان.

لا بدّ أنّ هذا الشخصَ قد مات فوق الشجرة، هل بسببِ مرضٍ ما أو إصابةٍ ما أو ربّما بسبب الكآبة؟ كم من الوقت يلزمُ الروحُ المحطّمةُ لقتلِ جسدٍ لديه الماءُ والغذاءُ والملجأ؟

يبدو أنّ الأشجارَ مفترسةٌ أيضاً، ولكنّ مستوى الحموضةِ لديها أقلُّ، وآمنة إلى حدّ كبير لقضاء الليل عليها، بينما ما تبقى من الجزيرة كان يشتعلُ غضباً، وعندما مات هذا الشخصُ، وتوقّفَ عن الحركة، التفّتِ الشجرةُ حول جسده بهدوء وهضمتْهُ تماماً كالعظام التي تبقى من الطعام ثمّ تختفي، حتى الأسنانُ تختفي مع مرور الوقت.

نظرتُ إلى الطّحالب حولي، امتلأتْ نفسي بالمرارة، كلّ الوعود البراقة التي قدّمتْها لي في النّهار حلّ محلها في قلبي كلَّ الغدر الذي قدمتْه لي ليلاً.

لم يبقَ شيءٌ إلا الأسنان، أسنان!!

عند الصباح تخلّيْتُ عن قراري المروّع، فضّلت أن أنطلقَ وأفني نفسي في البحث بدلاً من العيش وحيداً بنصف حياة. راحةٌ جسديّةٌ وموتُ الروح على هذه الجزيرة القاتلة. ملأتُ الأوعيةَ بالماء العذب بعد أن شربتُ مثل الجمل، تناولتُ الطّحالبَ طوالَ اليوم حتى إنّ معدتي لم تعدْ تتّسعُ لأي زيادة، قتلتُ وسلختُ من السراقط ما يكفي لملء الصندوق وأرضية القارب، جمعتُ الأسماكَ الميتة من البركة، وجمعتُ كميّةً من الطّحالب باستخدام البلطة، ولففْتُ حبلاً حولها وربطته بالقارب.

لم أستطعِ التّخلي عن ريتشارد باركر.

أن أتركَه وحيداً يعني أن أقتلَه، إنّه لن ينجوَ من اللّيلة الأولى، عرفتُ أثناءَ وجودي وحيداً على القارب عند غروب الشمس أنّه يضجّ بالحياة، أو ربما رمى نفسه بالبحر حيث غرق، انتظرتُ عودتَه، وقد علمتُ أنّه لن يتأخرَ.

عندما صعد القاربَ انطلقتُ، لعدة ساعات ظلّ التيارُ يدفعُنا قربَ الجزيرة.

أزعجني ضجيجُ البحر، لم أعدْ قادراً على تحمّل حركة القارب المتأرجحة. مرّ الليلُ ببطءٍ، واختفت الجزيرةُ في الصباح، كما اختفت كومة الطّحالب التي كنت قد ربطْتُها. يبدو أنّه عند هبوطِ اللّيل أذابَ حمضُ الطّحالب الحبلَ.

كان البحر مائجاً والسماءُ رماديّة.

الفصل الثالث والتسعون

أُصبْتُ بالإرهاق من حالتي العقيمة، مثل الطقس. ولكنّ الحياةَ لم تهجرني فبقيّة كلّ القصة ليست إلا حزناً وألماً وقدرةً على التحمّل، النداءاتُ العاليةُ انخفضتْ والمنخفضةُ أصبحت عاليةً، أقول لك: لو أنّك كنت في مثل هذا الضّيق الرهيب فإنّك ستنعشُ أفكارَك مثلي، وكلّما كنتَ في وضعٍ سيِّئ، فإنّ عقلَك سيرغبُ بالتّحليق.

كان من الطبيعي وأنا في حالتي هذه من البؤس والقنوط والألم المتواصل والمعاناة أن أتوجّهَ إلى الله.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع والتسعون

عندما وصلْنا إلى أرض المكسيك بالتّحديد، كنت بمنتهى الضعف، ولم يكد يكون لديّ القوة لأفرحَ بذلك. وجدْنا صعوبةً كبيرةً بالرُّسوّ، فالقاربُ على وشك الانقلاب على الأمواج، أرسلْتُ المراسي البحريّة، ما تبقّى منها على مداها لنبقى متعامدين مع الأمواج، وأطلقتُها لحظةَ بلغنا قمةَ الموجة، وبهذه الطّريقة وصلنا الشاطئ، وفي ذلك مخاطر ولكنّنا ركبْنا موجةً باللّحظة المناسبة، فحملتْنا مسافةً بعيدةً خلف جدران الموجة المنهارة. رميتُ المرساةَ للمرّة الأخيرة فدفعتْنا ما تبقى من المسافة.

هسهسَ القاربُ وتوقّفَ على الرّمال، ارتميْتُ إلى جانبه، خشيتُ أن أذهبَ، خشيتُ لأنّي اقتربْتُ كثيراً من الخلاص على بعد قدمين من الماء، خشيْتُ الغرقَ، نظرتُ أمامي لأتبيّنَ المسافةَ التي علي قطعها. تلك النظرةُ جعلتْني أرى آخرَ صورةٍ لريتشارد باركر، لأنّ تلك اللّحظةَ بالذات قفزَ من فوقي، ورأيْتُ جسدَه حيويّاً بلا حدود، وقد طارَ بالهواء من فوقي، قوسُ قزح مكسوّ بالفرو. هبطَ في الماء، باعدَ بين رجليه الخلفيّتين، وذيلُه مرتفعٌ للأعلى، ومن هناك وبعد عدة قفزاتٍ وصلَ الشاطئَ. ذهبَ يساراً ومخالبُه تنغرسُ في الرّمل المبلّل، ولكنّه غيّرَ رأيَه ودارَ حولي، مرّ من أمامي مباشرةً، وهو يتّجهُ إلى اليمين. كانت مشيتُه خرقاء وغير متوازنة، وقعَ عدّةَ مرّات، ووقفَ عند حافة الغابة.

كنتُ على ثقةٍ بأنّه سيستديرُ نحوي وينظرُ إليّ سيحرّكُ أذنيه، سيزمجرُ بتلك الطريقة، سوف ينهي علاقتَنا، لم يفعلْ أيّ شيء من ذلك. نظرَ بثباتٍ للغابة، هذا كلّ ما فعله.

ريتشارد باركر رفيقُ عذابي المخيف والشّرس الذي أبقاني على قيد الحياة، مشى للأمام واختفى من حياتي للأبد.

جاهدتُ للوصول إلى الشاطئ وسقطتُ على الرمال، نظرتُ حولي، أنا حقاً وحيدٌ ويتيمٌ، ليس من عائلتي فقط بل من ريتشارد، ومن الإله أيضاً على ما أعتقدُ. لم أكن وحيداً، فقد كان هذا الشاطئُ الطّريّ المتينُ والواسعُ مثل خدّ الإله وفي مكانٍ ما منه عينان تنظران إليّ بفرحٍ، وفمٍ يبتسمُ لمشاهدتي هناك.

بعد ساعاتٍ قليلةٍ وجدتْني جماعةٌ من جنسي، عاد ذاك الفتى الذي نظرَ إليّ وابتسم برفقة مجموعة من ستّة أو سبعة أشخاصٍ. جاؤُوا إليّ وأيديهم تغطّي أفواهَهم وأنوفَهم، سألتُ نفسي: ما الأمرُ مع أولئك البشر؟ تكلّمُوا معي بلغةٍ غريبة، سحبُوا القاربَ إلى الرّمل وحملوني بعيداً، انتزعُوا من يديّ قطعةً من السلحفاة التي جلبتُها معي ورموها بعيداً.

بكيتُ مثل طفلٍ، لم يكن بكائي لأنّي تغلّبْتُ على محنتي، ولم يكن بسبب وجودِ إخوةٍ وأخوات، مع أنّ ذلك مؤثرٌ جداً. لكنّي بكيْتُ لأنّ ريتشارد باركر قد تركني دون تكلّف.

ما أشقّ الوداعَ بهذه الطريقة الخرقاء، أنا شخصٌ أؤمنُ بشكل وتناغم الأمر.

يجبُ أن نعطي الأشياء شكلاً ذا معنىً إذا استطعْنا ذلك، على سبيل المثال: أتساءلُ هل تستطيعُ روايةَ قصتي المتشابكة بمئة فصلٍ بالضّبط، لا أقلّ

ولا أكثر؟ سأقولُ لك: إنّ هناك شيئاً أكرهُه بالاسم الذي أُكنّى به، الطريقة التي تتبعُها الأرقامُ إلى الأبد.

من المهمّ في الحياة أن تنهيَ الأشياءَ بالشّكل الملائم، عند ذلك فقط يمكنني أن أدعَك تذهبُ، وإلا فستترك نفسَك مع كلماتٍ كان يجبُ أن تقولَها، ولكنّك لم تفعلْ أبداً، وسيكون قلبُك مثقلاً بالندم، ذلك الوداعُ الأخرقُ لا يزالُ يؤلمُني حتى الآن، تمنّيْتُ كثيراً لو أنّني نظرتُ إليه لآخر مرّة في قارب النّجاة، وبذلك سأغيظه قليلاً، وبالتّالي سأظلُّ بذاكرته، كم تمنّيْتُ أن أقولَ له، نعم أنا أعرف ولكن مع ذلك كنت أودّ أن أقول له: لقد انتهى كلُّ شيء، لقد نجوْنا، أتصدّق هذا؟! أدينُ لك بالشكر الكثير الذي لا أستطيع التعبيرَ عنه، لم أكنْ لأستطيعُ القيامَ بذلك من دونك، رغبتُ أن أقولَها بشكلٍ رسمي: ريتشارد باركر، شكراً، شكراً لإنقاذك حياتي.

والآن اذهبْ حيث يجب أن تذهبَ، لقد عرفتَ طوال حياتك الحريّةَ المقيّدةَ بحديقة الحيوان، والآن ستتعرّفُ على تقييدِ الحريّة بالغابة، أتمنى لك كلّ الخير مع حريتِك، وانتبهْ من البشر، الإنسانُ ليسَ صديقَك، ولكن ما أرجوه هو أن تتذكّرني كصديقٍ لك، أنا لن أنساك أبداً، وهذا شيءٌ مؤكّدٌ، ستكونُ دائماً معي وبقلبي. ما تلك الهمْهَمْة؟ آه، إنّه قاربُنا، قد لمس الرمالَ، الوداعُ ريتشارد باركر، الوداعُ، ليكن الله معك.

أخذني الناسُ الذين عثرُوا عليّ إلى قريتهم، وهناك قامتْ بعضُ النّسوة بمساعدتي في الاستحمام، وقد فركوا جلدي بقوّةٍ، وتساءَلْتُ إذا ما كانوا قد لاحظُوا أنّني بالأصل أسمرُ، ولستُ ولداً متسخاً ببشرة بيضاء.

حاولتُ أن أشرحَ لهنّ، فهزَزْن رؤوسَهنَّ وابتسمْن، ولكنهن استمرّين بفرك جلدي وكأنّه سطحُ سفينة. حتى إنّني اعتقدتُ أنهنّ سيسلخْنَ جلدي حيّاً، لكنهنّ بدلاً من ذلك قدّمْن لي الطعام اللذيذ، وعندما بدأتُ بتناولِ الطعامَ لم أعد أستطيعُ التوقف، اعتقدتُ أنّه لا يمكنني التوقفَ عن الإحساس بالجوع.

في اليوم التالي جاءتْ سيارةُ الشرطة، وأخذوني إلى المستشفى، وهكذا انتهتْ حكايتي.

غمرني أولئك الذين أنقذوني بكرمهم، قدّمَ لي الفقراءُ منهم ملابسَ وطعاماً، اعتنى بي الأطباءُ والممرضاتُ كما لو كنتُ طفلاً صغيراً، فتحَ لي الموظفون المكسيكيون والكنديّون الأبوابَ على مصراعيها، وذلك من الشاطئ في المكسيك إلى منزل أمّي البديلة، إلى فصول جامعة تورينتو.

وجبَ عليّ أن أمشيَ في رواق واحدٍ طويلٍ وواسع.

أودُّ أن أعلنَ شكري من القلب لأولئك الناس جميعاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الجزء الثالث

بينيتو خواريز انفيرماري،
توماتلان، المكسيك

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الخامس والتسعون

السيّد توموهيرو أوكاموتسو من قسمِ البحريّةِ في وزارة النّقل في اليابان، متقاعدٌ الآن، وقد أخبرني أنّه برفقة زميله المُستجدّ في ذلك الوقت وهو السيّد أتسورو شيبا في لونغ بيتش، في كاليفورنيا الميناء الرئيسيّ للحاويات في غرب أمريكا بالقرب من لوس أنجلوس، لما كانا في زيارة عمل، نُقلَ إليهما أنّ الناجي الوحيدَ من تسيم تسوم التي اختفتْ دون أثرٍ في المياه الدّولية للمحيط الهادي قبل عدّة شهور، قد نزل قربَ مدينةٍ صغيرةٍ على ساحل المكسيك، تدعى توماتلان، تلقّيا التعليماتِ من القسم التابعِ لهما للذهابِ والتواصلِ مع النّاجي، للنظر فيما إذا كان بإمكانه إلقاء الضوء على اختفاء السّفينة.

قاما بشراء خريطةَ المكسيك، وبحثا فيها عن موقع تومولان. لسوء حظهما فإنّ ثنيَة من الخريطة غيّرت باجا كاليفورنيا إلى مدينةٍ ساحليّةٍ صغيرةٍ تسمى تومولان، ومكتوبة بحروف صغيرة. كان السيّد أوكاموتو متأكداً أنّه قرأَ اسمَ توماتلان، وأنّها تقع على مسافة أقلّ من النصف نحو باجا كاليفورنيا، فقد قرّرَ الذهابَ إليها بالسيارة معتقداً أنّها أسرعُ طريقةٍ للوصول.

انطلقا بسيارتهما المستأجرة، وعندما وصلا توماتان على مسافة ثمانمئة كيلو متر جنوبَ لونغ بيتش، وعرفا أنّها ليست توماتلان، قرّرَ السيّد أوكاموتو أن يتابعا طريقَهما إلى سانتاروزاليا على بعد مئتي كيلو متر جنوباً، ويلحقا

بالعبّارة التي ستنقلُهما عبر خليج كاليفورنيا إلى غوايماي، كانت العبّارةُ بطيئةً، وقد وصلتْ متأخرةً، وكان عليهما قطعُ مسافةِ ألف وثلاثمئة كيلو متر إضافية.

تعطّلتِ السيارةُ والميكانيكيّ الذي قام بإصلاحها فكّ خلسةً قطعاً من المُحرّك، ووضعَ مكانها قطعاً مستعملة، لأنَ تبديلَها سيكلّفُهما بالإضافة لأجرة السّيارة التي دفعاها للشركة، ونتج عن ذلك تعطل السيارة مرةً أخرى في طريق العودة. والميكانيكيُّ الثاني جعلهُما يدفعان تكلفةً أكثر.

اعترفَ لي السيّد أوكاموتو بأنّهما مرهقان جداً عندما وصلا بينيتو خوارير أنفير ماري في توماتلان، التي ليست في باجا كاليفورنيا ولكنها تبعدُ مئةَ كيلو متر جنوبيّ بويرتو فالارتا في مقاطعة جاليسكو. على نفس المسافة من مدينة مكسيكو، سافرا دون توقّفٍ لمدّة إحدى وأربعين ساعة. (لقد بذلنا جهداً كبيراً) كتبَ السيّد أوكاموتو.

تحدّثَ السيّد أوكتموتو والسيّد شيبا إلى بيسين موليتور باتيل بالإنكليزية ولمدةٍ تقاربُ الثلاثَ ساعاتٍ، وسجّلا المحادثةَ. تبع ذلك مقاطعُ من النصوص الصّوتيّة، أشكرُ السيّد أوكاموتو لتقديمه لي نسخةً من شريط التسجيل الصوتي، ونسخةً من التقرير النهائي، وللإيضاح فقد كنت أشير للمتحدث عندما لا يكون واضحاً، طُبعت مقاطعُ منه بالحروف المحكيّة في اليابان، وترجمتها لاحقاً.

الفصل السادس والتسعون

- مرحباً سيد باتيل. أنا توموهيرو أوكاموتو من قسم الملاحة في وزارة النقل اليابانية، وهذا مساعدي أوتورو شيبا، ولقد جئنا لرؤيتِك لتحدّثَنا عن غرق السفينة تسيم تسوم التي كنتَ مسافراً عليها، هل يمكنُ أن نتحدثَ معك الآن؟

- نعم، طبعاً.

- شكراً لك، هذا لطفٌ منك.

- الآن آتوروكون، أنت حديثٌ على هذا الشيء، لذلك انتبهْ لتتعلّمَ. (سيد أوكاموتو).

- نعم يا أوكاموتو سان.

- هل آلةُ التسجيل مشغّلة؟

- نعم.

- جيدٌ، آه، أنا متعبٌ جداً، لنسجلَ اليوم التاسع عشر من شباط سنة ١٩٧٨، رقمُ ملفّ القضيّة هو ٢٥٠٦٦٣، يتعلقُ باختفاء سفينة تسيم تسوم.

- هل أنت مرتاحٌ سيّدُ باتيل؟

- نعم، مرتاحٌ.

- شكراً لك، وأنت.

- نحن مرتاحون جداً سيد أوكاموتو.

- هل جئتما كلَّ هذه المسافة من طوكيو؟

- كنّا في لونغ بيتش، كاليفورنيا، جئْنا بالسيارة.

- هل كانت رحلتكُما جيدةً؟

- كانت رائعةً، وقيادةُ السيارة جميلة.

- رحلتي أنا مغايرةٌ تماماً، رحلتي مُرعبةٌ.

- نعم تحدّثْنا إلى الشرطة قبل مجيئِنا إلى هنا، ورأيْنا قاربَ النّجاة.

- أنا جائعٌ قليلاً.

- أترغبُ ببعض البسكويت؟

- آه، نعم.

- تفضّلْ.

- شكراً لك.

- على الرّحب والسّعة، إنّها مُجردُ قطعة بسكويت.

- الآن سيد باتيل، إنّنا نتساءلُ إذا كنت تستطيعُ أن تخبرَني ما حدثَ لك مع كلّ التفصيلاتِ المُمكنةِ، إذا كان ذلك مُمكناً.

- نعم يسعدُني ذلك.

الفصل السابع والتسعون

القصة

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن والتسعون

- السيد أوكاموتو: ممتعةٌ جداً.
- السيّد شيبا: يا لها من قصة! إنّه يعتقد أنّنا حمقى، سيد باتيل سنأخذُ استراحةً قصيرةً وسنعودُ.
- ممتازٌ، أرغبُ بقطعة بسكويتٍ أخرى.
- نعم، طبعاً.
- السيّد شيبا: إنّه لذيذٌ للغاية، لديّ الكثير، ولم يُؤكلُ منها إلا القليل، إنّها هناك تحت غطاء السّرير.
- أعطِه واحدةً أخرى، علينا أن نلاطفه، وسنعودُ بعد دقائقَ.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع والتسعون

- السيّد أوكاموتو: سيّد باتيل، نحنُ لا نصدّقُ قصّتَك.
- «آسف، هذا البسكويتُ لا يتفتّتُ، ومن المفروض أن تتفتّت، يا لَلغرابة! لِمَ لا تتفتّتُ»؟
- إنّها لا تصمدُ.
- ماذا تعني؟
- الموزُ لا يطفو.
- عفواً.
- لقد قلتَ إنّ إنسانَ الغابِ جاءَ سابحاً إلى جزيرة الموز.
- هذا صحيحٌ.
- الموزُ لا يطفو.
- بلى، إنّها تطفو.
- إنّها ثقيلةٌ جداً.
- لا، إنّها ليست ثقيلةً، هاك، لديّ هنا موزتان، فلتجرّب بنفسك.
- السيّد شيبا: من أين جاءتْ؟ ماذا لديه تحت سريره بعد؟
- السيّد أوكاموتو: اللّعنة، لا ذلك ليس صحيحاً.

- يوجد مغسلةٌ هنا.

- جيد.

- أنا أُصرُّ، املأ المغسلةَ بالماء وارمِ موزةً فيها، وسنرى من منّا على حقّ.

- نودُّ أن نتابعَ.

- أنا مصرٌّ.

(صمتٌ).

- السيّد شيبا: ماذا نفعلُ؟

- السيّد أوكاموتو: أشعرُ أنّه سيكونُ يوماً طويلاً آخر.

صوتٌ دفع كَراسٍ للخلفِ، صوتُ ماءٍ من بعيدٍ يتدفّقُ من الصنبور.

- باي باتيل: ما الذي يحدثُ؟ لا أرى شيئاً هنا.

السيّد أوكاموتو: من بعيد، أنا أملأُ الحوضَ.

- هل وضعتَ الموزَ؟

- من بعيد، لا.

- والآن؟

- من بعيد، إنّها في الماء.

- ثمّ ماذا؟

(صمتٌ)

- السيّد شيبا: هل هي طافيةٌ؟

- من بعيد، إنّها تطفو.

- ألم أقلْ لك؟

- السيّد أوكاموتو: نعم، نعم، ولكن تحتاجُ الكثيرَ من الموز لتحملَ إنسانَ الغاب.

- هذا ما حصل، فقد كان في القاربِ ما يقارب الطنَّ من الموزِ، ولا يزالُ ذلك يُشعرني بالغثيان عندما أفكّرُ بكلّ ذلك الموز الذي يطفو بعيداً، وتذهبُ هباءً، بالوقت الذي تُعتَبَرُ ملكي بعد أن قمتُ بقطفها.

- يا للأسف، والآن ماذا عن...

- من فضلك، هل يمكن أن أستعيدَ موزاتي؟

- السيّد شيبا: سأحضرها لك.

صوتُ كرسيّ دُفعَ للخلف.

- من بعيد، انظرْ، إنّها فعلاً تطفو.

- السيّد أوكاموتو: ماذا عن جزيرة الطّحالب التي قلت إنك مررتَ بها؟

- السيّد شيبا: تفضّلْ موزاتك.

- باي باتيل: شكراً لك، نعم؟

- السيد أوكاموتو: أعتذر عن قولي بصراحة، إنّنا لا نقصدُ أن نجرحَ مشاعرَك، ولكنّك لا تتوقّع منا أن نصدّقك، أتظنُّ ذلك؟ أشجارٌ مفترسةٌ؟ طحالبُ آكلةُ سمكٍ، وتنتجُ مياهاً عذبةً؟ قوارضُ مائيّةٌ تسكن الأشجارَ؟ هذه الأشياءُ غيرُ موجودة.

- باي باتيل: فقط لأنّك لم ترَها أبداً.

- السيّد أوكاموتو: صحيحٌ، فنحنُ نؤمنُ بما نراه فقط.

- باي باتيل: هكذا فعل كولومبس. فماذا تفعل إذا كنت في الظلام؟

- السيّد أوكاموتو: جزيرتك النباتية لا وجودَ لها.

- باي باتيل: هكذا تقول الذبابة قبل سقوطها في صائد الذباب.

- السيّد أوكاموتو: لماذا لم يصادفها أحدٌ غيرك؟

- باي باتيل: إنّه محيطٌ كبيرٌ، تقطعهُ السّفنُ النشطةُ، أنا أبحرتُ ببطءٍ وكنتُ أراقب أكثرَ.

- السيّد أوكاموتو: لا يمكنُ لأيّ عالمٍ أن يصدّقَكَ.

- باي باتيل: هولاء سيكونون تماماً مثل الذين نبذوا كوبرنيكوس وداروين. هل انتهى العالمُ من العثور على نباتاتٍ جديدةٍ؟ في حوض الأمازون على سبيل المثال؟

- السيد أوكاموتو: ليست النباتات التي تعاكسُ الطبيعةَ.

- باي باتيل: ماذا تعرفُ عنها؟

- السيّد أوكاموتو: أعرفُ تماماً لأستطيع التمييز بين الممكن والمستحيل.

- السيّد شيبا: لديَّ عمٌّ يعرفُ الكثير عن النباتات، إنّه يعيشُ في بلدةٍ قربَ هيتاغان، وهو أستاذٌ في أشجار البونساي.

- باي باتيل: إنّه ماذا؟

- السيّد شيبا: أستاذٌ في شجرة البونساي، فكما تعلمُ أَنّ أشجارَ البونساي أشجارٌ صغيرةٌ.

- باي باتيل: أنت تعني شجيراتٍ.

- السيّد شيبا: أعني أشجاراً، فالبونساي أشجارٌ صغيرةٌ طولها أقلّ من قدمين، تستطيعُ حملها بين ذراعيك، ويمكن أن تكون معمّرةً، لدي عمّي واحدةٌ منها عمرها يتجاوزُ الثلاثمئة عام.

- باي باتيل: شجرةٌ عمرها ثلاثمئة عامٍ وطولها قدمان وتستطيع حملها بين ذراعيك؟!

- السيّد شيبا: نعم، إنّها حساسة جداً وتحتاجُ الكثيرَ من الانتباه.

- باي باتيل: من سمع عن هذه الأشجار؟ يستحيلُ أن تكون موجودةً.

- السيّد شيبا: أؤكّدُ لك أنّها موجودةٌ، سيّد باتيل إنّه عمي...

- باي باتيل: أنا أصدّق ما أراه.

- السيّد أوكاموتو: لحظة من فضلك، أتسورو مع كلّ الاحترام لعمّكَ الذي يعيش في مدينةٍ بالقربِ ٢٤٦من هيتاغان، نحن لسنا هنا للحديث بفتورٍ عن علم النبات.

- السيّد شيبا: إنّني أحاولُ أن أساعدَ فقط.

- باي باتيل: هل شجرةُ عمّك البونساي تأكل اللحمَ؟

- السيّد شيبا: لا أظنُّ ذلك.

- باي باتيل: هل سبق أن عضّتكَ إحدى أشجار البونساي؟

- السيّد شيبا: لا.

- السيد أوكاموتو: على هذا، فإنّ أشجار عمّك البونساي، لا تقدّمُ لنا المساعدةَ. أين كنّا؟

- باي باتيل: كنّا مع الأشجار الطّويلة، كاملةِ النموّ، المتجمّدةِ بقوّةٍ في الأرض التي كنتُ أحدّثك عنها.

- السيّد أوكاموتو: لنتركها جانباً الآن.

- باي باتيل: يمكن أن يكونَ صعبًا، إذ لم أجرّبْ أبداً قلعَها وحملَها معي.

- السيّد أوكاموتو: أنت رجلٌ مُضحكٌ سيد باتيل، ها ها ها...

- باي باتيل: ها ها ها...

- السيّد شيبا: ذلك مضحكٌ بالفعل.

- السيّد أوكاموتو: استمرّ بالضحك فقط.

السيّد شيبا: ها، ها، ها...

السيّد أوكاموتو: الآن حدثْنا عن النّمر، لسْنا متأكّدين من وجوده كذلك.

- باي باتيل: ماذا تعني؟

- السيّد أوكاموتو: نجدُ صعوبةً في تصديق ذلك.

- باي باتيل: إنّها قصة لا تُصدّقُ.

- السيّد أوكاموتو: بالضبط.

- باي باتيل: لا أعرفُ كيفَ نجوْتُ.

- السيّد أوكاموتو: من الواضح أنّه كان بسبب الإجهاد.

- باي باتيل: أرغبُ بقطعة بسكويتٍ أخرى.

- السيّد أوكاموتو: لم يعد لديّ بسكويت.

- بي باتيل: ماذا بتلك الحقيبة؟

- السيّد أوكاموتو: لا شيءَ.

- باي باتيل: هل لي أن أرى ذلك؟

- السيّد شيبا: فيها طعامُ غدائنا.

- السيّد أوكاموتو: لنعدْ إلى موضوع النّمر.

- باي باتيل: عملٌ رائع، فطائرُ لذيذةٌ.

- السيّد أوكاموتو: نعم، إنّها لذيذةٌ.

- السيّد شيبا: أنا جائعٌ.

- السيّد أوكاموتو: لم يجدوا له أيَّ أثرٍ، من الصعب تصديقُ هذا، أليس كذلك؟ لا توجدُ نمورٌ في الأمريكيتين. ألا تعتقد أنّه لو كان هناك نمرٌ متوحّشٌ فإنّ الشرطة قد سمعت عنه الآن؟

- باي باتيل: يجبُ أن أحكي لك عن النمر الأسود الذي فرّ من حديقة الحيوان في زيوريخ في منتصفِ الشتاء.

- السيّد أوكاموتو: سيد باتيل، إنّ النمر حيوانٌ خطرٌ جداً، كيف عشت في قارب نجاةٍ بوجود نمرٍ؟ إنّها...

- باي باتيل: ما لا تعرفُه أنّنا - نحنُ البشر - سلالةٌ غريبةٌ ومحرّمةٌ على الحيوانات المتوحشة، إنّنا نسبّبُ لها الخوف، إنّها تتجنّبنا قدر الإمكان،

أخذت منا قروناً حتى نخمد الخوف في قلوب بعض الحيوانات المتكيّفة وما يُدعى بالتّدجين، ولكن معظمُ الحيوانات لا تستطيعُ التغلّبَ على خوفِها، وأشكّ أن تستطيعَ ذلك، فعندما تهاجمُنا الحيواناتُ المتوحّشةُ، فذلك بسبب اليأسِ المحض، لأنّها تقاتلُ عندما تشعرُ، إنّها تملك وسيلةً أخرى للهروب، إنّه آخرُ مرجعٍ.

- السيّد أوكاموتو: في قارب نجاةٍ؟ هيّا سيد باتيل، إنّه شيءٌ يصعبُ جداً تصديقُه.

- باي باتيل: يصعبُ تصديقه؟ ما الذي تعرفه يصعبُ تصديقه؟ أتريدُ شيئاً يصعبُ تصديقه؟ إليك ما هو صعبُ التّصديق، ولقد بقي سراً بين حرّاس حدائق الحيوان الهنديّة، وذلك عام ١٩٧١ عندما هربتْ دبّةٌ قطبيّةٌ من حديقة حيوان كالكوتا، لم يسمعْ عنها أحدٌ أبداً، لا من قبل الشرطة ولا من قبل الصّيادين ولا حتى الصّيّادين غير الشّرعيين، ولا أيّ شخصٍ آخر.

كنّا نشكُّ أنّها تعيشُ بحرّيّة على ضفاف نهرِ هوغلي. كونوا حذرين يا سادة إذا ذهبتم إلى كالكوتا: إذا تناولتما السوشي حالَ وصولكما، فإنّكما ستدفعان سعراً غالياً.

لو أخذنا مدينة طوكيو وقلبناها رأساً على عقب وهززناها، سوف تُذهلون من عدد الحيوانات التي ستسقط منها مثل حيوانات الغرير[١] والذئاب وأفاعي البوا العاصرة وتنانين الكومودو والتماسيح والنعامات وقرود البابون

---

(١) **الغرير:** جنس حيوانات لاحمة تنتمي إلى فصيلة ابن عرس، له غُدَد شَرجية يطلق منها رائحة كريهة كلّما استشعر أذىً أو انزعاجاً. **[المترجم]** .

وخنازير الماء والخنازير البريّة والفهود وخراف البحر والمجترّات[1] التي لا يُعرفُ عددُها.

لا شكّ عندي أنّ الزرافاتِ الوحشيّةَ وأفراسَ النهر الوحشيّة، تعيشُ في طوكيو منذ أجيالٍ دون أن يراها أحدٌ.

عليك أن تقارنَ الأشياءَ التي تعلقُ في نعلِ حذائِك عندما تمشي في الشّارع بما تراه ملقىً في قاع الأقفاص في حديقة حيوان طوكيو، ثمّ ابحثْ وستتوقّعُ أن تجدَ نمراً في غاباتِ المكسيك! إنّه شيءٌ مضحكٌ، مضحكٌ تماماً، ها ها ها...

- السيّد أوكاموتو: من المُمكن أن يكون هناك زرافاتٌ وحشيّةٌ وأفراسُ نهرٍ وحشيّة تعيشُ في طوكيو، ودبٌّ قطبيٌّ في بحريّة كالكوتا. ولكنّنا بالتّحديد لا نصدّقُ وجودَ نمرٍ يعيشُ معك في قارب نجاة.

- باي باتيل: إنّها عجرفةُ طبقة سكّان المدنِ الكبرى، إنّكَ تُقرُّ أنّ عاصمةَ بلدك تحتوي على كلّ حيواناتِ الجنّة، ولكنّك تنكرُ قريتي الصغيرةَ مُجرّد وجود نمرٍ بنغاليّ واحدٍ.

- السيّد أوكاموتو: سيد باتيل، أرجوك اهدأْ.

- باي باتيل: إذا كنتَ تتردّدُ بمجرّد التصديق، فما الذي تعيش لأجله؟ أليس الحبّ القويّ هو الإيمان؟

- السيّد أوكاموتو: سيد باتيل...

---

(١) المجترّات: تنتمي إلى فصيلة الثدييات من شعبة الحبليات، تأكل طعامها عن طريق الاجترار. [المترجم].

- باي باتيل: لا تتنمّر عليّ بأدبك، الحبّ شيءٌ يصعبُ تصديقُه، اسأل المحبّين، الحبّ يصعبُ تصديقه، اسألِ العلماء، الله صعبُ التّصديق، اسأل المؤمنين، ما مشكلتك مع «يصعبُ تصديقه؟»

- السيّد أوكاموتو: لنكن عقلانين فقط.

- باي باتيل: وأنا كذلك، استخدمْتُ عقلي بكلّ ثانية، العقلُ ممتازٌ للحصول على الطعام والملبس والمسكن. إنّ العقلَ هو أفضلُ أداةٍ، لا شيءَ يفوقُ العقلَ في إبعاد النّمور. ولكن إذا كنت عقلانيّاً بشكلٍ مفرطٍ، فإنّك تخاطر بالتخلص من الكون مع ماء الاستحمام.

- السيّد أوكاموتو: اهدأ ياسيد باتيل، اهدأ.

- السيّد شيبا: ماء الاستحمام؟ ولِمَ هو يتحدّث عن ماء الاستحمام؟

- باي باتيل: كيف يمكن أن أهدأَ؟ لو أنّك رأيتَ ريتشارد باركر!

- السيّد أوكاموتو: نعم، نعم.

- باي باتيل: إنّه حيوانٌ ضخمٌ ذو أسنانٍ كبيرةٍ ومخالبه كالسيوف معقوفةٌ.

- السيّد شيبا: ما هي السّيوفُ المعقوفة.

- السيّد أوكاموتو: شيبا، بدلاً من أن تسألَ أسئلةً سخيفةً، لِمَ لا تكون ذا فائدة؟ هذا الولدُ مثل البندقِ الصّلبِ الذي يصعبُ كسره، افعل شيئاً.

- السيّد شيبا: انظر، قطعة شوكولاته!

باي باتيل: روعة.

(صمتٌ طويلٌ)

- السيّد أوكاموتو: وكأنّه يسرقُ كلَّ طعام غدائنا، سيطلبُ منّا في الحالِ طبقاً من التمبورا.

(صمتٌ طويلٌ)

- السيّد أوكاموتو: إنّنا نفقدُ الهدفَ من هذا التّحقيق، فنحن هنا بسبب غرق سفينة الشّحن، وأنت النّاجي الوحيدُ، وقد كنتَ مجرّدَ مسافرٍ. إنّك لا تحملُ أيّة مسؤوليّة عمّا حدث. نحن...

- بيباتيل: شوكولاتة لذيذة.

- السيّد أوكاموتو: ليس هدفنا توجيهَ تهم جنائيّةٍ، فأنت ضحيّةٌ بريئةٌ لمأساة وقعت في البحر. إنّنا نحاولُ أن نحدّدَ فقط لماذا وكيف غرقتْ تسيم تسوم، اعتقدْنا أنّه بإمكانِكَ مساعدتنا يا سيّد باتيل.

(صمتٌ طويلٌ)

- السيّد ازكاموتو: سيد باتيل!

(صمتٌ طويلٌ)

- باي باتيل: النّمورُ موجودةٌ وقاربُ النّجاة موجودٌ والمحيطاتُ موجودةٌ، ولأنّ الثلاثةَ لم تجتمعْ معاً أبداً بناءً على خبرتكَ الضّحلة والمحدودة، فإنّك سترفض التصديق بأنّها موجودةٌ. ومع ذلك فإنّ الحقيقةَ الواضحة هي أنّ تسيم تسوم قد جمعتهم معاً وغرقَتْ.

(صمتٌ)

- السيّد أوكاموتو: ماذا عن ذلك الرّجل الفرنسيّ؟

- باي باتيل: ماذا عنه؟

- السيّد أوكاموتو: شخصان لا يبصران في قارب نجاة منفصلان يلتقيان في المحيط، تلك المصادفةُ تبدو بعيدةَ الاحتمالِ.

- باي باتيل: إنّها مُحتملةٌ بالفعل.

- السيّد أوكاموتو: إننا نجدها بعيدة الاحتمال.

- باي باتيل: وكذلك الفوز باليانصيب، ومع ذلك هناك شخصٌ يفوز.

- السيّد أوكاموتو: إنّنا نجدها بعيدة الاحتمال.

- باي باتيل: وأنا كذلك.

- السيّد أوكاموتو: كنتُ أعلمُ أنّه يجبُ أن نأخذ استراحةً اليوم، هل كنتَ تتحدّث عن الطّعام؟

- باي باتيل: نعم.

- السيّد شيبا: إنّه يعرفُ الكثير عن الطعام.

- باي باتيل: إذا استطنا أن نسميه طعاماً.

- السيّد أوكاموتو: كان الطبّاخُ على تسيم تسوم فرنسيّاً.

- باي باتيل: هناك فرنسيون في كلّ أنحاء العالم.

- السيّد أوكاموتو: ربما الفرنسيّ الذي قابلته كان هو الطبّاخ نفسه.

- باي باتيل: ربّما، كيف لي أن أعرفَ ذلك؟ فأنا لم أره مطلقاً، أُصبْتُ بالعمى مدّةً ثمّ أكله ريتشارد باركر حيّاً.

- السيّد أوكاموتو: كم ذلك مريحاً.

- باي باتيل: لم يكن مريحاً أبداً، بل مرعباً، ثمّ غرقَ.

بالمناسبة، كيف تفسّرُ وجودَ عظام السّراقط في القارب؟

- السيّد أوكاموتو: نعم، عظامُ حيوان صغير كانت...

- باي باتيل: أكثر من حيوانٍ واحد.

- السيّد أوكاموتو: بعض الحيوانات الصغيرة وُجدت في القارب، لا بدّ أنّها جاءت من السفينة.

- باي باتيل: لم يكن لدينا سراقطُ في حديقة الحيوان.

- السيّد أوكاموتو: لا نملكُ دليلاً على أنّها عظامُ سراقط.

- السيّد شيبا: ربما تكون عظام موزٍ ها ها هاها...

- السيّد أوكاموتو: اخرسْ يا أتوسورو.

- السيّد شيبا: أعتذر، إنّه الإرهاق.

- السيّد أوكاموتو: إنّك تسبّبُ السّمعةَ السّيئة عن خدماتنا.

- السيّد شيبا: آسف جداً يا أوكاموتو سان.

السيّد أوكاموتو: يمكن أن تكونَ عظامَ حيوانٍ صغيرٍ.

- باي باتيل: إنّها عظامُ سراقط.

السيّد أوكاموتو: يمكن أن تكونَ عظامَ نُموسٍ.

- باي باتيل: لا تُباعُ النُّموسُ في حدائق الحيوان، لقد بقيتْ في الهند.

- السيّد أوكاموتو: يمكن أن تكونّ آفةَ السّفن مثل الجرذان، النُّموس منتشرةٌ في الهند.

- باي باتيل: النُّموس آفة السفن؟

السيّد أوكاموتو: لمَ لا؟

باي باتيل: تلك التي سبحَ العديدُ منها في المحيط العاصف إلى قارب النّجاة؟ يصعبُ تصديق ذلك، ألم تقل أنتَ هذا؟

- السيّد أوكاموتو: أقلُّ صعوبةً من بعض الأشياء التي سمعناها في الساعتين الماضيتين، ربما تكون النُّموسُ موجودةً في القارب سابقاً مثل الجرذان التي ذكرتها. ببساطة إنّ عدد الحيوانات هناك في قارب النّجاة مذهلٌ.

- السيّد أوكاموتو: مذهلٌ حقاً.

- باي باتيل: غابةٌ حقيقيّة.

- السيّد أوكاموتو: نعم.

- باي باتيل: تلك العظامُ هي عظامُ سراقط. دع خبيراً يفحصُها.

- السيّد أوكاموتو: لم يبقَ الكثيرُ منها ورؤوسها مفقودةٌ.

- باي باتيل: استخدمتها طُعماً.

- السيّد أوكاموتو: لا أظنُّ أنّ الخبيرَ سيكونُ بمقدوره تحديدُ إذا ما كانتْ عظامَ سراقط أو نُموس.

- باي باتيل: ابحث بنفسك عن عالم حيوان قانونيّ.

- السيّد أوكاموتو: حسناً سيد باتيل، أنت تفوز.

لا يمكننا تفسير وجودِ عظام السراقط، إذا كانت فعلاً عظام سراقط، ولكن ذاك ليس موضع اهتمامنا، إنّنا هنا لأنّ سفينةَ شحنِ يابانية تملكها شركة أويكا للنّقل البحري، وتحملُ علمَ بنما، قد غرقت في المحيط الهادئ.

- باي باتيل: شيءٌ لن أنساه مطلقاً، ولو لدقيقة واحدة، لقد فقدْتُ عائلتي بأكملها.

- سيد أوكاموتو: نأسفُ لذلك.

- باي باتيل: ليس بمقدارِ أسفي.

(صمتٌ طويلٌ)

- السيّد بيشا: ماذا نفعل الآن؟

- السيّد أوكاموتو: لا أعرف.

صمتٌ طويلٌ

باي باتيل: أترغبون ببعض البسكويت؟

- السيّد أوكاموتو: نعم، هذا لطفٌ منك، شكراً لك.

- السيّد شيبا: شكراً لك.

(صمتٌ طويلٌ)

- السيّد أوكاموتو: إنّه يومٌ جميلٌ.

باي باتيل: نعم، يومٌ مشمسٌ.

(صمتٌ طويلٌ)

- باي باتيل: هل هذه زيارتك الأولى للمكسيك؟

- السيّد أوكاموتو: نعم إنّها الأولى.

- السيّد شيبا: وأنا كذلك.

(صمتٌ طويلٌ)

- باي باتيل: إذنْ لم تحبّ حكايتي؟

- السيّد أوكاموتو: لا، لقد أحببناها كثيراً، أليس كذلك يا أتورو؟ سنتذكرها لمدّة طويلة جداً.

- السيّد شيبا: سنفعلُ ذلك.

(صمت)

السيّد أوكاموتو: بالنسبة للتّحقيق الذي نجريه، نودّ أن نعرفَ ما حدثَ فعلاً.

- باي باتيل: ما حدث فعلاً؟

- السيّد أوكاموتو: نعم.

- باي باتيل: إذا أنتم تريدون حكايةً أخرى.

- السيّد أوكاموتو: آآآه، لا نريد أن نعرفَ ما حدثَ بالفعل.

- باي باتيل: أليس الحديث عن شيءٍ ما دائماً، يصبحُ قصّةً؟

- السيّد أوكاموتو: آآه، ربّما باللّغة الإنكليزيّة، باليابانيّة فإنّ القصّة يجبُ أن تحتوي على عنصر الابتكار، لا نريد أيّ ابتكارٍ، نريد الحقائق المباشرةَ، كما تقولون بالإنكليزيّة.

- باي باتيل: أليس التّحدّث عن شيءٍ ما باستخدام الكلمات الإنكليزية أو اليابانيّة فيه شيئاً من الابتكار؟ أوليس النظر إلى العالم فقط هو شيءٌ من الابتكار؟

- السيّد أوكاموتو: أووه...

- باي باتيل: العالم ليس ما نشاهده كما هو، إنّه كيف نفهمه، أليس كذلك؟ وفي فهمنا لشيءٍ ما، فإنّنا نجلبُ شيئاً إليه، أليس كذلك؟ ألا يجعل ذلك من الحياة قصّةً؟

- السيّد أوكاموتو: ها ها ها، أنت ذكيٌّ جدّاً سيد باتيل.

- السيّد شيبا: ما الذي يقوله؟

السيّد أوكاموتو: لا فكرةَ لديَّ.

- باي باتيل: هل تريدُ كلماتٍ تعكسُ الحقيقةَ؟

- السيّد أوكاموتو: نعم.

- باي باتيل: كلماتٍ لا تناقض الحقيقةَ.

- السيّد أوكاموتو: بالضّبط.

- باي باتيل: ولكنّ النّمورَ لا تناقض الحقيقةَ.

السيّد أوكاموتو: أرجوك لا نريدُ أي نمورٍ.

- باي باتيل: أنا أعرف ما تريده، تريدُ حكايةً لا تفاجئك، حكايةً تؤكّدُ ما تعرفه، ولا تجعلك ترى أكثرَ أو أبعد أو بشكلٍ مختلفٍ. أنت تريدُ حكايةً مسطّحةً، حكايةً جامدةً، تريدُ حقيقةً جافةً وفجّةً.

- السيّد باتيل: نعم.

- باي باتيل: حكايةً دون حيوانات.

- السيّد أوكاموتو: نعم.

- باي باتيل: دون نمور أو قرود؟

- السيّد أوكاموتو: هذا صحيح.

- باي باتيل: دون ضباعٍ أو حمرٍ وحشيّةٍ؟

- السيّدأوكاموتو: من دون كلّ ذلك.

- باي باتيل: دون سراقط أو نموس؟

- السيّد أوكاموتو: لا نريد أيًّا منها.

- باي باتيل: دون زرافاتٍ أو أفراس نهرٍ؟

- السيّد أوكاموتو: سوف نسدُّ آذاننا بأصابعنا.

- باي باتيل: إذن أنا على حقٍّ، تريدُ قصّةً بدون حيواناتٍ.

- السيّد أوكاموتو: نريدُ قصّةً دون حيوانات تفسّرُ غرقَ تسيم تسوم.

- باي باتيل: أعطني دقيقةً واحدةً من فضلك.

- السيّد أوكاموتو: طبعاً. أعتقدُ أنّنا أخيراً وصلنا إلى غرضنا، لنأمل أن يتحدّثَ بما هو معقولٌ.

(صمتٌ طويلٌ)

- باي باتيل: إليكم قصّةً أخرى.

- السيّد أوكاموتو: جيد.

- باي باتيل: غرقتِ السفينةُ، وقد أحدثتْ صوتاً مثلَ صوتِ تجشُّؤ عملاقٍ معدنيّ، ظهرتِ الفقاعات على سطحِ الماء، ثمّ اختفتْ، وجدْتُ نفسي أضربُ الماء في المحيط الهادئ، سبحتُ حتى وصلتُ إلى قارب النّجاة.

لقد كانت أقسى سباحةٍ في حياتي، عجزتُ عن الحركة، وبلعتُ الكثير من ماء البحر، شعرتُ بالبرد الشّديد، ومع الوقت صرتُ أفقد قوتي، لم أكن لأنجوَ لو لم يرمِ ليَ الطّباخُ سترةَ النّجاة ويسحبني. تسلّقتُ القارب واهتزّتُ.

نجا أربعةٌ منّا، وقد حملت أمّي معها الموزَ إلى القارب، وكان الطبّاخُ والبحّار كلاهما على القارب.

أكلَ الذبابَ، أعني الطبّاخَ. لم يمضِ علينا يومٌ واحدٌ على القارب، لدينا طعامٌ وماءٌ تكفي لأسابيعَ، ومعنا معدّاتُ صيدِ السّمكِ، وأجهزةُ تقطير الماء.

لم يكن لدينا أيُّ شكٍّ من أنّه سيتمُّ إنقاذنا بسرعةٍ، ومع ذلك فهو يمسكُ بالذبابِ ويأكله بنهمٍ، فقد كان بحالةٍ مرعبةٍ من الجوعِ، وصار يدعونا بالحمقى والأغبياء لأننا لم ننضمَّ إلى تلك الوليمة.

شعرنا بالإهانة والاشمئزاز ولكننا لم نُظهرْ ذلك، فقد كنّا مهذّبين جدّاً معه، رغم أنّه غريبٌ ودخيلٌ. أمّا أمي فقد ابتسمتْ وهزت رأسها ورفعتْ يدها بالرفض، فهو رجلٌ مقزّزٌ وفمه يشبه كومةَ فضلاتٍ، ولم يكتفِ بالذباب بل تناول الجرذان التي كان يقطّعُها ويجفّفها بالشّمس، ولكي أكونَ صادقاً

فقد تناولتُ قطعة صغيرةً بالخفاء عن أمي، فقد كنتُ جائعاً جداً. ذلك الطبّاخ كان بهيميّاً سيِّئ الطّباع ومنافقاً.

أمّا البحّارُ فهو شابٌّ بالعشرينيات من عمره ويكبرني سنّاً، ولكنّه قفزَ من السفينة فكسرَ رجله فجعلَ منه الألمَ طفلاً صغيراً، في الحقيقة كان جميل الوجه وذا بشرةٍ صافيةٍ، إذ لم يكنْ لديه شعرٌ على وجهه أبداً. كان أنيقاً جداً بوجهه الواسع وأنفه المسطّح وعينيه الضيّقتين المبطّنتين.

بدا لي وكأنّه إمبراطورٌ صينيٌّ، لم يكن يتحدّث الإنكليزية حتى بأبسط الألفاظ من مثلِ: مرحباً او نعم أو لا. لغتهُ الصّينيّة فقط، ولهذا لم نكن نفهم أيَّ كلمة ممّا يقول، وهذا ما جعله يشعر بالوحدة، وأذكر أنّ أمّي وضعت رأسه في حجرها عندما بكى، وأنا قمتُ بإمساكِ يده، لقد أحزنني جداً، فقد تألّمَ كثيراً ولم نستطع عملَ شيءٍ له.

كُسرَ فخذه كسراً سيّئاً، وقد خرجت من لحمه عظمةٌ، وكم صرخ من شدة الألمِ، حاولنا مساعدته على قدر استطاعتنا، وحرصنا على أن يأكلَ ويشرب. التهبتْ رجله رغم أنّنا واظبنا على إزالة القيح منها يوميّاً، لكنّ وضع رجله ساءَ أكثر، وانتفخت حتى صارت سوداء.

سيطرَ علينا الطبّاخ المتوحّشُ، وهمس لنا بأَنَّ السواد سينتشر بكاملِ رجله ولن ينجوَ إلا إذا بُترتْ رجلُه، وبما أنّ عظمَ الفخذِ مكسورٌ فلن نحتاجَ إلى قطع اللّحم ووضع عُصابةٍ عليه، لا أزالُ أسمعُ همساتِه الشيطانيّة، وقد قالَ إنّه سيقومُ بعملِ ذلك لإنقاذ البحّار، وما علينا سوى تثبيتِه.

المخدّرُ هو المفاجأة الوحيدةُ، جلسنا أنا وأمي فوقه وثبّتنا ذراعيه، ومكث الطبّاخُ على رجله السّليمة، أخذ البحّار يتلوّى ويصرخُ ويصعدُ ويهبطُ. وبسرعةٍ

شحذَ الطبّاخُ السكّينَ جيداً، وقام بفصل الرّجلِ التي سقطت على الأرض، أمّا أنا وأمي فقمنا بسرعةٍ وابتعدنا عنه، فقد اعتقدنا أنّه إذا انتهى التقييدُ ستنتهي مقاومته، وسيستلقي بهدوءٍ، لكنّه لم يفعلْ ذلك، بل وقفَ من فوره، وصارتْ صرخاته أعلى وأعلى وأكثرَ إبهاماً، هو يصرخُ ونحن نحدّقُ مذهولين، وقد ملأ الدّم المكانَ، والأسوأُ من ذلك، هو المقارنةُ بين نشاطِه المحموم، وسكون رجله على أرضِ القاربِ. استمرّ ينظرُ إلى رجله المبتورة وكأنّه يناشدُها العودةَ إلى مكانها. أخيراً سقطَ على ظهره، أسرعْنا إليه، قام الطبّاخ بلفّ الجلد فوق العظمة، ولففنا قطعةَ قماشٍ حولها وربطناها بحبلٍ فوق الجرح لنوقف النّزيف. مددناه على فراشٍ من سُتَرِ النّجاة، وحافظنا عليه دافئاً.

ظننْتُ أنّ ما من فائدةٍ ترجى مما فعلناه، فلم أصدّق أنّ مخلوقاً بشريّاً يمكن أن ينجوَ من كلّ هذا الألمِ الشديد وهذه المجزرة المرعبة. ظلَّ يئنُّ طيلةَ المساءِ واللّيل، ويتنفّس تنفّساً متقطّعاً وخشناً، أصابته نوباتٌ من الهذيان المتقطّع، توقّعتُ موتَه في اللّيل.

تشبّثَ بالحياة، فقد بزغ الفجرُ وهو ما يزالُ حيّاً، وقد دخلَ في نوباتٍ متقطّعةٍ من فقدان الوعي.

أعطته أمّي ماءً، نظرْتُ إلى الرّجلِ المبتورةِ فأُصبْتُ بضيقٍ في التنفّس، أثناءَ الفوضى، رُميَتْ جانباً ونُسيَتْ في الظلمة، تسرّبَ منها السّائلُ وبدت نحيلةً. أخذتُ سترة نجاة، استخدمتها كقفّازٍ، التقطْتُ الرّجلَ المبتورةَ.

- ماذا تفعلُ؟ قال الطاهي.

- سأرميها من القاربِ، أجبته.

- لا تكنْ أحمقَ، سنستخدمها كطُعم وتلك هي الغاية كلّها.

بدا وكأنّه ندمَ على كلماته الأخيرة حتى عندما كانت تخرج من فمه، لأنّ صوتَه تلاشى بسرعةٍ، ثمّ استدارَ مبتعداً.

- الغاية كلّها؟ سألتْ أمّي، ماذا تعني بذلك؟

تظاهرَ بأنّه منشغلٌ.

علا صوتُ أمّي: هل تقولُ أنّنا قطعْنا رجلَ الولد ليس لإنقاذ حياته، بل للحصول على طُعمٍ للسّمك؟

- (صمتٌ موحشٌ)

- أجبني، صرختْ أمّي.

رفع بصره وحملق بها، مثلَ حيوانٍ محاصرٍ، وصرخَ: إنّ مؤونتَنا بدأتْ تنفَدُ، نحتاج إلى المزيد من الطّعامِ وإلّا فسنموتُ.

حملقتْ به والدتي وقالتْ: إنّ مؤونتَنا لم تنفد بعد، فلدينا الكثيرُ من الطّعام والماء، وصناديقُ كثيرةٌ من البسكويت لتسعفنا حتى يتمَّ إنقاذنا.

أمسكت حاويةَ البلاستيك التي تحتوي قطعَ البسكويت، لم تتوقع أنّها خفيفةٌ بهذا الشكل، إذ خشخش فتاتُ البسكويت داخلها.

- ماذا! فتحَتِ الحاويةَ، أين ذهبَ البسكويت؟ لقد كانت ممتلئةً بالليلة الفائتة.

أشاح الطّاهي بنظره كما فعلتُ أنا.

- أنت أيّها الوحشُ الأنانيُّ، صرخت أمّي، إنّك السببُ الوحيد لنقص طعامنا، فأنتَ تسعى لأنْ تُتْخِمَ نفسكَ بها.

- وهو تناول منها أيضاً، أشارَ بيده نحوي.

التفتت أمّي نحوي، لقد هبطَ قلبُها.

- هل هذا صحيحٌ يا بيسين؟

- أمّي: لقد كان هذا في منتصف الليل وقد كنتُ جائعاً جداً فلم أستطع النّومَ، ولقد أعطاني قطعةً أكلتُها دون تفكير.

- واحدة فقط؟ قال الطّاهي ساخراً.

جاء دورُ أمّي كي تُشيحَ نظرها، بدا أنّ الغضبَ قد فارقها، وبدون أن تنطقَ بأيّة كلمة، عادت لتعتنيَ بالبحّار.

تمنّيْتُ لو غضبَتْ أمّي منّي، تمنيتُ لو عاقبتني، وإنّها لم تصمت، رتّبتْ بعضَ ستر النّجاة لراحة البحّار ولكي أكون بجانبها. همسْتُ لها: آسفٌ أمّي، اغرورقت عيناي بالدّموع، وعندما رفعْتُ نظري نحوها رأيْتُ عينيها تدمعان مثل عينيّ، لكنّها لم تنظرْ إليّ، إذ حدّقت بالهواء وكأنّها تتذكّرُ شيئاً ما. نحنُ وحدنا يا بيسين، وحدنا تماماً، قالتْ هذا بصوتٍ حطّمَ كلّ أملٍ بي، فلم أشعر بالوحدة في حياتي كما شعرْتُ بها الآن، إنّنا في قارب نجاة منذ أسبوعين، وقد بدأت الآثارُ السلبيّةُ تظهرُ علينا، ولهذا صار من الصّعب تصديقُ أنّ والدي ورافي قد نجَيَا.

عندما استدرنا، وجدنا الطّاهي ممسكاً برجلِ البحّار من كاحلها فوق الماء ليغرقها فيه، وضعتْ أمّي يديها على عينيه، لقد ماتَ بكلّ هدوءٍ، تلاشت الحياة من جسده كما تلاشى السّائلُ من رجله، لقد قتله الطّاهي تماماً. وحوّلَ رجلَه إلى طعمٍ للسّمك. اهترأ لحمه لدرجة أنّه صعُبَ علينا حملُه إلى خطّاف سنّارة الصّيد.

انحلَّ جسده سريعاً بالماء، ولم يترك الوحش منه شيئاً، قطّع كلّ شيء فيه حتى جلدُه وكلّ إنشٍ من أمعائه وجهازه التناسليّ، وعندما انتهى من جذعه انتقل إلى ذراعيه وكتفيه ورجليه. ارتجفنا من شدّة الرّعب والألم.

صرخَتْ في وجهه بذعرٍ: كيف يمكنك فعل ذلك أيّها الوحش؟ أين إنسانيّتُك؟ أليس لديك أخلاق؟ ماذا فعلَ ذاك الولدُ المسكين؟ أيها الوحش! أيّها الوحش!

ردّ عليها بسفالةٍ لا تُصدّق.

غطّ وجهَه على الأقلّ، كرمى لله، صرختْ به أمّي، كيف لنا أن نحتملَ رؤيةَ ذلك الوجه النّبيل والهادئِ بهذا المنظر؟

رمى الطّاهي نفسه على رأس البحرِ وأمام أعيننا انتزع فروةَ رأسه وجلده، فأخذنا أنا وأمّي نتقيّأ.

وبعد أن انتهى رمى هيكلَ الجثّة في البحر، وبعد ذلك مباشرةً أصبحت شرائحُ اللحم وقطعُ الأعضاء ملقاةً على أرض القارب لتجفَّ تحت الشمس.

تراجعْنا مرعوبين محاولين ألا ننظر إليها. انتشرتِ الرّائحةُ في كلّ مكان، وبعد ذلك قامت أمّي بالاقتراب من الطّاهي وصفعه على وجهه صفعةً اخترقت الهواء، وأحدثَتْ فرقعةً حادّةً. لقد فاجأتنا بهذا العمل البطوليّ، عملٌ جاءَ نتيجةَ غضبٍ وأسفٍ وحزنٍ وشجاعةٍ، تخليداً لذكرى ذلك البحّار المسكين، وتعويضاً لكرامته.

ذُهلْتُ وذهلَ الطّاهي الذي لم ينبس ببنت شفةٍ بينما استمرّت أمي بالتّحديقِ فيه. لقد لاحظتُ أنّه لم يجرؤْ على النظرِ إليها.

عدنا إلى مكانِنا، وجلسْتُ ملاصقاً لها، يملؤني شعورٌ بالنّشوة والإعجاب والخوف اليائس، راقبتْني أمّي جيّداً.

بعد يومين حاولَ أنْ يفعلها بكلّ حذرٍ، لكنّ أمّي رأته وهو يرفعُ يدَه إلى فمه، فصرخت به: لقد رأيتُكَ، لقد أكلْتَ قطعةً للتّوّ، وقد قلْتَ إنّها ستكونُ طُعماً.

اعرفْ ذلك أيّها الوحشُ، أيها الحيوان، إنّه بشريٌّ، إنّه من نفس نوعك!

لو اعتقدَتْ أنّه يمكنُ أنْ يشعرَ بالخزي، ويتوقف عن عمله هذا، لكانت مخطئة. فقد استمرّ بالمضغ، وكلُّ ما قامَ بفعله، هو فقط أنْ رفعَ رأسه وفتحَ فمه بهدوءٍ ووضع الجزءَ الباقي في فمه.

- غمغم قائلاً: طعمه يشبه طعم لحم الخنزير.

عبّرت أمي عن سخطِها واشمئزازها بالابتعاد عنه بعنف.

تناولَ شريحةً أخرى، وقال: أشعرُ بالقوّة، وكان يركّزُ على صيدِ السّمك.

أخذَ كلٌّ منّا جهته من القارب، من المدهش كيف تستطيعُ قوّةُ الإرادة بناءَ الجدران.

أيامٌ بكاملها مرّت وكأننا لم نكن هناك.

لم نستطعْ تجاهله كلّيّاً، فرغمَ أنّه بهيميّاً، فقد كان يجيدُ استخدام يديه عمليّاً، ويعرفُ البحرَ جيّداً، ويمتلك الكثيرَ من الأفكار، إنّه هو من فكّرَ ببناء طوفٍ للمساعدة في صيدِ السّمك، وقد نجونا بفضله هو، ساعدته بقدر ما استطعت رغم أنّه سريعُ الغضبِ، ويصرخُ دائماً في وجهي ويهينني.

لم نأكلْ أنا وأمّي أيَّ قطعةٍ من لحم البحّار على الرّغم من ضعفِنا الشّديد، واكتفيْنا بتناولِ ما كان الطّاهي يصطادُه من البحر.

أمّي التي كانت طوال حياتها نباتيّةً، أصبحت تأكل الأسماكَ والسّلاحف النيّئة، وقد عانت كثيراً من ذلك، إذ لم تستطعِ التغلُّبَ على هذا الانقلاب.

أمّا بالنّسبة إلي فقد كان الأمرُ أسهل، فقد اكتشفْتُ أنّ الجوعَ يُحسّنُ طعمَ كلِّ شيءٍ. عندما تؤجّلُك الحياة فمن المستحيلِ ألّا تشعرَ ببعض المودّة للشّخص الذي تدين له بهذا التّأجيل.

فإذا سحبَ الطّاهي سلحفاةً أو سمكة قطّ إلى القاربِ، ابتسمْنا ابتسامةً عريضةً، فقد كان هذا يبعثُ الحماسةَ في قلوبنا التي تستمرُّ لساعات.

أصبحتْ أمي والطّاهي يتحدّثان بأسلوبٍ حضاريّ، ويتطوّر إلى مزاح أحياناً، ومع مشهد الغروب تصبحُ الحياة على القارب ممتعة قليلاً.

أثناءَ تلك اللّحظاتِ كنتُ أنظرُ إليه وأقولُ نعم بلطفٍ وحبٍّ، تخيّلتُ أنّنا أصدقاء قدامى. لقد كان رجلاً خشناً حتى عندما يكونُ مزاحه جيّداً، ولكنّنا كنّا نتظاهرُ بعدم الانتباه لذلك.

أخبرَنا بأنّنا ذاهبون إلى الجزيرة، فكان هذا أملَنا الوحيدَ، إذ كنّا نراقب الأفقَ، وقد أرهقْنا أعيننا بحثاً عن الجزيرة التي لم تظهر أبداً. بينما قام هو بسرقةِ الطعام والماء.

لقد قتلها، نعم قتل الطاهي أمّي، لقد كنّا نتضوّرُ جوعاً، وأنا أُصبتُ بالضّعف الشديد، لذا لم أستطع رفعَ السلحفاة، ففقدناها بسببي، قام بضربي فضربته أمّي، التفتتْ إليّ وقالتْ: اذهبْ ودفعتني نحو الطّوف، وقفزَتْ إليه، لقد اعتقدتُ أنّها ستتبعني.

هبطَتْ إلى الماء، وجاهدتْ حتى وصلتْ إليه، راقبْتُهما وهما يتشاجران، لقد كانتْ أمّي تواجهُ رجلاً بالغاً حقيراً وقويَّ العضلات، أمسكها من خصرِها وقامَ بثنيها، فصرختْ وسقطتْ، ثمّ داس فوقها، وأظهرَ السكّينَ في الهواء وهوى به عليها، ثمّ رفعها ثانيةً، وهي مصبوغةٌ باللّون الأحمرِ، واستمرَّ برفعها وإنزالها بشكلٍ متكرّر، لم أتمكّنَ من رؤيتِها، فقد كانت في قاع المركب، ولم أرَ سواه.

توقّفَ ونظرَ إليَّ، ثمّ رماني بشيءٍ ما، خطٌّ أحمرُ ضربَ وجهي. لا يمكن لأيّ سوطٍ أن يسدّدَ لي مثلَ هذه الجلْدَة المؤلمة، لقد أمسكتُ برأس أمّي، أفلتّه بسرعة فغرق في بركةٍ من الدّماء، وخصلاتُ شعرها انتشرتْ مثل ذيلٍ. دارتِ الأسماكُ حولَ الطّوف بشكلٍ حلزونيّ، إلى أن قطعَ سيرها سمكةُ قرشٍ رماديّة طويلة، ثمّ اختفتْ، جلتُ بنظري فلم أجدِ الطّاهي، لقد اختبأ في قعرِ القاربِ، عادَ بالظّهور عندما رمى جسدَ أمّي الميّتةِ من القاربِ، اصطبغ فمه باللون الأحمر، أخذَ الماءُ يتلاطمُ بالأسماك.

أمضيتُ بقيّة النهارِ والليل وأنا أنظرُ إليه، لم ننطقْ بكلمةٍ واحدةٍ، كان بإمكانه قطع الحبل وتشريد الطّوف، ولكنّه لم يفعل، حافظَ عليّ بجواره ووجهه يوحي بتأنيب الضّمير.

عندما رأيته صباحاً، سحبْتُ الحبلَ وصعدتُ القاربَ، كنتُ ضعيفاً جدّاً، لم يقلْ شيئاً، حافظتُ على هدوئي. اصطادَ سلحفاةً وأعطاني دمَها، قطّعها ووضعَ أفضلَ أجزائها على المقعد الأوسطِ من أجلي. أكلتُها، ثمّ تعاركْنا وقتلته.

لم يظهرْ على وجهه أيّ من تعابيرِ اليأس أو الغضب أو الخوف أو الألم. استسلمَ تماماً، لقد تركني أقتله رغم أنّ العراك كان لا يزالُ مستمراً. لقد

أدركَ أنّه ذهبَ في مقاييسه البهيميّة بعيداً جداً، والآن لا يريد الاستمرارَ في الحياة، ولم يصدرُ عنه أيُّ اعتذارٍ.

لماذا نتمسّكُ بأساليبنا الشيطانيّة؟

كانت السكّينُ على المقعد مرئيّةً، كلانا يعرفُ ذلك، وكان بإمكانه إبقاؤها بيده منذ البداية، ولكن هو من وضعها هناك، التقطْتُها وطعنته في معدته، اكفهرَّ وجهه وظلَّ منتصباً، سحبتُ السكينَ وطعنته ثانيةً، تدفّق الدم من فمه بغزارةٍ ومع ذلك بقي واقفاً. رفع رأسه برفقٍ لم أعهده به سابقاً، هل عنى شيئاً بذلك؟ فهمتُ ما فعله.

طعنته في عنقه بجانب تفاحة آدمَ، فسقط مثلَ حجرٍ ومات، لم يقلْ شيئاً، ولا حتى كلماتِه الأخيرة، لكنّه سعلَ دماً.

للسكّين قوّةٌ ديناميكيّةٌ هائلة، عندما تحرّكها يصعبُ إيقافُها. لقد طعنته مرّاتٍ ومرّاتٍ حتى غطّى الدمُ يدي المتشققة، لقد قاوم قلبهُ كلَّ تلك الأوردة الواصلة إليه، قلبه الذي حاولتُ انتزاعَه، إنّ طعمه لذيذٌ وأفضلُ بكثيرٍ من طعم السلحفاة، أكلتُ كبده وقطعت الكثير من لحمه. لقد كان رجلاً حقيراً، لكنّه وجدَ بي ما هو أسوأ منه، الغضبَ والأنانيّةَ وقسوةَ القلب.

يجبُ أن أعيشَ بهذه الصّفاتِ، آثرْتُ العزلةَ ثمّ توجّهتُ إلى الله ونجوتُ.

(صمتٌ طويلٌ)

باي باتيل: هل هذه القصّةُ أفضلُ؟ هل تجدُ فيها ما يصعبُ تصديقه؟

السيّد شيبا: يا لهذه القصة المرعبة!

(صمتٌ طويلٌ)

السيّد أوكاموتو: كلٌّ من الحمار الوحشيّ والبحار التايوانيّ قد كُسرت رجلاهما؟ هل لاحظتَ ذلك؟

السيّد شيبا: لا، لم ألاحظْ ذلك.

السيّد أوكاموتو: والضّبع انتزعَ رجلَ الحمار الوحشيّ، تماماً مثلما قطعَ الطّاهي رجلَ البحّار.

السيّد شيبا: أووووه سيد أوكاموتو، إنّك ترى كثيراً.

السيّد أوكاموتو: ألم يعترف الرّجلُ الفرنسيُّ الأعمى الذي قابلتموه في المركبِ الثّاني بقتل رجلٍ وامرأة؟

السيّد شيبا: نعم، حصل ذلك.

السيّد أوكاموتو: الطّاهي قتل البحّارَ ووالدةَ باي.

السيّد شيبا: مؤثّرٌ جداً.

السيّد أوكاموتو: القصتان متطابقتان.

السيّد شيبا: إذن البحّارُ التايوانيّ هو الحمارُ الوحشيُّ، وأمّه هي إنسان الغاب، والطباخُ هو الضّبع، هذا يعني أنّه هو النّمرُ.

باي باتيل: نعم، النمرُ قتلَ الضّبع، والفرنسيّ الأعمى، تماماً كما قتلَ الطاهي. عذراً، هل لديك قطعة شوكولاتة أخرى؟

السيّد شيبا: حالاً.

باي باتيل: شكراً.

السيّد شيبا: ماذا يعني ذلك سيد أوكاموتو سان؟

السيّد أوكاموتو: ليس لديّ أدنى فكرة.

السيّد شيبا: ماذا عن الجزيرة؟ من هم السراقطُ؟

السيّد أوكاموتو: لا أعرفُ.

وتلك الأسنانُ؟ الأسنانُ التي في الشجرة، لمن تعودُ؟

السيّد أوكاموتو: لا أعرفُ، لستُ داخلَ رأس هذا الصّبيّ.

صمتٌ طويلٌ.

السيّد أوكاموتو: أرجوك اعذرني على سؤالي، هل قالَ الطّاهي أيّ شيءٍ عن غرق سفينةِ تسيم تسوم؟

باي باتيل: في هذه القصة؟

السيّد أوكاموتو: نعم.

بي باتيل: لم يقل شيئاً.

السيّد أوكاموتو: ألم يذكر أيَّ شيءٍ يقودُ إلى الصباح الثاني من يوليو يمكنه أن يفسّرَ ما حدثَ؟

بي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: لا شيءَ له علاقةٌ بالميكانيك أو البنية؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: لا شيء عن سفينة أخرى أو أيّ شيءٍ في البحر؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: لم يقدّمْ أبداً أيَّ تفسيرٍ لغرق السفينة؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: هل قالَ لماذا لم ترسلِ السفينةُ إشارةَ استغاثة؟

باي باتيل: حتى لو فعلت، فمِن خبرتي أنّه حين تغرقُ دلوٌ تافهةٌ صدئةٌ من الدرجة الثالثة، ما لم يكن لديه الحظ لنقل النّفط، الكثيرُ منه كافٍ لتدمير النّظامِ البيئيّ، لا أحدُ يهتمّ أو حتى يسمع عنه، فإنّك حينئذٍ ستكون وحدَك.

أدركَ أويكا أنّ هناكَ خطأً ما ولكن بعدَ فوات الأوان.

السيّد أوكاموتو: لقد كنتم بعيدين جدًّا ليتمّ إنقاذكم، وقد طُلِبَ من السفن الموجودة في المنطقة أن تبحثَ، ولكنهم لم يروا شيئاً.

باي باتيل: وبينما كنّا في خضمّ الموضوع، لم تكن السفينة فقط من الدّرجة الثالثة بل أفراد الطّاقم كانوا متجهّمي الوجوه وعدائيين جداً، يعملون بجدّ في حضور الضباط ويتكاسلون في غيابهم، لم ينطقوا بكلمةٍ إنكليزيّةٍ واحدةٍ، ولن يكونوا عوناً لنا. كان للبعض منهم رائحةٌ نتنةٌ نتيجةَ الكحول الذي يشربونه مساءً. من يقولُ إنّ هؤلاء الحمقى قاموا بشيءٍ ما؟ الضبّاط...

السيّد أوكاموتو: ماذا تعني بذلك؟

باي باتيل: بماذا؟

السيّد أوكاموتو: من الذي يقول أنّ هؤلاء الحمقى قد قاموا... ؟

باي باتيل: أعني أنّه أثناءَ نوبةِ السُّكرِ الشديدة، قام أحدهم بإطلاق الحيوانات.

السيّد شيبا: من الذي كان يملكُ مفاتيحَ الأقفاص؟

باي باتيل: والدي.

السيّد شيبا: إذنْ، كيف استطاعَ أولئكَ فتحَ الأقفاص إذا لم يمتلكوا المفاتيحَ؟

باي باتيل: لا أعرف، ربّما استخدمُوا عقله.

السيّد شيبا: لماذا فعلوا ذلك؟ لمَ يودُّ أحدُهم أنْ يُطلقَ حيواناً مفترساً من قفصه؟

باي باتيل: لا أدري، هل يمكن لأحدٍ أن يفهمَ تماماً ما يدورُ برأسِ رجلٍ سكران؟

السيّد أوكاموتو: اعذرني، هل لديكَ شكٌّ في كفاءة أفراد الطّاقم؟

باي باتيل: شكٌّ عميقٌ.

السيّد أوكاموتو: هل رأيتَ أحداً منهم تحت تأثير الكحول؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: ولكنّك رأيتَ بعضاً من أفراد الطاقم تحت تأثير الكحول.

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: هل كان الضبّاط يتصرّفون بكفاءةٍ ومهنيّةٍ؟

باي باتيل: قليلاً ماكانوا يتعاملون معنا، ولم يقتربوا من الحيوانات مطلقاً.

السيّد أوكاموتو: أعني فيما يتعلّقُ بقيادة السفينة.

باي باتيل: كيف لي أنْ أعرفَ ذلك؟ هل تظنُّ أنّنا كنّا نشربُ الشّايَ معهم كلّ يومٍ؟ كانوا يتحدّثون الإنكليزية. ولكنّهم لم يكونوا أفضلَ من أفراد طاقم السفينة. وقد جعلونا نشعرُ بأنّنا غيرُ مرحّب بنا في الصّالة المشتركة، ونادراً ما يحدّثوننا أثناء الطعام، وفي غيابنا يتحدّثون اليابانيّة، وكأنّنا غيرُ موجودين، لقد كنّا مجرّدَ عائلةٍ هنديّةٍ بسيطةٍ برفقة حمولةٍ مزعجةٍ.

انتهى بنا المطافُ بتناولِ الطّعام وحدنا في كابينة أمّي وأبي، «إنّها مغامرةٌ»، لقد قال رافي إنّ إحساسَنا بالمغامرة، هو الذي يجعلُ الرّحلةَ محتملةً.

لقد قضيْنا معظمَ وقتنا في صرفِ الفضلاتِ، وشطف الأقفاصِ وتقديم الطّعام، بينما لعبَ والدي دورَ الطّبيب البيطريّ، فطالما الحيواناتُ بخيرٍ نحنُ بخير، ما عرفتُ إذا كان الضبّاطُ مؤهلين.

السيّد أوكاموتو: قلتَ إنّ السفينةَ أحصتْ كلَّ شيءٍ قبلَ الإبحار.

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: إذنْ فإنّ مؤخرة السفينة غرقتْ أولاً.

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: ليست المقدمة أولاً؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: هل اصطدمتْ بسفينةٍ أخرى؟

باي باتيل: لم أرَ أيَّ سفينةٍ.

السيّد أوكاموتو: هل اصطدمتْ بأيّ شيءٍ آخر؟

باي باتيل: لا، لم يحصل.

السيّد أوكاموتو: هل جنحتْ؟

باي باتيل: لا، لقد غرقَتْ واختفت عن الأنظار.

السيّد أوكاموتو: ألم تحسَّ بأيّ خللٍ ميكانيكيّ بعد مغادرتهم مانيلا؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: هل بدا لك أنّ السفينةَ حملتْ أكثرَ من طاقتها؟

باي باتيل: كانت تلك الرّحلة الأولى لي على ظهرِ سفينةٍ، لا أعرفُ كيف تبدو السفينةُ ذات حمولةٍ زائدةٍ.

السيّد أوكاموتو: هل سمعتَ انفجاراً؟

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: أيّ أصواتٍ أخرى؟

باي باتيل: ألف صوتٍ.

السيّد أوكاموتو: هل تعني أنّ ذلك يمكنُ أن يفسّرَ الغرقَ؟

باي باتيل: لا.

السيّد أوكاموتو: قلتَ إنّ السفينةَ غرقت بسرعةٍ.

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: هل يمكن أن تقدّرَ الوقتَ الذي استهلكته عملية الغرق؟

باي باتيل: من الصّعب التقدير، لقد غرقتْ بسرعة، تقريباً خلالَ عشرين دقيقةٍ.

السيّد أوكاموتو: هل كان هناك الكثيرُ من الحطام؟

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: هل اصطدمتِ السّفينةُ بموجةٍ غريبةٍ؟

باي باتيل: لا أظنُّ ذلك.

السيّد أوكاموتو: ولكن كان هناك عاصفةٌ.

باي باتيل: بدا البحرُ هائجاً فقد كان هناك ريحٌ ومطرٌ.

السيّد أوكاموتو: كم كان ارتفاعُ الموج؟

باي باتيل: مرتفعاً، ما بين الثلاثين والخمسين قدماً.

السيّد أوكاموتو: في الحقيقةِ هذا ارتفاعٌ عاديٌّ.

باي باتيل: ليس عاديّاً إذا كنتَ في قارب نجاةٍ.

السيّد أوكاموتو: نعم، ولكن أقصدُ بالنسبة للسفينة.

باي باتيل: ربّما كان أعلى، لا أعلمُ فقد كان الطّقسُ سيئاً لدرجة يجعلني أخاف حدّ الجنون، وهذا كلُّ ما أنا متأكّدٌ من معرفتِه.

السيّد أوكاموتو: لقد قلتَ إنّ الطقسَ تبدّلَ بسرعة، وأنّ السفينةَ غرقتْ بعد يومٍ جميلٍ، أليس كذلك؟

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: يبدو أنّها لم تكنْ أكثرَ من عاصفةٍ مفاجئةٍ.

باي باتيل: لقد أغرقتِ السفينةَ.

السيّد أوكاموتو: هذا هو الشيءُ الغريبُ.

باي باتيل: ماتتْ عائلتي بكاملها.

السيّد أوكاموتو: نحن آسفون لذلك.

باي باتيل: ليس بمقدار أسفي.

السيّد أوكاموتو: إذنْ ما الذي حدثَ يا سيد باتيل؟ لقد حيّرتَنا، فكلُّ شيءٍ يبدو طبيعيّاً ثمّ...؟

باي باتيل: غرقتْ بشكلٍ طبيعيّ.

السيّد أوكاموتو: لماذا؟

باي باتيل: لا أعلمُ.

السيّد أوكاموتو: يجبُ أنْ تخبرني.

باي باتيل: أنتم خبراءُ، استخدموا علمكم وأخبروني.

السيّد أوكاموتو: نحنُ لا نفهمُ.

صمتٌ طويلٌ

السيّد شيبا: ماذا الآن؟

السيّد أوكاموتو: نحن نستسلمُ، فإنّ تفسير غرق تسيم تسوم موجودٌ في قاع المحيط الهادئ.

صمتٌ طويلٌ.

السيّد أوكاموتو: نعم، هو كذلك، دعْنا نذهب، حسناً سيد باتيل، أعتقدُ أنّنا قد حصلْنا على ما نريدُ، نشكرُك جدّاً لتعاونِك، لقد ساعدْتنا كثيراً.

باي باتيل: على الرّحب والسّعة، ولكنْ قبلَ ذهابكما، أودُّ أنْ أسألَكما سؤالاً.

السيّد أوكاموتو: نعم.

سفينةُ تسيم تسوم غرقتْ في الثّاني من تموز عام ١٩٧٧.

السيّد أوكاموتو: نعم.

باي باتيل: وأنا وصلتُ ساحلَ المكسيك، النّاجي الوحيد من سفينة تسيم تسوم في الرابع عشر من شباط ١٩٧٨.

السيّد أوكاموتو: هذا صحيحٌ.

باي باتيل: لقد أخبرْتُكما بقصّتين حدثَتا خلالَ مئتين وسبعةٍ وعشرين يوماً.

السيّد أوكاموتو: نعم لقد فعلتَ.

باي باتيل: ولا واحدة منها تفسّرُ غرقَ تسيم تسوم.

السيّد أوكاموتو: هذا صحيحٌ.

باي باتيل: ولا واحدةٌ أحدثتْ لديكما فرقاً.

السيّد أوكاموتو: هذا صحيحٌ.

باي باتيل: لا تستطيعان إثباتَ أيِّ القصتين صحيحةً، وأيّهما غيرُ صحيحة، يجبُ أن تثقوا بكلامي.

السيّد أوكاموتو: أظنُّ ذلك.

باي باتيل: في كلتا القصّتين تغرقُ السّفينةُ وتموتُ كلُّ عائلتي. وأعاني أنا وحدي.

السيّد أوكاموتو: نعم صحيح.

باي باتيل: إذنْ قلْ لي، بما أنّها لا تشكّلُ اختلافاً حقيقياً لكما، ولا تستطيعان أيضاً أن تجيبا عن السّؤال بكلتا الحالتين، ما القصة التي تفضّلونها؟ أيُّهما أفضلُ؟ القصّةُ مع الحيوانات أم القصّةُ دونهم؟

السيّد أوكاموتو: سؤالٌ مثيرٌ للاهتمام.

السيّد شيبا: القصة مع الحيوانات.

السيّد أوكاموتو: نعم القصّة مع الحيوانات، هي القصّة الأفضلُ.

باي باتيل: شكراً لكما، وهكذا فهي تتّفقُ مع إرادة الله.

(صمت)

السيّد أوكاموتو: على الرّحب والسّعة.

السيّد شيبا: ما الذي قاله للتّو؟

السيّد أوكاموتو: لا أدري.

السيّد شيبا: أوه، انظرْ، إنّه يبكي.

(صمتٌ طويلٌ)

السيّد أوكاموتو: سنكونُ حذرين أثناءَ قيادة السيّارة، لا نريدُ أن نصلَ إلى ريتشارد باركر.

باي باتيل: لا تقلقا، لن تصلا إليه، إنّه مختبئٌ بمكانٍ لن تستطيعا إيجاده أبداً.

السيّد أوكاموتو: نشكرُ لك تخصيصَك الوقتَ للتّحدّث إلينا سيد باتيل، نحنُ شاكرون لك، ونحن فعلاً آسفون لما حدثَ لك.

باي باتيل: شكراً لك.

السيّد أوكاموتو: ما الذي ستفعلُه الآن؟

باي باتيل: أعتقدُ أنني سأسافرُ إلى كندا.

السيّد أوكاموتو: ألن تعودَ إلى الهند؟

باي باتيل: لا، لم يبقَ لي شيءٌ هناك، الذكرياتُ الحزينةُ فقط هي كل ما تبقّى هناك.

السيّد أوكاموتو: طبعاً، لا بدّ أنّك تعرفُ أين ستحصلُ على نقود التّأمين.

باي باتيل: نعم.

السيّد أوكاموتو: سيكون أويكا على تواصلٍ معك.

صمتٌ

السيّد أوكاموتو: علينا الذّهاب، أطيبُ الأمنيات سيد باتيل.

السيّد شيبا: نعم، أطيبُ الأمنيات.

باي باتيل: شكراً لكما.

السيّد أوكاموتو: الوداع.

السيّد شيبا: الوداع.

باي باتيل: هل ترغبان ببعض البسكويت للطّريق؟

السيّد أوكاموتو: هذا لطفٌ منك.

باي باتيل: تفضّلا، ثلاثُ قطعٍ لكلّ واحدٍ منكما.

السيّد أوكاموتو: شكراً لك.

باي باتيل: على الرّحب والسّعة، ليكن الله معكما.

السيّد أوكاموتو: شكراً لك، وليكن الله معك أيضاً سيد باتيل.

السيّد شيبا: الوداع.

السيّد أوكاموتو: إنّني أتضوّرُ جوعاً، دعنا نذهب لنأكلَ شيئاً. أطفئ هذا الشيء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل المئة

ذكر السيّد أوكاموتو لي في رسالته، أنّ استجوابه لي كان صعباً، وأنّه لا يمكنُ نسيانه. إنّه يتذكّرُ أنّ بيسين موليتور باتيل صبيٌّ نحيلٌ جداً وذكيٌّ جدّاً.

وكان تقريره في الجزء المهمّ منه، كالآتي:

الناجي الوحيدُ، لم يستطع إلقاء الضّوءِ على أسبابِ غرقِ سفينة تسيم تسوم، وقد ظهرَ أنَّ السفينةَ قد غرقتْ بسرعةٍ كبيرةٍ، وهذا يدلُّ على حدوث ثغرةٍ كبيرةٍ في بدنها، والذي يدعمُ هذه الرّوايةَ وجودُ كمّيّةٍ كبيرةٍ من الحُطام.

ولكن من المستحيل العثورُ على السّبب الحقيقيّ لتلك الثّغرة، لم يسجّل أيُّ اضطرابٍ عنيفٍ في الطّقس ذلك اليوم في جهاز الربعية.

إنّ تقييمَ الناجي للطّقس كان تأثُّرياً، ولا يمكنُ الاعتمادُ عليه. وعلى الغالب أنّ الطقس كان عاملاً مساهماً، ولا بدّ أنّ السبب يكمنُ داخلَ السفينة، ويعتقد النّاجي أنّه قد سمعَ صوتَ انفجارٍ، وهذا إشارةٌ إلى مشكلةٍ كبيرةٍ في المحرّك.

من المحتمل أنّه انفجارُ المرجل، ولكنّه مجرّدُ تكهّنٍ. إنّ عمرَ السّفينةِ تسعةٌ وعشرون عاماً (حوض سفن إيرلاندسون وشارك، ملاوي ١٩٤٨) تمّ تعميرها عام ١٩٧٠. يمكن أن يكون ضغطُ الطّقس مترافقاً مع إنهاك الهيكل،

كلّ هذا مجرّدُ تخمين. ولم يتمّ التبليغ عن أيّ حادثِ سفينةٍ في تلك المنطقة ذاك اليوم، لذا فإنّ احتمالَ تصادمِ السفينةِ بأخرى، أمرٌ غيرُ مرجَّحٍ. والأرجح هو اصطدامُها بحطام، ولكنه غير قابلٍ للإثبات. إنّ الاصطدام بلغمٍ طافٍ يمكنُ أنْ يفسّر الانفجار، وهو أيضاً أمرٌ مُتخيَّلٌ بل مستبعدٌ لأنَّ غرقَ السفينة بدا من مؤخّرتها، وهذا يؤكّدُ أنَّ الفتحة حدثت في مؤخّرةِ السفينةِ. ألقى النّاجي الشكوك حولَ كفاءة أفراد طاقم السفينة، ولكنّه لم يقلْ أيَّ شيءٍ عن الضّباطِ. صرّحت شركةُ أويكا للملاحةِ البحريّةِ أنَّ الحمولةَ كانت قانونيّةً، وأنّه لم يكن هناك أيُّ مشكلةٍ لدى الطّاقم والضبّاط.

إنّ سببَ الغرقِ يمكنُ أن تقرّرَهُ البياناتُ المتوفّرةُ. احتجّتْ شركة التّأمين على إجراءات شركة أويكا، ولم يُطْلَبُ أيُّ إجراءاتٍ أخرى. تمّتِ التوصيةُ على إقفال القضيّة.

من جهةٍ أخرى، إنّ قضيّةَ الناجي الوحيد بيسين موليتور باتيل، المواطنُ الهنديُّ، هي قصّةٌ مذهلةٌ عن الشجاعة والقوة وتحمُّل أقسى الظّروف، ظروفٌ غيرُ عاديّةٍ وصعبةٌ ومأساويّةٌ، وبرأي المحقّق لا مثيل لقصّته في تاريخ تحطُّم السفن. القليلُ من المنبوذين الذين ادّعوا أنّهم عاشوا في البحر مدّةً مُساويةً كالمدّة التي عاشها السيّد باتيل، ولكن أحداً لم يدّعِ أنّه كان برفقةِ نمرٍ بنغالي ناضج.

الهيئة العامة السورية للكتاب

دليل المجموعة القرّاء

سلوك الإله والناجي والنمر. من الصعب أن تتخيّل هذا المزيجَ المحفّز في تناول هذه الموضوعات، نأمل أنّ الأسئلة التاليةَ ستُثري قراءَتك لرحلة باي العجيبة، وفوق كلّ هذا، فإنّه لم يكن على باي القيام برحلته وحده ولا أنتَ أيضاً. نأملُ أنْ يعملَ هذا الدليلُ كرفيقٍ.

- في مقدّمته يقول باي باتيل: «إنّ هذا الكتابَ قد وُلِدَ بينما كنتُ جائعاً». ما نوع الوجبة العاطفيّةُ التي قدّمتها حياةُ باي لمؤلّفها؟
- وُصفَتْ بوند تشيري التي كانت عاصمة الهند الفرنسيّة على أنّها خروجٌ عن القياس. هل تعتقد أنّ تلك المدينةَ قد شكّلتْ فرقاً مهمّاً في حياة باي؟
- في مذكّرة المؤلّف، يقول أديرو باسامي بجرأةٍ إنّ هذه الروايةَ ستجعلك تؤمنُ بالله، ويوافقُ المؤلّفُ على ذلك بعد البحث وبعد كتابة القصّة. هل غيّرت حكايةُ باي إيمانَك بالله؟
- كلٌّ من الفصل الحادي والعشرين والثاني والعشرين قصيرٌ جدّاً، ومع ذلك قال المؤلّفُ إنّهما يمثّلان جوهر القصّة. هل تستطيعُ أن تعرفَ كيف؟
- نكتشفُ في بداية الرواية أنّ باي تخصّص في الدراسات الدينيّة وعلم الحيوان، وأبدى اهتماماً خاصّاً في القبالة والدبّ الكسلان ذي الأصابع

الثلاثة المدهش. وفي الفصول التالية يشرح لنا الطُرقَ التي ينحدرُ بها الدين وحدائقُ الحيوان إلى حافّة الوهم، ناقش بعض الطرق الأخرى التي يجد هذان المجالان من خلالها توافقاً غير محتمل.

- في مفكّرة المؤلّف، يتساءلُ مارتلُ فيما إذا كان الخيالُ هو التّحويلُ الانتقائيّ للحقيقة أو تحريفها للوصول إلى جوهرها. إذا كان هذا صحيحاً، فما هو جوهرُ باي وقصّته؟
- هناك الكثيرُ من السّرد في الرّواية الدّينيّة، فهل هناك علاقةٌ بين الدّين والسّرد القصصيّ؟ وهل الدين هو شكلٌ من أشكال الحكاية؟ وهل يوجدُ بُعْدٌ لاهوتيٌّ في الرواية؟
- إنّ اسمَ باي الكامل هو بيسين موليتور باتيل، مستوحى من اسم حوض سباحة باريسيّ «سيُسرُّ الإله للسباحة فيه» الشكل المختصر يعود إلى متوسط محيط الدائرة مقسوماً على قطرها، الرقمُ هو ٣١٤١٥٩٢٦، هذا الرقمُ الذي يستمرُّ إلى الأبد دون نمطٍ يمكن تمييزه، ما يسمّى في الرياضيات رقماً غير منطقيّ، وهذا يوضّحُ أهميّة اسم باي غير العادي.
- يقول أحدُ المراجعين إنّ الروايةَ تتضمّنُ تلميحاتٍ من رواية الشيخ والبحر، وأنّ باي نفسَه يقيسُ خبرتَه بعلاقتها مع تاريخ أشهرِ المنبوذين. كيف يمكن لحياة باي أنْ تُقارن مع الروايات البحريّة الأخرى والأفلام؟
- هل من الممكن أن تتغيّرَ نكهةُ الرواية لو أنّ الحيوانَ الوحيدَ الذي نجا، هو الحمارُ الوحشيّ ذو الرّجلِ المكسورة؟ أو إنسانُ الغاب؟ أو

الضّبع؟ هل كان باي سينجو بوجود حيوانٍ مسالم، أو قبيح، لنقلْ خروفاً أو ديكاً رومياً؟ ما هو الحيوان الذي تحبُّ أنْ تجدَ نفسَك معه على قارب نجاة؟

- في الفصل الثالث والعشرين، يثيرُ باي جدالاً حيّاً عندما يحاولُ المستشارون الرّوحيّون الاجتماعَ عليه. ما الذي يبحثُ عنه باي يحقّقُ بمفرده تناقضه الجليّ طالما أن باي لم يكن مقتنعاً بعقيدةٍ دون أخرى؟ هل هناك شيءٌ عامٌّ بين الأديان؟ هل كلّها متشابهة؟ وكيف تكونُ مختلفة؟ هل هناك فرقٌ بين العقيدة والإيمان؟

- ما مدى تأثير قولِ باي إِنّنا جميعاً في عالم النّسيانِ دون الدين، حتى يأتي أحدٌ ما ويعرّفنا الله؟ هل تعتقد أنّ الإيمان عند باي هو استجابة إلى لا أدَريّة والده؟

من بين هدايا بان مارتيل، كانت هناك لوحة ألوانٍ فاخرةٍ. وبخصوص الدّين يلاحظُ باي أنّ اللون الأخضر يمثّلُ الإسلامَ والبرتقاليّ يمثّلُ الهندوسيّةَ. ما هو اللون الذي يمثّلُ المسيحيّةَ آخذين بعين الاعتبار انطباعَ باي.

- كيف يعكسُ البشرُ في عالمنا سلوكَ الحيوانات التي يراقبها باي؟ وماذا تُعلّمنا الإستراتيجيّة التي اتّبعها باي مع ريتشارد باركر لمواجهة المخلوقات المخيفة في حياتنا؟

- إلى جانب خسارته لعائلته وممتلكاته، ما الذي خسره باي أيضاً عندما غرقت تسيم تسوم؟ وما الذي كسبه؟

- كلُّ فرد تقريباً قد اختبرَ نقطةَ تحوّلٍ تمثّلُ الانتقال من الشباب إلى النضج، وإن يكن نادراً جارحاً مثل التي اختبرها باي، ما الحدث الذي يميّزُ بلوغك النضج؟

- كيف يمكنُ أن تقارنَ مهارةَ السيّد باتيل في رعاية الحيوانات بمهارته الأبوية؟ في شرح المشهد حولَ محاولته تعليم أولاده درساً في البقاءِ أحياءً، وذلك بتدبير مشاهدتهم لنمرٍ يفترسُ عنزةً. وهل هذا هيّأَ باي بطريقةٍ ما لأخطر تجربةٍ في حياته؟

- لو لم تضلّله الصدمة، هل تعتقد أنّ باي كان سيطلقُ الصافرة ويلوّح لريتشارد باركر؟ ماذا كنت أنتَ ستفعلُ؟

- يتخيّل باي أنّ أخاه كان سيزعجه لو أنّه أطلقَ عليه اسم نوح. كيف تقارن رحلة باي مع قصة نوح في الإنجيل الذي نجا من الطّوفان عندما قام الله بجرف الخاطئين؟

- هل حياة بي مأساةٌ أم خيالٌ أم كوميديا؟

- يدافعُ باي عن حدائق الحيوان، هل يقنعك ذلك؟ هل حديقة الحيوان مكانٌ ملائمٌ للحيوانات البرّيّة؟

- ما رأيُك بمقابلةِ باي مع المحقّقين من وزارةِ النّقل اليابانيّة؟ هل تظنُّ أنّ والدة باي ومعها البحّار والطاهي آكل لحوم البشرِ، كانوا معه في قارب النجاة بدلاً من الحيوانات؟ أيُّ قصّةٍ تصدّق، القصّةُ مع الحيوانات أم دونهم؟ عندما أعلن المحققان أنّهما يظنّان أنّ القصّةَ مع الحيوانات هي الأفضل، أجابَ باي: شكراً لكما، وهكذا كانت

برفقة الله. ماذا عنى باي بذلك؟ وما علاقتها بالإعلان أنّها كانت هي القصّة؟ هل سيجعلُك ذلك تؤمنُ بالله؟

- يبدأ الجزءُ الأوّلُ من الرواية بعد مضيِّ عشرين سنةً على محِنة باي في البحر، وتنتهي بالكلمات التالية: هذه هي القصة تنتهي نهايةً سعيدةً. هل توافق؟

نعم الحكاية الأفضلُ جافةٌ وغيرُ متخمرة، أخذتُ قلماً وورقةً، وكتبتُ كلمات من مشاعرَ إلهيّةٍ، انسجامٌ أخلاقيّ، مشاعر مستديمةٌ بالرّفعة، ابتهاجٌ فرحٌ وسرعةٌ بالمشاعر الأخلاقيّة التي تؤثر في الشّخص كشيءٍ أكثرَ أهميةً من الفهم العقلاني للأشياء، انتظام الكون على خطوطٍ أخلاقية ليست عقلانية، إدراكُ أنّ المبادئَ الأساسيّة للوجود هي ما ندعوه الحبَّ، الذي يبرزُ نفسَه بغير وضوحٍ، وبغير نقاءٍ، وبشكلٍ غير مباشر، وبالرّغم من ذلك يكون حتميّاً.

توقفتُ، ماذا عن صمت الإله؟ فكّرتُ بذلك، إنّه شيءٌ محيّرٌ للعقل، ومع ذلك فهو شعورٌ بالثّقة، شعورٌ بأنّه موجودٌ ولغايةٍ مطلقة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥

المقاطع ٧

مقدّمة الكاتب ١٣

الجزء الأول

تورينتو ويوتد تشيري ٢٣

الفصل الأول ٢٥

الفصل الثاني ٣٢

الفصل السادس والثلاثون ١٥٨

الجزء الثاني

المحيط الهادئ ١٦١

الفصل السابع والثلاثون ١٦٣

الفصل الرابع والتسعون ٤٢٣

الجزء الثالث

بينيتو خواريز انفيرماري،

توماتلان، المكسيك ٤٢٧

الفصل الخامس والتسعون ٤٢٩

الفصل المئة ٤٧٥

دليل مجموعة القرّاء ٤٧٧

فهرس ٤٨٣

الهيئة العامة السورية للكتاب

يان مارتل

(١٩٦٣- ...)

- كاتب إسباني من أصل إنكليزي.

- حائز على جائزة مان بوكر لعام ٢٠٠٢م.

- من أعماله المؤلفة:

- حقائق وراء روكاماشيوز هلسنكي، ١٩٩٣م.
- الذات، ١٩٩٦م.
- بياتريس وفيرجيل، ٢٠١٠ م.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

جهاد حسن الباروكي

- مترجم سوري.
- يعد هذا العمل أول كتبه المترجمة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب